أ.د. فاروق عمر فوزي

الهاشميون الأوائل

١هـ - ٩٠٦ هـ / ٦٢٢ م - ١٥٠٠ م

دراسة تاريخية





الهاشميون الأوائل

دراسة تاريخية

الهاشميون الأوائل

1هـ ـ 906هـ / 622م ـ 1500م

دراسة تاريخية

أ.د. فاروق عمر فوزي



الطبعة الأولى

1430هـ - 2009م

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2008/9/3308)

956
فوزي، فاروق
الهاشميون الأوائل: دراسة تاريخية/ فاروق عمر فوزي.-
عمان: دار مجدلاوي 2008.
( ) ص.
ر.أ: (2008/9/3308
الواصفات:/ التاريخ الإسلامي// شبه الجزيرة العربية// الهاشميون// تاريخ العرب

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

ISBN 978-9957-02-339-3 (ردمك)

Dar Majdalawi Pub.& Dis.
Telefax: 5349497 - 5349499
P.O.Box: 1758 Code 11941
Amman- Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع
تليفاكس: ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩
ص. ب ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١
عمان - الأردن

www.majdalawibooks.com
E-mail: customer@majdalawibooks.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار الناشره.

الإهداء

إلى أفراد عائلتي ليلى، هالة، ندى،
حنان وحارث أهدي هذا الكتاب تقديراً وعرفاناً
لمساندتهم لي على الدوام، وتحملهم تقلبات مزاجي،
مثلي مثل أي مؤلف آخر، ومحاولتهم أن يكيفوا
بين نمط عملي كاستاذ جامعي
وباحث أكاديمي وحياتهم.

المحتويات

العنوان	الصفحة
مقدمة: نطاق البحث.	9
تمهيد: قريش – بنو هاشم – آل البيت.	15
الفصل الأول	41
بنو هاشم في صدر الإسلام: عصر الرسالة والخلافة الراشدة 1هـ/ 622م – 40هـ/ 660م. بيوتات بني هاشم.	43
الفصل الثاني	103
❖ بنو هاشم في العصر الأموي 41هـ/ 661م – 132هـ/ 749م.	103
- موقف السلطة الأموية من العلويين من بني هاشم.	
- موقف السلطة الأموية من الطالبين (الجعفريين والعقليين) من بني هاشم.	
- موقف السلطة الأموية من العباسيين من بني هاشم.	
الفصل الثالث:	183
❖ بنو هاشم في مطلع العصر العباسي 132هـ/ 749م- 247هـ/ 861م.	183
- العباسيون يتسلمون الخلافة.	
- انقسام بني هاشم إلى عباسيين وعلويين وجعفريين.	
- موقف السلطة العباسية من المعارضة العلوية المسلحة.	
- موقف السلطة العباسية من المعارضة العلوية السلمية.	
الفصل الرابع:	289
❖ بنو هاشم في أواخر العصور الإسلامية الوسيطة 247هـ/ 861م – 923هـ/ 1517م.	289

- العباسيون الأواخر في العراق 247هـ/ 861م -656هـــ / 1258م.
- الادراسة العلويون في المغـرب الأقـصى 172هـــ/ 789م - 375هـ/ 375هـ/ 985م.
- العلويون الزيدية في طبرستان 250هـ / 864م - 520هـ/ 1126م.
- العلويون الزيدية في اليمن 280هـ/ 893م - 700هـ/ 1300م.
- بنو الاخيضر في اليمامة (نجد) 252هـ/ 866م- 390هـ /1000م.
- الفاطميون في المغرب ومصر 297هـ/ 909م -567هـ/ 1171م.
- الهاشميون في الحجاز 358هـ/ 968م -923هـ/ 1517م.
- العلويون الفيلاليون في المغـرب الأقـصى916هـــ/ 1510م - 1206هـ/ 1792م.

الفصل الخامس 362

- ❖ نشاطات بني هاشم في مجالات الحياة العامة.
- المذاهب والطرق الصوفية.
- النقابات والأصناف.
- النشاطات العلمية والاجتماعية.

المصادر والمراجع الحديثة والبحوث. 405

مقدمة

نطاق البحث

إن التأكيد على تاريخ بني هاشم بين مطلع القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في هذا الكتاب يعود، ضمن أسباب أخرى، إلى أن هذه الحقبة من تاريخ الهاشميين الأوائل لم تدرس دراسة شمولية متكاملة في مرجع واحد ولم يعالجها إلا القليل من المراجع الحديثة معالجة مختصرة غير مسهبة وخاصة تلك التي قام بها باحثون أكاديميون مختصون.

ولعل هذا الكتاب الذي عالج محاور محددة في تاريخ بني هاشم، خاصة آل البيت منهم، يكونّ حافزاً للباحثين من أجل القيام بدراسات معمقة في كل محور من المحاور موضوع البحث، والتي تطرقت إلى مظاهر سياسية ونشاطات حضارية اقترنت باسم الهاشميين عبر حقب التاريخ الإسلامي في قرونه الأولى. لقد عالج التمهيد مركز بني هاشم قبيل الإسلام ضمن قبيلة قريش، وكذلك في مجتمع مكة وجوارها. كما تطرق إلى النخبة التي ضمت فروعاً من بني هاشم وأطلق عليهم (آل البيت) أو أهل البيت حيث اختلف معناها في الإسلام عما كان قبله.

وناقش الفصل الأول نشاطات بني هاشم سواء كانت في عصر الرسالة أو خلال العصر الراشدي مبّرزاً البيوتات الرئيسية من الهاشميين مثل آل علي بن أبي طالب وآل العباس بن عبد المطلب وآل جعفر وآل عقيل إبني أبي طالب.

بينما بحث الفصل الثاني تاريخ الهاشميين في العصر الأموي من خلال فعاليات ومواقف شخصياتهم وإعلامهم المتميزين أمثال: الحسن والحسين ومحمد أبناء علي بن أبي طالب وذريتهم التي أعقبتهم وتفرغت عنهم خلال العصر الأموي نفسه، وخاصة محمد الباقر زعيم الشيعة الأمامية وزيد بن علي زعيم الشيعة الزيدية. وعبد الله بن الحسن المحض زعيم آل الحسن كما بحث هذا الفصل ذرية جعفر الطيار وعلاقتهم بالأمويين وخاصة عبد الله بن معاوية زعيم الشيعة الجناحية الذي ثار على الدولة الأموية في السنوات الأخيرة من عمرها. وأخيراً لا يتناسى

هذا الفصل الطموح السياسي للعباسيين من بني هاشم فيتعقب جذوره ابتداءً من علي بن عبد الله بن العباس وانتهاءاً بإبراهيم الإمام.

أما الفصل الثالث فيعالج موضوع انقسام الهاشميين بعد مجيء بني العباس إلى السلطة، ومواقف كل من آل الحسن وآل الحسين من ذلك. فقد كانت المعارضة العلوية للعباسيين ذات شقين: معارضة سلمية تتمثل بجعفر الصادق وآله ومعارضة مسلحة تتمثل في عبد الله بن الحسن المحض وأولاده والزيدية.

ويبحث الفصل الرابع في الكيانات السياسية التي نجح بنو هاشم في إقامتها بدءاً بالقرون الإسلامية الأولى وحتى مطلع العصر الحديث، فبالإضافة إلى الدولة العباسية، وهي دولة إسلامية مركزية، ساهم الهاشميون في تأسيس كيانات سياسية متعددة في أنحاء دار الإسلام مشرقاً ومغرباً مثل الادارسة والزيدية والفاطميين وبني الأخيضر والفيلاليون.

ويتطرق الفصلُ الخامس إلى نشاطات بني هاشم في مجالات الحياة ومظاهرها المختلفة.

لقد توخيت في نماذج المصادر التي اعتمدت عليها في هذا الفصل الأخير (الفصل الخامس) التنوع والامتداد عبر القرون الإسلامية ابتداء من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ومروراً بالمنتظم لابن الجوزي في القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي وانتهاء (بشذرات الذهب) لابن العماد الحنبلي في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي. وكانَ اختياري للمصادر المتأخرة نسبياً مقصوداً ذلك لأننا لا نعرف كثيراً عن سير الشخصيات الهاشمية في القرون الأخيرة من العصر الإسلامي الوسيط بينما نعرف أكثر عنهم خلال القرون الأولى. ومن هنا كانت الإشارة إلى شخصيات بني هاشم المتأخرة أكثر من السابقين الأولين رغم أن المصادر تذكرهم جميعاً.

ويلاحظ من المعلومات المستقاة من هذه المصادر أن ذرية بني هاشم شكّلوا عبر القرون المتتابعة حلقة فعالة بين حلقات المجتمع الإسلامي وذلك من خلال مشاركتهم في نشاطات الحياة العامة ودورهم في الفعاليات الرسمية للدولة الإسلامية. فالقارئ الذي يطالع تراجمهم يلاحظ أن بني هاشم وذريتهم ضموا الموسر والفقير والمتنفذ والضعيف، فقد كان منهم الخليفة والأمير والقائد العسكري والإداري والوالي، وكان منهم أصحاب السيادة والوجاهة والنقباء وأمراء الحج، وكان منهم الفقهاء والمحدثون والعلماء والمفسرون وأقطاب الحركات الصوفية. كما برزوا في مختلف أنواع العلوم وخاصة العلوم النقلية (من فقه وتفسير وحديث وعقيدة وعلوم اللغة والتاريخ وغيرها) وعملت فئة منهم بالتجارة والحرف فكان منهم التجار والحرفيون الكبار والصغار، بل أن بعضهم عمل واعظاً أو مؤذناً أو معلماً وكان يتكسب بالقليل من المال، وقد رحل بعضهم من مكان إلى آخر بحثاً عن العمل أو التجارة أو العلم أو الملجأ خوفاً من السلطة.

ولعل مما يستبان أيضاً من الروايات التاريخية أن ذرية بني هاشم كشريحة من شرائح المجتمع الإسلامي لم تتكأ على نسبها وحسبها وقرابتها من رسول الله ﷺ بل عملت مثلها مثل غيرها من مجالات الحياة المختلفة ووصلت إلى ما وصلت إليه سواء في ميدان السياسة أو الإدارة أو التجارة والحرف أو العلم بجهدها، ومن هنا كانت شخصيات آل البيت متفاوتة من حيث النفوذ أو الثروة، كل حسب جهده الذاتي واجتهاده في العمل من أجل الهدف الذي يصبوا إليه.

ويستبان كذلك من رواياتنا التاريخية أن نسبة كبيرة من ذرية بني هاشم وأعلامهم كانوا من ذوي الفضل والاستقامة والتقوى والعلم، وقد عملوا كل في مجاله لخدمة مجتمعهم ولم يألو جهداً في ذلك. إلا أن المصادر ذاتها تشير إلى رجال منهم اشتطوا عن الطريق، وأن فروعاً منهم نازعت بعضها البعض الآخر حول السلطة كما حدث بين العباسيين والعلويين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على استيلاء الضعف على سائر البشر، وقد قال تعالى في سورة المائدة:

﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨]. وقـــال لرسوله الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت: ٦].

وأخيراً فلعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن التاريخ الإسلامي يتهم أحيانـــاً بأنه تاريخ رسمي كتب من وجهة نظر السلطة الحاكمة، بينما تفند كتب التراجم هذه التهمة. فكتب التراجم من حيث الكم أكثر من كتب التاريخ العام الحولي التي اهتمت بالأحداث والحروب، وكتب التراجم اهتمت بفئات متنوعة من المجتمع الإســـلامي تضم الوزراء وأصحاب الدواوين والكتاب والفقهاء والعلماء والمحدثين وأصـــحاب المذاهب والفرق والأطباء والمفسرين وأهل الصنعة (علماء العلوم العقلية) وأهـــل المهن والحرف والصناع والفقراء (المكدين). وهذا دليل على أن التاريخ (وخاصة كتب التراجم والسير والطبقات) الذي كتب عن فئات المجتمع أكثر من التاريخ الذي كتب عن الخلفاء والوزراء والقادة، والتاريخ الذي اهتم بالحضارة والنظم أكثر من التاريخ الذي اهتم بالسياسة والحرب.

إن كتب التراجم متنوعة منها ما كتب على القرون أو على الطبقات أو علـــى الوفيات أو على البلدان وما إلى ذلك. والكتب التي اعتمدنا عليها هي مـــن كتـــب التراجم التي تثبت أن التدوين التاريخي المنظم لم يتأثر بالسلطة العباسية بمعنى أن العباسيين عموماً لم يفرضوا على المؤرخين تزوير التاريخ، أو أجبـــروهم علـــى تمجيد بني العباس وتشويه صورة أعدائهم، بل على العكس فإن هذه المصادر تحفل بأسماء شخصيات أموية وعلوية وشخصيات أخرى ليست من قريش أو بني هاشـــم لأن أساس اختيار الترجمة والكتابة عنها هو الإنجاز الذي قدمته ليس إلا.

ولا يسعني في نهاية مقدمتي هذه الا أن أعتذر للقارئ بالأسلوب نفسه الـــذي اعتذر به الأديب واللغوي الميداني (ت 518هـــ/ 1124م) في نهاية مقدمة كتابـــه (مجمع الأمثال) عما يجده القارئ من التقصير:

"وأنا اعتذر إلى الناظر في هذا الكتاب من خلل يراه أو لفظ لا يرضـــاه فأنـــا كالمنكر لنفسه المغلوب على حسّه وحدسه منذ حطّ البياض بعارضيّ رحاله وحـــال الزمان على سوادهما...

وأنحى على عود الشباب فمص ريّه وملكت يد الضعف زمام قواي... وكأني أنا المعني بقول الشاعر:

وهت عزماتُـك عنــد المــشيب ... وما كـــان مـــن حقهـــا أن تهـــي

وانكـــرتَ نفـــسكَ لمـــا كبـــرت ... فـــلا هـــي أنـــتَ ولا أنـــت هـــي

وإن ذُكـــرتْ شـــهوات النفـــوس ... فمـــا تـــشتهي غيـــر أن تـــشتهي

واعيذه أن يرد صفو منهله التقاطاً... بل المأمول أن يسد خلله ويصلح زللـــه فقلما يخلو إنسان من نسيان وقلم من طغيان".

والله ولي التوفيق؛

المؤلف

تمهيد

قريش – بنو هاشم – آل البيت

خطب هاشم في قريش بمكة فقال:

"يا معشر قريش إنكم سادات العـــرب أحـــسنهم وجوهـــاً وأعظمهـــم أحلامـــاً وأوسطهم أنساباً وأقرب العرب بالعرب أرحاماً...

يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله الحرام، أكرمكم بولايته، وخصكم بجواره من دون بني إسماعيل وإنه بأتيكم زوار الله، يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق مـــن أكرم أضياف الله انتم، فأكرموا ضيفه وزواره ..."

ابن سعد الطبقات، ط، ص78

قريش – بنو هاشم – آل البيت:

قريش:

يرتبط تاريخ قريش بمدينة مكة[1] قبل الإسلام ولا شك فإن هذا التاريخ لا يخلو من ارتباك في الروايات التي تختلط بالأساطير، رغم أن الباحث يستطيع أن يتوصل إلى معلومات تاريخية ثابتة نسبياً عن حقبة ما قبل الإسلام.

ولعل تاريخ مكة الذي نعرفه يرجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام[2] الذي جاء بزوجته هاجر وابنه إسماعيل إليها، فهي مقام إبراهيم كما جاء في القرآن الكريم:[3]

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، ومكان سكن عائلته وبث عقيدة التوحيد لله فيها[4]: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أن مكة تقع في واد قليل المياه تعتمد على بعض الآبار وكان سكانها قليلون، حتى جاءت قبيلة جرهم من اليمن، فاستوطنوا مكة مع إسماعيل وتزوج إسماعيل عليه السلام منهم وأصبحت السيادة له ولأولاده فيها ثم غلبت جرهم على أمر مكة وأصبح لها سيادة على البيت الحرام[5].

ثم انتقلت الرئاسة السياسية إلى خزاعة بعد أن صارت لها الزعامة الدينية (حجابة البيت)، وبلغ عمرو بن لحي من "الشرف" مرتبة كبيرة وكان أول من أدخل عبادة الأصنام إلى البيت الحرام (الكعبة) وبذلك بدل ودين إبراهيم عليه السلام إلى دين الشرك وعبادة الأوثان[6].

وبعد حوالي ثلاثة قرون انتقلت السيادة من خزاعة إلى قصي بن كلاب من ولد النضر بن مالك من قريش وتزوج قصي من خزاعة فلما كثر ولده وماله وعظم شرفة صار أولى بالبيت والشرف أي السيادة الدينية والدنيوية. فكانت له الحجابة والرفادة والسقاية بالإضافة إلى الندوة واللواء. وقد أنزل كل قوم من قريش منازلهم في مكة بعد أن جمعهم، فقسمهم إلى فئتين: قريش الظواهر وهم على أطراف مكة. وقريش البطاح وهم في الداخل(7).

وبعد وفاة قصي خلفه في آمر مكة وقريش ابنه (عبد مناف) فكانت له الولاية للبيت الحرام وكذلك السقاية والرفادة.

بنو هاشم

وكان قصي(8) حين كبر في العمر قد جعل مسؤوليات الندوة واللواء والحجابة والسقاية والرفادة لابنه (عبد الدار) لأنه كان ضيفاً وأراد يقويه بها، أما ابنه الآخر (عبد مناف) فكان قوياً في حياة أبيه، وبعد وفاة قصي أجمع بنو عبد مناف أن يأخذوا الرفادة والسقاية من بني عبد الدار، فكان بنو عبد مناف وحلفائهم يسمون بحلف المطيبين وكان بنو عبد الدار وحلفائهم يطلق عليهم (الأحلاف)، ولكنهم تداعوا إلى الصلح قبل أن تقع الحرب بينهم، ووافق بنو عبد الدار على إعطاء السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف.

واقترع هؤلاء عليها فصار لهاشم بن عبد مناف فقام بها وساد على قومه وكان أحد الاجواد.

أما لقبه (هاشم)(9) فلأنه هشم الثريد لقومه بمكة واطلعمهم بعد أن أصحاب قومه من قريش قحط فرحل إلى فلسطين واشترى الدقيق وقدم به إلى مكة فأمر به فخبز ونحر جزوراً ثم اتخذ لقومه ثريد.

على أن ما اشتهر به هاشم هو التجارة فقد كانت له تجارة مع بلاد الشام وقد جمع ثروة من تجارته وإليه تنسب رحلتا قريش في الصيف والشتاء، الأولى إلى بلاد الشام والثانية إلى اليمن والحبشة. وتشير روايات اخرى انه اتفق مع قيصر الروم واخذ منه الحلف على أن تأتي قوافل قريش إلى بلاد الشام وتعود منها آمنة وهو بذلك صاحب (إيلاف قريش).

ولقلة الماء في مكة أخذ هاشم على نفسه عهداً أن يسقي الحجيج ويكفيهم بالماء قربة إلى رب (البيت) فكان يأمر بحياض من أدم قرب الكعبة فتملأ بالماء من الآبار القريبة ويشرب منها الحاج، وكان يطعم الحجيج قبل التروية بيوم بمنى وعرفة ويثرد لها الخبز واللحم حتى يصدروا من منى فتنقطع الضيافة ويتفرق الناس إلى بلادهم.

وكان هاشم في إحدى سفراته التجارية التي كانت تمر بيثرب قد شاهد سلمى بنت عمرو بن زيد من بني النجار فخطبها فزوجته نفسها وولدت له شيبة (عبد المطلب).

وتشير روايات أخرى أن هاشماً وعبد شمس توأمان ووقع بينهما تحاسد وانتقل إلى الأولاد، وفصلت روايات أخرى أن أمية بن عبد شمس قد حسد عمه هاشماً ودعاه إلى المنافرة فنفر هاشماً عليه فأخذ هاشم الإبل ونحوها وأطعمها الناس وخرج أمية إلى بلاد الشام وأقام فيها عشر سنين تنفيذاً لقرار الكاهن. فكان هذا أول نزاع بين هاشم وأمية، على أن بعض الباحثين المتحدثين من يعد الروايات الخاصة بالنزاع مجرد اختلاق متأخر يعكس المنافسة بين الفرعين للوصول إلى السلطة والنفوذ.

توفي هاشم في رحلته إلى بلاد الشام في غزة ولذلك عرفت (بغزة هاشم) وكان أول من مات من ولد عبد مناف، وكان عمره على حد قول بعض الروايات عشرين

سنة أو خمساً وعشرين سنة وهو عمر لا يتناسب مع أخباره وأعماله وزعامته لقريش.

وتشير روايات أخرى أن هاشماً قبيل وفاته قد أوصى إلى أخيه الأصغر (المطلب) فبنو هاشم والمطلب يد واحدة، وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد.

أما عبد المطلب[10] فهو جد رسول الله ﷺ من أبيه واسمه الحقيقي (شيبة) وأمه سلمى من بني عدي بن النجار من الخزرج في يثرب وكنيته (أبو الحارث). أما اسمه المتعارف عليه (عبد المطلب) فتشير رواية إلى أن هاشماً أوصى إلى أخيه الأصغر المطلب الذي اعتبر مسؤولاً عن شيبة وقد جلبه بعد سنوات من يثرب إلى مكة ليعيش مع بني أبيه بعد أن عاش مع أخواله سبع سنين، وسماه عبد المطلب فشاع هذا الاسم بين الناس، الا أن هذه الرواية غير مقبولة وربما كانت متأخرة. ويرى بعض الباحثين أن التسمية ربما كان لها علاقة بتحالفات سياسية جديدة انبثقت من حلف المطيبين آنف الذكر، خاصة وأن عبد المطلب كان سيد قومه (سيد قريش) وبرز كزعيم في مكة وله منافسات مع بني نوفل وبني عبد شمس. جاءت شهرة عبد المطلب كأبيه من السقاية والرفادة في البيت الحرام التي ورثها عن أبيه هاشم وكذلك من التجارة مع بلاد الشام واليمن.

كما حفر عبد المطلب عدة آبار في مكة وله بئر في الطائف، وأهم أعماله حفر بئر زمزم قرب البيت الحرام حيث أقبل عليها الحجاج وتركوا سائر الآبار.

ومن نشاطاته السياسية البارزة مفاوضته مع أبرهة زعيم الأحباش الذي أراد أن يغزو مكة وبذلك ظهر كأبرز شخصية بين منافسيه في مكة، وكانت له تحالفات مع القبائل في أطراف مكة مثل خزاعة وكنانة وثقيف، وكان ضمن وفد قريش الذي وفد على الملك اليماني(سيف بن ذي يزن) يهنئونه بالنصر على الحبشة.

عرف عبد المطلب بعقله وفصاحة لسانه وكان يأمر أولاده بمكـــارم الأخـــلاق ويحثهم على ترك الظلم، وكان أول من تحنث بغار حراء وكـــان يكثـــر الطـــواف بالبيت.

تزوج من فاطمة بنت عمرو من بني مخـــزوم وهـــي أم أكثـــر أولاده، ولـــه زوجات أخريات، وقد تعهد الرسول محمد ﷺ بعد وفاة والدته وكان عمـــره ســـت سنوات. ولعبد المطلب عدد من الألقاب فكان يسمى (شيبة الحمد) لكثرة حمد الناس له فقد أحبه قومه ورفعوا من شأنه، وكان يقال له (الفيّاض) لجوده، (ومطعم الطير) لأنه كان يرفع من مائدته للطير والحيوان.

توفي عبد المطلب وله مائة وعشرون سنة وقيل مات بعد أن جاوز الثمـــانين في حوالي سنة 578 ميلادية، ولم يقم بمكة سوق أياماً عديدة لوفاة عبد المطلب مما يدل على حب الناس له وعلى وجاهته التي لم تكن بسبب ماله بقدر ما كانت بسبب صلته بالبيت (الكعبة) وولايته للسقاية والرفادة، وهذا ما يفسر كثرة الأساطير حوله في رواياتنا ومع ذلك فإن أخبارها رغم مبالغاتها ليست عارية عن الصحة.

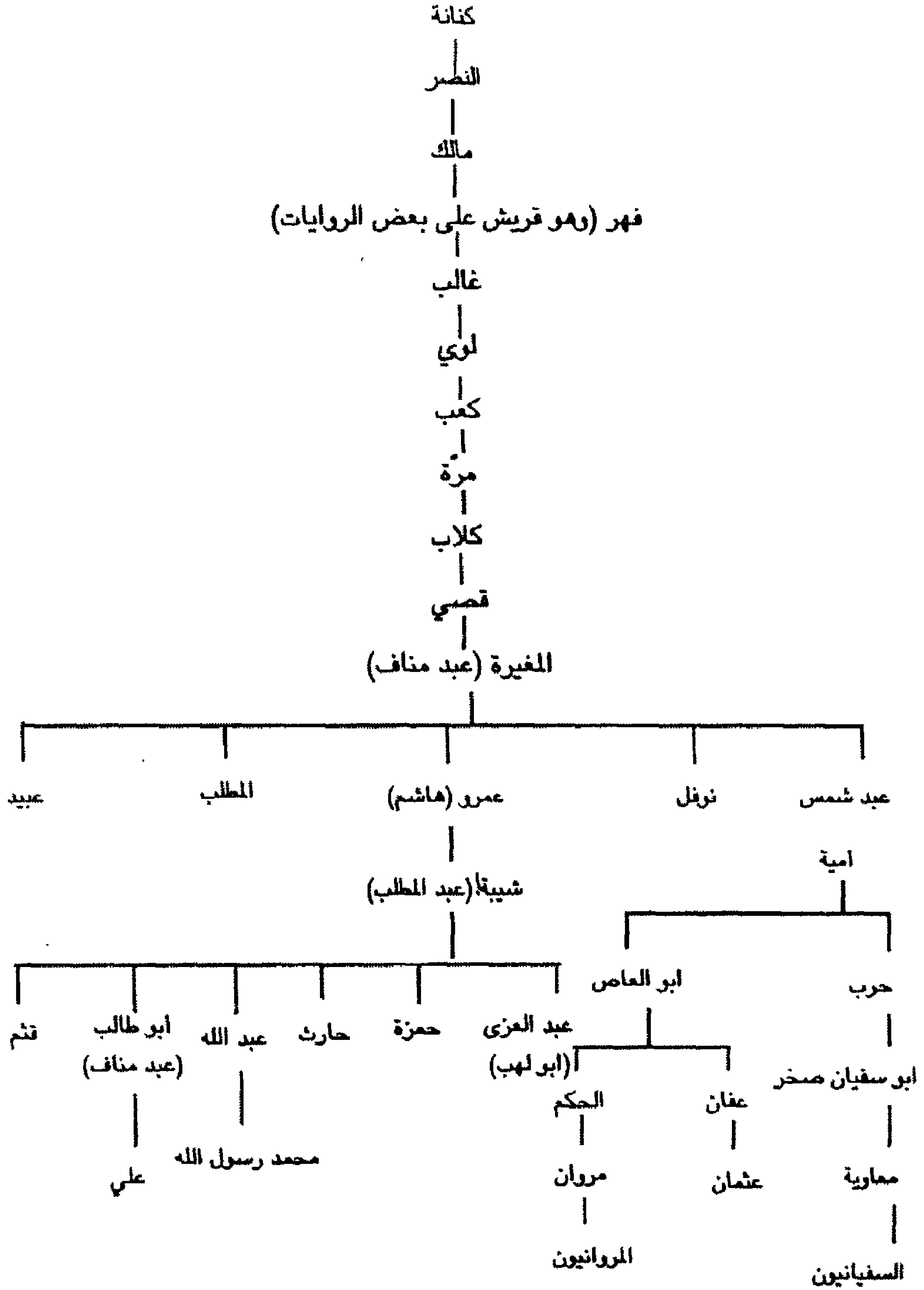
أما عبد الله بن عبد المطلب(11):

فهو والد الرسول محمد ﷺ وأحد أولاد عبد المطلب الذين بلغوا اثنا عشر ولداً وست بنات. ولم يكن أبناء عبد المطلب من رجال مكة الأثريـــاء وإنمـــا جـــاءتهم وجاهتهم وسمعتهم العالية من الثراء الروحـــي المـــوروث عـــن قـــصي وهاشـــم Hereditary Sanctity، وكانوا تجاراً من أوساط مكة. وقد توفي عبد الله وهو في طريقه من غزة إلى مكة حيث أقبل بتجارة له. فنزل بالمدينة المنورة (يثرب) وهو مريض وتوفي فيها، وقيل توفي بالابواء بين مكة والمدينة.

ولا تعطينا المصادر التاريخية إلا قليلاً من المعلومات عنه، فقد كانـــت أمـــه فاطمة بنت عمرو بن مخزوم، وهو أصغر ولد عبد المطلب، وكان يلقب (بالـــذبيح) لأن أباه عبد المطلب كان قد نذر لئن ولد له عشرة أولاد وكبروا في حياته لينحرن

أحدهم إلى الكعبة، وحين كان له ما أراد ذهب بأولاده إلى هبل أكبر أصنام الكعبة وضربت القداح فخرجت على عبد الله ففداه بمائة من الإبل، ولهذا لقب باللقب آنف الذكر. وقد زوجة أبوه من آمنة بنت وهب (من بني زهرة) فحملت بالنبي محمد ﷺ الذي ولد بعد وفاة أبيه بوقت قصير. وكانت قريش قبل قصي بن كلاب تدعى بني النضر وسميت قريشاً بعد أن جمعهم قصي، وهذا هو معنى قريش على أحدى الروايات أي من التقرش بمعنى التجمع.

نسب قريش



كنانة
النضر
مالك
فهر (وهو قريش على بعض الروايات)
غالب
لوي
كعب
مرة
كلاب
قصي
المغيرة (عبد مناف)
عبد شمس
نوفل
عمرو (هاشم)
المطلب
عبيد
امية
شيبة (عبد المطلب)
حرب
ابو العاص
عبد العزى (ابو لهب)
حمزة
حارث
عبد الله
ابو طالب (عبد مناف)
قثم
ابو سفيان صخر
عفان
الحكم
محمد رسول الله
علي
معاوية
عثمان
مروان
السفيانيون
المروانيون

وبنو هاشم إحدى بطون قريش التي كانت تتكون من البطون التالية[12]:

أولاً: هاشم: وكان يمثله العباس بن عبد المطلب ويتولى سقاية الحجيج في حينه.

ثانياً: أمية: وكان يمثله في الحكومة "أبو سفيان صخر بن حرب"، وكانت مسئوليته فيها هي القيادة الحربية لجيوش قريش في القتال، إذ كانت عنده راية قريش المسماة "العقاب".

ثالثاً: نوفل: وكان يمثله في الحكومة "الحارث" بن عامر"، وكانت مسؤوليته القيام على الأموال التي ترصدها قريش لإنفاقات موسم الحج، والتي يسمونها: "الرفادة".

رابعاً: عبد الدار: وكان يمثله في الحكومة "عثمان بن طلحة" وكانت مسئوليته مرتبطة بالكعبة له سدانتها وحجابتها، والقيام على دار الندوة، التي كانت يومئذ بمثابة البرلمان.

خامساً: أسد: وكان يمثله في الحكومة "يزيد بن زمعة بن الأسود"، وكانت مسئوليته فيها "المشورة"، إذ كان المرجع في الأمور التي يصعب حلها على هذه "البطون".

سادساً: تيم: وكان يمثله في الحكومة "عبد الكعبة – أو عبد الله – بن عثمان"، أي "أبو بكر الصديق" – كما اشتهر اسمه بعد ذلك – وكانت مسئوليته فيها تقدير الديات والمغارم التي تلزم قريشاً والتعهد بأدائها وتنظيم ذلك، وكانوا يسمون هذه المسئولية: "الاشناق".

سابعاً: مخزوم: وكان يمثله في الحكومة "خالد بن الوليد"، وكانت مسئوليته فيها القيام على الأموال المخصصة للحرب والقتال، وكذلك قيادة الخيل والفرسان في الحرب وكانوا يسمون هذه المسئولية "القُبّة والأعِنّة".

ثامناً: عدي: وكان يمثله في الحكومة "عمر بن الخطاب" وكانت مسئوليته فيها العلاقات الخارجية، وكانوا يسمونها يومئذ "السفارة".

تاسعاً: جمح: وكان يمثله في الحكومة "صفوان بن أمية" وكان مسئولاً عن "الأيسار والأزلام"، يذهب القوم إليه كي يديرها ويستشيرها قبل أقدامهم على مهمات الأمور.

عاشراً: سهم: وكان يمثله في الحكومة "الحارث بن قيس"، وكانت مسئوليته "الحكومة"، أي التحكيم، وكذلك القيام على الأموال الموقوفة على الآلهة التي يعبدونها.

آل البيت:

من المعلوم إن إصلاح آل البيت أو أهل البيت يعود إلى فترة ما قبل الإسلام، فقد كانت هناك أفخاذ من قبائل معينه تتمتع بصفة دينيه لكونها مسئوله عن بيت الآلهة (معابد الأوثان والأصنام)، وربما انتقلت هذه المسؤولية بصورة وراثية في ذلك الفخذ من جيل إلى جيل. وتظل هذه الأفخاذ تتمتع بمنزلة دينية متميزة باعتبارها سدنة (البيت)[13].

ويلاحظ أن مسؤولية المعبد الدينية (البيت) ارتبطت بمرور الزمن بمفهوم آخر رفيع عند العرب وهو (الشرف)[14] بمعنى نبل المحتد وصفاء النسب وكان غالباً ما يطلق على من كانت له الزعامة السياسية في القبيلة.

أن روايات عديدة في مصادرنا تظهر ارتباط هذين المفهومين (البيت) و(الشرف) وتماسكهما في حقبة ما قبل الإسلام. ومعنى ذلك أن سدنة (البيت) كثيراً ما أصبحوا شيوخ القبائل وزعمائها السياسيين أي أهل (الشرف) والعكس صحيحاً.

ومن هنا نلحظ تكرار عبارات في مصادرنا عن أفخاذ معينة مثل: "وفيهم البيت والشرف" أو "أهل الحرمة وولاة البيت". واستمرت هذه المنزلة الرفيعة التي

اقترنت بقبائل محددة في التداول بعد الإسلام، فكان يقال عن المسامعة "بيت ربيعه في البصرة" ويقال عن متخف "بيت الازد بالكوفة"[15]. وحينما تردد المحتار بن أبي عبيد الثقفي عن بيعة عبد الله الزبير قيل له: "مثلك يغيب عن مثل ما اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار لم يبق أهل بيت الا وقد جاء زعيمهم وعميدهم فبايع هذا الرجل"[16].

منذ منتصف القرن الخامس الميلادي استطاع قصي الجد الأعلى للرسول ﷺ أن يبني سلطة قريش في مكة، ونجح في جمع شمل القبائل تحت زعامته فكان لكل قبيلة منازلها حول الكعبة. ويعزى إليه إعادة ترتيب الأمور الدينية فقد سن عادة تقديم الشعائر والقرابين لآلهة القبائل سنوياً فغدت الكعبة (الحرم المكي) ذا شهرة دينية بين القبائل، وتلا ذلك تنظيم عدد من الواجبات فصار لقبه "المجمّع" لأنه جمع في يديه وظائف السقاية والرفادة والسدانه واللواء والندوة. وهي في مجملها واجبات دينية - سياسية ومن هنا وصفت الرواية قصي "وكان فيه البيت والشرف"[17].

بقيت وظائف السيادة الدينية والسياسية في مكة في أولاد قصي بعد وفاته. ورغم حدوث خلاف بين بني عبد مناف وبني عبد الدار حول هذه الوظائف حتى كادت الحرب أن تقع بينهم الا أنهم تداعوا إلى الوفاق واقتسموا الوظائف. وتشير الرواية التاريخية عن عبد مناف "وفيه البيت والشرف"[18].

ووقعت منافسة بين أولاد عبد مناف: هاشم، وعبد شمس على وظائف السيادة، الا أن "البيت" كان في هاشم حيث انتقلت إليه (الرفادة والسقاية) من أبيه عبد مناف. وتشير رواية عن هاشم "وفيه العدد والشرف". فكان هذا الفخذ (هاشم) من عبد مناف يتحمل مسؤولية خدمة الحجيج ويحتفظ بمكانة متميزة مؤسسياً.

تولى المطلب وظائف السقاية والرفادة بعد أخيه هاشم ثم تحولت بعده إلى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم الذي تحمل المسؤوليات الدينية والسياسية معاً واعترفت له مكة بالرئاسة.

وقد زاد من شأن قريش وبني عبد المطلب خاصة فشل غزو الأحباش للحجاز فقد قالت عنهم العرب:

"أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم فازدادوا في تعظيم الحرم والمشعر الحرام والأشهر الحرم ووقروها"[19].

بعد وفاة عبد المطلب بن هاشم خلفه ابنه أبو طالب (عبد مناف) على الوظائف الدينية للحرم ولكنه لم يقدر عليها فتنازل عن السقاية لأخيه العباس بن عبد المطلب.

لقد كان بنو هاشم في هذه الفترة السابقة للإسلام والقريبة منه، يمكن أن يغدّوا الممثلين الحقيقيين لقريش لأنهم ينحدرون من (عبد مناف/ قصي) بيوتات قريش الدينية والسياسية، بمعنى أن منزلتهم تستمد رفضها من الحرم الملكي (البيت) والقيادة السياسية (الشرف)، فقد ظهر لهم منافس هم بنو أميه الذين ينحدرون كذلك من عبد مناف/ قصي ويتمتعون منذ زمن أميه بن عبد شمس بنفوذ كبير في مكة. وفي نظر بني أميه كانت مسألة وقت ليس إلا حتى يأتي اليوم الذي يتسلمون فيه السيادة بكاملها على مكة.

لقد كانت المفاجئة لبني أميه كما كانت لغيرهم مثل بني مخزوم وكلاهما من أهل النفوذ والعدد والثراء، هو ظهور النبي محمد بن عبد الله ﷺ وتبشيره بالوحي الإلهي والرسالة الإسلامية فكان ذلك تهديداً لنفوذهم، ومن هنا جاءت تصريحات الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو جهل المخزومي وأبو سفيان صخر بن حرب المعادية للرسول والإسلام[20]، فإن البيت والشرف سيغدو في حوزة بني هاشم واعترفت العرب بمكانتهم الرفيعة.

آل البيت في الإسلام:

وردت لفظتا "أهل" و"آل" في القرآن الكريم مرات عديدة[21]، واستخدمت في آيات مختلفة. وقد تباينت أراء أهل اللغة في أصلهما. قال ابن منظور[22] الأصل

فيها أهل البيت ثم أبدلت الهاء همزة فصار التقدير آل البيت فلما توالت الهمزتــان أبدلت الثانية ألفاً. ويستطرد ابن منظور قائلاً: أهل المذهب من يدين به وأهل الأمر ولاته، وأهل الرجل اخص الناس به، وأهل بيت النبي ﷺ أزواجه وبناته وصــهره علي ﷺ، وأهل كل نبي أمته. وعند ابن منظور أيضاً وأهل الرجل وأهلته زوجه، وأهّل الرجل تزوج، وأهل فلان امرأةً يأهل اذا تزوجها فهــي مأهولــة والتأهيــل الزوج. وآل الرجل أهله وآل الله ورسوله أولياءه. وقال الفيروزبادي[23]: أهل الأمر ولاته، وللبيت سكانه وللمذهب من يدين به، وللرجل زوجه وللنبي أزواجه وبناتــه وصهره علي ﷺ، أو نسائه والرجال الذين هم آله، ولكل نبي أمته.

وقال الزبيدي[24]: والأهل للمذهب من يدين به ويعتقده، والأهل للرجل زوجته ويدخل فيه أولاده وبه فسر قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴿٢٩﴾﴾ القصص: ٢٩ [25]،أي زوجته، والأهل للنبي ﷺ أزواجه وبناته وصهره علي ﷺ. وقيل أهل الرجل الذين هم آله ويدخل فيه الأحفاد والذريات ومنه قوله تعــالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴿١٣٢﴾﴾ طه: ١٣٢ [26] وقوله تعالى: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ الأحزاب: ٣٣ [27] وقوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ هود: ٧٣ وأن أهل كل نبي أمته وأهــل ملتّــه. ومنــه قولــه تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ ﴿٥٥﴾﴾ مريم: ٥٥ [28].

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي:... وأهل الرجل أخص الناس به، وأهل البيت سكانه، وأهل الإسلام من يدين به[29].

وقال الراغب الأصفهاني[30]: الآل مقلوب من الأهل، ويستعمل في من يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً أما بقرابة قريبه أو موالاة. قال عز وجل وآل إبراهيم وآل عمران[31]، وقــال تعــالى: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ غافر: ٤٦ [32]، وآل الله ورسوله أولياءه وأنصاره.

أما إصلاح "البيت" فقد أطلق في الإسلام على الكعبة أو البيت العتيق أو البيت الحرام، فكان البيت الحرام بمكة أول مسجد أقيم لعبادته سبحانه وتعـالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ آل عمران: ٩٦ وفي آية اخرى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة: ١٢٧ [33]، فكان آل إبراهيم عليه السلام (أهل البيت) حيث خوطبت امـرأة إبراهيم في الآية: ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ هود: ٧٣ [34].

أما بالنسبة للرسول محمد ﷺ فإن الآية القرآنية التي تشير إلى آل بيته ترد في سـورة الأحـزاب: ﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٣١ - ٣٣ [35].

وقد تباينت أراء اللغويين والمفسرين والمتحدثين والفقهاء والمؤرخين في معنى مصطلح "أهل البيت" أو "آل البيت" في الإسلام، من هم؟

قال عطاء وعكرمة وابن عباس: هم زوجاته خاصة لا رجل معهن. وذهبـوا إلى ان البيت أريد به مساكن النبـي ﷺ لقولـه تعـالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٤ [36].

❖ وقالت فرقة منهم الكلبي: هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، وفـي هذا أحاديث عن النبي عليه السلام[37].

ويستند بعض المفسرين على حديث الكساء فيرون أن أهل البيت هم: الرسول عليه السلام وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ﷺ جميعاً. والحديث بروايات مختلفة عن أم سلمه زوجة الرسول ﷺ انه حين نزلت الآية، قال تعـالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٣، أخذ النبـي عليه السلام كساءاً فغطى به عليا وفاطمة والحسن والحسين ثم قال: اللهـم هـؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[38].

وتتفق أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة مع حديث الكساء، منها حديث المباهلـة بعد نزول الآية "فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنـا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين". دعا الرسول ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي[39].

- وقال الثعلبي: هم بنو هاشم فهذا يدل على أن البيت يراد به بيـت النـسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم[40].
- ويرجّح الرازي في تفسيره[41] أن آل البيت هـم أولاده وأزواجـه وأهـل الكساء.
- ويستند مفسرون آخرون على رواية زيد بن الأرقم وهي تعكس عندهم أقدم تفسير لمصطلح آل البيت. قال[42]:

"خطبنا رسول الله ﷺ بماء يدعى خما بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك ان يأتي رسول ربـي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتـاب الله واستمسكوا به... ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيته؟ قال نساؤه من أهـل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس..". ومما يدعم رواية زيد حديثاً عن محمد الباقر بـن علـي

زين العابدين: "إن النبي ﷺ بايع الحسن والحسين وعبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ولم يقبلوا (ولم يبلغوا) ولم يبايع صغيراً الا منّا"[43].

- وأضاف مفسرون إلى أهل الكساء أم سلمه لحديثها "وأنا منهم". وكذلك واثلة بن الاسقع لحديثه: وأنا يا رسول الله من أهلك؟ قال: وأنت من أهلي"، وحديث "سلمان منّا آل البيت"[44].

وخص فقهاء من الحنفية آل علي وآل العباس وآل عقيل وآل جعفر وآل الحارث بن عبد المطلب لا تتسابهم إلى هاشم بن عبد مناف، ولأنهم نصروا الرسول ﷺ في الجاهلية والإسلام، وأخرجوا أبا لهب لموقفه المعادي للرسول ﷺ. بينما قال بعض فقهاء الشافعية إنهم بنو هاشم وبنو المطلب بن عبد مناف، وتسند رواية تاريخية التفسير الأخير فتقول أن النبي ﷺ حينما جاءه الوحي يقول له ان "إصدع بما تؤمر وأنذر عشيرتك الأقربين" دعى رجال عشيرته بني هاشم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف لينصروه ويؤازروه[45].

واستند بعض اللغويين والمفسرين إلى حديث "آل محمد كل تقي" فقالوا أن أهل البيت تشمل كل مؤمن تقي إلى يوم القيامة، بينما قال آخرون أن آل البيت هم أمه الرسول ﷺ أي أمه الإجابة ولو عصاة[46].

يبدو أن هناك اتفاقاً بين معظم المفسرين في أن أزواج الرسول ﷺ من آل البيت بنص الآية القرآنية انفه الذكر: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٣. لأنهن في منزله الذي يسكن فيه. ولكن تفاسير اخرى تقول أن (أهل البيت) هم الذين حرمت عليهم الصدقة، وهنا اختلفوا أيضاً فيمن حرمت عليه الصدقة. هل هم بنو هاشم تحديداً أم أكثر منهم ومن فوقهم؟ وخاصة بني المطلب بن عبد مناف.

ولعل إضافة بني المطلب بن عبد مناف تأتي لأسباب عديدة تعود بعضها إلى أن علاقة هاشم كانت ودية مع أخيه الأصغر المطلب. وقد أوصى هاشم قبيل وفاته

بغزة إلى أخيه المطلب الذي تعهد ابن أخيه (شيبه بن هاشم) الذي سمي عبد المطلب نسبة إليه. فبنو هاشم وبنو المطلب يد واحدة وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد. وقد اشرنا سابقاً أن النبي ﷺ حينما جاءه الوحي بإنذار عشيرته الأقربين دعى رجالاً من عشيرته بني هاشم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف وخطب فيهم خطبته المشهورة التي ابتدأها "أن الرائد لا يكذب أهله...". ويبرز دور بني المطلب في الوقوف مع بني هاشم لحماية الرسول ﷺ وتعرضهم للمقاطعة التي فرضتها بقية قريش على النبي وعشيرته. وقد جاء في الحديث في رواية عن سعيد بن المسيب عن جبير بن عدي بن نوفل قال[47]:

"لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان وهو من عبد شمس، فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم بمكانك الذي جعلك الله به منهم. أرأيت بني المطلب، أعطيتهم ومنعتنا؟ فإنما نحن وهم منك بمنزلة. فقال الرسول ﷺ: إنهم لا يفارقوني في جاهليه ولا أسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد. وشبك بين أصابعه".

وبذلك خص الرسول ﷺ بني هاشم وبين المطلب. وللسبب نفسه منع الرسول ﷺ بني المطلب أسوة بني هاشم عن أخذ الصدقة (الزكاة) لأنها تنبئ عن ذل الأخذ مما يمتنع إعطاءه لآل البيت منهم أهل الفضل والشرف، بينما يشارك بنو هاشم وبنو المطلب الرسول ﷺ وأزواجه في الأخذ بنصيبهم من الغنائم لأنها تنبئ عن عز الأخذ فهو المنتصر والأعلى. وفي القرآن الكريم: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٤١﴾ ﴾ [illegible]

وعن أبي هريرة أن الحسن بن علي كان صغيراً أخذ ثمرة من مال الصدقة فجعلها في فمه فنهاه الرسول ﷺ قائلاً: أما علمت أنا لا نأكل الصدقة[48]؟

ومما يدل على مكانة بني المطلب بن عبد مناف من الرسول ﷺ مسألة توزيع الطعم من غنائم خيبر وما أثارته من تساؤلات حول حصر التوزيع ببني هاشم وبني

المطلب ولدي عبد مناف. الا أن ابن هشام[49] في سيرته يشير إلى الحاجة التي كانت واضحة فيهم. كما وأن الرسول أعطى بني عبد المطلب ونساء بني المطلب من الطعم نفسه في رواية لابن سعد[50] في الطبقات الكبرى. وفي رواية اخرى ذكرها ابن سعد[51] تدل على مدى مساهمة بني المطلب مع بني هاشم واستعدادهم في الدفاع عن الرسول ﷺ: أن أبا طالب وكان زعيم بني عبد المطلب لما سمع بعزم زعماء من قريش اغتيال الرسول ﷺ جمع فتياناً من بني هاشم وبني المطلب وجعل في يد كل منهم حديده صارمة وأمرهم بقتل زعماء قريش أن هم قتلوا محمداً.

إن المتمعن في اجتماع بني هاشم وبني المطلب كافرهم ومسلمهم على حماية الرسول ﷺ في تلك المرحلة المبكرة من عمر الإسلام قد يرجعها إلى صلة الرحم والقربى والعصبية القبلية. الا أننا نلاحظ بأن تأخر أكثرية بني هاشم وبني المطلب عن الإسلام كانت عاملاً مساعداً على حماية الإسلام، ذلك لأن بقاءهم على ديانة أبائهم أدى إلى استمرار صلاتهم بقريش وغيرها من القبائل وفي ظل هذه الموازنة تهيأت الظروف لاستمرار الدعوة الإسلامية، وقد عبّر ابن كثير في السيرة عن هذه الحالة أحسن تعبير فقال:

"إن بقاء (أبي طالب) على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولاجترؤا عليه ولمدوا أيدهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار "[52].

وللسبب نفسه فإن المفسرين يضيفون بني الحارث بن عبد المطلب إلى آل البيت لوقوفهم إلى جانب الرسول ﷺ وحمايتهم له ودخولهم الشعب مع بقية بني هاشم.

أما المفسرين الذين يحصرون آل البيت في علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً فيستندون إلى حديث الكساء وحديث المباهلة آنفي الذكر بروايات عديدة وأسانيد مختلفة تؤكد المعنى نفسه. الا أن حديث الثقلين، أنف الذكر، وسع دائرة آل البيت بحيث شملت آل علي وآل العباس وآل جعفر وآل عقيل أي فرعي بني هاشم الطالبين والعباسيين، أولاد عبد المطلب بن هاشم الذي جمع – كما اشرنا إلى ذلك سابقاً – البيت والشرف في زمانه قبل الإسلام. أما في الإسلام فمعلوم دور أبي طالب والعباس في تاريخ الدعوة الإسلامية المبكر في حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه والوساطة بينه وبين الفئات الأخرى. وقد انعكس هذا المفهوم عموماً على سياسة الدولة الإسلامية في العطاء، فقد رتب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ الناس على منازلهم وبدأ بآل البيت الأقرب فالأقرب، وتشير بعض الروايات أنه فرض لعائشة 12 ألف درهم وأتبعها ببقية زوجات الرسول ﷺ، كما فرض لكل من علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب ولكل من شهد بدراً من بني هاشم خمسة آلاف درهم، ثم اتبعهم ببقية المسلمين على منازلهم ومراتبهم[53] .

أما إذا نظرنا إلى اصطلاح آل البيت من حيث تطوره التاريخي، فلابد أن تشير إلى النزاع حول الخلافة بين بيوتات العرب بعد وفاة الرسول ﷺ وانعكس هذا الخلاف على تفسير اصطلاح "آل البيت" لأسباب ودوافع سياسية أو دينية. وقد برزت أراء متعددة بعضها معقول ومقبول وبعضها الآخر مبالغ فيه ومتأثر بالانقسامات التي تعرضت لها الأمة حيث أرادت كل فرقه من خلال تفسيرها لاصطلاح آل البيت أن تكسب أكبر قدر ممكن من الإتباع والمؤيدين. وقد وصلت بعض هذه التأويلات حداً مرفوضاً لوضوح أثر الوضع والمبالغة والمغالاة فيه. فقد ظهرت روايات تشير إلى أن الاصطلاح يشمل "بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب، فيدخل فيهم بنو المطلب وبنو أمية وبنو نوفل ومن فوقهم إلى بني غالب". وهذا تخريج ليس له أساس تاريخي وربما وضع لدعم ادعاء الأمويين بالخلافة. ورأى

بعض المفسرين أن الاصطلاح يشمل الأتقياء من أمة الرسول ﷺ، أو يشمل أمته بأجمعها وهي أمة الإجابة، ولعل هذه التفاسير وغيرها تدخل ضمن التفاسير المجازية أو الاجتهادية وتأتي في مقام الدعاء عند بعض فقهاء المذاهب[54].

إن الأهم من ذلك ظهور أنصار يعتقدون بأحقية بني هاشم من آل البيت في الخلافة، وهنا بدأ خلاف ينمو ويتسع حول مفهوم آل البيت وأي فرع من فروع بني هاشم يُعد الممثل الحقيقي لآل البيت؟ بل أن بني هاشم أنفسهم اختلفوا في تحديد الاصطلاح. فالعلويون من أبناء فاطمة الزهراء ؓ عدّوا أنفسهم وحدهم آل البيت وبذلك حرموا كل من العلويين غير الفاطميين والطالبيين والعباسيين من منزلة آل البيت وأكثر من ذلك فإن آل الحسين بن علي أكدوا أنهم المقصودين بآل البيت دون آل الحسن ؓ، وكان هذا التفسير الأخير لم يقبله زيد بن علي زين العابدين وأقر حق بني عمه آل الحسن ؓ في أن يعدّوا ضمن دائرة آل البيت[55].

ومن جهتهم أكد العباسيون أنهم "آل البيت" مستندين على مسؤوليتهم الدينية في الكعبة (سقاية الحجيج) قبل الإسلام وبعده وهو ما يسمى (حق الحرمة)، وكذلك سجل العباس عم رسول الله ﷺ ووالده بعد أبيه وكان حياً عند وفاة الرسول ﷺ وهو ما يسمى (حق القربى). ومن هنا جاءت تسميتهم للعلويين (بالطالبين) محتكرين اسم (الهاشميين) لهم وحدهم. فردّ العلويون مؤكدين منزلتهم الدينية وقرابتهم من الرسول ﷺ ليس عن طريق ابن عم الرسول ﷺ الإمام علي بن أبي طالب ؓ فحسب بل عن طريق فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. ونلحظ آثار هذه المشادة في كتب التاريخ والأدب والشعر والفقه والحديث والتفسير كلها. ومن هنا نرى أن حديث أهل الكساء مثلاً في بعض رواياته يسند إلى عبد الله بن العباس أو إلى عائشة ؓ أو أم سلمه ؓ وذلك للتدليل أن العباسيين وزوجات النبي ﷺ ليسوا من آل البيت باعترافهم على أنفسهم. وبمعنى آخر لم يكن آل البيت من بني هاشم بعد وفاة الرسول ﷺ متفقين على زعامة واحدة وأن تشتتهم كان يعني بالتالي تشتت أنصارهم وتفرقهم في ولائهم إلى بيوتات هاشمية متعددة، وهذا يفسر عدم نجاح حركاتهم في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. إن كل من فروع آل

البيت كان يرى انه الممثل الحقيقي لهم، وأن الخلافة بالتالي هي من حقه وحده، وكان ادعاء أي فرع آخر غير شرعي وليس له ما يبرره في نظر الفروع الأخرى. لقد اظهر عدد من الهاشميين طموحاً سياسياً خلال هذه الفترة المبكرة، وبدا كل منهم وبصورة مستقلة عن الأخريين يدعو له ولفرعه من بني هاشم. وكان من نتائج ذلك غموض مفهوم "آل البيت" كما رسمته الروايات التاريخية والأحاديث النبوية وتفاسير الفقهاء والتي اشرنا إليها.

استفاد الفرع العباسي من آل البيت من تجربة أبناء عمومتهم العلويين من آل البيت، وأدركوا أن (حق الحرمة) وحق القرابة من رسول الله ﷺ النبي والزعيم السياسي للدولة الجديدة لابد أن يسندها حق آخر هو (حق القوة) الذي يسند الشرعية من وجهة نظرهم. وقد عمل العباسيون من خلال المنظمة السرية الهاشمية/ العباسية مدة تجاوزت ربع قرن وكان لهم في نهاية الأمر ما أرادوا. وليس غريباً، بعد التجارب التي مر بها آل البيت، أن يرفع العباسيون شعارات غامضة مثل شعار "الرضا من آل البيت" أو شعار قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٣] لكسب أكبر عدد ممكن من الإتباع المستضعفين قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥] والمظلومين قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] آخذين بنظر الاعتبار اختلاف بني هاشم أنفسهم في تفسير مفهوم آل البيت وبالتالي انقسام أتباعهم في ولائهم لهذا الفرع أو ذاك من بني هاشم. وباعتلاء الفرع العباسي من آل البيت الخلافة عادت المرجعية الدينية والسياسية إلى بني هاشم/ آل البيت بعد رسول الله ﷺ والخليفة علي بن أبي طالب ﷺ وهذا ما أكده العباسيون أنفسهم في خطبهم التي افتتحوا بها دولتهم الجديدة في مسجد الكوفة بالعراق. الا أن هذه الحقيقة لم تنه بأي حال من الأحوال الاختلاف في تفسير مفهوم "آل البيت" سواء بين الهاشميين أنفسهم أو غيرهم.

الهوامش

(1) عن مكة راجع: البلاذري، فتوح البلدان، ص65، - الازرقي، أخبار مكة، جـ1 ص38. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جـ4 ص5.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ1 ص240، - الازرقي، المصدر السابق، جـ1 ص54.

(3) سورة آل عمران، 96.

(4) سورة إبراهيم، 37.

(5) اليعقوبي، تاريخ، جـ1 ص222.

(6) الفاسي، شفاء الغرام، جـ2 ص78.

(7) الازرقي، أخبار مكة، جـ1 ص104 فيما بعد.

(8) الطبري، تاريخ، جـ2 ص351 فيما بعد. - اليعقوبي، تاريخ، جـ1 ص238 فيما بعد.

(9) الزبيري، نسب قريش جـ1 ص15. - الطبري، تاريخ، جـ2، 339.

(10) ابن الكلبي، جمهرة، النسب، ص28. - الزبيري، نسب قريش، جـ1 ص17. - الطبري، تاريخ، جـ2 334.

(11) الابيدي، نسب قريش، ص20. - ابن هشام، السيرة النبوية، جـ1 ص88 فما بعد. - ابن سعد، الطبقات، جـ1 ص93.

(12) ابن الكلبي، جمهرة النسب، جـ1 ص14 فما بعد. - الزبيري، نسب قريش، جـ1 ص12 فما بعد. - ابن حزم، انساب العرب ص13 فما بعد.

(13) انظر: عمر بن الحسن بن دريد، الاشتقاق، القاهرة، 1958، ص173 - علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، بولاق، 1284هـ، جـ11 ص85. - محمد بن جرير الطبري، تاريخ، طبعة لندن1881، قسم 1 ص1028.

(14) الطبري تاريخ، ليدن، قسم 2 ص527. Serjeant, Harm and Hawta, M.T.H, Cairo, 1963 هشام جعيط، الفتنه، بيــروت، 1993، ص18 -- E.I. (2) (Ahl al-Bayt).

(15) راجع على سبيل المثال: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، جمهرة انساب العــرب، بيروت، 1983 ص12، 14 ابن منظور، لسان العرب، بيــروت 1955، جـــ13 ص28.

(16) الطبري، تاريخ، القسم 2 ص527.

(17) ابن حزم، جمهرة، 14. _ E.L(2) (Hashim).

(18) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، 1977م جـــ4 ص61 فما بعـــد Rajkowski, Early Shicism in Iraq, Ph.D. Thesis, Univ. Of London, 1955, p. 7111.

(19) راجع: محمد عابد الحابري، العقل السياسي العربي، بيــروت، 1992م ص83 فمـــا بعد. هشام جعيط، الفتنه، 19.

(20) ابن هشام: السيرة، جـــ1، 316. _ ابن اسحق، المغازي، الربـــاط، 1976، 191. _ الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، بيروت، دزت، جـــ4 ص256.

(21) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، 1945م مادة (أهل) (آل).

(22) ابن منظور، لسان العرب، جـــ11 ص 30.

(23) الفيروزابادي، القاموس المحيط، جـــ3 ص2.

(24) الزبيدي، تاج العروس، جـــ1 ص 20.

(25) القرآن الكريم، سورة القصص، آية 29.

(26) القرآن الكريم، سورة طه، آية 132.

(27) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية 33.

(28) القرآن الكريم، سورة مريم، آية 55.

(29) ابن الحسن أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، جـ1 ص 150 بيروت، 1991م.

(30) الراغب الأصفهاني، المفردات في غرائب القرآن، ص 29.

(31) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 33.

(32) القرآن الكريم، سورة غافر، آية 46.

(33) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 127. _ الفاسي، شفاء الغرام، جـ1، ص 76 فما بعد.

(34) القرآن الكريم، سورة آل عمران، آية 96. _ الازرقي، أخبار مكة، جـ1، ص39.

(35) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية30 فما بعد.

(36) القطبي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، 1994م جـ14 ص172 فما بعد، 177.

(37) القرطبي، الجامع، 177. _ ابن حبان، صحيح ابن حبان، سوريا، 1993، ص 432 فما بعد.

(38) الطبري، جامع البيان، مجلد10 ص298. _ ابن كثير، تفسير القرآن، جـ 3 ص 465/ القطبي، الجامع، ج14 ص178. _ المقريزي، فضل آل البيت، ص21. _ السيوطي، / الدر المنثور، جـ5 ص376. _ ابن تيميه، حقوق آل البيت، بيروت، 1987 ص25.

(39) القرآن الكريم، سورة آل عمران 61. _ السيوطي، الدر، جـ2 ص70.

(40) القطبي، الجامع، جـ14 ص178.

(41) الرازي، نفسه.

(42) راجع: مسلم بن حجاج، الجامع الصحيح، بيوت، جـ4، 1873. _ ابن قيم الجوزية، جلاء الإفهام في الصلاة والسلام على خير الأنا من ص119 عن زيد بن أرقم. السيوطي، الدر المنثور، جـ6 ص605.

(43) الهاشمي، مجمع الزوائد، 9، 174.

(44) عن حديث أم سلمه راجع: ابن كثير، تفسير القرآن الكـريم، دار الريـان للقـرآن، 1958، جـ3 ص466 / السيوطي، الـدر، بيـروت1993، جـ6 ص605. _ الترمذي، الجامع جـ5 ص699 / الحاكم النيسابوري، المستورك، جـ2 ص416.
عن واثلة بن الاسقع راجع: الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ص432_433.
عن سلمان الفارسي راجع: النونجتي، فرق الشيعة، استانبول1931، ص16.

(45) عروة بن الزبير، مغازي رسول الله، الريـاض، 1982 ص114،. _ ابـن سـعد، الطبقات الكبرى، جـ1 ص206 فما بعد. ابن اسحق، المغازي، 127. _ انظر كذلك البخاري، صحيح، جـ6، 484.

(46) ابن منظور، لسان جـ11 ص30_ الراغـب الأصـفهاني، المفـردات، ص29. _ فاروق عمر فوزي، المدخل إلى تاريخ آل البيت، ص423.

(47) البخاري، صحيح، جـ6 ص484.

(48) القرآن الكريم، سورة الأنفال، آية41. سورة الحشر، آية 7. – مسلم بـن الحجـاج، صحيح، (كتاب الزكاة).

(49) ابن هشام، السيرة، جـ3، 406.

(50) ابن سعد، الطبقات، جـ8، 203.

(51) ابن سعد، الطبقات، جـ1، 202 فما بعد.

(52) ابن كثير السيرة النبوية، بيروت، جـ1 ص226.

(53) البلاذري، فتوح البلدان، بيوت 1978/ ص435.

(54) راجع: فاروق عمر فوزي، المدخل، ص423.

(55) عن وجهات نظر الهاشـميين حـول الاصـطلاح راجـع: S.Jafir, The Early Development of Legitimit shicism, Ph.D thesis, pp. 21 ff.

الفصل الأول

بنو هاشم في صدر الاسلام

أولاً- بنو هاشم والرسول محمد ﷺ

1هـ/ 622م- 11هـ/ 632م

يا آل البيت رسول الله حبكم فرض من الله في القران أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يُصلّ عليكم لا صلاة له

الشافعي

كان رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي سيد بني هاشم وزعيمهم. وتتفق المصادر[1] على عروبته وقرشيته، فالنبي محمد ﷺ يلتقي عند "فهر" بجميع بطون قريش، كما يلتقي عند "عدنان" بجميع القبائل العربية الشمالية.

ولد الرسول ﷺ في مكة في دار والده في شعب بني هشام[2] وقد أرسلت أمه آمنة بنت وهب من يخبر جدة عبد المطلب الذي كان مسؤولاً عنه لوفاة والده عبد الله بوقت قصير وطلبت منه أن يسميه محمداً، وليس من السهل تحديد تاريخ ولادته ﷺ ولكننا إذا استندنا على تاريخ وفاته في السنة الحادية عشرة للهجرة/ سنة 632 وان عمره حين نزل عليه الوحي كان اربعين سنة والتي يعدها القرآن سن النضج لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴿١٥﴾﴾ الأحقاف: ١٥[3].

وإنه بقي في مكة ثلاث عشر سنة قبل أن يهاجر الى المدينة فبإمكاننا بعد ذلك كله أن نقول بأن الرسول قد بُلّغ بالدعوة الإلهية في سنة 609م، وأنه ولد في سنة 569م، وأنه توفي وعمره ثلاث وستون سنة.

أشرنا سابقاً أن أجداد الرسول ﷺ كان لهم نفوذ في سياسة مكة وإداراتها وكذلك في حياتها العامة وخاصة قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف وعبد

المطلب بن هاشم. وكان هذا الأخير قد نشأ في يثرب لأنه أمه من بني النجار وحين توفي هاشم في غزة بقي عبد المطلب (شيبة) مع أمه وأخواله، وكان لهاشم أولاد كثيرون إلا أن أنهم جميعاً لم يتركوا لهم عقباً ولذلك "ليس في الأرض هاشمي إلا من ولد عبد المطلب بن هاشم" وقد استقدمه عمه المطلب بن عبد مناف إلى مكة بعد أن بلغ سن الفتوة وأقنع أمه بذلك قائلاً: "ابن أخي، قد بلغ وهو غريب في غير قومه ونحن أهل بيت شرف قومنا والمقام ببلده خير له من المقام ههنا".

وكانت السقاية والرفادة في مكة بيد هاشم ثم انتقلت بعد وفاته إلى اخيه المطلب ثم انتقلت إلى عبد المطلب بن هاشم الذي غدا (سيد قريش) وجاءت شهرته من سدانه البيت ومن التجارة. واشتهر بحفر بئر زمزم، وبمفاوضته أبرهة زعيم الأحياش الذي حاول غزو مكة، ودخل عبد المطلب في تحالفات مع القبائل في أطراف مكة مما قوى مركزه تجاه منافسيه من بني نوفل وبني عبد شمس[4].

إن وظائف السيادة في مكة لها جذور تاريخية تعود إلى حياة قصي الذي تزعم قريش في نزاعها مع خزاعة حول السيادة على مكة، وبعد أن تم له ذلك "كانت له الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فحاز شرف مكة كلها" وأبقى الوظائف المتصلة بمناسك الحج بيد أصحابها كما أنه استحدث وظائف جديدة ذات علاقة بالأمور الإدارية والعلاقات مع القبائل خارج مكة[5].

ويبدو أن بعض هذه الوظائف كانت تدر وارداً على من يتولى مسؤولياتها ولذلك كانت بعض الأفخاذ والعشائر تتنافس عليها ولا بد من إعطاء فكرة موجزة عنها[6]:

1. الرفادة: وتعني توفير الطعام للحجيج في موسم الحج ولها أثرها في توثيق العلاقات بين قريش والقبائل الأخرى وكانت المؤاكلة تعد عقد جوار عند العرب وبالإضافة إلى المنزلة الرفيعة فإنه يكون بإمكان قريش وقوافلها أن تسير آمنة في مناطق نفوذ هذه القبائل.

2. السقاية: وتعني توفير ماء الشرب للحجيج في موسم الحج، وقد وفر قصي الماء بصنع الحياض وكذلك حفر الآبار وقام عبد المطلب بحفر آبار جديدة أشهرها بئر زمزم حين تولى السقاية في مكة.

3. الندوة: قام قصي ببناء دار الندوة يجتمع فيه كبار القوم للتشاور في الأمور العامة وفي أمور التحالفات والحرب، وكان قصي في حياته سيد قريش لا يخالف له رأي، وكان رجال الملأ بعده متناظرين في مكانتهم وحقوقهم.

4. العمارة: وتعني مراعاة الأدب في البيت الحرام فلا ترفع الأصوات ويتكلم برفث، وكانت هذه الوظيفة بيد العباس بن عبد المطلب فضلاً عن السقاية حين ظهر الإسلام.

5. الحجابة: وتعني حجابة البيت الحرام وفتحه للزائرين، وكانت من مسؤولية عثمان بن طلحة من بني عبد الدار بالإضافة إلى اللواء والسدانة حين ظهر الإسلام وبيده مفاتيح الكعبة.

6. اللواء: وكانت راية قريش عند ظهور الإسلام تسمى العقاب وكانت عند أبي سفيان صخر بن حرب من بني عبد شمس.

7. السفارة: وتعني الاتصال بالقبائل والتفاوض معها في كل ما يتعلق بالعلاقات السلمية والحربية.

8. الحكومة: وتعني الفصل في الخصومات والمنافرات بين بيوتات قريش والقبائل الآخرى.

وهناك وظائف أخرى أقل أهمية. وكان الخلاف يدب بين بيوتات قريش حول اقتسام هذه الوظائف، وربما يصل الأمر إلى عقد الأحلاف بينها تمهيداً للحرب ثم يتداعون إلى الصلح ويتواصلون إلى تفاهم بينهم حول توزيع هذه المسؤوليات بين العشائر.

لقد كان محمد ﷺ، موضع عناية جده عبد المطلب سيد قريش بعد وفاة أمـــه، وحين حضرته الوفاة أوصى ابنه أبا طالب بالعناية بالرسول ﷺ فقد كان عمه أبـــو طالب ووالده عبد الله أخوين شقيقين. والمعروف أن أبا طالب لم يكن أكبر أبناء عبد المطلب، بل كان الحارث أكبر منة سناً وأنة لم يكن ثرياً فقد كان العباس بن عبـــد المطلب أغنى منه[7]. وقد حاول محمد ﷺ حين بلغ العشرين من عمره أن يخفـــف من ضائقة عمه الاقتصادية فاشتغل بالتجارة مهنة آبائه وأجـــداده وقـــد اســـتأجرته السيدة خديجة بنت خويلد في تجارة لها ثم عرضت عليه الزواج فتزوجهـــا وكـــان عمره خمساً وعشرين سنة. أما هي فكان عمرها دون الأربعين ســـنة[8]. وخديجـــة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي من قريش ووالدها سيد قومه "وفي ولده البيت والعدد"، وهي من آل البيت لأنها زوجة الرســـول ﷺ وأم المـــؤمنين وهـــي "أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً" وقد دام زواجه منها أربـــع وعشرين سنة ونيف ولم يتزوج غيرها في حياتها وأنجبت له جميع أولاده وبناتـــه عدا إبراهيم الذي أنجبته مارية القبطية في المدينة.

وقفت خديجة (أم المؤمنين) إلى جانب محمد ﷺ حـــين نـــزل عليـــه الـــوحي وصارحها الرسول ﷺ بحقيقة قلقه فطمأنته وأخبرته بتوقعاتها بأنه سيكون نبي هذه الأمة، ثم انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد تنـــصر وســـمع التـــوراة والإنجيل وقرأ الكتب فأخبرته بما حدث لمحمد ﷺ فأكد مشاعرها بأن محمـــد ﷺ "نبي هذه الأمة وأنه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام".

لقد كانت خديجة (أم المؤمنين) خير معين لرسول الله ﷺ خلال العهد المكـــي من الدعوة الإسلامية منذ أن جاءته الرسالة الإلهية حوالي سنة 609م وحتى وفاتها قبيل هجرته إلى المدينة بثلاث سنوات (أي حوالي سنة 619م)، ولا شك فإن زواج الرسول محمد ﷺ من خديجة قد وفر له حياة الاستقرار والطمأنينة بعـــد أن كـــان

العمل من أجل العيش يرهقه، وقد تحول إلى بيت زوجته في بني أسد فكانت هذه المدة فرصة أعدته للتأمل والتذكر والتحنث والاستعداد لحمل الرسالة الإسلامية.

كما أهدت السيدة خديجة أم المؤمنين زوجها محمد ﷺ مولاها زيد بن حارثة الذي كانت تربطه به علاقة قديمة، وقد اعتقه محمد ﷺ وزوجّه مولاته (أم أيمن)، وتجمع مصادرنا أن خديجة بنت خويلد كانت أول من آمن بالرسول ﷺ ورسالته ثم تبعها ابن عمه علي بن أبي طالب ومولاه زيد بن حارثه وأبي بكر الصديق ﷺ، وكان من المسلمين الأوائل كذلك عبيدة بن الحارث بن المطلب والطفيل بن الحارث والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثه من بني المطلب، وكذلك جعفر بن أبي طالب ثم حمزة بن عبد المطلب، أما بقية أعمامه العباس وأبي طالب وأبي لهب وبقية بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف فقد بقوا على الشرك في تلك الفترة المبكرة ولكن ذلك لم يمنعهم من حماية الرسول ﷺ – كما أشرنا – ووقوفهم إلى جانبه أثناء المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية التي فرضتها قريش. وكان موقف أبي طالب الصلب في حماية الرسول ﷺ والدفاع عنه قد أفشل خطط زعماء الكفار تجاه الرسول ﷺ ولهذا بدأوا بتعذيب المسلمين من القبائل المختلفة. ويظهر أن المسلمين من بني هاشم وبني المطلب لم يتعرضوا للأذى بسبب عصبيتهم ونفوذهم مثلما تعرض له المسلمون من العشائر الأخرى أو من الموالي والمستضعفين[9].

ولما رأى الرسول ﷺ ما يصيب أصحابه من الشدة أمرهم بالهجرة إلى الحبشة[10] وكان من هاجر من آل البيت رقية بنت رسول الله ﷺ مع زوجها عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب من بني هاشم، وكما هاجر المسلمون إلى الحبشة على شكل جماعات صغيرة كذلك عادوا على شكل جماعات وفي أوقات مختلفة وكان آخر العائدين ستة عشر مهاجراً على رأسهم جعفر بن أبي طالب في السنة السابعة للهجرة. وقد سر الرسول ﷺ بهم كثيراً خاصة وانه تزامن مع فتح خيبر حيث قال: "ما أدري بأيهما أسر: بفتح خيبر بقدوم جعفر" كما وأن الرسول ﷺ

تزوج إحدى المهاجرات إلى الحبشة وهي أم حبيبة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بعد أن فارقها زوجها وتنصر وبقي في الحبشة، وبذلك أصبحت أم حبيبة أم المؤمنين ومن آل البيت.

وكانت المقاطعة[11]. لبني هاشم وبني المطلب قد أعقبت الهجرة إلى الحبشة وجاءت نتيجة فشل المشركين في إقناع النجاشي بإخراج المسلمين من الحبشة. وقد أشرنا بأن فترة المقاطعة كانت صعبة ولكن صمود تكتل بني هاشم وبني المطلب ومساندة كافة الرافضين لصحيفة المقاطعة هو الذي أفشل المقاطعة التي دامت ثلاث سنوات، وكان هذا الموقف من آل البيت بني هاشم وبني عبد المطلب موقفاً رائعاً يذكره التاريخ لهم في مساندة الرسول ﷺ وحماية الدعوة الإسلامية.

لقد كان تأثير وفاة خديجة (أم المؤمنين) وأبي طالب في عام واحد (قبل الهجرة بثلاث سنوات) كبيراً على الرسول ﷺ فقد كانا سنداً ومعيناً له خلال هذه الحقبة الحرجة من تاريخ الدعوة الإسلامية، ومما زاد الأمر صعوبة أن زعامة بني هاشم انتقلت بعد وفاة أبي طالب إلى أبي لهب بن عبد المطلب الذي كان من ألد أعداء الرسول ﷺ والإسلام، وكانت الغالبية من بني هاشم لا تزال مشركة وقد أسلمت قيادتها إلى زعيمها الجديد أبي لهب. وهكذا فيمكننا القول بأن الرسول ﷺ فقد الحماية التي كان يتمتع بها أيام أبي طالب وكان ﷺ يردد حين يتعرض للأذى "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب"[12]، وفي السيرة تشير الروايات إلى دعاء الرسول ﷺ حينما تعرض للأذى في الطائف حين ذهب ومعه مولاه زيد بن حارثة:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته امري؟

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي"[12].

وفي بيعة العقبة الثانية – والعقبة موضع بين مكة ومنى- في السنة الثانية عشرة من البعثه/ سنة622م حين قابل الرسول ﷺ مسلمي يثرب يظهر دور العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ حيث لعب دور الحامي والمدافع عن الرسول ﷺ مثلما كان أبو طالب، وكان العباس لا يزال مشركاً في ذلك الوقت حيث أحب العباس "أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له"، وقد افتتح العباس اللقاء بالقول:

"إن محمداً منّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا أن ينحاز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه وما نعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعه من قومه وبلده(14).

وكان وقع كلام العباس كبيراً على مسلمي يثرب فبادروا بالطلب من الرسول ﷺ بالتكلم والاشتراط، وبدأت الهجرة إلى يثرب بعد هذه البيعة، حيث ترك المسلمون دورهم وما تحتويه أمانة عند أهلهم أو معارفهم ولكن بعضهم تصرف بها وباعها. ويبدو أن عقيل بن أبي طالب باع البيت الذي ولد فيه الرسول ﷺ كما باع أبي لهب بيت خديجة أم المؤمنين(15).

لم يهاجر الرسول ﷺ إلا بعد أن هاجر جميع أصحابه إلا من حبسه أهله ومنعوه من السفر أو أفتتن فارتد وقد أشار القرآن إلى هؤلاء بقوله:

(الذين تتوفاهم الملائكة ضالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً).

لقد بقي علي بن أبي طالب ﷺ من بني هاشم مع الرسول ﷺ وكذلك أبو بكر الصديق بناء على طلب الرسول ﷺ، وحين أحس أشراف قريش وحلفائهم بـــالأمر عقدوا اجتماعاً في دار الندوة – التي أسسها قصي بني كلاب سيد قريش– حضرها ممثلو عشائر عبد شمس ونوفل وعبد الدار ومخزوم وأسد وسهم وجمح وقرروا بعد المناقشة قتل الرسول ﷺ. والملاحظ أن عبد شمس بن عبد مناف التي تعد مع بني هاشم فخذي (عبد مناف) العائلة التي تتمتع بالبيت والشرف، إلا أن موقفهم هذا من بني هاشم يفسره النزاع القديم بينهم على السيادة منذ أيام هاشم.

وكان قبول علي بن أبي طالب ﷺ المبيت في فراش الرسول ﷺ تضحية من أجل الدعوة الإسلامية وتفان في سبيل الحفاظ على ابن عمه محمد رسول الله ﷺ[16]. وقـــام أبو بكر الصديق ﷺ بصحبة الرسول ﷺ في الهجرة وكلف ابنته اسماء بنت ابـــي بكر ومولاه عامر بن مهيرة بتأمين الطعام لهما، واستغرقت رحلتهما إلى المدينـــة ثمانية أيام حيث وصلاها في 12 ربيع الأول من الـــسنة 13 للبعثـــة/ 24 أيلـــول سنة 622 م.

كان أول عمل قام به الرسول ﷺ هو بناء المسجد وبنى مسكنه إلـــى جانـــب المسجد وفيه دور زوجاته أمهات المؤمنين اللات أذهب الله عنهن الـــرجس، كمـــا بعث زيد بن حارثة وأبا رافع لجلب فاطمة وأم كلثوم ابنتيه ﷺ، وكـــذلك زوجتـــه سوده بنت زمعة، ويبدوا أن المهاجرين الجدد وجدوا صعوبة في التلائم مع منـــاخ المدينة وبيئتها، فعن عائشة (أم المؤمنين) ﷺ أن المدينة كانت "أوبأ أرض الله" وقد فسر بعض الباحثين المحدثين أن ذلك الوباء كان الملاريا[17].

ووقف بني هاشم مع الرسول ﷺ في جهوده لإرساء دعائم الدولة الجديدة فـــي المدينة كما وقفوا مدافعين عنه في مكة وهو يحاول نشر الدعوة الجديدة، ففي غزوة ودان وهي أول غزوة قادها الرسول ﷺ بنفسه وكان جميع أفرادها من المهاجرين وفيهم حمزة بن عبد المطلب حامل اللواء الأبيض. وكان هدف الغـــزوة التعـــرض

لقافلة تجارية قرشية، كما أرسل الرسول ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب في سرية إلى سيف البحر حيث قافلة لقريش جاءت من بلاد الشام تريد مكة، وكان الرسول ﷺ قد عقد لحمزة راية تقول عنها رواية في ابن هشام أنها "أول راية عقدها الرسول ﷺ لأحد من المسلمين"[18].

ويظهر دور رجال بني هاشم في معركة بدر التي حدثت في السنة الثانية للهجرة في شهر رمضان/ سنة 624 م حيث بدأت المنازلة قبل المعركة بين المسلمين ومشركي قريش، فقد تصدى حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ للأسود المخزومي وقتله، ثم خرج عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابنه الوليد فخرج لملاقاتهم ثلاثة فتية إلا أنهم طلبوا أن يخرج لهم عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وكانت نتيجة المبارزة مقتل المشركين الثلاثة[19].

وكان من نتائج معركة بدر أن نزلت سورة الأنفال التي أوضحت تقسيم الغنائم لأول مرة وخصت الرسول ﷺ وذوي القربى بخمس الغنائم، قال تعالى:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال: ٤١].

ومنذ ذلك التاريخ كانت الغنائم تقسم على خمسة أخماس، خمس واحد منها يقسم على أربعة ربع لله ورسوله ولذي القربى والأرباع الثلاثة الباقية كما ورد في الآية. كما تضاربت الآراء حول أسرى المشركين من قريش ولكن الرسول ﷺ أخذ برأي أبي بكر الصديق في العفو حين قال الصديق للرسول ﷺ:

" قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب فأمنن عليهم منّ الله عليك..."[20].

والواقع أن العديد منهم وكانوا سبعين أسيراً من عشائر قريش المعروفة ومـن بني عبد مناف وبني مخزوم وغيرهم وكان منهم أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ. كما روي عن أم سلمة (أم المؤمنين) زوجة رسـول الله ﷺ حـين جاءت تستأذنه في ضيافة أبناء عمها من الأسرى فقالت:

"يا رسول الله أن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم علي فأضيفهم وأدهن رؤسـهم وألم شعثهم ولم أحب أن أفعل ذلك حتى استأمرك، فقال رسول الله ﷺ: لست اكـره شيئاً من ذلك فافعلي ما بدا لك"[21].

ومما له علاقة بمنزلة الرسول ﷺ باعتباره من قبيلة عبد مناف التـي فيهـا "البيت والشرف" والتي - كما أشرنا سابقاً - كانت إحدى عشيرتي قريش المشاركة في المسؤليات الدينية والسياسية والعسكرية، اعتبار بيت المقدس من الأماكن الحرم، فقد كان الرسول ﷺ والمسلمون يتوجهون في صلاتهم خلال اكثر من ستة عـشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم أمره الله تعالى بالتوجه إلى المسجد الحرام بمكة.

قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

لقد أطاع المسلمون الأوائل قرار الرسول ﷺ الأول بالتوجه في الصلاة إلـى بيت المقدس واعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين لمنزلة الرسـول ﷺ ومكانته الدينية وانتمائه إلى عشيرة كانت قبل الإسلام مسؤولة عن الواجبات الدينية والسياسية، ولهذا فإن ما يقوله ويوجه به يعد أمراً مقبولاً من العرب المسلمون فـي هذا المجال.

ويظهر تعاون بني هاشم مع الرسول ﷺ في معركة أحد التي حدثت في أواخر السنة الثالثة للهجرة، ففي رواية للواقدي[22] أن العباس بـن عبـد المطلـب عـم

الرسول ﷺ قد كتب إليه يخبره بتوجه قريش لمحاربته مع بعض المعلومات عن قوة قريش وسلاحها. هذا من جهة ومن جهة فقد كان حمزة بن عبد المطلب[23] وهو من المسلمين الأوائل من المتحمسين لقتال قريش حتى إنه كان مع الاقتراح القائل بخروج المسلمين لملاقاة مشركي قريش خارج المدينة المنورة، وقد كان حمزة أحد الشهداء الخمسة والستين[24] الذين سقطوا في المعركة التي انتهت لصالح المشركين.

وفي السنة السادسة للهجرة حين اتفق المسلمون وقريش على صلح الحديبية دعا الرسول ﷺ علياً بن أبي طالب ليكتب نص الصلح وقد كتبه بنسختين احتفظ الرسول ﷺ بواحدة والثانية إلى المفاوض القرشي سهيل بن عمرو[25].

ولكن الصلح لم يقابل بالارتياح من المسلمين الذين كانوا مستعدين لأداء العمرة ولذلك فإنهم لم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ بالنحر، فدخل الرسول ﷺ على أم سلمة (أم المؤمنين) زوجته مغضباً فاقترحت عليه أن يبادر إلى نحر أضحيته وحينئذ سيوقنوا أن الامر اصبح نهائياً فيقتدون به وهذا ما قد وقع فعلاً[26]. وهكذا لعبت أم سلمة دوراً في إيجاد حل لعصيان المسلمين.

وفي صراع دولة المدينة، مع الإمبراطورية البيزنطية، حاول الرسول ﷺ توسيع نفوذه نحو الشمال وكان جعفر بن أبي طالب من بني هاشم أحد القادة الثلاثة[27] الذين أرسلهم مع الجيش سنة 8 هـ/ 630 م، وكان الرسول ﷺ قد أعطى قيادة الجيش إلى زيد بن حارثة فإن أصيب تكون القيادة لجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فلعبد الله بن رواحة، وودعهم الرسول ﷺ حتى بلغ ثنية الوداع وأوصاهم:

"اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين للناس فلا تعرضوا لهم، وستجدون أخرين للشيطان في رؤوسهم

مفاحص فاقلعوها بالسيوف ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مرضعاً ولا كبيراً فانيـــاً، لا تفرقن نخلاً ولا تقطعاً شجراً ولا تهدموا بيتاً"[28].

وقد استشهد جعفر بن أبي طالب في معركة مؤتة[29] مع القائــدين الآخــرين واستطاع خالد بن الوليد أن ينسحب بالجيش الإسلامي ويعود إلى المدينة.

ومرة أخرى يلعب العباس بن عبد المطلب دوراً مهماً في فتح مكة سنة 8 هـــ/630 م فقد كان العباس عائداً لتوه من الرسول ﷺ الذي كان معسكراً قرب مكة فقابل أبــا سفيان صخر بن حرب زعيم قريش فقال له:

"هذا رسول الله في عشرة الاف من المسلمين فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك"[30].

ونجح في إقناعه ومن معه في مقابلة الرسول ﷺ، واتفق مع أبي سفيان الذي كان آنذاك زعيم قريش بإقناع أهل مكة بعدم مقاومة الجيش الإسلامي، كما أعطــى النبي ﷺ أبا سفيان مكانة كبيرة بأن جعل "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومــن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن".

ويرى بعض الباحثين المحدثين أن أبا سفيان ومن معه من مــشركي قــريش الذين قابلوا الرسول ﷺ لا بد أن يكونوا وفد التسليم الذين اقتنعوا ومعهم قريش بعدم جدوى المقاومة وأنهم كانوا على اتفاق سابق مع العباس الذي خرج من مكة ليمهــد لهذا اللقاء[31].

وأمر الرسول ﷺ أن تضرب له خيمة من جلد ورفض أن ينزل في أحد بيوت مكة، وقد سئل النبي عن رغبته في النزول في منزله في الشعب، فأجــاب: وهــل ترك لنا عقيل منزلاً؟ وكان عقيل بن أبي طالب قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل أخوته بمكة بعد هجرتهم إلى يثرب.

لقد أقر الرسول ﷺ الوظائف الخاصة بمكة والبيت الحرام بيد أصحابها وكان مفتاح الكعبة وحجابتها بيد عثمان بن طلحة فأمره بألا يدع في البيت الحرام صورة

ولا تمثالاً إلا محاها. وطلب العباس بن عبد المطلب من البني ﷺ أن يعطيه حجابة البيت بالإضافة إلى سقاية الحجيج التي كانت له، فرفض الرسول ﷺ طلبه فيما يتعلق بالحجابة[32].

وحين خطب الرسول ﷺ في أهل مكة بعد الفتح لم ينسى أن يذكرهم بمسؤليات عشيرته التاريخية (البيت والشرف) بدءاً من قصي مروراً بعبد مناف وهاشم وعبد المطلب فقال من جملة ما قال:

"ألا أن كل رباً في الجاهلية أو دم أو مال أو مأثره فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ..إن الله أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها. كلكم من ادم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم.

إلا أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من النهار ..."[33].

لقد كانت سياسة الرسول ﷺ ومواقفه تهدف إلى التسامح مع أهل مكة وتأليف قلوبهم، ومن هنا فإنه قبل مغادرته مكة عائداً إلى المدينة عين والياً على مكة هو عتاب بن أسد بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن (عبد مناف). ويتضح من هذا الاختيار أن الرسول ﷺ اختار الوالي من أسرة بني أمية القوية التي كانت لها الزعامة في تلك الفترة في مكة كما وان الاسرة تنتمي – مثل بني هاشم – إلى عبد مناف العشيرة التي فيها البيت والشرف قديماً، وهكذا فإن هذا الإجراء الذي يظهر فيه تأليف قلوب المسلمين الجدد من قريش لم ينسى كذلك أن يكون الشخص المختار للولاية من أصحاب المكانة والشرف، وهذا ما فعله النبي ﷺ بصورة عامة مع شيوخ القبائل وزعمائها الذين أسلموا بعد الفتح فلم يطلب منهم التنازل عن سلطتهم بل يحتفظون بها بعد ن يعلنوا إسلامهم وإسلام قبائلهم "فاشراف الناس في الجاهلية هم أشرافهم في الإسلام ما فقهوا"[34] كما أن تقسيمه لغنائم معركة حنين بالطريقة التي قسمت فيها كانت تهدف إلى الغاية نفسها[35]. من هنا نرى أن

استنتاجات بعض الباحثين من أن رسول الله ﷺ قد استبعد بشكل مقصود بني هاشم أو المهاجرين الأوائل والأنصار من المسؤليات الإدارية والسياسية أو من الفيء والغنيمة أمر مبالغ فيه وليس له مبرره.

وفي السنة التاسعة للهجرة أرسل الرسول ﷺ عدة سرايا كان منها سرية بقيادة علي بن أبي طالب ﷺ إلى قبيلة طي لهدم صنمها. وكان ذلك قبيل حملة تبوك على أطراف الامبراطورية البيزنطية[36].

ومما له علاقة بالبيت وأهل البيت لا بد من ملاحظة الظاهرة التي استجدت فيما سمي بعام الوفود وهو العام التاسع من الهجرة/ 631 من الميلاد حيث انجفلت وفود القبائل العربية إلى المدينة المنورة من كل حدب وصوب، وفي رواية لابن إسحق أن سبب هذا الإقبال الشديد هو: "أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت... وقادة العرب لا ينكرون ذلك.. فلما افتتحت مكة ودانت له النبي ﷺ قريش ودوخها الإسلام وعرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله..."[37].

وتأتي خطبة علي بن أبي طالب ﷺ في منى يوم عرفة في موسم الحج من السنة التاسعة للهجرة وبتوجيه من الرسول ﷺ لتؤكد دور آل البيت بني هاشم في مسيرة الدعوة الإسلامية، ذلك أن الرسول ﷺ في تلك السنة وبعد نزول عدة أيات من سورة براءة (التوبة) دعا علياً بن أبي طالب وسلمه الآيات وطلب منه أن يلحق بأبي بكر أمير الحج في ذلك الموسم وأن يقرأها بنفسه على الناس يوم عرفة. وتأتي اهمية الإمام علي هنا من منطلق أن العهود بين القبائل والرسول ﷺ كانت عهوداً شخصية ومن ثم فلا يجوز أن يلغيها إلا مبرمها أو أحد أهل بيته، لذلك فإن الرسول ﷺ أجاب الذي اقترحوا عليه أن يتولى قراءة الآيات أبو بكر بصفته أمير موسم الحج بقوله: "لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي"[38].

لقد قام علي بن أبي طالب ﷺ بالمهمة حيث وقف يوم عرفة فقال:

"أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته وأحل الناس أربعة أشهر من يوم إذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فهو إلى مدته"[39].

وقد ازداد إقبال المشتركين على الإسلام بعد أن أسلمت قريش. وبدأ الرسول ﷺ يرسل عماله ودعاته إلى القبائل لجباية الزكاة وتعليم أصول الدين الإسلامي وكان منهم علي بن أبي طالب من بني هاشم الذي أرسل إلى أهل نجران ليجمع الزكاة والجزية ويعلم المسلمين تعاليم دينهم[40].

وفي حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة وبعد أن أنهى الرسول ﷺ مناسك الحج خطب بعرفه وأوضح أحكام الإسلام وذكر عمه العباس بن عبد المطلب لكي يؤكد أن لا محاباة في الإسلام فقال من جملة ما قال:

".... أيها الناس أن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم... وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلمون، قضى الله أن لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وان كل دم في الجاهلية موضوع..."[41].

وكان عبد الله بن العباس ﷺ يسمي هذه الحجة (حجة الإسلام)[43]، كما وأنها سميت حجة البلاغ. وفي رحلة العودة إلى المدينة المنورة بعد حجة الوداع في السنة نفسها نزل الرسول ﷺ في مكان يسمى غدير خم وخطب هناك وأكد على ضرورة تمسك الناس بكتاب الله وبأهل البيت، قال[43].

"أما بعد ألا أيها الناس إنما انا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله عز وجل فيه الهدى والنور... وعترتي أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي قالها ثلاثاً... ثم قال عليه ﷺ ألستم تعلمون وتشهدون اني

أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا بلى يا رسول الله، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فرفعها... ثم قال: الا من كنتُ مولاه فعلى مولاه اللهم والي من والاه وعاد من عاداه".

لقد كان الرسول ﷺ يعتز بأهل بيته وبني هاشم عموماً وبني المطلب ويذّكر المسلمين بهم ويفضلهم ويستخدمهم في المهمات الصعبة والحساسة كما لاحظنا من الشواهد التي أشرنا إليها ولكنه ﷺ لم يكن يريد أن يقول الناس أنه حاباهم وقرّبهم واعتمد عليهم دون سواهم من المسلمين، فالإسلام لم يؤسس على قواعد العصبية والقربى والمحاباة بل على التقوى، كما وكانت هناك أسباب أخرى وظروف معينة أشرنا إليها كان على الرسول ﷺ أن يراعيها ويأخذها بنظر الاعتبار.

وهنا يعترضنا سؤال طالما ذكره المؤرخون المحدثون ولمح له بين السطور مؤرخون أوائل ولكن الذي عالجه صراحة وطرحه على بساط البحث المؤرخ المقريزي (ت 845هـ) في كتابه الموسوم (النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم)[44] مستنداً على وقائع التاريخ وأحداثه.

ويتعجب المقرزي من تطلع (تطاول) بني أمية إلى الخلافة في الإسلام خاصة وان تاريخهم قبل الإسلام يظهر النزاع (العدواة) بينهم وبين بني هاشم ثم عداوتهم للرسول ﷺ في الحقبة المكية من الدعوة الإسلامية وخلال ثلاث عشرة سنة، ثم ينتقل المقريزي إلى ذكر أسباب الخلافة ويرى بأنها كانت في "القرابة والسابقة" والوصية على قول من يرى ثبوت الوصية فقد اجتمعت في علي بن أبي طالب فلماذا غدت الخلافة والسلطة في بني امية دون بني هاشم، ثم يقول: "وما زلت طول الأعوام الكثيرة اعمل فكري في هذا وأشباهه..الى أن اتضح لي والحمد الله وحده سبب أخذ بني أمية الخلافة ومنعهم بني هاشم وذلك أن اعجاز الأمور لا تزال ابداً تالية لصدورها والأسافل من كل شيء تابعة لآعاليها وكل أمر كان خافياً إذا انكشف سببه زال التعجب منه"[45].

ويرى المقرزي الأسباب التي مهدت لبني أمية الوصول إلى الخلافة في ممارساتهم القريبة العهد قبيل الإسلام في مجال السلطة والقيادة العسكرية والآمرة على القبائل. وحين جاء الرسول ﷺ كان جل عماله على مكة والطائف ونجران وكندة واليمن وعمان والبحرين وتيماء وخيبر وفدك من بني أمية أو حلفائهم ويتسائل المقريزي بعد ذلك:

"فإذا كان رسول الله ﷺ قد أسس هذا الأساس وأظهر بني أمية لجميع الناس بتوليهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد كيف لا يقوى ظنهم ولا ينبسط رجائهم ولا يحتد الى الولاية أملهم".

ويستطرد المقريزي قائلاً أن أبا بكر الصديق ﷺ وعمر بن الخطاب ﷺ اقتديا برسول الله ﷺ في هذا المجال "فلم يكن في عمال رسول الله ﷺ ولا في عمال أبي بكر وعمر ﷺ أحداً من بني هاشم، فهذا وشبهه هو الذي حدد أنياب بني أمية وفتح أبوابهم وأترع كأسهم وفتل أمراسهم"(46).

وفيما يتعلق بالمنافسة على خلافة رسول الله ﷺ فقد انتقلت الخلافة إلى المهاجرين من قريش ولكن ليس إلى بني هاشم، وغدت قريش تحمل راية الإسلام وتقضي على المرتدين مضحية بخيرة أبنائها وعلى رأس قريش بني أمية وبني مخزوم. ثم تمكنت عشائر قريش من فرض مرشحهم عثمان بن عفان وليس علي بن أبي طالب الهاشمي في الشورى، ثم انتصر الأمويون ثانية في الفتنة على علي بن أبي طالب ﷺ. وقد يكون استنتاج المقرزي صحيحاً إذا أدركنا أنه نظر إلى الأحداث بنظر المؤرخ بعد أكثر من ثمانية قرون، ويبقى على الباحث أن يتساءل كيف نظر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وكذلك جمهور المسلمين إلى هذه المتغيرات؟؟

إن أول ما يلاحظه الباحث هو أن بني هاشم لم يكونوا بعيدين عن المشاركة في الأحداث فالرسول ﷺ منهم وقد اعتمد عليهم واستند إليهم في حمايته والدفاع عن الدعوه الإسلامية أثناء إجراءات قريش التعسفية وخلال الحصار الاقتصادي

وان ما فعله أبو طالب والعباس وحمزة أعمام النبي ﷺ يشار إليه بالبنان، وكذلك فإن أعمال علي بن أبي طالب في الحقبة المكية وبعد تأسيس الدولة في المدينة ومشاركته في أمور السياسة والحرب والفقه ومنجزات أخرى لا ينكرها أحد، وقس على ذلك أدوار جعفر بن أبي طالب وبني الحارث بن المطلب والتي أشرنا إليها سابقاً، ولهذا نلاحظ أن دور بني هاشم وبني المطلب خلال حقبة الدعوة والتي استمرت ثلاث عشر سنة كان واضحاً وحاسماً ومهماً.

وقد استمر دور البارزين من بني هاشم والمطلب محسوساً بعد تأسيس الدولة الإسلامية. إلا أن الظروف التي استجدت بعد تأسيس الدولة إختلفت عن ظروف الدعوة، وهنا ظهرت براعة الرسول ﷺ الدبلوماسية وتصرفه كرجل دولة مقدراً الظروف الجديدة مدركاً ضرورة الوصول إلى تفاهم مع عشائر قريش المتنفذة وأهمية طمئنتهم على مركزهم ونفوذهم الذي اعتادوا عليه. وكان بنو أمية وحلفائهم ذوي نفوذ في السياسة والحرب واستشعروا الخطر بعد ظهور الدعوة الأسلامية في بني هاشم وتوقعوا أن النبي الهاشمي سيسلبهم ذلك النفوذ، فعمل النبي ﷺ من جانبه وبحكمة واضحة على إزالة هذا الشعور بالخوف والقلق على مستقبلهم فاستعملهم في البلدان والأعمال مستفيداً من خبرتهم الواسعة في بناء الدولة الجديدة.

ثم أن توزيع المناصب والأعمال من قبل الرسول ﷺ لم يكن يتم على أسس القربى وإنما على أساس قاعدة عريضة تستند إلى الكفاءة والخبرة والرجل المناسب في المحل المناسب. وبعكس ذلك لأتهم الرسول ﷺ بالمحاباة لأقربائه من بني هاشم، والإدارة عند الرسول ﷺ أمانة ومسؤولية لا يقدر عليها إلا النفر المناسب لها وهي بعد ذلك "خزي وندامة يوم القيامة إلا من أعطاها حقها".

لذلك فمن المحتمل أن موقف الرسول ﷺ والخلفاء من بعده كان اعتيادياً طالما وقفته الدولة من أجل زرع الأمن والطمأنينة في نفوس فئات من المسلمين الجدد

وائتلاف قلوبهم وكسبهم إلى الدولة والدعوة الجديدة وهذا ما حصل فعلاً حيث غدت قريش بكل طاقات أبنائها ونفوذها بين القبائل العربية في خدمة الإسلام.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عشيرة عبد مناف الابن الأصغر لقصي كانت قد تفرعت إلى فخذين: الأول هاشم والثاني عبد شمس، وترى بعض الروايات التاريخية أن دعوة الله تعالى لرسوله، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. تدل ليس فقط على بني هاشم، بل على كافة عبد مناف وخاصة هاشم وأمية وهما عشيرتي قريش اللتين تشاركان في الواجبات الدينة والسياسية/ العسكرية، فكان النبي محمد ﷺ والحالة هذه ينتسب إلى عبد مناف من خلال هاشم وأبو سفيان ينتسب إلى عبد مناف عن طريق عبد شمس. إن أهمية عبد مناف ومكانتها المميزة بحيث عدت في وقتها الممثلة لبيت قريش كان من جملة العوامل التي تفسر نجاح النبي ﷺ بين القبائل وخارج مكة كما وتفسر موقف النبي ﷺ بعد تأسيس الدولة المتسامح والمتعاون مع أفخاذ قريش وخاصة بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ومثلما دخل نفر من بني هاشم إلى جماعة المسلمين الأوائل كذلك انضم نفر من بني أمية إلى المسلمين الأوائل كان منهم عثمان بن عفان.

ولكن وفاة الرسول ﷺ يلاحظ بأن أسرة الرسول ﷺ سواء بمعناها الضيق (بني هاشم) أو بمعناها الواسع (بني عبد مناف) قد أبعدت عن الخلافة، فكان انتخاب أبي بكر الصديق – كما يقول الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ: "فلتة وقانا الله شرها"[47].

كما وأن أفراداً بارزين من بني هاشم لم يحضروا اجتماع السقيفة أو لم يدعوا إلى حضوره ومن هنا جاءت الروايات التي أشارت إلى تردد علي بن أبي طالب ﷺ ثم تأخره عن البيعة واعتراضه في البداية عليها. وتشير روايات[48] أخرى إلى امتناع هاشميين وأمويين من عشيرة عبد مناف عن البيعة للصدّيق، وقد دعي كل من علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان إلى ترشيح نفسيهما فكان العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وأبي سفيان صخر وخالد بن سعيد بن العاص يميلون إلى

علي بن أبي طالب، ولكن انعقاد الإجماع على أبي بكر الصديق امتص المعارضة. على أن السلطة والخلافة ما فتئت أن عادت إلى بيت عبد منـــاف (الأمـــويين ثـــم الهاشميين/ العباسيون) ولكن المشادة بقيت مستمرة وتدور حول سؤال ظل يتـــردد وهو من يخلف الرسول ﷺ؟ وإذا كان آل البيت أحق من غيرهم فمن هم آل البيت؟ هل هم عشيرة عبد مناف أم بني هاشم؟ وإذا كانوا محصورين في بني هاشم فـــأيهم أحق بخلافة النبي ﷺ العلويين أم العباسيين أم الجعفـــريين؟ وإذا انحـــصرت فـــي العلويين فأي منهم الحسنيين أم الحسينيين (الفاطميون) أم تتسع الحلقـــة لتـــشمل ال محمد بن الحنفية؟ (الابن الآخر لعلي بن أبي طالب).

الهوامش:

أولاً:

(1) ابن اسحق، المغازي والسير، الرباط، 1976 ص1- ابن حـــزم، جوامـــع الـــسيرة، القاهرة، دار المعارف، ص2.

(2) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، 1967، جـ 3، ص 215 فمـــا بعـــد – صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، بغداد، 1955، ص 232.

(3) القرآن الكريم، صورة الأحقاف، الآية 15.

(4) راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، 1960، جـــ 1، ص 82 فما بعد – ابـــن اســـحق، المغازي والسيرة، ص 3 فما بعد.

(5) ابن هشام، السيرة النبوية، مصر، 1955، القسم الأول، ص 117 فما بعد.

(6) ابن هشام، السيرة، ق 1، ص 125 فما بعد – ابن سعد، الطبقات، جـــ 10، ص 70 فما بعد.

(7) ابن سعد، الطبقات، جـــ، ص 119 فما بعد.

(8) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، بيروت، 1983، ص 120 – ابن إسحق المغـــازي، ص 60 – ابن سعد، الطبقات، جـــ 1، ص 131 فما بعد.

(9) ابن إسحق، المغازي، ص 121 فما بعد.

(10) المصدر السابق، 205 فما بعد.

(11) ابن هشام، السيرة، ص 1، ص 351 – ابن إسحق، المغازي ينص 135 فما بعد.

(12) ابن هشام، السيرة، ق1، ص416.

(13) المصدر السابق، ص420.

(14) المصدر السابق، – الطبري، تاريخ، جـــ2، ص362 فما بعد.

(15) الأزرقي، أخبار مكة، بيروت، 1979، جـــ2، ص245 فما بعد.

(16) ابن هشام، السيرة ق1، ص484-485.

(17) صالح العلي، الدولة في عهد الرسول، بغداد، 1988، جـ1، ص90.

(18) ابن سعد، الطبقات، جـ2، ص6-8 ابن هشام، السيرة، ق1، ص595.

(19) ابن هشام، السيرة، ق1، ص624 فما بعد.

(20) الواقدي، المغازي، بيروت، 1964، جـ1، ص108.

(21) المصدر السابق، جـ1، ص118 فما بعد.

(22) المصدر السابق، جـ 1، ص 203.

(23) ابن هشام، السيرة، ق 2، ص 63.

(24) المصدر السابق، ص 122.

(25) المصدر السابق، ص 137.

(26) الواقدي، المغازي، جـ 2، ص 613.

(27) المصدر السابق، 756.

(28) المصدر اسابق، ص 758.

(29) ابن هشام، السيرة، ق 2، ص 375.

(30) الواقدي، المغازي، جـ 2، ص 815-818.

(31) الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، القاهرة، 1965، ص 526، هاشم يحيى الملاح، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الاشدة، الموصل، 1991م، ص 285 فما بعد.

(32) الواقدي، المغازي، جـ 2، ص 833- 835.

(33) المصدر السابق، 835- 836.

(34) المصدر السابق، جـ3، ص 944 فما بعد -ابن هشام، السيرة، ق 2، ص 499-500.

(35) ابن سعد، الطبقات، جـ 2، ص 160 فما بعد.

(36) ابن هشام، السيرة، ق 2، ص 560.

(37) المصدر السابق، ص 545.

(38) المصدر السابق، ص 546.

(39) المصدر السابق، ص 600.

(40) المصدر السابق، ص 603 فما بعد.

(41) ابن سعد، الطبقات، جـ، ص 172.

(42) روي الحديث بأسانيد عديدة. راجع مسند أحمد بن حنبل جـ1/ 84، 88، 119 – ابن حجر، فتح الباري، جـ 7، ص 74. للمزيد راجع كتب الحديث في باب المناقب.

(43) المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم، ليدن 1888. قارن الجاحظ، فضل بني هاشم على بني عبد شمس (رسائل الجاحظ، السندوسي).

(44) المصدر السابق، ص 30-31.

(45) المصدر السابق، ص 34-39.

(46) محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ص 144 فما بعد.

(47) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ 1، ص 12- وربما كانت لبعض هذة الروايات مبالغ فيها أو موضوعة في العصور التالية:

(48) ابن قتيبة المصدر السابق، جـ1، ص12.

ثانياً:

بيوتات بني هاشم

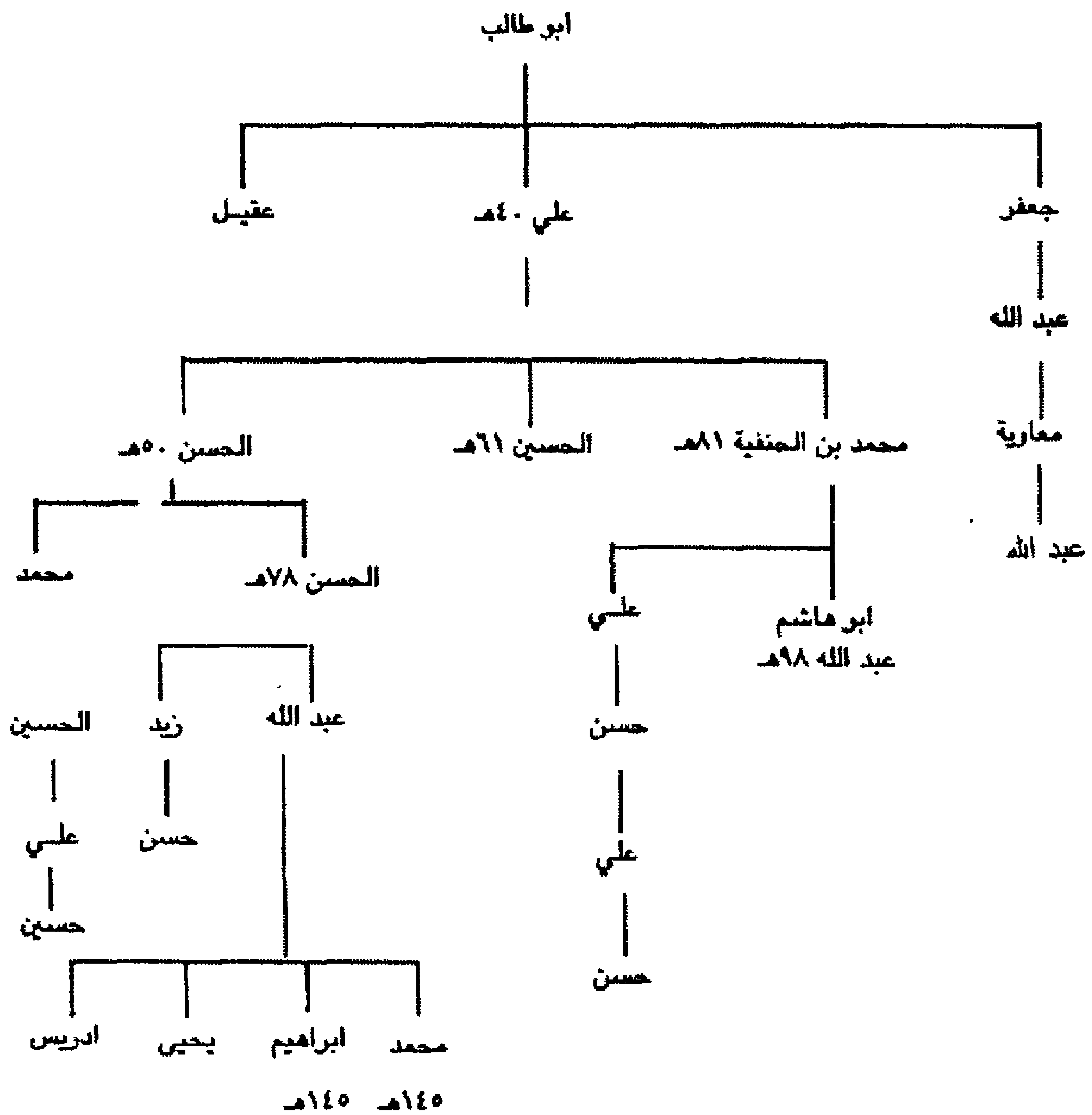
- ❖ علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وبيته.
- ❖ عبد الله بن العباس بن عبد المطلب وبيته.
- ❖ جعفر بن ابي طالب بن عبد المطلب وبيته.
- ❖ عقيل بن ابي طالب بن عبد المطلب وبيته.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

"إن الله لما قبض نبيه استأثرت علينا قريش بالأمر ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة، فرأينا أن الصبر أولى من تفريق كلمة المسلمين وسفك دمائهم والناس حديثوا العهد بالإسلام، والدين يمخض مخض الوطب يفسده أدنى وهن ويعكس أقل خلاف".

ابن أبي الحديد، شرح منهج البلاغة، ط ص 248.

الطالبيون (آل علي وآل جعفر وآل عقيل)



قال علي بن ابي طالب ﷺ:

إن شخصية الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، تعدّ من الشخصيات المشهورة في تاريخ الإسلام، لا في روايات المؤرخين الرواد فحسب، بل في الملاحم والقصص الشعبية التي نسجت عنه بعد وفاته كذلك. إن هذه الحالة تدفع الباحث إلى الحذر وهو يقرأ مئات الروايات المفعمة بالخيال البرّاق والأسطورة المحاكة والقصة المحبوكة والخبر المبالغ فيه والموضوع.

في الروايات التاريخية التي تتكلم عن سيرة الإمام علي بن أبي طالب اختلطت الأحداث بالتفاسير المتناقضة الصادرة عن أهل الأهواء والنحل الإسلامية وغير الإسلامية. وتقضي الموضوعية إخضاع كل منها (الحادثة والتفسير) إلى أصول البحث العلمي في التاريخ. وقد تكون معالجة الحادثة أسهل من معالجه التفسير. ففي الحادثة قد يطرأ تحريف سرعان ما ينتبه الباحث بمقارنة الروايات المتنوعة، أما التفسير فهو الأصعب في الفرز والأخطر في التحري والتأكد لأنه ينبعث من ميول الراوية السياسية والدينية والاجتماعية وحتى النفسية، ويعتريه التشكيك والدس والتشويه معاً مما يدعو إلى الحيطة ويجعل الأمر أكثر تعقيداً. إن صورة الشخصيات الكبيرة في التاريخ وبصفة خاصة في تاريخنا الإسلامي في القرون الأولى، اختلفت وتنوعت تبعاً لأهواء الرواة والأخباريين ومن ثم المؤرخين الرواد فهنالك صورة شائعة ومتداولة وهنالك صورة مفضلة لدى عدد من المستشرقين نقلها عنهم بعض مؤرخينا المحدثين. ولو حاولنا ان نعيد قراءتنا للروايات التاريخية والعديدة والمتنوعة في سندها لدى مؤرخينا الرواد أمثال الطبري وابن خياط والبلاذري وغيرهم لرأينا صورة ثانية لتلك الشخصية إلى جانب الصورة الأولى ينقلها رواة ثقات أيضاً وأقل ما يقال عن هذه الصورة أنها تعدل من الصورة الأولى.

وبقدر تعلق الأمربالأمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، فإننا نستطيع القول بأن هذة التناقضات في الروايات التاريخية وتفاسيرها أخفت شخصيته الحقيقية وضيّعت مظاهر سياسته ومغازي مواقفه. ولعل ذلك يعود إلى ظروف عصره.

ومما زاد في الطين بلّة ووضع عراقيل أكثر أمام محاولة تفهم شخصية الأمام علي ﷺ وتوضيح صورته الحقيقية ميول المؤلفين والكتّاب ونزعاتهم الدينية/ السياسية بل الغريب في حالة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ أن مصادر الشيعة المتأخرة زادت من غموض شخصيته حيث امتزجت الوقائع بتراكمات أسطورية ومعجزات خيالية بعيدة عن الواقع التاريخي، فالكتّاب الشيعة الامامية المتأخرين أمثال القمي في كتابه (سفينة البحار) والمجلسي (ت 1700م/ 1112هـ) في كتابه (بجار الأنوار)[1] يعطيان صورة فريدة ومزوقة وأسطورية تختلط فيها الروايات التاريخية بالروايات الخيالية مما جعل الكاتبين لا يتمتعان بأية قيمة تاريخية إلا إذا قورنت رواياتهم بكتب التراجم الشيعية في القرون الإسلامية الأولى أمثال رجال النجاشي ورجال الكشي وغيرهما. أن المصادر الشيعية الأمامية أمثال الكافي للكليني والإرشاد للشيخ المفيد والاحتجاج للطبرسي إضافة إلى كتب الرجال الشيعة التي أشرنا إليها قبل قليل تعطي صورة معقولة للأئمة العلويين رغم عدم خلوها من الأسطورة، بل أن مؤلفاً إسماعيلياً متقدماً مثل أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون الذي توفي سنة 362هـ/974م وعاش في كنف الفاطميين يعطي في كتابه الموسوم "شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار"[2] والذي يستند على مصادر متقدمة أغلبها مفقود يعطي صورة أكثر قبولاً واعتدالاً للأئمة، وتتفق إلى حد كبير مع المصادر السنية مثل وفيات الاعيان وحلية الأولياء والطبقات الكبرى وكذلك مع المصادر الشيعية مثل الكافي والإرشاد والاحتجاج مع اختلاف في الاسناد (سلسلة الرواة) أحياناً مما يزيد الثقة في أخبارها.

نستخلص من هذه المقدمة أن خروج الباحث بصورة أقرب ما تكون إلى الصحة عن الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يستدعي منه بذل الجهد والوقت في غربلة الروايات ونقدها.

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي الهاشمي القرشي(3). ابن عم رسول الله عليه وسلم وزوج فاطمة الزهراء ورابع الخلفاء الراشدين. وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. فهو هاشمي من جهة الأب والأم. ولد علي بمكة بعد حوالي ثلاث عقود من ولادة رسول الله عليه وسلم وتربى في بيت الرسول ﷺ ذلك أن أباه الذي تكفل الرسول في صغره كان كثير العيال قليل المال فكان أن أخذ الرسول علياً ليربيه في بيته كما أخذ العباس ابناً آخر لأبي طالب. وقد أشار إلى ذلك علي بقوله "وقد تعلمون موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، وضعني في حجره وأنا وليد ليضمني إلى صدره... وما وجد فيّ قول وغلطة في فعل وكنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه يرفع لي من كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به"(4).

وكان علي من السابقين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام وكان عمره حوالي عشر سنين. وحين هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة تركه على على فراشه ليوهم المتآمرين على قتله. وليعيد الأمانات إلى أصحابها وكان في ذلك تضحية كبيرة من علي بن أبي طالب، ثم التحق بالرسول ﷺ بالمدينة وهناك تزوج من فاطمة الزهراء ﷺ، فولدت له الحسن والحسين ولم يتزوج عليها في حياتها.

لعب علي ﷺ دوراً بارزاً في الدعوة الإسلامية منذ بدايتها في مكة ثم تأسيس الدولة الإسلامية في المدينة المنورة. وقد ظهرت هذه القرابة الروحية القريبة في أقوال الرسول ﷺ في علي ﷺ حيث قال له:

"أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي"(5).

وقوله:

"من كنت مولاه فهذا علي مولاه"[6].

كما ظهرت في مواقف وسياسات الإمام علي حين تحمل مسؤولية الأمة وبويع خليفة للمسلمين سنة 35هـ/ سنة655م.

لقد ساهم علي بن أبي طالب في كل الحملات والمغازي التي قام بها الرسول ﷺ تقريباً، وكان يحمل اللواء، كما عين قائداً لحملتين سنة 6هـ/ سنة 628م وسنة 10هـ/ سنة632م[21]. وبرزت في الحملات شجاعته وعدم مبالته بالمخاطر من أجل الدعوة الإسلامية وتطلعه منذ البداية إلى الشهادة، ففي معركة خيبر التي حمل فيها الراية اندفع وهو يقول:

"والذي نفسي بيده، لأذوقن ما ذاق (حمزة) أو ليفتحن الله لي"[8].

وبالأضافة إلى أعماله العسكرية كان كاتباً للرسول ﷺ وأرسل في مسؤوليات دبلوماسية/ إدارية/ دينية كانت مسؤولية كسرالأصنام في الكعبة واحدة منها وكذلك قراءة أول آيات سورة براءة على الحجيج سنة 9هـ/ 627 م وداعية إلى نجران باليمن[9].

أما موقفة من الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ فالروايات التاريخية تعطينا أكثر من صورة وتفسير لأحداث تلك الفترة وردود الفعل لدى الإمام علي ﷺ عليها.

والمعروف أن علياً وبعض الصحابة الآخرين وخاصة من بني هاشم انشغلوا بتجهيز الرسول ﷺ بعد وفاته، ولم يحضروا ﷺ اجتماع السقيفة، والمعروف كذلك أن المسلمين لم يكونوا على رأي واحد حول مسألة خلافة الرسول ﷺ. والصورة الشائعة[10] لدى عدد من المؤرخين المحدثين أن كتلة المهاجرين (من غير بني هاشم) كانت أنشط الكتل ونجحت في ترشيح أبي بكر الصديق والبيعة له من قبل غالبية المهاجرين والأنصار مؤكدة مركز قريش من حيث كونها "أوسط العرب"، وأن

العرب لا ترضى أن، يؤمروا غير قريشي لأن النبي ﷺ منها وعلى حد قول أبي بكر الصديق:

"من ذا ينازعنا سلطان محمد وامارته ونحن أولياؤه وعشيرته"[11].

وتستمر الصورة نفسها فتقول أن أبا بكر الصديق ثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة والصلاة أفضل دين للمسلمين، إضافة إلى تجربته وسنّه وسابقته وصحبته للرسول ﷺ وخدماته في سبيل الدعوة. ولكن سعد بن عبادة الأنصاري وعلي بن أبي طالب القرشي الهاشمي تخلفا عن البيعة. وبقدر تعلق الأمر بعلي – موضوع بحثنا – تقول الرواية أن علياً احتج على المهاجرين مستنداً على الأساس نفسه الذي جادلوا به الأنصار ومستفسراً:

"أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي وتأخذونه من أهل البيت"[12].

ثم أردف قائلاً مؤكداً حق آل البيت:

"يا معشر المهاجرين لا تخرجوا سلطان محمد من العرب من داره إلى دوركم وتدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه فوالله لنحن أحق به لأننا أهل البيت"[13].

ويبدو أن مطامح بني عبد مناف عموماً وبني هاشم خصوصاً قد تحركت وهي ترى رئاسة الدولة قد ذهبت إلى غيرها من بطون قريش. فطلب العباس بن عبد المطلب من علي بن أبي طالب أن يرشح نفسه بقوله:

"ابسط يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك"[14].

وكان العباس بن عبد المطلب قد طلب من علي بن أبي طالب قبيل وفاة الرسول ﷺ أن يسأله "فيمن يكون هذا الأمر"؟ فإن كان فينا علمناه وإن كان في غيرنا أوصى بنا" فأجابه علي حسب الرواية نفسها:

"لئن سألنا رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطينها الناس ابداً..."[15].

أما أبو سفيان صخربن حرب زعيم مكة ورئيس عبد مناف فقد حث علياً إعلان ترشيحه بقوله:

"يا أبا الحسن أبسط يدك حتى نبايعك"[16]، ولكن علياً أبى ذلك خوف الفتنة معتبراً ذلك تآمر على الإسلام خاصة بعد أن بويع أبو بكر بالخلافة وانتهى الأمر.

وتبقى هذة الصورة – الصورة الأولى– ناقصة حتى تستكمل بأقوال من ثاني زعماء المهاجرين وهو عمر بن الخطاب ﷺ حيث قال لعبد الله بن العباس مؤكداً على دور التقاليد العربية بالإضافة إلى القيم الإسلامية في تقرير رئاسة الدولة:

"إن الناس قد كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة وأن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت"[17].

ثم في قول ثالث الثلاثة من المهاجرين أبي عبيدة عامر بن الجراح مجيباً على احتجاج علي الذي كان قد تعدى الثلاثين من عمره: إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم للأمور"[18]. ولكن علياً امتنع عن البيعة طيلة حياة فاطمة التي توفيت بعد الرسول ﷺ بحوالي ستة أشهر على أصح الروايات.

وإلى جانب الصورة الأولى هذه فإن الباحث إذا حاول أن يعيد قراءة روايات المؤرخين الرواد أمثال الطبري وخليفة بن خياط وابن سعد والبلاذري وابن أعثم الكوفي وغيرهم، لتبين له صورة ثانية للأحداث وتفسيرها ينقلها رواة ثقاة أقل ما يقال عنها أنها تعدل الصورة الأولى إن لم تكن تغيرها في بعض محاورها.

فالصورة الثانية[19] تشكك في أن يكون لعلي بن أبي طالب أملاً في خلافة الرسول ﷺ وتؤكد عدم مخالفته للبيعة لأبي بكر الصديق، وفي رده على أبي سفيان الذي حثه على طلب الخلافة قال "إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً" وحين استمر ابو

سفيان في تحريض العباس وعلي على المعارضة منتقصاً من قبيلة أبي بكر اتهمه علي بالتحريض على الفتنة.

حين أبدى أبو بكر الصديق رغبته في ترشيح عمر بن الخطاب لرئاسة الدولة (الخلافة) أبدى بعض الصحابة تحفظاً أو تردداً حول هذا الترشيح ولم يكن علياً بن أبي طالب واحداً منهم، بل كان في أحيان عديدة مشاوره ومساعده الأيمن، وجعله نائبه حين خرج إلى بلاد الشام. وقد نقل عن الخليفة عمر بن الخطاب في روايات عديدة استشارة علي بن أبي طالب في العديد من أمور الفقه والأحكام والدين وكان يقول: "لولا علي لهلك عمر". وقد بادله الإمام علي المشاعر نفسها فقد أعلن في أول خطبة له بالكوفة بعد تسنمه الخلافة:

"إلا أن خير هذه الآمة بعد نبيها أبو بكر وعمر".

وحين أوشك الخليفة عمر بن الخطاب على الموت بعد الطعنة اتجه إلى فكرة الشورى المستندة في أساسها على مباديء الإسلام التي لا تتعارض مع قيم العروبة. لقد أدرك عمر حراجة الموقف وكان هدفه الحرص أن يتولى أمر المسلمين أصلحهم فجعل الخلافة شورى بين ستة من الصحابة بينهم علي بن أبي طال -توفي الرسول ﷺ وهو راض عنهم ويبدو من كلامه في اخر أيامه حين قال:

".... أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر أني لسعيد.. وانظر أن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يقصد أبا بكر) وإن اترك فقد ترك من هو خير مني (يقصد الرسول ﷺ) ولن يضيع الله دينه".

كان عمر متردداً يحاول اتخاذ القرار الأصلح للأمة الإسلامية، ومع أن الستة الذين رشحهم لرئاسة الدولة كانوا من قريش فقد أشار بتفضيله سالم مولى حذيفة لو كان حياً لأنه سمع رسول الله ﷺ يقول عنه "إن سالماً كان شديد الحب لله".

وحين انحصر الترشيح بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسئل علي عن موقفه من سيرة الشيخين وسياستهما أجاب في رواية "على الاجتهاد" وفي

رواية أخرى "اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي". وحين أعلن عبد الرحمن بن عوف ﷺ البيعة إلى عثمان بالخلافة بايعه جميع من حضر المسجد وكان منهم علي بن أبي طالب، بل إن رواية أخرى تقول أن علياً كان ثاني من بايعه بعد عبد الرحمن بن عوف، الذي أقر بمنزلة علي بن أبي طالب الكبيرة بين المرشحين لقرابته وسابقته وحسن أثره في الدين، ولكن أكثر أهل الشورى وغالبية أصحاب رسول الله ﷺ كانوا مجمعين على عثمان بن عفان.

وتعطي روايات أخرى صورة أخرى لموقف علي بن أبي طالب ﷺ من بيعة عثمان بن عفان ﷺ ترى بان أواصر القربى بين عبد الرحمن وعثمان كانت عاملاً في ترجيح كفة عثمان وتعزز هذه الروايات ادعائها بقول علي بن أبي طالب إلى عبد الرحمن بن عوف: "لقد حبوته، ليس هذه أول يوم تظاهرتهم فيه علينا".

وتستكمل الروايات هذه الصورة حين تشير إلى تخوف بطون قريش من أن الخلافة إذا دخلت بني هاشم لا تخرج منهم أبداً، وتتوضح الفكرة القديمة/ الجديدة في القول الآتي:

"إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم ابداً، وما كانت الخلافة في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم".

وفي رأي هؤلاء الناس أن عثمان شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ ابن عمه له سابقة وفضل ومن أقوى رجال الشورى الستة نفوذاً وتأثيراً، وكان عمر بن الخطاب يراه أحد المرشحين الأوائل. ولكن هذه الصورة ترى محاباة عبد الرحمن بن عوف لعثمان ضعيفة ومبالغ فيها خاصة أن الروايات تظهر عبد الرحمن بن عوف شديد الإيمان زاهداً في الخلافة حريصاً على مصالح المسلمين وخاصة في مسالة حساسة مثل مسألة الخلافة وأنه كان قد أخذ على نفسه عهداً:

"أن لا أخص ذي رحم لرحمه ولا الو المسلمين".

ولعل هذه الآراء التي أشارت إليها الروايات آنفة الذكر – كانت متداولة بين فئات من الناس في المجتمع الإسلامي لتأييد هذا المرشح أو ذلك. أما ستة الشورى فإن قرارهم استهدف – دون شك – مصلحة الأمة الإسلامية كل حسب جهده واجتهاده.

وسار عثمان بن عفان سيرة الشيخين فاستمر الجهاد والفتوحات وظلت الأمصار وأهلها في ازدهار واستقرار في السنوات الست الأولى من خلافته ثم شهدت السنوات الست الثانية تدهوراً سريعاً في الأوضاع السياسية والاقتصادية فكانت النقمة ثم حدثت الفتنة وجاء الخارجون على الخليفة من الأمصار وخاصة الكوفة والفسطاط والبصرة وحاصروا دار الخليفة ومنعوه من إمامة المسلمين في الصلاة وطالبوه بالتنازل عن الخلافة فرفض لئلا يكون ذلك سنة متبعة كلما اختلف الناس مع ولي أمرهم طالبوه بترك السلطة فكانت "الشرعية" إلى جانب عثمان بن عفان الذي دعى الخارجين للاستجابة إلى التفاوض دون اللجوء إلى القوة محذراً إياهم من مغبة موقفهم هذا على الأمة بأسرها[20].

لقد كان موقف صحابة رسول الله ﷺ منهم علي بن أبي طالب صعباً متسماً بالتردد في مواجهة الأزمة، ومن الواضح أن بعض مواقف علي بن أبي طالب وفئة من الصحابة اتسمت بمعارضة بعض إجراءات الخليفة وولاته وأعوانه مطالبين إياهم بتطبيق الأحكام الشرعية، ولكن معارضتهم لم تصل إلى حد التطرف والدعوة لسفك الدماء، بل ربما كانوا مع فكرة تنازل الخليفة عن منصبه، وهذا ما جعل الكتلة المعارضة (النفار) يعدون علياً وبعض الصحابة من زعماء هذه الكتلة، مع أن علياً رفض ان يتزعمهم وكان ضد المواقف المتطرفة التي وقفوها من عثمان ولم يؤيد اغتيال الخليفة. ورغم أن المعارضين لسياسة عثمان بن عفان انضموا إلى اتباع الإمام علي بعد اختياره للخلافة فإنه ومنذ البداية حاول أن يقطع صلته بالذين

شاركوا في اغتياله وتعهد بتعقبهم والاقتصاص منهم حين تحين الفرصة المواتية في الوقت المناسب.

اغتيل الخليفة عثمان بن عفان ﷺ واختلف الخارجون عليه فيمن يكون خليفة للمسلمين بعده. وفي رواية أن علياً انتخب للخلافة في اليوم الثاني من مقتل عثمان فقد جاءه فئه من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا له:

إن هذا الرجل قد قتل ولا بد من إمام للناس.

فقال علي: أو تكون شورى؟

قالوا: أنت لنا رضا.

قال: المسجد إذاً يكون عن رضا من الناس، فخرج وبايعه من بايعه وبايعه الأنصار إلا نفراً يسيراً.

وتظهر هذة الصورة علياً وكأنه راض بالخلافة متعجل لقبولها... ولكن صورة أخرى تؤكدها روايات أخرى تظهر أن المدينة بقيت أياماً عديدة دون خليفة وقد حاول عدد من الخارجين على عثمان وكذلك الصحابة من أهل المدينة إقناع علي بقبول الخلافة ولم يزالوا به حتى قبل، تقول الرواية:

"أنه لما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل الخليفة جمع الخارجون على عثمان ﷺ أهل المدينة وقالوا لهم: أنتم أهل الشورى تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة فانظروا رجلاً تنصبون ونحن لكم تبع. فقال الجمهور علي بن أبي طالب نحن به راضون" فاشترط علي البيعة في المسجد وعلى ملأ من الناس ورضاهم ثم تبعتها بعد يومين البيعة العامة في مسجد المدينة، أي أن اختيار علي حدث بعد أسبوع من مقتل الخليفة عثمان. والصورة الأخيرة أقرب إلى نفسية علي التي تؤكد حرصه في تطبيق تعاليم الإسلام وخاصةما يتعلق بالشورى وأن الآمة مصدر السلطة "هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم".

لقد تم انتخاب علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين في 18 ذي الحجة سنة 35هـ/17 حزيران 656م ولعب أهل المدينة دورهم في العملية حيث كان اختيار الخليفة من مسؤولياتهم. ولكن من جهة أخرى بقيت المعارضة المتمثلة بالخارجين على عثمان وقتلته سيدة الموقف. ومعنى ذلك أن دور (أهل الأمصار) وخاصة المقاتلة من الكوفة والفسطاط كان بارز ومؤثراً على مؤسسة الخلافة، وكانت الضغوط التي مارسها المقاتلة على (أهل المدينة) وخاصة كبار الصحابة بالاسراع إلى اختيار الخليفة حين هددوا باستعمال القوة في حالة المماطلة مما جعل البعض يبايع عن كره وجعل البعض الآخر مثل عبد الله بت مسعود وسعد بن ابي وقاص والمغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد يرفض البيعة بهذا الأسلوب ويترك المدينة. أن هذا الوضع المتأزم بالذات هو الذي أعطى التبرير لمعاوية بن أبي سفيان بعدم قبوله بالبيعة باعتبارها رأي الأقلية، والقول بأن البعض مثل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام قد أكره على البيعة، فكان جواب الإمام علي أن الانتخاب هو حق كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وأهل بدر ومن حضر المسجد من أهل المدينة في حينه.

ونخلص بعد هذا كله إلى القول بأن الصورة الأقرب للقبول من بين الصور المتعددة التي أشرنا إليها حول موقف الإمام علي بن عبد المطلب من مسألة الخلافة هي الصورة التي تظهر علياً بن أبي طالب في خلقه الإسلامي. فقد بايع الخلفاء الراشدين وشارك في حكوماتهم وقطع الطريق أمام كل من حاول أن يتصيد في الماء العكر، ولو أن الأمر كان على غير ذلك أوان رسول الله ﷺ كان قد أوصي لأحد لما توانى علي من تنفيذ ما أمر به الرسول ﷺ حيث يقول علي:

"لو عهد إلينا رسول الله ﷺ عهداً لأنفذنا عهده، ولو قال لنا قولاً لجادلنا عليه حتى نموت"[21].

لقد ظل علي على موقفه الذي وقفه في حياة رسول الله ﷺ حين نزلت الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ

انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴿١٤٤﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٤ .حيث عقب عليها بقوله:(... ولئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت)[22].

ثم أن أخلاقيات الإسلام وقرب العهد بالدين تؤكد هذه الصورة الإيجابية لموقف علي وتستبعد كل الصور الأخرى البعيدة عن روح الإسلام الصحيح. فصحابة رسول الله ﷺ ومنهم علي بن ابي طالب لم يكونوا تواقين للسلطة من اجل السلطة ولم يكن بينهم صراع عليها، بل كانت فئة منهم تحاول جاهدة تجنبها ولو خيروا لما اختاروا الخلافة. ولعل موقفهم يتمثل في موقف الصحابة الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة حينما حاول كل منهم أن يتخلص من عبئها ويرشح لها الآخر. ويتمثل كذلك في موقف عمر حين اقترح عليه أحدهم استخلاف ابنه عبد الله فقال:

"لا ارب لنا في أمورهم فما حملتها لأرغب فيها لأحد من أهل بيتي..."[23].

وفي قول علي بن أبي طالب حين رشح للخلافة:

"إنا لكم وزير خير من أمير"[24].

وأمام هذه الصورة تتضاءل كل الصور التي حاول بعض الرواة والاخباريين رسمها لموقف الصحابة عموماً وعلي بن أبي طالب خصوصاً من رئاسة الدولة (الخلافة)، حيث تؤكد هذه الصورة عدم رغبة الصحابة في هذا المنصب لولا المسؤولية ومشيئة الأمة وحقها في اختيار رئيسها الذي يجب عليه قبولها وتحمل أعبائها. إن ذلك كله يتمثل في قول أحد الصحابة:

"لولا حدود لله فرضت وفرائض لله حدّت، لكان الموت من الامارة نجاة والفرار من الولاية عصمة، وأن لله علينا إجابة الدعوة وإظهار السنة"[25].

ورغم تقلب الأوضاع وتغير الأشخاص فقد بقي علي مخلصاً لمبادئة التي نشأ عليها صحابة رسول الله ﷺ ورفض أن ينحاز عنها فحين طلبوا منه أن يعهد لابنه الحسن بعده كانت ردة فعله الأولى قوله:

"بل أترككم كما ترككم رسول الله، فلعل الله يجمعكم بعدي على خيـــركم كمـــا جمعكم بعد نبيكم على خيركم"[26].

فالفرضية التي تقول أن الإمام علي كان يلهث من أجل الحصول على منصب الخلافة مسألة غير واردة، أما أنه تطلع إليها لأنه كان يعتقد بأنها من حق بني هاشم (آل البيت) ولأنها واجب ومسؤولية لإقامة الفرائض والحدود ينبغي لمـــن تنتخـــبهم الأمة إجابة الدعوة والقيام بها وإعطائها حقها فهو موقف أقرب للقبول. وإذا كـــان أنصار علي بن أبي طالب وخاصة بعد موته قد تمسكوا بروايات أو أقـــوال عـــن الرسول ﷺ وفسروها أو أولوها لتعني وراثة علي للرسول ﷺ أو وصايته له فهذا أمر يعنيهم وحدهم وليس لعلي ﵁ بعد وفاته دخل في ذلك في كل الأحوال. وهـــذا الأمر غير متفق عليه بين المؤرخين والفقهاء والمفـــسرين والمحـــدثين، كمـــا وأن الرسول ﷺ لم يشر إليه في أصح الروايات خلال مرضه الأخير.

تولى علي بن أبي طالب الخلافة في 25 ذي الحجة سنة 35هـــ/ 656م وكان حريصاً على سياسة الأمة وفق مباديء الإسلام التي ســـار عليهـــا الرســـول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، ولكنه وفي الوقت نفسه كـــان يـــدرك مـــدى الجهـــد والمعاناة في سبيل تحقيق ذلك فكيف له أن يقيم توازناً بين مثل الإسلام ومتطلبـــات الواقع السياسي والاجتماعي الجديد، لقد وصف هو نفسه المأزق الذي وقع فيه بأنه "فتنة كالنار كلما سعرت ازدادت واستنارت"[27].

ومنذ البداية هدده فئة من مقاتلة الأمصار بأنه سيلقى المصير نفسه لـــو ســـار على سياسة سلفه قائلين له:

"يا علي، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وان هؤلاء قد اشتركوا في دم هذا الرجل واحلوا أنفسهم، فقال لهم: إني لست أجهل ما تعلمون ولكني كيـــف أصـــنع بقـــوم يملكوننا ولا نملكهم، ها هم هؤلاء ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم اعرابكم وهـــم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون"[29].

ثم طالبهم بإمهاله بعض الوقت، ولكن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين بدأوا حركة نشطة ضد الخليفة الجديد، وكان الشعار المرفوع هو إقامة الحدود والعمل على الإصلاح[30]، ولكن موقف كل من طلحة والزبير يضل غامضاً ويبدو أن الدوافع الرئيسية وراء حركتهم كانت اقتصادية/ اجتماعية منبثقة من تخوفهم من سيطرة العناصر المتطرفة والمقاتلة الروادف (الجدد) من أهل الأمصار على سياسة الإمام علي بن أبي طالب. صحيح أن طلحة والزبير كانا من الفئة التي عارضت عثمان بن عفان، وربما عُدّت في بعض الروايات[31] مسؤولة بصورة غير مباشرة عن المصير الذي آلت إليه الأحداث، ولكنهما وفي الوقت نفسه كانا من المعارضين المعتدلين المطالبين بالتغيير السياسي المعتدل، وليس التغير الجذري الذي بدأت الأحداث توحي به في أوائل عهد علي بن أبي طالب، وبعبارة أخرى فقد خاف هؤلاء القوم من كبار الصحابة في الحجاز على حقوقهم ومصالحهم من أن تهدد من جانب المقاتلة الجدد من أهل الأمصار، وكان على الخليفة الجديد أن يقيم توازناً بين الفئتين. ورغم أن الإمام علي وطلحة والزبير كانوا يرغبون بتسوية سلمية من خلال المفاوضات إلا أن عناصر "متطرفة" في جيش الإمام علي ربما كان بعضهم من المشاركين في أحداث المدينة المنورة لم ترضى بذلك فنشبت معركة الجمل في 15 جمادي الآخر سنة 36هـ/ كانون الأول 656م وانتهت بانتصار الإمام علي ومقتل طلحة والزبير وعودة عائشة معززة مكرمة إلى المدينة المنورة[32].

حاول الخليفة علي بن أبي طالب في بداية حكمة أن يعزل بعض ولاة الأمصار وكان معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام أحدهم فرفض الخضوع لأمر الخليفة، ثم حاول الإمام علي أن يكسب ولاءه بالمفاوضات دون جدوى. أما معاوية فقد طالب من جانبه بتسليم قتلة عثمان بن عفان مستنداً إلى الاية (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا تسرفوا في القتل إنه كان منصوراً)[33].

مشيراً إلى أن عثمان ابن عمه ووليه قد قتل مظلوماً ومن حقه المطالبة بدمه متمسكاً في الوقت نفسه برفض إعلان البيعة للخليفة الجديد حتى تُحل مسألة إغتيال الخليفة القديم[34].

لقد كان موقف الخليفة علي في البداية واضحاً حيث وعد كبار الصحابة في المدينة بالتحري عن القتلة بعد هدوء الحالة "...حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدؤا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا"[35]. ولكن استمرار إصرار معاوية على عدم البيعة لعلي، جعل الخليفة يشك أن وراء معاوية أسباباً أخرى أعمق من قضية مقتل عثمان يريد أن يحققها تحت شعار الثأر لعثمان وهذا ما جعل الخليفة علي يتشدد أيضاً في موقفه فيما يتعلق بقضية مقتل عثمان أو بالتعامل مع معاوية. فبالنسبة للمسألة الأولى تتخبط المصادر في إيضاح الموقف الجديد لعلي، وغالبية الروايات غامضة باستثناء ما يشير إليه نصر بن مزاحم المنقري[36]. حيث يقول ما معناه: أن عثمان، باجتهاد علي كان قتيل الجماعة المتأولة وليس على مثلهم قَوَد (عقاب) بينما يتبين من روايات أخرى[37] أن موقف علي كان يتمثل بالقول من أن السلطة يجب أن تكون للدولة وأن الناس جميعاً يرجعون إليها في الخصام حول الحقوق، ومعنى دلك أن معاوية وكل من يطالب بدم عثمان عليه أولاً أن يعلن الطاعة للدولة والخليفة. ثم يحاكم القتلة من الدولة التي ستطبق كتاب الله وسنة نبيه في حقهم، وقد رفض معاوية هذا الرأي.

أما الخلاف مع معاوية فكانت له أسباباً أعمق، صوّره بعض المؤرخين في صورة التنافس بين العراق وبلاد الشام على المركز الأول في الدولة الإسلامية، وفسرة أخرون في صورة الخلاف بين مفهومين للسياسة التي يجب أن تتبع في حكم الدولة الإسلامية[38]، ومهما كانت الأسباب فإنها أدت في نهاية المطاف إلى القتال حيث تقابل الجيشان في صفين وبعد مناوشات توصل الطرفان إلى هدنة في المحرم سنة 37هـ/ حزيران سنة 657م وقعت بعدها معركة استمرت أسبوعاً بدأت خلالها قوة جيش معاوية بالإنحسار، وهنا اقترح عمرو بن العاص رفع المصاحف، وهذا

لا يعني الاستسلام بل العودة إلى التفاوض استناداً إلى القرآن، وهي وسيلة ليست جديدة وإنما استخدمت قبل ذلك في معركة الجمل.

إن الاعياء الذي أصاب المقاتلة وكثرة القتلى من الطرفين كان شديداً ففي رواية تاريخية:

"كان أهل صفين عرباً يعرف بعضهم بعضاً في الجاهلية فالتقوا في الإسلام معهم على الحمية وسنة الإسلام فتصابروا واستحيوا من الفرار".

"... وقاتلوا حتى كرهوا القتال ورأوا أن الحرب تأكلهم وأنهم إنما يقطعون أيديهم بأيديهم، فلما رفعت المصاحف من جانب أصحاب معاوية ونودي هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم قال أصحاب علي ننيب إلى كتاب الله ومالوا إلى الموادعة والكف وتداعوا إلى الصلح..."[39].

إن هذا الوضع جعل فئة من أصحاب علي يجبرونه على قبول التحكيم أولاً وعلى تعيين أبي موسي الأشعري، وهو من المحايديين، كممثل له في التحكيم ثانياً.

وليس واضحاً في رواياتنا التاريخية ماهية المحاور التي سيناقشها الحكمين أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص ويبدو أن مهمتهما الرئيسية هي مناقشة: هل أن ما قام به عثمان بن عفان يتناقض والشريعة الإسلامية وبذلك يكون مذنباً. أم العكس وبذلك يكون قد قتل مظلوماً وأن لمعاوية الحق في المطالبة بدمه.

وفي انتظار التحكيم عادت القوات المتحاربة إلى قواعدها في العراق وبلاد الشام، ولكن الاعتراض على التحكيم بين فئة من أصحاب علي بن أبي طالب سموا فيما بعد بالخوارج بدأ منذ الآن حيث قالوا:

"حكّم بني ادم في حكم الله عز وجل، وقالوا لا حكم إلا لله سبحانه"[40].

وطالبوا علياً بأن يتراجع عن موقفه من التحكيم، بينما حاول هو من جانبه أن يقنعهم بأنه لا بد أن يفي بعهوده التي أعطاها وينبغي عليه أن ينتظر ما ستؤول إليه

الأمور، فكانت النتيجة حدوث صدع في أصحاب علي. وحينما اجتمع الحكمان في اذرح في شعبان 38هـ/ 658م كان اتفاقهما على خلع كل من الإمام علي والوالي معاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين، وحينها خرج الحكمان ليعلنا ذلك للناس وفى أبو موسى الأشعري وغدر عمر بن العاص حين ثبت معاوية بن أبي سفيان لأنه "ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه ..."[41] على أننا يجب أن نستدرك ونقول بأن روايات أخرى[42] تعطي صورة مخالفة وتؤكدعدم حصول اتفاق بين الحكمين وعدم وقوع خدعة وافترق الناس دون الوصول إلى نتيجة أو قرار.

استعد الإمام علي بن أبي طالب ثانية للحرب ولكنه قرر تصفية حساباته مع الخوارج أولاً حيث وقعت معركة النهروان في صفر 38هـ/ 658م[43]. وقبل المعركة حاول الأمام كسب الخوارج إلى جانبه معلناً رفضه لقرار التحكيم وعزمه على الحرب ولكن الخوارج طلبوا منه أن يعترف بخطئه ويتوب فرفض ذلك. وبعد أن منحهم فرصة للمراجعة حيث انظم بعضهم إليه هاجمهم فكانت مجزرة أدانها العديد من الصحابة، وكانت نتائجها سلبية على الإمام علي نفسه حيث استفحل الانشقاق في أتباعه كما وأن الهروب من جيشه الذي كان قد بدأ منذ قبوله التحكيم ازداد بعد معركة النهروان وقد خفت الروح القتالية لديهم مما اضطر الإمام العودة إلى الكوفة وتأجيل الحرب حتى إشعار آخر. وتقول رواية في الطبري عندما حض علي بن أبي طالب أنصارة على القتال:

"لم يوافقه الأشعث بن قيس وأجابه بقوله: يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ... وانكسر على علي رأيه في المسير"[44].

تغير الموقف السياسي والعسكري بعد هذه الأحداث. لقد بات التنافس على الخلافة بين قرينين، وكان معاوية يكسب قي العدد والأرض بينما كان علي يخسر

في العدد خاصة بعد قبوله التحكيم وبعد معركة النهروان، كما كان يحاول جاهداً الحفاظ على ما لديه من نفوذ على الأقاليم التي بحوزته. وفي كل الأحوال كانت نتائج مؤتمر اذرح سلبية أيضاً على الإمام علي بن أبي طالب ذلك لأن الامتعاض الذي حصل من موقف عمرو بن العاص كان في واقعه رد فعل ضد الأمويين أكثر من منه تعاطفاً أو موالاة للإمام علي، ويلاحظ أن أحداً لم يدافع عن موقف الإمام علي مثلما دافع عمرو بن العاص عن وجهة نظر معاوية[45].

لقد بقي الإمام علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين في نظر أنصاره ولكن ضعف الروح القتالية لدى جنده جعله يشك في إمكانية تحول الموقف لصالحه على المدى القريب. وتشير مصادرنا إلى العديد من الأقوال التي نسبت إلى الإمام يشكو فيها تخاذل أتباعه وعدم استجابتهم لأوامره وفقدان سيطرته على الأقاليم[46].

ويأتي استشهاد الإمام علي بن أبي طالب في رمضان سنة 40هـ/ 661م على يد أحد الذين سموا بالخوارج[47] عند باب مسجد الكوفة مفاجئة مذهلة، وبوفاته بعد يومين من الحادث انتهى عصر الخلفاء الراشدين.

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ﷺ

ابن عم الرسول ﷺ يُذكر في المصادر بكنيتة (ابن العباس) وسمي الحبر (العالم) والبحر لأنه من علماء الصحابة بالحديث وسنة الرسول ﷺ إن لم يكن أعلم جيله. وقد برع في تفسير القرآن وهو عمل حساس إذا أخذنا بنظر الاعتبار التغيرات السريعة والجذرية التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي آنذاك[48]. وفي رواية عن أبي الوفاء: "ما رأيتُ أحداً كان أعلم بالسنة ولا أجل رأياً ولا أثقب نظراً من ابن عباس". وقد قيل أنه روي عن النبي ﷺ ألفاً وستمائة وستين حديثاً. كما روى كذلك عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم[49].

ولد في شعب بني هاشم في مكة أثناء حصار قريش لبني هاشم ومعهم الرسول ﷺ قبل الهجرة بثلاث أو أربع سنوات[50]. وقد رغب ابن عباس بالعلم والأخبار منذ كان صبياً في مقتبل العمر وانصرف يجمعها وغدا عالماً يحيط به الناس الراغبون بالعلم وهو لا يزال صغيراً.

كان ابن عباس فخوراً بعلمه الذي لم يكن معتمداً على الذاكرة ولكن على مجموعة من الملاحظات المكتوبة. وكان يلقيه على شكل محاضرات عامة في أوقات منتظمة ومحددة يحضرها طلبة العلم. أما موضوعاته فكانت متنوعة تشمل: القرآن. مسائل شرعية. مغازي الرسول ﷺ. أحاديث عن النبي ﷺ والصحابة، تاريخ العرب قبل الإسلام، الشعر الجاهلي. والموضوعان الأخران مهمان لأن ابن عباس كان يسند بهما تفسيره لكلمات القرآن[51] الكريم. ولما اعترف الناس بعلمه وفضلة وكفاءته بدعوا يستفتونه في مسائل عديدة. وتنسب إليه مجموعة من الفتاوي والتفاسير لا بد من دراستها وتحقيقها لمعرفة مدى صحة نسبتها إليه. والمعروف أن ابن العباس كان في الثالثة عشرة من عمره حين وفاة الرسول ﷺ.

أن صورة عبد الله بن العباس في المصادر التاريخية والتراجم الإسلامية إيجابية وربما مبالغ فيها بعض الشيء لأسباب سياسية واضحة باعتباره جد الخلفاء العباسيين ولذلك سمي "أبو الخلفاء" وهي عكس الصورة التي رسمها له بعض المستشرقين الذين تطرقوا إلى سيرته أمثال كايتاني ولامنس. ومهما يكن من أمر فإن البلاذري يقول عنه أنه "كان مقدماً عند أبي بكر وعمر وعثمان ..."وفي كتاب أخبار العباس وولده أن "عمر بن الخطاب كان يأذن له مع المهاجرين ويسأله ويقول غواص. وكان إذا راه مقبلاً قال: "أتاكم فتى الكهول له لسان سيؤول وقلب عقول" وكان ذلك بسبب تميزة على أقرانه، فقد كان حكيماً فقيهاً في الدين عالماً بالتأويل وفي رواية عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال:

"ما رأيت أعلم بالسنة ولا أجلد رأياً ولا أثقب نظراً حين ينظر من ابن عباس"[52].

والروايات حول اقضيته وفتاواه تكاد تصل في مجموعها إلى فتاوي علي بن أبي طالب وأقضيته، وفي رواية أن ابن عباس "كان في صغره لزم علياً وكان يزقه العلم زقاً" ولا يتوفر لدينا روايات تاريخية تدل على طموح سياسي لابن عباس في هذه الفترة التاريخية، رغم أن كتاب أخبار العباس وولده وهو سجل شبه رسمي عن العباسيين وأحداث الدعوة العباسية، يذكر روايات موضوعة تشير إلى تنبئة بظهور العباسيين وصعودهم إلى السلطة. وفي رواية[53] تشير إلى مناظرة بينه وبين الخليفة عمر بن الخطاب الذي قال له:

يا ابن عباس اتدري ما منع الناس منكم؟

قال: ما أدراني؟

قال: كرهت قريش أن يولوكم هذا الأمر فتجخفون على الناس جخفاً فنظرت قريش لأنفسها فاختارت فوفقت فأصابت إن شاء الله.

فقال: ... أما قولك أن قريشاً كرهت فأن الله يقول (كرهوا ما أنزل الله فاحبط أعمالهم). وأما قولك: انها نظرت فاختارت، فإن الله نظر فاختار من خير خلقه، فإن كانت قريش نظرت من حيث نظر الله فقد أصابت.

لقد شارك ابن عباس في صدر الإسلام بالعديد من حملات الجهاد فقد شارك في فتوحات مصر سنة18هـ/639م - و21هـ/641م. كما التحق بالجيش الذي أرسل لفتح إفريقيا 27هـ/647م وكذلك جرجان وطبرستان 30هـ/650م. وحج بالناس 35هـ/655م بأمر من الخليفة عثمان بن عفان الذي كان محاصراً في المدينة المنورة.

أما الحياة السياسية فلم يقتحمها ابن عباس إلا في عهد الخليفة علي بن أبي طالب حيث نشط نشاطاً عملياً ملحوظاً لمدة أربع سنوات أول أقل قليلاً، وعهدت له مسؤوليات مهمة وحساسة فقد حضر معركة الجمل 36هـ/656م حيث عين بعدها أميراً على البصرة. كما حضر معركة صفين 37هـ/657م وكان يقود كتيبة في جيش علي بن أبي طالب وكان ابن عباس أحد الموقعين على (اتفاق صفين) 37هـ الذي خوّل الحكمين للتحكيم في النزاع بين الخليفة علي والوالي معاوية بن أبي سفيان. وكان ابن عباس يساند موقف الإمام علي ولذلك كان هو الشخص الذي وجهه لمناقشة الخوارج الذين عصوا الإمام وذلك لمناظرتهم وللدفاع عن قرار علي وشيعته بقبول التحكيم. وكان ابن عباس قد طلب من علي بن أبي طالب أن يختاره ممثلاً في التحكيم قائلاً له:

"اجعلني السفير بينك وبين معاوية في الحكمين، فوالله لأفتلن حبلاً لا ينقطع وسطه ولا ينبت طرفاه. قال علي: لست من كيدك وكيد معاوية في شيء، والله لا أعطيه إلا السيف حتى يدخل الحق..."ولكن العلاقة ساءت بين ابن عباس والخليفة علي مما جعله ينسحب من المسرح السياسي ويعتزل في مكة. ولا تفصل العديد من المصادر في طبيعة العلاقة بين الرجلين ولا في الأسباب التي أدت إلى انشقاق ابن عباس عن معسكر علي، بل أن بعضها يسكت تماماً في الخوض فيها مشيراً فقط بعبارة مقتضبة "غاضب علياً وشخص إلى الحجاز" ولعل ذلك كان سبباً في ظهور العديد من التفسيرات: حيث يرى إحدها أن مجزرة النهروان كانت السبب في اعتزال ابن عباس، بينما يرى تفسير آخر أن ما تخمض عنه قرار التحكيم وضعف موقف علي كخليفة معترف به من غالبية المسلمين كان السبب وراء انسحاب أن عباس. وهنالك رأي ثالث يشير إلى تصرف ابن عباس ببيت المال في البصرة دون مشاورة الخليفة أدى إلى مشادة عنيفة بين الطرفين انشق على أثرها ابن عباس عن أنصار علي ورحل إلى الحجاز. وهذا التصرف الأخير من قبل ابن عباس أمر لا

توضحه مصادرنا التاريخية، على اننا نعلم أن الخليفة علي كان شديداً في محاسبة الولاة وخاصة في الأمور المالية وانه عزل عدداً من ولاة عثمان للسبب نفسه[54].

بعد اغتيال علي بن أبي طالب سنة 40هـ/660م وخلال عهد معاوية بن أبي سفيان الطويل بقي ابن عباس في الحجاز، رغم أن روايات تذكر اسمه قائداً لجيش الحسن بن علي بن أبي طالب. بينما تروي روايات أخرى ان قائد الجيش هو عبيد الله بن العباس أو غيره. ومهما يكن من أمر فالمعروف أن ابن عباس كان خلال هذه الفترة مع معاوية ابن سفيان، ويرى بعض الباحثين أن علاقته الطيبة بكل من الحسن بن علي ومعاوية جعلته في مركز أعانه على تقريب وجهات النظر وربما لعب ابن عباس دور في جعل الطرفين يتوصلان إلى اتفاق تنازل بموجبه الحسن عن الخلافة لمعاوية بعد أن أخذ الأمان لأتباعه على دمائهم وأموالهم ضمن شروط أخرى[55].

كان ابن عباس يزور دمشق في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، وقد أظهرته العديد من الروايات مدافعاً -كما هو دائماً- عن مصالح بني هاشم وآل البيت التي كانت مصالحه هو في الوقت نفسه. وفي رواية تاريخية أن ابن عباس كان في زيارة لدمشق حين توفي الحسن بن علي فقال له معاوية: أصبحت سيد أهل بيتك يا أبا عباس قال: أما ما أبقى الله أبا عبد الله الحسين بن علي فلا. قال معاوية: والله ما هيجناه قط إلا وجدناه معداً.

ورغم ترحيب معاوية بابن عباس في دمشق إلا أنه لم يكن يرغب بإقامته طويلاً ذلك أنه كان يأسر قلوب الناس وعقولهم بعلمه وأدبه وفضله. ففي رواية أن ابن عباس دخل مسجد دمشق فلما صلى أسند إلى أسطوانة فلم تبق في المسجد حلقة إلا تقوضت إليه فلم يسأل عن حلال ولا حرام ولا فقه ولا تفسير قرآن ولا حديث جاهلية ولا إسلام إلا أنبأهم به". وحين علم معاوية بذلك عجّل في سفره إلى المدينة المنورة. وبقيت علاقة معاوية بابن عباس بين المد والجزر، فكان الخليفة معاوية

حذراً منه يخشاه كما يخشى الحسن والحسين ولدي علي بن أبي طالب. ومع ذلك فإن المصاهرة الوحيدة في عهد معاوية بين الامويين والهاشميين كانت زواج الوليد بن عتبة من لبابة بنت عبد الله بن عباس. وهي مصاهرة الأكفاء في النسب والمنزلة الإجتماعية.

لقد دفعت الظروف السياسية مرة أخرى عبد الله بن عباس إلى المواجهة السياسية وربما كان ذلك خلاف رغبته ورغماً عنه. فقد ثار عبد الله بن الزبير في الحجاز وأعلن نفسه خليفة للمسلمين بعد وفاة يزيد بن معاوية فلم يبايعه ابن عباس ومحمد بن الحنيفة فنفاهما إلى مكة.

ويبدو من رواياتنا التاريخية[56]. أن المودة والعلاقة الطيبة وأواصر الجوار كانت مفقودة بين ابن عباس وابن الزبير، ولا شك فإن كلاهما من أهل بيت وشرف ويتوق إلى المنزلة والسلطة ويرى نفسة أحق من غيرة فيها. وتحفل مصادرنا بالعديد من المناظرات والمساجلات بين الرجلين، وربما كان بعضها من وضع الرواة والاخباريين ذوي الميول الهاشمية أو الزبيرية. ومهما يكن من أمر فلما ثار عبد الله بن الزبير وغلب على مكة.

"أقبل محمد بن علي بن الحنفيه وعبد الله بن عباس بعد وقعة الحرة حتى أتيا مكة فعاذا بها واعتزلا الفتنة فدعاهما عبد الله بن الزبير إلى بيعته فقال له محمد وعبد الله: إنا لا نبايع إلا من اجتمعت عليه الآمة. فإذا اجتمعت عليك الآمة بايعناك وكنا امة من الناس. فأبى عبد الله أن يتركهما حتى يبايعا فأبيا..فأخذهما وطرحهما في حجرة زمزم.."

وفي سنة 64هـ/683م سنة حصار مكة عاد وسجنهما بعد أن كان قد أطلعهما، فأستغاثا بالمختار بن أبي عبيد الثقفي فأرسل شلة من جند العراق وأنقذهما من السجن. وسار ابن عباس إلى الطائف وبقي فيها حتى وفاه الأجل سنة 68هـ/686م. ومن أولاده العباس وهو أكبرهم وكان يكنى به (أبو العباس)

وعلي وهو الساجد وكان أجمل قرشي في جيله. ومحمد والفضل وعبـد الـرحمن ولبابة وغيرهم. وقد صلى عليه بعد وفاته محمد بن الحنيفة فلما دفن قـال: مـات رباني هذه الأمة. وكان قد ذهب بصره قبل ذلك، ومهما كثـرت الروايـات حـول طموح ابن عباس فإن الواقع يؤكد أنه لم يكن رجل سياسة، بل رجل علم ودين ولم تكن له ولا لأبيه العاس بن عبد المطلب طموحات في الخلافة. وقـد أشـار ابـن عساكر في (تاريخ دمشق)[57] إلى رسالة من ابن عباس جواباً علـى رسـالة مـن معاوية يعود تاريخها إلى سنة 36هـ/757م يقول فيها:

"...فقد جائني كتابك فلم أسمع منه إلا خيراً...أما بعد حفظ الله فإنك مـن ذوي النهى من قريش وأهل الحلم والخلق الجميل منها، فليصدر رأيك بما فيـه النظـر لنفسك والتقية على دينك والشفقة على الإسلام وأهله...وقد سـمعتك تـذكر شـأن عثمان بن عفان، فأعلم أن انبعاثك في الطلب بدمه فرقة وسفك للـدماء وأنتهـاك للمحارم وهذا لعمر الله ضرر على الإسلام وأهله. وان الله سيكفيك أمر سـافكي دم عثمان فتأن في أمرك واتق الله ربك.

فقد يقال أنك تكيد لامارة (تطلبها) وتقول أن معك وصية رسول الله ﷺ بذلك، فقول نبي الله الحق فتأن في أمرك. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول للعباس: أن الله يستعمل ولدك اثنى عشر رجل منهم السفاح والمنصور والمهدي.. أفتراني استعجل الوقت أو أنتظر قول رسول الله ﷺ وقوله الحق وما يريد الله أمر يكن ولـو كـره العالم ذلك. وأيم الله ولو شاء لوجدت متقدماً وأعواناً وأمصاراً ولكني أكره لنفسي ما أنهاك عنه.

فراقب الله ربك وأخلف محمداً في أمته خلافة صالحة فأما شأن ابن عمك علي ابن أبي طالب فقد استقامت له عشيرتك وله سابقته وحقه ونحن لـه علـى الحـق أعوان ونصحاء لك وله ولجماعة المسلمين والسلام عليك ورحمة الله".

والرسالة موضوعة على أغلب الظن وهي تزعم أن لمعاوية وللعباس وصية من رسول الله ﷺ إلا أنها تنصح بالتأني والتريث وتطلب في الوقت نفسه الطاعة للأمام علي بن أبي طالب بعد أن بايعته الجماعة أو غالبية الأمة. وبسبب مركز ابن عباس وقرابته من رسول الله ﷺ كان والي الأمويين على الحجاز مروان بن الحكم ويراقبه ويتيقن من طاعته لبني أمية فلما توفي معاوية بن أبي سفيان وبويع لأبنه يزيد طلبه الوالي للبيعة فقال: ما تصنعون برجل قد ذهب منه ما تخافون؟ وكان قد ذهب بصره ثم قام وبايع مع الناس.

وينقل صاحب أخبار العباس وولده وصيته عند موته لابنه علياً ومنها:

"يا بني إن أفضل ما أوصيك به تقوى الله الذي هو دعامة الأمر وبه يقوم الدين والدنيا، ومن بعد ذلك فاعلم يا بُني أن الناس قد أصبحوا إلا قليلاً في عمى من أمرهم يضرب بعضهم بعضاً على دنيا فانية قد نعاها الله إليهم.

وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول لجدك: هذا الأمر كائن في ولدك عند زواله عن بني أمية فمن ولى منهم الأمر فليتق الله وليعمل بالحق وليقتد برسول الله ﷺ فإن أحق الناس بإتباع أثره أمسهم به رحماً..."[58].

ولعل الرواة ذوي الميول المختلفة أضافوا إلى هذه الوصية ما أضافوه حسب نزعاتهم وأهوائهم، فهي تبشر بدولة العباسيين القادمة وتنسب ذلك إلى رسول الله ﷺ كما تحذرهم من تحركات بني عمهم العلويين وتتنبأ بفشل حركاتهم. وهذا ما وقع فعلاً على المسرح السياسي.

لقد ظل ابن عباس طوال حياته رجل علم وفكر وفقه، ومن هنا ترد الروايات العديدة التي تشير إلى دعاء الرسول ﷺ له "اللهم أعطه الحكمة وعلّمة التأويل"[59]

جعفر بن أبي طالب ﷺ

كان جعفر بن أبي طالب أسخى بني هاشم وأجودهم بعد رسول الله ﷺ وقال فيه أبو هريرة: "كان خيراً للمساكين جعفر بن أبي طالب ﷺ، كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته".

لقد أشرنا سابقاً إلى مظاهر عديدة في سيرة جعفر بن أبي طالب، ونحن نتكلم عن حياة الرسول ﷺ قبل البعثة النبوية في مكة وبعدها فقد كان جعفر - أخو علي- من أبناء أبي طالب الذي أختاره عمه العباس بن المطلب لكي يخفف عن كاهل أخيه بعد الضيق الذي أصابه.

ومثلما كان علي ربيب محمد رسول الله ﷺ عاش جعفر في بيت العباس بن عبد المطلب وأسلم في وقت مبكر ثم هاجر وزوجته أسماء بنت عميس إلى الحبشة حيث ولدت له ولده البكر عبد الله هناك[60].

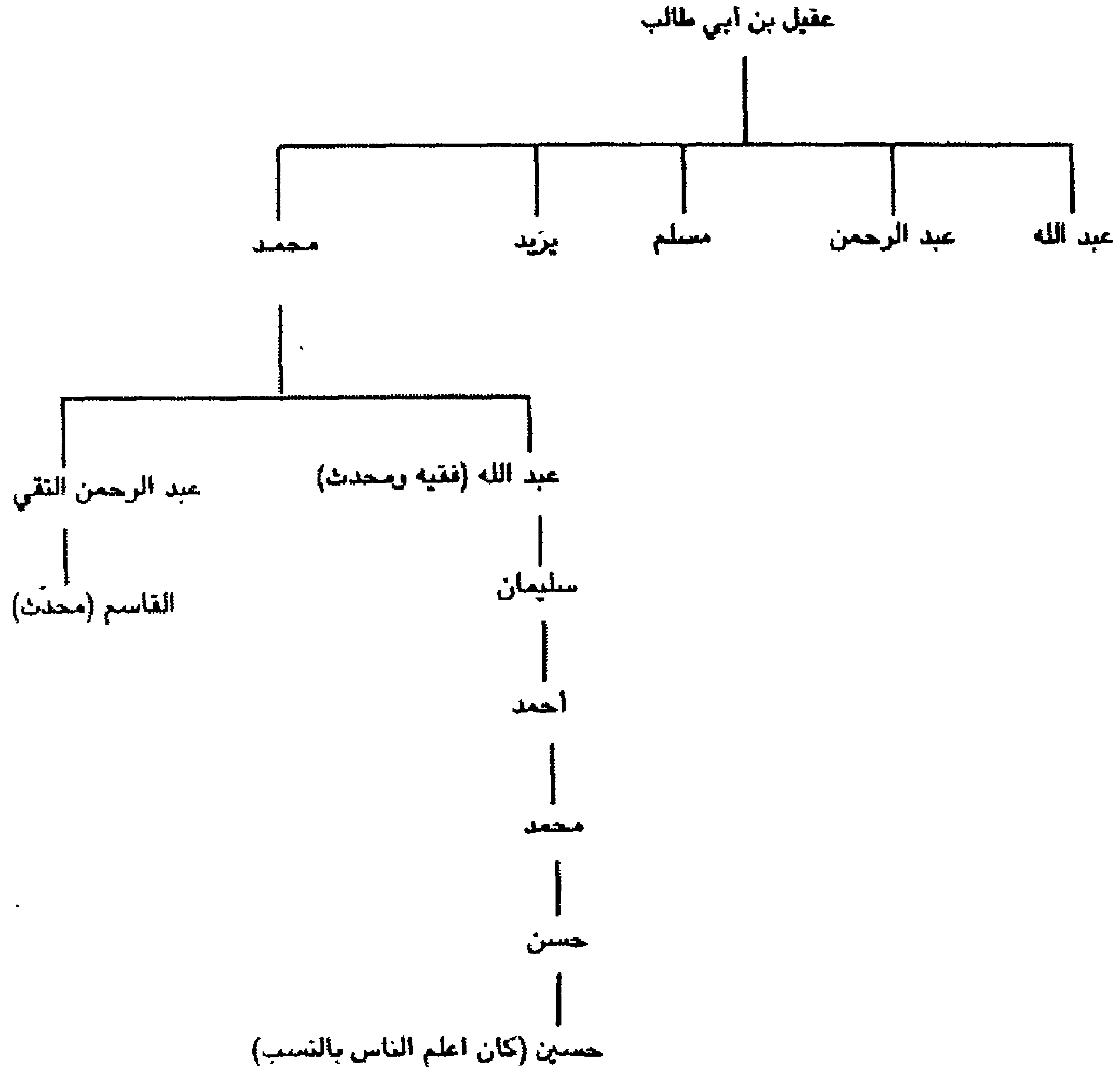
وفي الحبشة كان جعفر بن أبي طالب وجه المسلمين وممثلهم عند النجاشي ملك الحبشة والمدافع عن الدين الجديد تجاه دعاوى قريش ومكايدها في بلاط النجاشي[61].

فحينما حرّضت قريش النجاشي على المسلمين وطلبت تسليمهم لها أو طردهم من الحبشة دعى النجاشي جعفراً وطلب منه توضيح موقفهم من دعاوى قريش فقال جعفر:

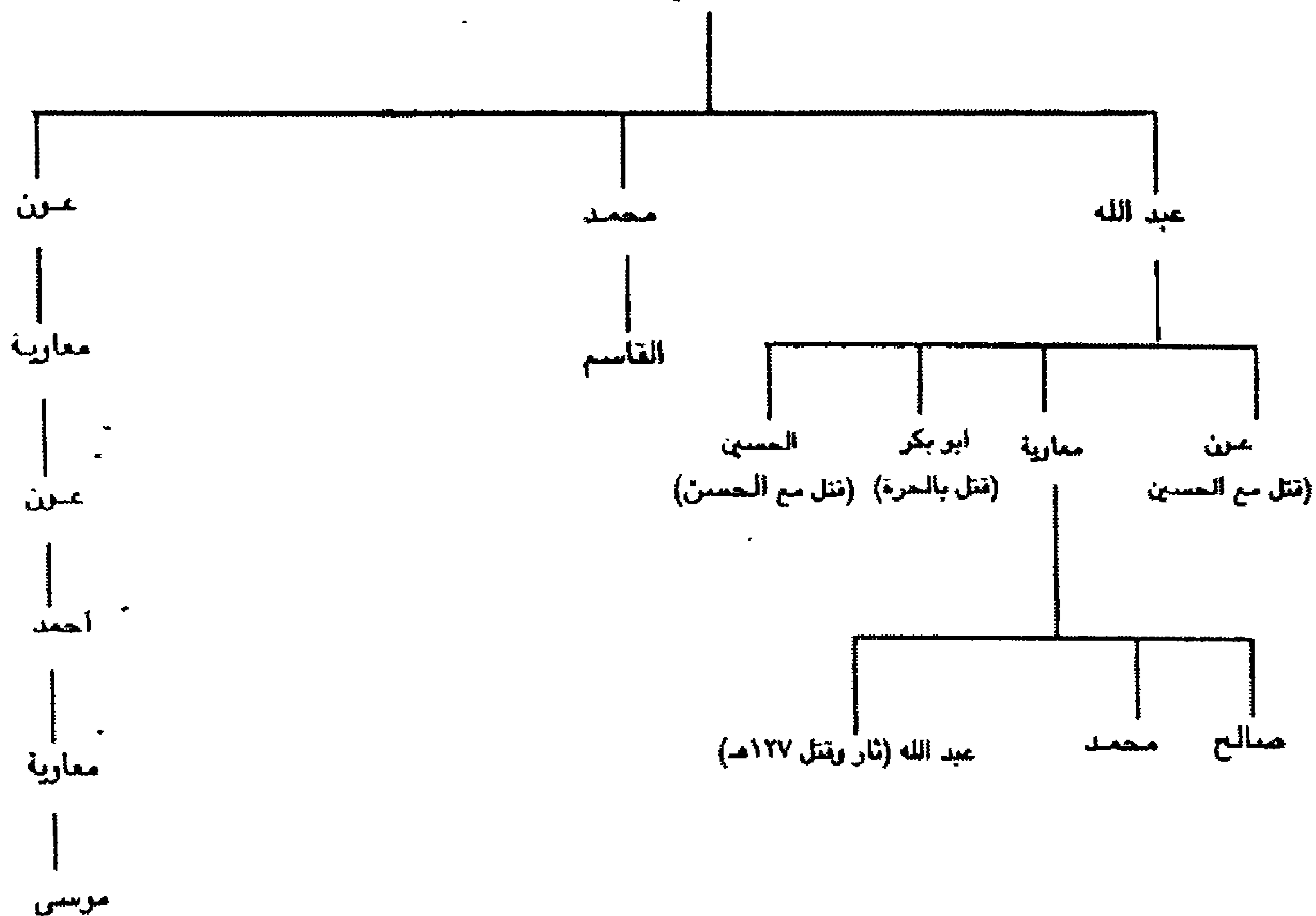
"أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبده وآباؤنا من دونه.. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ...".

فصدقناه وأمنا به ... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا في ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى..فلما قهرونا وظلمونا..خرجنا الى بلادك"[62].

آل عقيـــل


عقيل بن أبي طالب
عبد الله
عبد الرحمن
مسلم
يزيد
محمد
عبد الله (فقيه ومحدث)
عبد الرحمن النقي
القاسم (محدّث)
سليمان
أحمد
محمد
حسن
حسين (كان اعلم الناس بالنسب)

آل جعفر



جعفر بن ابي طالب ٨ هـ
عبد الله
محمد
عون
عون (قتل مع الحسين)
معاوية
ابو بكر (قتل بالحرة)
الحسين (قتل مع الحسين)
القاسم
معاوية
عون
أحمد
معاوية
موسى
صالح
محمد
عبد الله (ثار وقتل ١٢٧هـ)

وحاول وفد من قريش من المشركين أن يستثير النجاشي في مسألة أخرى عن موقف الإسلام من طبيعة المسيح عيسى بن مريم فكان جواب جعفر صريحاً واضحاً مثل جوابه الأول حيث تلا آيات من سورة آل عمران ثم أردف قائلاً:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ (٥٩) [آل عمران: ٥٩].

ووافق النجاشي جعفراً ثم قال:

"وايم الله هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة وإني مانع أهل الإسلام في أرضي..."[63].

وبعد أن استقرت الدعوة الإسلامية في المدينة المنورة وقويت دولة الإسلام أرسل الرسول ﷺ إلى النجاشي يطلب منه إعادة المسلمين إلى وطنهم فعاد جعفر مع العائدين واستقبلهم عليه الصلاة والسلام وكان وصولهم يوم فتح خيبر فكان مما قاله رسول الله ﷺ "ما أدري بأيها أنا أسر ..بفتح خيبر أم بقدوم جعفر"[64].

ولم يلبث جعفر طويلاً في المدينة حيث خرج مع جيش مؤتة في 8هـ/629م الذي كان بقيادة زيد بن حارثة باتجاة بلاد الشام.وفي المعركة استشهد القائد زيد فتقدم جعفر ليحمل الراية تطبيقاً لوصية الرسول ﷺ وقاد الجيش ولما قطعت يمينه أخذ الراية بشاملة فقطعت هي الأخرى فحمله بعضديه لئلا تسقط راية الرسول ﷺ وظل يقاتل حتى سقط شهيداً"[65].

وحين سمع الرسول ﷺ بالنبأ ذهب إلى بيت جعفر ورأى أسماء تعتني بأبنائها الصغار عبد الله ومحمد وعون فسالت الدموع من عينيه ثم أخبرها باستشهاد زوجها.

وحين خافت أسماء زوجة جعفر على أطفالها من الشدة وضيق العيش وشكت ذلك للرسول ﷺ بكى بشدة وتكفل لها برعايتهم لقوله: "أنا وليهم في الدنيا والآخرة".

كانت حياة جعفر مليئة بالنبل والجود ومكارم الأخلاق والمواقف الإسلامية الصادقة مما أكسبه العديد من الألقاب الدالة مثل: الجواد، أبو المساكين والفقراء، ذو الجناحين، الطيار، الشهيد[66].

عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب

لقد أشرنا فيما سبق إلى سيرة عقيل بن أبي طالب وموقفة من الدعوة الإسلامية ثم اسلامه بعد فتح مكة. ولا تذكر روايات التاريخ نشاطات ملحوظة لعقيل خلال صدر الإسلام سوى ما أشار إليه البلاذري أن عمر بن الخطاب حين شرع بتدوين الديوان كلف كلا من عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وأخرين بتدوين اسماء الناس الذين يشملهم نظام العطاء وفقاً لأنسابهم ودرجة قرابتهم من النبي ﷺ وقد قاموا بهذا العمل الريادي المهم[67].

الهوامش:

ثانياً:

(1) محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، طهران، 1302هـ- القمي، سفينة البحار، النجف، 1355هـ

(2) النعمان بن حيون، شرح الأخبار في فضائل الائمة الابرار (مخطوطة في مكتبة S.O.A.S لندن).

(3) عن سيرة علي بن أبي طالب انظر: خليفة بن خياط، طبقات، جـ1، ص167 فما بعد- ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ3، ص31 فما بعد. الطبري، تاريخ،جـ4، ص432 فما بعد – أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، جـ1، 61- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، جـ4، ص19- ابن كثير، البداية والنهاية، جـ2، 252- السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص166.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ2، ص6 فما بعد.

(5) محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، بيروت 1964، جـ3، ص1002 فما بعد.

(6) أبو محمد بن عبد الله بن هشام، السيرة النبوية، ق2، ص603 فما بعد.

(7) محمد بن عمر الواقدي، كتاب المغازي، جـ1، ص27 فما بعد.

(8) ابن هشام، السيرة النبوية، مصر، 1952، ق2، ص328- هادي المدرسي، ذلك الإمام علي، بيروت، 1983، ص62.

(9) ابن هشام، المصدر السابق، ق2، ص600- محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر1967، جـ3، ص123 فما بعد.

(10) المصدر السابق، جـ3، ص220 فما بعد.

(11) المصدر نفسه.

(12) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الإمامة والسياسة، القاهرة 1963، جـ1، ص12.

(13) المصدر نفسه.

(14) المصدر السابق، جـ1، ص4.

(15) ابن هشام، السيرة، ق2، ص622 فما بعد.

(16) الطبري، المصدر السابق، جـ3 222، 210 فما بعد.

(17) المصدر السابق، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، جـ2، 577.

(18) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ1، ص12.

(19) حول مصادر الصورة الثانية راجع: فاروق عمر، النظم الإسلامية، بغداد،1987، ص16 فما بعد. انظر كذلك: هاشم الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، الموصل، 1991، ص427 فما بعد، محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، بيروت، 1992، ص135-197.

(20) حول تفاصيل الأحداث اثناء الفتنة ومصدرها. راجع هشام جعيط، الفتنة، بيروت، 1991 وخاصة (علي في الميتا تاريخ وفي التاريخ) ص301-313.

(21) فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص17، ط1.

(22) هادي المدرسي، الإمام علي، ص62.

(23) الطبري، تاريخ، القسم الثاني 587.

(24) راجع التفاصيل في النظم الإسلامية، فاروق عمر، ص18 فما بعد، ط 1.

(25) المرجع السابق.

(26) المرجع نفسه.

(27) الطبري، تاريخ، جـ4، ص443- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، رقم النص 199 (دار إحياء التراث العربي، مصر، 1965- خالد محمد خالد، عثمان، القاهرة، 1955، ص24.

(28) راجع تفاصيل في: هاشم الملاح، الوسيط، ص438 فما بعد - محمد ضيف الله البطاينة، وصول بني أمية إلى منصب الخلافة (بحث مستل).

(29) الطبري، تاريخ، جـ5،ص437.

(30) المصدر السابق، جـ4، ص446.

(31) راجع: مقالة (علي بن أبي طالب) في (2) E.I.

(32) الطبري، المصدر السابق، جـ4، ص541- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ2، ص388.

(33) القرآن الكريم، سورة الإسراء، 4، 33-36.

(34) الطبري، المصدر السابق، جـ4، ص562، ص444.

(35) المصدر السابق، 437. محمد البطاينة، ص24.

(36) نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين،1365 هـ، ص14.

(37) علي بن محمد بن حزم، الفصل في الملل والنحل، جـ 4، ص238 فما بعد.

(38) راجع: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ3، ص335- عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بغداد، 1945، ص27 فما بعد- محمد البطاينة، وصول بني أمية إلى منصب الخلافة (بحث مستل) ص4 فما بعد.

(39) الطبري، تاريخ، جـ5، ص48- ابن كثير،البداية والنهاية، جـ7، ص288 – محمد البطاينة، المرجع السابق، ص8.

(40) الطبري، تاريخ، جـ5، ص57 فما بعد.

(41) المصدرنفسه، جـ5، ص70.

(42) خليفة بن خياط، تاريخ، طبعة النجف، جـ1، ص174.

(43) الطبري، تاريخ، جـ5، ص85 فما بعد.

(44) المصدرالسابق، جـ2، ص89 فما بعد.

(45) E.I.(2) (علي بن أبي طالب).

(46) الطبري، المصدر السابق،جـ5، ص89-90.

(47) ابن سعد، الطبقات، جـ3، ص35 فما بعد.

(48) البلاذري، انساب الأشراف، قسم3، بيروت 1978، ص27 - أخبار الدولة العباسية (أخبار العباس وولده المؤلف مجهول) بيروت، 1971، ص25 فما بعد- مادة (عبد الله بن العباس) E.I.(2)

(49) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص29 فما بعد.

(50) البلاذري، أنساب، ص27.

(51) راجع: تفسير ابن عباس، تحقيق راشد الرجال، ط2، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1993.

(52) مجهول أخبار الدولة العباسية، ص 23 - كذلك راجع كتاب ابن عساكر، تاريخ دمشق تحقيق شكري فيصل واخرون، ص 197 فما بعد.

(53) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص23 – يبدو أن عمر بن الخطاب كان شديد الحساسية من مسألة تقريب الخليفة لذوي قرباه، راجع رضوان السيد، السلطة في الإسلام، في مجلة الاجتهاد.

(54) البلاذري، انساب، ص27- أخبار الدولة العباسية ص36 فما بعد - عارف تامر، عبد الله بن عباس، بيروت 1993، ص26 فما بعد - رأفت عبد الرحمن الباشا، صور من حياة الصحابة، بيروت، 1993، ص 49 فما بعد، محسن الأمين، في رحاب أئمة أهل البيت، بيروت، 1992، المجلد الأول، جـ2، ص71 فما بعد.

(55) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص 46 فما بعد - ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م2 جـ3، ص219 فما بعد - الطبري، تاريخ، جـ5، ص160.

(56) عن تفاصيل هذه الأحداث، راجع: مجهول: أخبار الدولة العباسية، ص48-117.

(57) تاريخ دمشق، ص179-198.

(58) أخبار الدولة العباسية، ص130.

(59) المصدر السابق.

(60) عن جفر بن أبي طالب انظر: المصادر والمراجع في أخر المقالة التالية، (جعفر بن أبي طالب، دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية).

(61) ابن إسحق، المغازي، ص15– الطبري، تاريخ، جـ2، ص328 فما بعد.

(62) ابن اسحق، المغازي، ص195.

(63) المصدر السابق، ص 196.

(64) ابن هشام، السيرة، ق2، ص359.

(65) بن اسحق، المغازي، جـ2، ص756– ابن هشام، السيرة، ق2، ص373 فما بعد.

(66) محمد فهمي عبد الوهاب، شهداء الصحابة في صدر الإسلام، د.م، 1980.

(67) انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، بيروت، 1983–البلاذري، فتوح، ص436. مادة (عقيل بن أبي طالب) (2) .E.I.

الفصل الثاني

بنو هاشم في العصر الأموي

41هـ/ 661م _ 132هـ/ 749م

- ❖ الحسن بن علي وآله
- ❖ الحسين بن علي وآله
- ❖ محمد بن الحنفيه وآله
- ❖ عبد الله بن جعفر الطالبي وآله
- ❖ مسلم بن عقيل وآله
- ❖ علي بن عبد الله بن العباس وآله

قال الحسن بن علي بن أبي طالب بعد عقد الصلح مع معاوية بن أبي سفيان:

"إني خشيتُ أن يُجتّث المسلمون من الارض، فأردتُ أن يكون للدين داع".

مؤسسة البلاغ،

سيرة الرسول وأهل بيته

جـ2، ص32

❖ الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ

حفيد الرسول ﷺ من جهة فاطمة الزهراء، ولد بالمدينة المنورة سنة 3هـ - 624م وسماه الرسول ﷺ الحسن بينما أراد والده علي بن أبي طالب أن يسميه (حرب). كان رسول الله ﷺ يحبه ويحب أخاه الحسين حيث رويت أحاديث عديدة حول ذلك. كما وأنه كان مشمولاً بحديث الكساء آنف الذكر وآية المباهلة وغيرها في القرآن الكريم. وقد قامت شيعة العلويين في الحقبة التالية بتأويل هذه الأحاديث والروايات مستنتجة منها أموراً سياسية وعقائدية مختلفة.

عاصر الحسن جده الرسول ﷺ سبع سنين وجمع بعض كلامه وسننه، وتوفي الرسول ﷺ ثم تبعته فاطمة أم الحسن. ولم يلعب الحسن دوراً في الحياة العامة في عهد الخلفاء الراشدين لصغر سنه، ولكن روايات تاريخية تشير إلى أن الحسن وأخاه حملوا الماء للخليفة عثمان ضد النّفار ولكن وصولهما جاء متأخراً رغم أنهما كانا شاهداً عيان للحادثة المأساوية وربما كان بإمكانهما معرفة القتلة الذين شاركوا في القتل مباشرة.

شارك الحسن بن علي في الجهاد حيث انضم إلى الحملة التي أرسلت إلى إفريقيّة بقيادة عبد الله بن نافع وعقبة بن نافع في عهد عمر بن الخطاب. كما شارك في حملة طبرستان سنة 30هـ/ 650م في عهد عثمان بن عفان.

أما في خلافة علي بن أبي طالب فقد شارك الحسن أباه في سياساته وحروبه في الجمل والنهروان وصفين، وكان الخليفة يرسله في مهام رسمية حساسة حيث أرسله مع عمار بن ياسر لإقناع أهل الكوفة بالطاعة والولاء للخليفة بعد ظهور التردد في مواقف فئات منهم(1).

وتذكر العديد من الروايات التاريخية أن علياً ين أبي طالب قبيل موته لم يوصى لأحد وحينما سئل عن الحسن وبيعته أجاب "لا أمركم ولا أنهاكم وأنتم بأموركم أبصر".

وقد خطب الحسن خطبة أكد فيها فضائل آل البيت وخاصة العلويين وقربهم من الرسول ﷺ. ودعى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الناس إلى بيعته فبايعوه على كتاب الله وسنّة نبيه وقتال المحلّين. ولكن الحسن تجنب الجملة الأخيرة ونجح في التغافل عنها وتكلم عن إحلال السلم بين المسلمين بدل الفرقة والفتنة(2).

بويع الحسن بالخلافة في الكوفة المنقسمة على نفسها، ولم تتجاوز خلافته أشهراً قليلة باختلاف الروايات وهي تتراوح بين سبعة أشهر وبضعة أيام في أعلى حد لها وبين شهرين في أدنى حد لها. ويعود هذا الاختلاف إلى تباين أقوال الرواة حول الوقت الذي استخلف فيه الحسن والوقت الذي وقع فيه الصلح بين الحسن ومعاوية بن أبي سفيان.

وليس من السهل تتبع العلاقة بين الحسن بن أبي طالب ومعاوية ولكن الملاحظ أن الأخير لم يتباطئ في أشعار الحسن بعدم اعترافه به خليفة للمسلمين واظهر استعداده للحرب لحسم الموقف وكالعادة تبدأ الحرب بالكلام فقد وجه الحسن كتاباً إلى معاوية ذكر فيه على حد رواية ابن أعثم الكوفي(3):

احتجاج قريش على العرب بقرابتها من الرسول ﷺ وأن العرب اعترفت لهم بهذا الفضل فلم تنازعهم السلطان، ولكن قريشاً لم تنصف آل محمد ودفعتهم عن الخلافة. كما أشار الحسن إلى تولية علي بن أبي طالب له من بعده طالباً من معاوية البيعة والطاعة وأن يتق الله وأن ينظر لأمة محمد ﷺ ما تحقن به دماءهم وتصلح به أمورهم.

وأرسل معاوية بن أبي سفيان جوابه على كتاب الحسن بن علي، اعترف فيه بفضل آل البيت لسابقتهم وقرابتهم ومكانتهم. ولكنه شبّه الحال بينه وبين الحسن بالحال بين قريش وبني هاشم بعد وفاة الرسول ﷺ حيث أختار المسلمون رجلاً من قريش (أبا بكر الصديق) وفضلوه على الرجل من بني هاشم. يقول معاوية بن أبي سفيان في كتابه إلى الحسن:

"قد فهمتُ الذي دعوتني إليه من الصلح والحال فيما بيني وبينك على ما كانوا عليه، ولو علمتُ أنك اضبط لأمر الرعية وأحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة، وأكيد للعدو، وأقوى على جميع الأمور لسلمتُ لك هذا الأمر بعد أبيك ولأجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلاً، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة وأكبر منك سناً فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني فأدخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ معونة لك على نفقتك...".

ويختلف نص الرواية من مصدر إلى آخر ومن رواية لآخر[4] وهي كما يلاحظ الباحث المتمعن امتداد لمواقف بني هاشم من اجتماع السقيفة مروراً بموقف علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس من معاوية بن أبي سفيان. واستمر تبادل الرسائل مدة طويلة ولم يكن غرضها حسم الموقف لصالح أحد الطرفين حيث لم يكن أي من الطرفين يظن أنه من خلال هذه الرسائل سيقنع الطرف الآخر بأحقية دعواه وقوة حجته. ولكن هدف الرسائل كان دعائياً من أجل كسب الأنصار وإقناع الرأي العام الإسلامي بوجهة نظره.

وفي الوقت الذي كان معاوية يرسل عروضه لتسوية الخلاف الواحد بعد الآخر كان يستعد للحرب، بل أنه جمع ستين ألفاً من أهل الشام وتقدم نحو الموصل في الجزيرة الفراتية. ولم يكن جانب الحسن بن علي ضعيفاً بل استطاع أن يجمع

أربعين ألف مقاتل تحت قيادة قيس بن سعد وآخرين، الذين كانوا أطوع له وكان هو أحب إليهم من أبيه.

وبمرور الوقت وتتابع الأحداث السريعة بدأت تتكشف أبعادٌ جديدة... لقد أظهر الحسن تجاوباً مع الدعوة إلى التفاوض والوصول إلى السلام. ويبدو من بعض الروايات أن ميول الحسن السلمية لم تكن بنت الساعة، بل انه كان ينهي أباه عن القتال. وأنه كان لا يرى القتال ويكره الفتنة. ومن أجل تحقيق هدفه في السلم وتجنب سفك الدماء بدأ بإبعاد العناصر التي تدعوا إلى الحرب مثل القائد قيس بن سعد، كما اشترط أثناء بيعة أهل العراق له أن "يسالموا من يسالم ويحاربوا من يحارب". وترى الرواية نفسها أن محاولة اغتياله كانت بسبب ميله إلى السلم ودعوته للوفاق(5).

ومع أخذنا بنظر الاعتبار ميول الحسن السلمية ودعوته للتسوية، فلا بد أن نشير كذلك إلى عوامل أخرى دفعته إلى هذا الموقف، لعل من أبرزها الظروف الصعبة التي كان يمر بها تلك الفترة من انتشار الفوضى والارتباك بعد استشهاد الإمام علي، وضعف ولاء فئات من أهل العراق، ثم ضعف الإرادة القتالية لدى أتباعه وأن أغلبهم قد نكل عن القتال مما اضطر الحسن إلى التفاوض مع معاوية، فقد أراد أن يتدارك موقفه بعد أن تيقن بان كل يوم يمر كانت أعداد من أتباعه تنضم إلى معاوية. هذا ولا ننسى الدعايات والشكوك التي نجح معاوية في بثها في صفوف أتباع الحسن سواء كان ذلك من خلال الوفود المتتابعة أو العيون التي تسللت إلى صفوف جيشه. ومهما يكن من أمر فإن الحسن بن علي كان ميالاً للصلح بدافع من طبيعته التي تكره الفتنة وسفك الدماء وقد عزز ميله هذا ظروفه التي كان يمر بها وخاصة عدم رغبة أتباعه بالقتال وانقسامهم على أنفسهم.

أما بخصوص شروط الصلح فالروايات التاريخية عديدة ومتناقضة، وليس من السهل التوفيق بينها، خاصة وأن هناك روايات موضوعة أو مشكوك في صحتها

حيث أنها وضعت فيما بعد لإسناد موقف أحد الطرفين. ولا بد أن نشير هنا بأن الحسين (أخا الحسين) اعترض على الصلح ولم يوافق أخاه في موقفه هذا، ثم لم يلبث أن سكت[7].

حدث اللقاء بين الحسن ومعاوية في موقع قرب الكوفة بعد أن أظهر الطرفان تجاوباً للصلح، وتتباين الروايات حول ما تم الاتفاق عليه والضمانات التي أخذها الحسن من معاوية مقابل تنازله عن الخلافة له. ومهما يكن من أمر فهناك مبالغات كثيرة حول الأموال والضياع التي منحها معاوية للحسن أو تلك التي طلبها الحسن من معاوية وهي في كل الأحوال تظهر الرجلين وكأنهما يفضلان مصالحهما الخاصة على مصلحة المسلمين العامة. فمعاوية يستعجل الوصول إلى السلطة بأي ثمن والحسن يحاول ابتزاز معاوية بأي ثمن. والواقع أن هذه الروايات لا صحة لها وتحتوي على مبالغات مدسوسة ضمن المتن وتحتاج إلى تمحيص دقيق خاصة وأنها تتعارض مع روايات تاريخية أخرى ربما كانت أكثر صحة من حيث السند وأكثر مصداقية من حيث المتن ومنطق التاريخ.

فمعاوية لم يعط أموالاً بلغت ملايين الدراهم للحسن، كما وأن الحسن لم يطلب ذلك المبلغ الباهظ منه، وربما ضمن تفضيل الهاشميين في العطاء والجوائز. كما أنه حصل على أمان عام للناس جميعاً فيما أصابوا من الدماء والعفو عن الأموال التي أصابوها من قبل.

الحسنيون (آل الحسن السبط)

الحسن (السبط) بن علي بن ابي طالب

- الحسن المثنى
  - عبد الله المحض (او الكامل)
    - محمد
    - ابراهيم
    - ادريس
    - يحيى
      - جعفر
        - محمد
    - موسى الجون
      - موسى
        - ابراهيم
          - يوسف
            - اسماعيل
      - عبد الله
        - صالح
          - محمد
        - موسى
  - الحسن
    - الحسن
  - ابراهيم
    - اسماعيل
      - ابراهيم (طباطبا)
        - القاسم الرسي (الامام الاعظم) نجم آل الرسول
- زيد
  - الحسن
    - ابراهيم
      - محمد
        - الحسن
          - محمد (ثار في المدينة)
    - اسماعيل
      - محمد
        - زيد
          - الحسن (الامام الداعي ثار بطبرستان سنة ٢٥٠هـ) (مؤسس الدولة العلوية بطبرستان) ت سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م
          - الحسن (الامام الداعي في طبرستان)
    - القاسم
      - عبد الرحمن (الشجري)
        - القاسم
          - ابو طالب يحيى
        - علي
          - الحسن
        - جعفر
          - محمد
            - الحسن
              - جعفر - الحسن - زيد - اسماعيل
                - الحسين (الامام الموفق)
                  - الامام يحيى

القاسم ← الحسن (الامام الداعي)

- الحسين
- القاسم (قتل مع الحسين)
- ابو بكر (قتل مع الحسين)
- عبد الله (قتل مع الحسين)
- عمرو
  - محمد (فقيه ومحدث)

أما مسألة السلطة وإلى من تؤول بعد معاوية فالروايات[8] حولها تختلف أيضاً، فهناك روايات تشير إلى اتفاق الجانبين على تسليم الأمر إلى الحسن بعد معاوية، وهناك روايات تشير إلى تعهد معاوية بترك الأمر شورى بين المسلمين من بعده. كما وأن إحدى رسائل معاوية توضح أن معاوية لم يلزم نفسه باختيار خلف له، وترك المجال لمناقشة الأمر في المستقبل، ولكن السؤال المهم هو إذا كان الحسن راغباً في الخلافة فلماذا تركها وإذا كان قد تنازل عنها فكيف يطلبها مرة ثانية.

وتؤكد ذلك رواية تاريخية حيث يقول الحسن[9]:

"أما ولاية العهد من بعده [معاوية] فما أنا بالراغب في ذلك، ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه".

ثم أن فكرة ولاية العهد (بمعنى تعيين ولي العهد) أو تولية شخص قبل وفاة الخليفة بمدة طويلة لم تكن متبلورة بعد في تلك الفترة. ويمكن أن نخلص بعد ذلك كله أن الأمر لم يبحث بالشكل الذي تشير إليه الروايات التاريخية المتأخرة، وإنما ترك تقريره إلى رأي الأمة في المستقبل. كما اشترط الحسن على معاوية أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء.

لقد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لأسباب عديدة: منها حبه للسلم وكراهيته للسياسة والحرب والفتنة وما يؤدي إليه من فرقة وسفك الدماء. وأكثر من ذلك إدراكه بأن قضيته مع معاوية كانت خاسرة لعدم توفر المال لديه وعدم رغبة غالبية أنصاره بالقتال وعدم إمكانية الاعتماد عليهم، رغم وجود فئة مخلصة متحمسة للقتال بقيادة قيس بن سعد الذين وجدوا أنفسهم فجأة مع إمام تنازل عن الخلافة فتركوا الاستعداد للقتال ودخلوا الجماعة.

وكانت ردود الفعل لتنازل الحسن مختلفة[10] فقد اتهم الحسن بخذلان شيعته وإهدار كرامة المسلمين، وتمنى بعضهم أن يكون الحسن قد مات قبل هذا الحدث، ورأى آخرون من الأتباع أنه كان يجب عليه أن يطالب بضمانات أقوى وأكثر من

معاوية وأن تكون هذه الضمانات مكتوبة. وكان أشهر معارضيه أخيه الحسين وقائد جيشه قيس بن سعد بن عبادة وحجر بن عدي.

أما بالنسبة لآل البيت العلوي فقد كان هذا التنازل يشكل عبئاً عليهم خاصة حين يطالبون بحقهم في الخلافة حيث يصعب عليهم الدفاع عن تنازل الحسن بن معاوية. وسواء كان الرسول ﷺ قد أشار فعلاً أم وضع على لسانه حيث ينبئ بموقف الحسن هذا ويعدّه فضيلة من فضائله فإن ذلك ما وقع فعلاً حيث جمع كلمة المسلمين وجنّبهم الحرب فيما بينهم. قال الرسول ﷺ عن الحسن ﷺ[11]:

"إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين". بعد تنازل الحسن بن علي قرر الاستقرار بالمدينة المنورة وفي طريق عودته وصل القادسية حيث تلقى رسالة من معاوية بن أبي سفيان يدعوه للانضمام إليه لقتال الخوارج فأجابه إنه ترك قتاله تجنباً لسفك الدماء وسوف لن ينضم إليه لقتال الخوارج. وقد توفي الحسن بالمدينة سنة 49هـ/ 669م وكان موته إما طبيعياً أو بالسم من قبل إحدى زوجاته على حد زعم بعض الروايات. ودامت خلافته على أصدق الروايات خمسة أشهر وعشرة أيام.

إن النقد الكثير الذي وجه له من قبل شيعته لم يؤثر على مركزه عند سائر المسلمين باعتباره خليفة المسلمين شرعاً، كما لم يؤثر على مركزه عند الشيعة كإمام بعد أبيه علي بن أبي طالب وقد برروا موقفه فيما بعد بسبب تقواه كما أكدوا على أن أباه نص على تعينه إماماً من بعده.

والواقع أن الحسن يمثل شخصية بارزة في التاريخ الإسلامي بسبب حكمته وشجاعته ومهارته في إدراك الأمور قبل وقوعها وحدسه الصحيح وحذره. كل هذه الصفات جعلته قادراً على اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً وأن يحسم الأمر تجاه قضية تعد من أخطر القضايا التي واجهت المسلمين آنذاك. ورغم أن شيعته أنفسهم لم يذكروا شيئاً عن شجاعته وحكمته هذه فإنهم عدّوه الإمام الثاني بعد أبيه حيث

اعترفت به كافة فرقهم من إماميه أو زيدية أو إسماعيلية أو غيرها. ومعنى ذلك أنهم اعترفوا بدوره وبمواقفه المبدئية وآرائه دون أن يذكروا ذلك صراحة. كما وأن للحسن الكثير من الاحترام من عامة الناس لا بسبب كونه علوياً هاشمياً فحسب، بل لأنه حفيد الرسول ﷺ من جهة فاطمة الزهراء.

إضافة إلى ذلك فقد أشارت الروايات إلى كرمه وحلمه وتقواه وأنه كان شبيهاً برسول الله ﷺ. ومما يدل على استمرار ولاء بعض القبائل الكوفية له ولآل بيته الإجراءات الشديدة التي اتخذها الخليفة معاوية في ذلك المصر حيث نقل بعض القبائل منها واستبدالها بقبائل من البصرة والجزيرة الفراتية وبلاد الشام. وكان معاوية قد كتب إلى وإليه على المدينة أن يكتب له أخبار الحسن فكان يكتب إليه بحاله حتى توفي. وتشير روايات تاريخية[12] إلى سوء معاملة والي الأمويين مروان بن الحكم للحسن واله في المدينة ولكن الأمر فيه مبالغة لأن الخليفة معاوية لم يكن بحاجة إلى هذا السلوك تجاه آل البيت وهذا ما أكده ابن حجر الهيثمي[13] الذي انتقد هذه الروايات سنداً ونصاً مبدياً استغرابه من ورودها.

❖ الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ:

ولد الحسين في المدينة المنورة سنة 4هـ/ 626م وهو حفيد الرسول ﷺ من جهة أمه فاطمة الزهراء ﷺ، وكان الرسول ﷺ يحبّه كأخيه الحسن وكان صغيراً حين توفي جدّه. وقد رويت أحاديث في حب الرسول لحفيديه وكان من الطبيعي أن تأول هذه الأحاديث تأويلات سياسية من قبل الشيعة العلوية لإثبات الإمامة لأبناء علي بن أبي طالب ﷺ.

ويشارك الحسين أمه وأباه في كثرة الروايات التي جعلت منه "أسطورة" لا علاقة لها بالواقع التاريخي الذي عاشه. ويرجع بعض السبب في ذلك إلى نهايته

المأساوية في كربلاء بالعراق على يد ثلّة من الجيش الأموي حيث استشهد في 10 محرم سنة 61هـ/ تشرين الأول سنة 680م.

عاش الحسين في كنف جده وأمه فترة قصيرة ولذلك لم تكن لديه ذكريات كثيرة عنهما. ثم شب في ظلال أبيه علي وشاركه كفاحه وسياسته وحارب إلى جانبه في الحروب التي خاضها. ولم يبرز الحسين كشخصية مستقلة بعد وفاة أبيه حيث طغت عليه شخصية الحسن أخيه الأكبر. وقد عارض سياسة أخيه السلمية وانتقد تنازله عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ولكنه ما لبث أن أذعن للأمر الواقع. وخلال حياة الحسن اقترح بعض رجالات الحركة العلوية النشطين مثل حجر بن عدي على الحسين الثورة على بني أمية ولكن موقفه كان سلبياً، حيث يمنّي الشيعة العلوية بالمستقبل الواعد حين تتهيأ الظروف المناسبة. وقد أصبح شعار المعارضة للسلطة وسياسة "الإحالة إلى المستقبل" حين يحين الوقت المناسب شعار الأئمة العلويين المتتابعين من الفرع الحسيني كما سنلاحظ ذلك في فصول قادمة[14].

اتسمت علاقة الحسين بن علي بالسلطة الأموية بكونها علاقات يشوبها الحذر والترقب. وكان الحسين يأخذ عطاؤه من الأمويين كما يستلم منهم الهبات والجوائز مثله مثل بقية الهاشميين وهو حقهم الطبيعي الذي أكده الاتفاق بين الحسن ومعاوية كذلك. ويبدو أن الأخبار التي وردت عن مروان بن الحكم والي المدينة والمنورة إلى معاوية والتي أشارت إلى كثرة تردد شيعة الكوفة على الحسين قد أقلقت معاوية بعض الشيء. وقد استشار الخليفة أحد أقربائه سعيد بن العاص قائلاً: يا أبا عثمان أشر عليَّ في الحسين، فقال: والله انك ما تخاف الحسين إلا على من بعدك..."[15]. إلا هذه الأمور لم تكن تزعج معاوية وكان يأمر واليه على المدينة بعدم الاصطدام به.

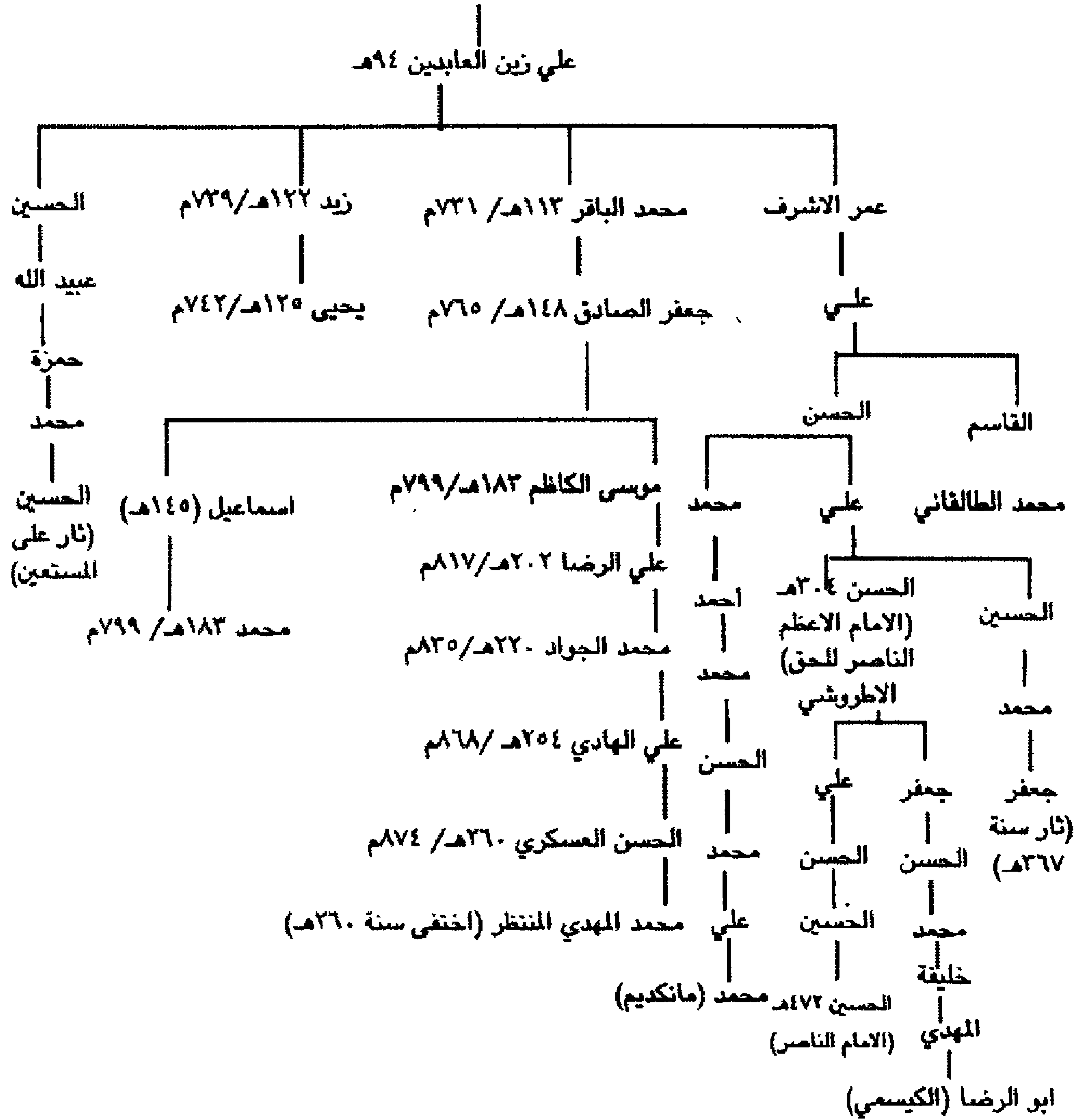
إن موقف الحسين بن علي من الأمويين اتضح حين عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان بولاية العهد لابنه يزيد. فكان من بين الخمسة الكبار الذين رفضوا البيعة باعتبارها بدعة في مؤسسة الخلافة المبينة على الشورى ومبدأ الاختيار للأمة. صحيح أن فكرة (التعيين) القريبة من الاختيار التي اقترحها معاوية لاقت من حيث المبدأ قبولاً لدى العديد من كبار رجالات الأمصار، ذلك لأنهم كانوا ينتظرون من معاوية أن يختار رجلاً من النمط الذي اختاره أبو بكر الصديق أو أن يختار رجالاً بمستوى ستة الشورى الذين رشحهم عمر بن الخطاب، ولم يكونوا يتوقعون أن تنقلب فكرة التعيين إلى (وراثة مباشرة) حيث عيّن معاوية ابنه يزيد. ولذلك كانت ردود فعلهم شديدة في معارضتها حيث قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق:

"تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل!!"[16].

وبعد وفاة معاوية سنة 60هـ/ 680م طلب والي المدينة عتبة بن أبي سفيان من الحسين بن علي المجيء إلى دار الإمارة وإعلان بيعته ليزيد فذهب الحسين وأشار إلي أن البيعة لا بد أن تكون علنية ويشهدها الناس لتكون شرعية ونجح في تأخير بيعته حيث هرب بعد ذلك إلى مكة ملتحقاً بعبد الله بن الزبير.

ومن جهة أخرى كانت وفاة الخليفة معاوية مصدر بهجة لأهل الكوفة شيعة العلويين حيث أرسلوا في التو رسائل ووفود إلى الحسين تدعوه إلى القدوم وإعلان ثورته. وقد رأى الحسين أنه من المناسب إرسال ابن عمه مسلم بن عقيل ليرى الوضع بنفسه ويكتب له. وقد نجح مسلم بادئ ذي بدء في جمع الأتباع والعهود وتكلم في مسجد الكوفة تحت سمع وبصر واليها النعمان بن بشير الأنصاري. وحين وصلت الأخبار إلى الخليفة يزيد بن معاوية عزل والي الكوفة وأمر عبيد الله بن زياد أن يتسلم الكوفة إضافة إلى البصرة.

آل الحسين السبط (الحسينيّون)



مما أفشل محاولة مسلم تنظيم حركة تؤيد الحسين، بل أن ابن زياد اعتقله وقتله في ذي الحجة سنة60هـ/ 680م.

أما الحسين بن علي فاستناداً إلى الأخبار التي وصلته قرر المسير إلى العراق رغم تحذير محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بـن

الزبير. وفي الطريق جاءته تحذيرات أخرى مفادها "أن قلوب العراقيين معك وسيوفهم مع الأمويين" ولكن قراره كان قطعياً وكان يقول "يفعل الله ما يشاء"[17].

اتخذ عبيد الله بن زياد إجراءات شديدة في الكوفة ومنع الدخول والخروج إليها. وحرك جيشه باتجاه الحسين ومجموعته الصغيرة، وهنا قرر الحسين العودة بعد سماعه بمقتل ابن عمه مسلم وهانئ بن عروة، ولكن بعد أن أحاطت به قوات الأمويين. وبدأ الحسين التفاوض معهم على ثلاثة خيارات أن يتركوه يذهب للجهاد في سبيل الله أو يتوجه لمقابلة يزيد بن معاوية أو يعود من حيث أتى. ولكن الطلب رفض فكانت المعركة غير المتكافئة، ومنع الحسين وأتباعه من الماء ثم خطب في أتباعه الذين لم يتجاوز عددهم السبعين مقاتلاً معلناً استياءه من أهل الكوفة الذين خذلوه ثم استشهد مع أبنائه وأبناء عمومته وأخيه العباس بن علي ومجموعة من الطالبيين والجعفريين والعقيليين ولم يبق منهم سوى ابنه علي الأصغر (زين العابدين)[18].

أما ردود الفعل تجاه استشهاد الحسين ﷺ فكانت عاطفياً جياشة[19]، أما واقعياً فلم يحدث ما يهدد كيان الأمويين. فالعلويون أنفسهم كانوا منقسمين على أنفسهم وهذا يعني أن أنصارهم كانوا منقسمين أيضاً حيث لم تكن هناك زعامة علوية تجمع شملهم أو توحدهم. والمعروف أن أمل شيعة العلويين قد خاب في الحسن بن علي ﷺ حيث لم يكن لديه نيّة – كما أشرنا – في الدخول في صراع مسلح مع معاوية وتنازل عن الخلافة سنة 40هـ.

ثم واتت الفرصة لهؤلاء النفر من الشيعة النشطين بعد حوالي عشر سنوات من تسلم الأمويين السلطة حين تحركوا بقيادة حجر بن عدي الكندي في الكوفة بالعراق سنة 52هـ/ 671م. وكانت حركة حجر سياسية بحتة عبرت عن سخط أتباع العلويين من سيطرة الأمويين على الخلافة واستلابهم حق آل علي في الأمر.

ثم تحرك الحسين بن علي ﷺ كما ذكرنا سنة 61هـ/ 680م بعد موت معاوية وتقلد يزيد الخلافة ولكن حركته فشلت لسببن رئيسيين أولهما: أنها كانت مستعجلة ينقصها التنظيم والإعداد، وثانيهما: عدم مساندة شيعة الكوفة للحسين حين غدا الأمر جاداً.

ويظهر أثر مأساة كربلاء على أهل الكوفة حين ندموا بعد فوات الأوان على خذلانهم الحسين فصمموا على الأخذ بثأره فكانت (حركة التوابين) بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي حيث التحموا مع الجيش الأموي في معركة (عين الوردة) سنة 64هـ/ 683م فقتل أغلبهم مع زعيمهم الذي سار باختياره إلى الموت في معركة هي الأخرى غير متكافئة.

على أن الحركة التي رفعت شعار التوابين نفسه "يا لثارات الحسين" والتي تزعمها المختار بن عبيد الثقفي 66هـ/ 685م كانت تختلف تماماً في طبيعتها ومغزاها عن الحركات التي قبلها وأثرت تأثيراً ملحوظاً في تطور حركة الشيعة العلوية[20]. أن من أبرز معالم شخصية المختار الطموح والنزعة الفردية غير الملتزمة والشجاعة الفائقة. هذا إلى جانب ذكاء فطري جعله يدرك تماماً مفاهيم العصر الذي يعيش فيه. كل ذلك إضافة إلى الظروف التي ساعدته ليتطلع إلى الزعامة السياسية في فترة قلقة ومضطربة.

لقد عبر المختار الثقفي عن تطلعاته هذه بقوله:

"إنما أنا رجل من العرب رأيتُ ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة [الخارجي] انتزى على اليمامة، ومروان [ابن الحكم] على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب فأخذت هذه البلاد [العراق] فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت بثأر أهل بيت النبي ﷺ إذ نامت عنه العرب"[21].

وهنا يكمن السر في النجاحات الكبيرة التي حققها المختار في بداية حركته. فالمختار لم يكن من أنصار العلويين، بل كان سياسياً براغماتيكياً أدرك أن مفتاح

نجاحه في العراق يكمن في التودد للعلويين وإظهار تعاطفه مع قضيتهم ورفع شعار الثأر للحسين. ورغم مواقفه المضادة للعلويين قبل هذا التاريخ فإنه أظهـر تـودداً لمسلم بن عقيل وأواه لفترة من الزمن في داره، ولكنه لم يخرج ليقاتل مع الحـسين في محنته ولم يتعاون مع التوابين بعد ذلك ثم عاد فأتصل بعلي بن الحـسين ومـن بعده بمحمد بن الحنفية ومع ذلك فقد فشل المختار في احتواء شيعة العراق وأسـاء التقدير، ويرجع السبب الأول لفشله في رأينا إلى إبعاده "الأشراف" ذوي النفوذ مـن العرب ومحاولة اعتماده على "الضعفاء" من الموالي والعرب حيث لم يـستطيع أن يحقق النصر بهم.

وهكذا فإن ردود الفعل الآنية لاستشهاد الحسين بن علي لم تحقـق الأهـداف المرجوة منها. أما ردود فعل الأمويين فقد ذكرت روايات[22] أنهم تنفسوا الـصعداء بمقتل الحسين إلا أن هذه الروايات على ما يبدو مبالغ فيها ولا يعقـل أن يـصرح الأمويين بذلك الموقف علانية حتى ولو كانت رغبتهم فعـلاً، خاصـة وأن هنـاك روايات تظهر الحزن الذي أبداه بعضهم حينما سمعوا بالحادث المفاجئ.

❖ زيد بن علي (زين العابدين) والفرقة الزيدية:

زيد بن علي بن الحسين بن أبي طالب الملقب بـ (حليف القرآن) وكانت أمـه أمة سندية. وقد عدّه أتباعه شهيداً بعد ثورته ضد الأمويين[23].

كان زيد بن علي ﷺ أول من تحرك من العلويين ضد الأمويين بعـد مأسـاة كربلاء (سنة 60هـ/ 680م) معلناً نفسه إماماً في الكوفة. ورغم أن آلاف الأتبـاع أعلنوا له يمين الطاعة لم ينضم إلى ثورته حين أعلنها سوى فئات قليلة، لـم يكـن كلهم من الشيعة الزيدية بل من الخوارج وفئات من المتذمرين من سياسة الأمويين، حيث لم يكونوا في ميولهم السياسية مع العلويين. وحينما أعلن زيـد حركتـه فـي الكوفة سنة 122هـ/ 739م كان والي الأمويين مستعداً له وبعد قتال لعدة أيام فـي

شوارع الكوفة جرح زيداً جرحاً قاتلاً حيث مات على أثره وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

أخذ زيد العلم عن أبيه وأخيه محمد الباقر كما تتلمذ على شيخ المعتزلة بالبصرة واصل بن عطاء الغزال فتأثر بأفكاره. ولزيد العديد من الكتابات المنسوبة إليه منها: تأويل القرآن، أحكام الفقه، مشاكل الإمامة، الحج. ومن تلاميذه البارزين أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وتشير روايات تاريخية أنه ساند حركته بالمال والفتوى. أما محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل فقد قال عن زيد بن علي:

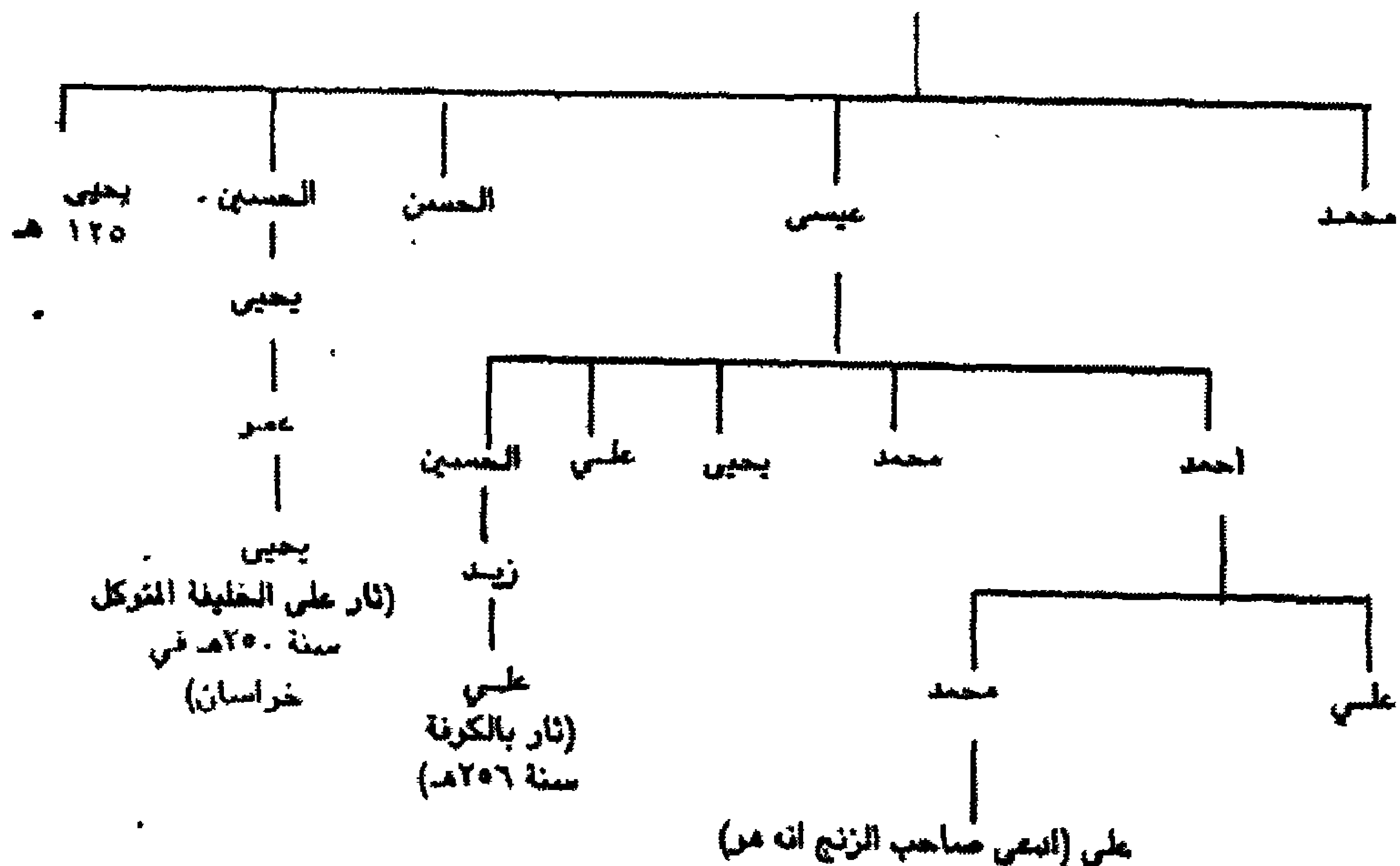
"فتح لنا والله زيد بن علي الجنة وقال أدخلوها بسلام آمنين، ولن ننحو إلا أثره ولن نقتبس إلا من نوره..."[24].

وقد استشهد ابنه يحي بعده بسنوات قليلة سنة 125هـ/ 715م في الجوزجان من بلاد فارس[25].

ويلاحظ أن الزيدية قد جعلت بعض أئمة آل البيت من السابقين الأوليين من أئمتها مثل الإمام علي بن أبي طالب والإمام الحسن والإمام الحسين ثم استبعدوا علي زين العابدين لأنه لم يخرج ولم يتعرض للخروج بل ساقوا الإمامة إلى الحسن المثنى مع أن الحسن لم يخرج أيضاً. وهنا يلاحظ الارتباط بين آل زيد وآل الحسن فالعديد من أئمة الزيدية من الحسنيين مثل محمد النفس الزكية وإبراهيم بن عبد الله الكامل والإمام الحسين بن علي (صاحب فخ) والإمام إدريس بن عبد الله الكامل. كما يلاحظ إن قلة من خرج من الأئمة الذين ينتسبون إلى زيد جعلت مؤرخي الفرقة الزيدية يعدّون بعض ثوار آل البيت، وبعض شخصياتهم من المذهب الزيدي مع أن هذه الشخصيات من آل الحسين وعدتها من أئمتها. ولعل السبب في ذلك هو خروج هؤلاء على السلطة ودعوتهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل محمد بن جعفر الصادق الذي خرج على المأمون سنة 200هـ/ 815م في مكة بالحجاز، كما اعترفوا بعلي الرضا بن موسى الكاظم (ت 203هـ/ 818م) الذي تعترف به كل

من الفرقة الأمامية إماماً بالنص والتعيين وتعده الإمام الثامن من أئمتهم وتعترف به الفرقة الزيدية من خلال مبايعته من قبل بني هاشم وعلى رأسهم الخليفة المـأمون وكذلك عامة الناس، خاصة وأن عمله وفضله كانا محل إجماع. وقد دفن في طوس التي تسمى اليوم مشهد بسبب وجود قبره هناك.

آل زيد بن علي زين العابدين



وللفرقة الزيدية العديد من الأئمة المعترف بهم من أهل المذهب وغالبيتهم من آل الحسن وبعضهم من آل الحسين وآل زيد. وتشير مصادرنا إلـى علمهـم ومـا تركوه من آثار علمية عديدة بعضها منشور وبعضها لا يزال مخطوطاً وخاصة في مكتبات اليمن[26].

ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الإمام القاسم بـن إبـراهيم الرسـي (نسبة إلى جبل الرس في الحجاز) حيث توفي سنة 246هـ/ 860م ومن مؤلفاته:

كتاب الدليل الكبير – كتاب العدل والتوحيد الكبير– كتاب الرد على المجبرة– كتاب تثبيت الإمامة – كتاب الفرائض والسنن– كتاب سياسة النفس ورسائل في الوعظ والتذكر. ونذكر كذلك الإمام الناصر للحق الحسن بن علي (الأطروش) بن الحسن بن علي بن عمر بن علي زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت 304هـ/ 916م) الذي دخل على يده العديد من أهل الديلم وجيلان الإسلام وقد سيطر كذلك على طبرستان. وكان معاصراً للخليفة المقتدر العباسي. ومن آثار الحسين بن علي (الأطروش) العلمية:

كتاب المغني – كتاب الباهر – كتاب البساط – كتاب الإمامة – كتاب الأمالي – كتاب الحاصر لفقه الناصر – كتاب الإبانة في الفقه – كتاب التفسير.

نظرية الإمامة عند الزيدية[27]:

وضع زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين (ت 122هـ/ 739م) المبادئ الرئيسية لنظرية الزيدية في الإمامة وهي تقوم على التالي:

أولاً: وجود الإمامة شرعاً وهي من أهم مسائل الدين لقيام الإمام بتنفيذ الشريعة ولذلك فإن معرفة الإمام واجبه. ويشترط في الإمام صفات متميزة محددة منها البلوغ والعقل والحرية والذكورة والنسب الفاطمي وسلامة الحواس.

ثانياً: الإمامة للأفضل من الفاطميين ولكن في حالات استثنائية جوّز الزيدية إمامة المفضول مع وجود الأفضل شرط أن يرجع المفضول إلى الأفضل في الأحكام. ومن أجل إقرار شرعية خلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وافق زيد بن علي على إمامة المفضول مع وجود الأفضل إلا أن هذا الإقرار ليس عاماً وإنما استثناءاً.

ثالثاً: الخروج على أهل الجور والدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليس بإمام من قعد عن الجهاد وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وعلى المرء أن يبدل ما يراه منكراً أو يهاجر.

محمد بن الحنفية وآله

محمد هو الابن الثالث للإمام علي بن أبي طالب. ولد سنة 16هـ/ 637م وأمه خوله الحنفية (من بني حنيفة)، ولا تذكر المصادر التاريخية عنه شيئاً كثيراً بسبب حذره وتجنبه الظهور في الحياة العامة وسلبيته السياسية حيث حاول جاهداً الاختفاء عن المسرح السياسي.

ورغم كونه ليس فاطمياً فقد تجمعت الشيعة العلوية حوله بعد وفاة الحسن واستشهاد الحسين ولكنه تعامل مع سائر الأطراف سواء كانت السلطة الأموية أو المعارضة الزبيرية أو المختارية (نسبة إلى المختار) بحذر شديد.

حاول الخليفة يزيد بن معاوية بعد استشهاد الحسين تقريب أخيه محمد بن الحنيفة فكتب إليه:

"أما بعد فإني أسأل الله لي ولك عملاً صالحاً يرضى به عنا فأنني لا أرى اليوم في بني هاشم رجلاً هو أرجح منك فهماً وعلماً ولا أحضر هماً وحكماً ولا أبعد من كل سفه ودنس.. وقد عرفنا ذلك منك قديماً وحديثاً وشاهداً وغائباً، غير أنني قد أحببت زيارتك والأخذ بالحظ من رؤيتك ورأيك. فإذا نظرت في كتابي هذا فأقبل إلينا آمناً مطمئناً أرشدك الله أمرك وغفر لك ذنبك"[28].

ولكن ابن الحنفية كان حذراً واستشار أولاده فأشار إليه ابنه أبو هاشم عبد الله بعدم الذهاب وقال: يا أبت اتق الله في نفسك ولا تصر إليه فإني خائف عليك أن يلحقك بأخيك الحسين ولا يبالي. إلا أن ابن الحنفية خرج إلى الشام فأخذ يزيد يعتذر عن قتل الحسين وأجازه بمائتي ألف. ولعل يزيد كان يبتغي من تقريب بعض بني

هاشم التخفيف من الأزمة التي حدثت بعد استشهاد الحسين وكذلك أراد شق الصف الهاشمي من خلال كسب بعض رجالاتهم في تأييدهم للخلافة الأموية، وقد نجح فعلاً في كسب عبد الله بن جعفر الطيار وابنه معاوية[29].

وحين قام عبد الله بن الزبير بحركته في مكة ضد الأمويين ضيق على الهاشميين وطالبهم بالبيعة له وكان منهم ابن الحنفية فامتنع وقال بأن الطاعة والبيعة تكون لإمام ترتضيه الأمة وتجمع عليه، فحبسهم ونفى ابن الحنفية وابن عباس إلى الطائف[30]. وانتهز عبد الملك بن مروان هذه الفرصة المواتية فتقرب إلى بني هاشم وكتب إلى ابن الحنفية يدعوه إلى المسير إلى بلاد الشام والنزول في أي مكان شاء:

"فانظر إذا قرأت كتابي هذا فسر إلى ما قبلي أنت ومن معك من شيعتك وانزل حيث شئت من أرض الشام مطمئناً إلى أن يستقيم أمر الناس فتختار أي الخصال أحببت والسلام"[31].

وقبل ابن الحنيفة ذلك فخرج إلى العقبة (أيلة) فأقام بها حوالي السنتين حتى انتهت حركة عبد الله بن الزبير، حيث اعترف ابن الحنيفة بخلافة عبد الملك بن مروان وزاره سنة 78هـ/ 697م في دمشق. فأكرمه وأعظمه وعاد إلى المدينة المنورة.

أما علاقة ابن الحنيفة مع زعيم شيعة الكوفة بالعراق المختار الثقفي[32] فكانت حذرة جداً حيث كانت إجابته للوفد الذي أرسله المختار إلى المدينة دبلوماسية، ولكنه لم ينكر فعاليات المختار مما فسره البعض بتأييده للحركة. وقد أنقذ المختار ابن الحنفية من سجن ابن الزبير حينما أرسل ثلة من الجيش للقيام بذلك. ومع ذلك ظلّ ابن الحنفية غامضاً في مواقفه من المختار الثقفي وأنكر لقب (المهدي) الذي لقبه به المختار. كما أنكر بعض آراء المختار الدينية "الغالية" التي راجت في مجتمع الكوفة آنذاك. ولم يذهب إلى الكوفة رغم دعوة المختار له. وحينما تفجرت

حركة المختار الثقفي أعلن ابن الحنفية موقفه ضد الفتنة وسفك الدماء. وقد حاول المختار أن يكسب ابن الحنفية إلى حركته بوسائل عديدة فقد أعلن أن ابن الحنفية هو "المهدي" ولقيت الفكرة قبولاً لدى الفئات "المتطرفة" من أهل الكوفة وبعض الموالي، وقد ادعى المختار أول الأمر أنه "وزير المهدي" محمد بن الحنفية "ووصيه"، ولكنه ما لبث أن أشاع بين أتباعه المخلصين أنه نبي تتصل به الملائكة، مما أدى إلى تخلي ابن الحنفية عنه.

أبو هاشم عبد الله والفرقة الهاشمية:

لم يتخل أتباع المختار (الكيسانية) عن محمد بن الحنفية رغم انقطاع الصلة بين الرجلين، وبعد وفاته سنة 81هـ/ 700م ذكر الغلاة (المتطرفون) أن ابن الحنيفة لم يمت وأنه اختفى في جبل رضوى قرب المدينة المنورة وسيعود ليحقق آمالهم وأمانيهم. وهذه هي (فكرة الرجعة) عند بعض الفرق. بينما اعتبرت فرق أخرى أن ابنه عبد الله أبا هاشم هو الإمام بعد أبيه وهذه هي الفرقة (الهاشمية) نسبة إليه. ولقد كان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية زعيم حقيقي للشيعة العلوية[33]. ونجح كقائد لأتباع أبيه من الكيسانية (جماعة المختار الثقفي) ثم قائداً لفرقة أكبر وهي (الهاشمية) وكانت علاقته بالأمويين ودية يسودها الحذر مثل علاقة أبيه بهم. وقد ذكر أنه سُقي السم في طريق عودته من دمشق إلى المدينة المنورة وحين شعر بدنو أجله عرّج إلى الحميمة حيث يسكن محمد بن علي العباسي فأوصى له بزعامة حركته (الهاشمية) وأعطاه (الصحيفة الصفراء) التي تتضمن أسماء أتباعه من الأفراد والقبائل. وبهذا غدا ولاء الشيعة الهاشمية إلى العباسيين.

ويمكننا القول بعد ذلك فيما يتعلق بابن الحنفية وأبي هاشم أن شخصيتهما الواقعية والسياسية كانتا تستقطبان الحركات والفرق الموالية للعلويين ولذلك فإن ابن الحنيفة وابنه أبا هاشم كانا مسيطرين على المسرح السياسي في الحقبة الأولى حيث لا ينافسهما أية شخصية حسنية أو حسينية. وهذه الظاهرة بالذات هي التي جعلت

بعض الباحثين المحدثين يشككون إن كان للعلويين من آل الحسن أو آل الحسين أية دعوى جادة تتعلق بالخلافة، ويستطرد هؤلاء الباحثون بالقول بأنه لم يكن هناك في تلك الفترة المبكرة اعتراف واضح بالفضائل الخاصة والتي تميز بها آل الحسين فيما بعد.

ولعل مما يدعم هذا الشك أن الباحث يفاجئ ومع بدء الدعوة العباسية بنشاطات علوية فاطمية توحي وكأنهم انتبهوا على حين غرة وأدركوا أن عليهم أن يقدموا دعوى خاصة بهم للمطالبة بالخلافة أو الإمامة!!

❖ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وآله

ولد عبد الله بن جعفر حين كان أبوه مهاجراً إلى الحبشة في الأيام الأولى العسرة من الدعوة الإسلامية. وكانت أمه أسماء بنت أمية الخثعمية ويعد من جهة أمه أخاً لمحمد بن أبي بكر.

اشتهر عبد الله بكرمه ولقّب (بحر الجود)، ولم يلعب دوراً سياسياً واضحاً. ويذكر له أنه نصح الحسين بن علي بعدم الذهاب إلى الكوفة بالعراق سنة 60هـ/ 680م. وقبل ذلك شارك في فتح بلاد الشام، وفي طريقه سأل عن موضع قبر أبيه فدل عليه. ومن الأماكن التي شارك في فتحها دمشق ودير أبي القدس وطرابلس الشام. وكانت علاقته طيبة بالأمويين، فقد خصص له معاوية بن أبي سفيان جراية سنوية، وضاعف هذه الجراية. كما قرب الخليفة يزيد أيضاً عبد الله وابنه معاوية بن عبد الله بن جعفر وكان صديقاً حميماً له على رواية الأصفهاني في الأغاني. وفي عهد عبد الملك بن مروان تزوج هذا الخليفة أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر وكان أبوها من المقربين إليه حتى طلاقها حيث وقع جفاء بينهما.

وعادت علاقات عبد الله بن جعفر طيبة وودية مع الوليد بن عبد الملك فكان يأتيه ويؤانسه وقد توفي في الأعم الأغلب سنة 85هـ/ 704م [34].

أما حفيده عبد الله بن معاوية بن عبد الله[35] فيشار إليه (بالثائر الطالبي) لأنه تحرك في الكوفة سنة 127هـ/ 744م وتابعه الغلاة من الكيسانية (جماعة أبي هاشم عبد الله) وكذلك الزيدية، وتمكن والي العراق من كسرهم ولكنه سمح لهم بالانسحاب من الكوفة. فسار إلى المدائن وانضم إليه بعض العباسيين وفئة من الخوارج، ووسع نفوذه وشمل العديد من المناطق التي حوله مثل فارس والجبال وكرمان والأحواز. ونجح القائد الأموي عامر بن ضبارة من الانتصار عليه سنة 129هـ/ 746م ففر إلى خراسان وتلقاه أبو مسلم الخراساني وقتله سنة 132هـ/ 749م.

ويسمى أتباعه الفرقة (الجناحية) الذين يعتقدون بأنه لم يمت بل اختفى وسيعود. أما الفرقة (الحارثية) فقد اعتقدت بأن روحه حلت في إسحق بن زيد الحارثي الأنصاري ونقلت ولاءها إلى هذا الأخير.

حركة عبد الله بن معاوية الطالبي والفرقة الجناحية

(127- 132هـ/ 745- 749م).

تعدّ حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر (الطيار) بن أبي طالب آخر الحركات الهاشمية الفاشلة في العصر الأموي قبل الثورة العباسية، ورغم أن الحركة لم تكن علوية لأن عبد الله بن معاوية كان طالبياً[36] فإن العديد من الباحثين يعتبرونها "حركة علوية" إما خطأً[37] أو لأن نسبة مهمة من أنصار العلويين انضمت إليها بعد إعلانها واستفحال أمرها وخاصة في بلاد فارس[38]، كما وأن تصنيف هذه الحركة ضمن فرق "الغلاة" التي تسترت تحت شعار العلويين وارتباطها بآراء وعقائد الكيسانية والفرق المنشقة عنها مثل الحربية والحارثية[39])... كل ذلك جعل بعض المؤرخين[40] يضعونها ضمن الحركات العلوية التي حدثت في أواخر العصر الأموي.

لقد جمعت حركة عبد الله بن معاوية في فترة استفحالها كل الفئات المناهضة للأمويين بكل ما في آرائها السياسية والدينية من تناقضات كبيرة، وعلى هذا فإن حركة تتصف بالغموض في فكرها السياسي وعدم الوضوح في طبيعتها الدينية العقائدية، يضاف إلى ذلك عدم تمتع زعامتها بالقدرة على التحكم والسياسة المتزنة... إن حركة كهذه كان محكوم عليها بالفشل منذ البداية.

بدأ التدهور في أوضاع الخلافة الأموية بعد عهد هشام بن عبد الملك (105- 125هـ/ 724- 743م) حيث استفحلت الفتن والاضطرابات في ولايات الدولة وخاصة في المشرق، وحين قضى يزيد (الثالث) بن الوليد بن عبد الملك على ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد وقتله سنة 126هـ/ 744م عين منصور بن جمهور والياً على العراق ولكنه وبعد شهرين فقط استبدله بعبد الله بن عمر بن عبد العزيز[41].

بدأ الوالي الجديد عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ولايته على العراق بسياسة مرنة وتوفيقية حكيمة وأمر بصرف العطاء للمستحقين من أهل العراق. لقد أدت هذه السياسة إلى هدوء الحالة واستقرار الأوضاع بالعراق مما دعى العديد من الهاربين إلى العودة إلى العراق، كما وأن العديد من الشخصيات رحلت إلى العراق[42]، وكان منهم عبد الله بن معاوية الذي تربطه مع الوالي صداقة قديمة وحميمة وحصل منه بناءاً على ذلك على راتب يومي قدره ثلاثمائة درهم[43].

ولكن هدوء الأحوال في بلاد الشام والعراق لم يستمر طويلاً، فقد حملت الأنباء خبر وفاة يزيد الثالث وتنصيب أخيه إبراهيم بن الوليد خليفة جديداً سنة 127هـ/ 744م، وقبل أن يأمر الوالي عبد الله بن عمر بأخذ البيعة رسمياً من أهل العراق للخليفة جديد وصلته أبناء أكيدة عن مخالفة الأمير الأموي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم والي الجزيرة الفراتية وأرمينية والذي لا ينتمي إلى الفرع الحاكم من بني مروان، وتحركه إلى بلاد الشام. لقد تحرك مروان بن محمد باسم "الشرعية" من

أجل أن يعيد السلطة إلى أصحابها الشرعيين أولاد الوليد بن يزيد وهما الحكم وعفان[44].

لقد أجبرت هذه الأحداث والي العراق عبد الله بن عمر أن يتريث وينتظر ما تسفر عنه أحداث الصراع الدائر في بلاد الشام، إلا أن موقفه هذا كان حرجاً جداً. ومما زاد في الطين بلة وصول إسماعيل بن عبد الله القسري (أخو خالد القسري) إلى العراق هارباً من بلاد الشام إلا أنه كان قد زيف رسالة على لسان الخليفة الجديد إبراهيم تشير إلى تعيين إسماعيل القسري والياً على العراق. لقد استطاع إسماعيل القسري أن يكسب تأييد جند أهل الشام وخاصة من كلب الموجودين بالعراق.

إزاء هذه التطورات السياسية السريعة والمثيرة كان على والي العراق عبد الله بن عمر أن يتخذ موقفاً وقد أدرك عبد الله بن عمر بأن مروان بن محمد الأمير القوي يعتمد أكثر فأكثر على القبائل القيسية (المضرية) ولذلك قرر والي العراق أن يهاجم إسماعيل القسري ومن معه من الجند اليمانية حيث نجح في إحلال الهزيمة بهم واضطرهم إلى الاستسلام، كما ودفع عطاءاً كبيراً إلى القيسية على حساب اليمانية، وهكذا اعتمد والي العراق على القيسية متبعاً سياسة قبلية صرفة.

ومع أن هذا الموقف من قبل والي العراق قد لقي استحساناً من الأمير الطموح مروان بن محمد إلا أنه لم يلق قبولاً من اليمانية بالعراق حيث أشعلوا فتنة عارمة لم تهدأ حتى أجبرت الوالي عبد الله بن عمر على توزيع العطاء على اليمانية من أهل العراق[45].

ولكن الحالة في العراق لم تتحسن، فقد تحرك أنصار العلويين ومعهم كل المتذمرين من سياسة عبد الله بن عمر أمثال منصور بن جمهور وإسماعيل القسري من ولاة العراق السابقين وكذلك عمر بن غضبان قائد الجند اليمانية من أهل الشام

الموجدين بالعراق. إن كل هذه العناصر انضمت شيعة العلويين الذين دعوا عبد الله بن معاوية بن عبد الله إلى التحرك ضد الأمويين يقول الطبري:

"فلما رأت الشيعة ضعفه (أي عبد الله بن عمر) اغتمزوا فيه واجترؤا عليه وطمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية"[46].

وهكذا فرقت السياسة بين الصديقين الحميمين عبد الله بن عمر وعبد الله بن معاوية.. إلا أن الأهم من هذا أن قضية الولاء للخلافة الأموية في العراق بدت في أدنى درجاتها إذ أصبح جند الشام بالعراق مستعدين لأداء يمين البيعة إلى عبد الله بن معاوية بعد أن شغر منصب الخلافة في دمشق واعتبر مروان بن محمد دعياً لاحق له بالخلافة.

نشاة عبد الله بن معاوية:

إن الباحث في سيرة عبد الله بمن معاوية ونشأته الأولى لا يجد روايات تاريخية موثوقة كثيرة، فليس هناك إلا أخباراً وروايات قليلة بعضها يناقض بعضاً رغم أن الرجل كان شخصية سياسية إضافة إلى شهرته في ميدان الأدب والشعر والخطابة!!. هذا إذا أدركنا كذلك حقيقة كونه هاشمياً من قريش.

على أول ما يدركه الباحث في سيرة عبد الله بن معاوية هو طموحه الواسع وتطلعاته السياسية الكبيرة التي يمكن أن ترد إلى تقديره العالي لخلفيته العائلية والاجتماعية باعتباره من بني هاشم[47]، ورغم أنه القائل في قصيدة له:

لسنا وان أحسابنا كرمتْ يوماً على الاحساب نتكل

فقد افتخر بأجداده في العديد من خطبه وامتدحهم في مناسبات عديدة وجعل من نفسه استناداً إلى نسبه، نظيراً وبديلاً لأمراء بني أمية. لقد ورد في رواية تاريخية قوله عن جده جعفر بن أبي طالب: "الطيار... المظهر للبرهان والقائم بطاعة الرحمن، أشبه الناس بنبيه خلقاً وأقدمهم في الإسلام سبقاً وأحقهم بكل سناء حقاً"[48].

ومما زاد من خلفيته العائلية ومكانته الاجتماعية قوة كونه عربياً لا من جهة الأب فقط بل من جهة الأم كذلك حيث أن أمه كانت أم عون بنت عون بن العباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، فهي هاشمية قريشية[49].

لقد نشأ عبد الله بن معاوية في المدينة المنورة بالحجاز وترعرع هناك بين ذويه وأقاربه في بيئة زاخرة بالثقافة العربية من شعر وأدب وتاريخ وأنساب وقد ظهر ذلك في لباقته وشعره ومفاخراته. حتى عده بعض الرواة من خطباء بني هاشم البارزين أمثال علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وعبد الله بن الحسن وزيد بن علي وغيرهم[50].

وقد ارتبط عبد الله بن معاوية بمصاهرات تدل على طموحه المبكر وتخطيطه لمستقبل سياسي مرموق، فقد تزوج من أم علي بنت علي (زين العابدين) بن الحسين ﷺ كما تزوج قبيل مقدمه الكوفة من أم زيد بنت زيد بن علي بن الحسين ليزيد من روابطه السياسية بالزيدية وقد ساعده ذلك فيما بعد حين التفت الزيدية حوله بالكوفة، وحين قدم عبد الله بن معاوية الكوفة تزوج من ابنة حاتم بن الشرقي بن عبد المؤمن الرياحي، وكان زواجه الأخير لأسباب سياسية واضحة ساعدته في تحقيق الدعم اللازم لخططه السياسية والعسكرية[51].

لم تكن علاقة عبد الله بن معاوية بالبيت الأموي الحاكم من خلفاء أو أمراء علاقة غير ودية، بل على العكس فقد كان مثل أبيه معاوية بن عبد الله وجده عبد الله بن جعفر بن أبي طالب على علاقة حسنة بالأمويين. وتشير روايات تاريخية إلى زيارة عبد الله بن معاوية لخلفاء بني أمية وأمرائهم في دمشق وقبوله صلاتهم وأموالهم وخاصة الوليد ين يزيد بن عبد الملك (ولي عهد هشام بن عبد الملك) الذي كان ينادمه في مجالسه الخاصة ويرافقه في رحلاته للصيد أو للحج. ولا شك فإن طبيعة عبد الله بن معاوية الدمثة وثقافته الواسعة وشعره وحفظه لأيام العرب وأنسابها كانت عوامل ساعدته على التقرب إلى الخلفاء بني أمية، هذا إضافة إلى

سمعة أسرته الهاشمية حيث كان ينظر إلى نفسه باعتباره نداً لهم في المستوى الاجتماعي وفي النسب إن لم يكن أعلى منهم في مجال المفاخرة بالأحساب والأنساب، ولهذا نجده يقول لولي العهد الأموي الوليد الثاني: "فخري فخرك وذكري ذكرك وما لأحد منا على صاحبه فضل"[52].

وفي النصف الأول من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد حين ظهرت للعيان مظاهر التدهور السياسي والإداري في الخلافة الأموية أبدى بعض الهاشميين طموحاً سياسياً واضحاً كان بينهم عبد الله على تنظيم اكثر من حركة سرية تعمل ضد الأمويين، على أن هذه الحركات كانت مستقلة عن بعضها البعض الآخر، خاصة وأن المعروف بين الناس في المجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة بالذات أن (أهل البيت) بجميع فروعهم متساويين في حقهم في خلافة رسول الله ﷺ، وبمعنى آخر أن أي هاشمي علوياً كان أم عباسياً أم جعفرياً (نسبة إلى جعفر الطيار) له أن يدعى الخلافة ويعمل من أجل الحصول عليها باسم أهل البيت، بل أن العلويين من غير الفاطميين (ابن الحنفية) نظموا كذلك حركة سرية تعمل من أجل الخلافة، كما اشرنا إلى ذلك من قبل.

ولهذا فالملاحظ أن "الحركة الهاشمية" في أواخر العصر الأموي ارتبطت بزعامات عديدة لا يجمعها أي رباط مشترك بل أنها كانت حذرة من بعضها البعض الآخر، وهذه الزعامات هي:

أولاً: جماعة محمد بن الحنفية (الفرع العلوي غير الفاطمي) ثم ابنه أبو هاشم عبد الله وقد ارتبطت حركة المختار الثقفي بالكوفة بهذا الفرع.

ثانياً: جماعة زيد بن علي زين العابدين (الزيدية) وجماعة عبد الله بن الحسن المحض (الفرع الحسني).

ثالثاً: جماعة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار.

رابعاً: جماعة جعفر الصادق بن محمد الباقر (الفرع الحسيني).

خامساً: جماعة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (الفرع العباسي).

فإذا تركنا العباسيين وتنظيمهم السري فيبدو لنا واضحاً أن العلويين أنفسهم لم يكونوا متفقين على زعامة واحدة تجمعهم وتنظم حركتهم، فقد أنكرت كل جماعة أن يكون للجماعات العلوية الأخرى الحق في الخلافة.

إن تشتت الحركة العلوية وتفككها وفقدان الزعامة الموحدة فيها يعني من جملة ما يعنيه أن ولاء أنصار العلويين في تلك الفترة كان مهلهلاً ولم يكن باتجاه واحد نحو فرع علوي واحد معين. وتدل روايات التاريخ أن العناصر المؤيدة للعلويين كانت على العموم متذبذبة بين الفروع المتعددة تغير ولاءها من فرع إلى آخر وبكل سهولة وحسب الظروف المادية والمعنوية، كما وأن هذا الوضع بالذات فسح مجالاً أوسع إلى شخصيات بعيدة نسبياً- إذا ما قورنت بالفرع الفاطمي- لكي تتحرك وتدعي الأمر لنفسها مثل محمد بن الحنفية وعبد الله بن معاوية(53).

ويبدو من روايات تاريخية قليلة(54) أن عبد الله بن معاوية كان يعمل من أجل إسقاط الخلافة الأموية ويحرض بعض الشعراء على إشعال نار الفتنة ضدهم، إلا أن وجوده في الحجاز إلى جانب شخصيات علوية من أمثال زيد بن علي وجعفر الصادق وعبد الله بن الحسن (المحض) قد عرقل تحركه وطغى على نفوذه. ويبدو لنا أن عبد الله بن معاوية قد ارتبط في تلك الفترة بزيد بن علي وبحركته الزيدية وتزوج من ابنته (أم زيد) ورأى رأيه في السياسة والمذهب وحدث عنه، كما وأن أتباع زيد بن علي ناصروا عبد الله بن معاوية حين قدومه الكوفة والتفوا حوله(55).

ومهما يكن من أمر فبعد وفاة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية سنة 98هـ/ 716م تشتت جماعته وبمقتل زيد بن علي سنة 122هـ/ 740م ثم ابنه يحي بن زيد سنة 125هـ/ 743م لم يبق في الحجاز من بين العلويين إلا شخصيتان رئيسيتان هما جعفر الصادق الحسيني وعبد الله الحسيني (المحض)

وكان مركزهما كبيراً بين الناس لا يمكن أن يجاريه عبد الله بن معاوية في الحجاز بسبب وجود الصادق والمحض ولهذا فقد كان يتحين الظروف المناسبة لكي يخرج إلى إقليم آخر لينظم حركته فيه ضد الأمويين... ولم يكن هناك في نظره إقليم أكثر ملائمة للتحرك ضد الخلافة الأموية من العراق، ولهذا عزم عبد الله بن معاوية على السفر هو وإخوته إلى الكوفة زاعماً أنه إنما يقوم بزيارة صديقه الحميم والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

إعلان حركة ابن معاوية في الكوفة 127هـ

بعد وصول عبد الله بن معاوية إلى الكوفة استقبله واليها عبد الله بن عمر استقبالاً حسناً وقرر له راتباً يومياً يقدر بثلاثمائة درهم، ويبدو أن عبد الله بن معاوية كان يراقب الأوضاع السياسية عن كثب حيث أن نتائج قتل الخليفة الأموي الوليد الثاني بدت تظهر للعيان، فمثلما انقسم أهل الشام حول مسألة مقتل الوليد الثاني انقسم كذلك أهل العراق. وقد أشرنا سابقاً إلى عمر بن غضبان قائد الجند اليمانية من أهل الشام الموجودين في العراق كانوا على استعداد للبيعة لعبد الله بن معاوية بعد أن شغرت الخلافة بوفاة يزيد الثالث سنة 126هـ/ 744م.

إن شخصاً طموحاً مثل عبد الله بن معاوية لم يكن ليفوت مثل هذه الفرصة التي سنحت له. والواقع أن القوى المعارضة للأمويين في العراق استغلت اسم عبد الله بن معاوية وجعلته رمزاً لحركتها، وفي الوقت نفسه استغل عبد الله بن معاوية هذه القوى لتحقيق طموحاته السياسية التي كانت تراوده منذ زمن، وكما قال ابن معاوية للشاعر الكميت بن زيد الأسدي يحثه على قول الشعر الذي يحرض القبائل بعضها على البعض الآخر من أجل أن تتهيأ الظروف المواتية للفتنة(56):

"... فإني رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس، لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تحب"!!

ويبدو أن اتصالات ومشاورات كانت قد دارت بين عبد الله بن معاوية وبين فئات من أهل الكوفة قبل مقدمه إلى هذه المدينة، رغم أننا لا نعلم الكثير عن طبيعتها والشخصيات التي قامت بها. وفي رواية للطبري تشير إلى أن عبد الله بن معاوية وأخويه قد نزلوا دار مولى لهم بالكوفة هو الوليد بن سعيد، كما وأنه بعد وقت قصير صاهر حاتم الرياحي من وجوه الكوفة ليوثق صلته بعرب الكوفة ووجوهها البارزة، وأن هلال بن أبي الورد كان من دعاته البارزين في الكوفة"[57].

ويظهر من روايات تاريخية عديدة أن بعض قطاعات أهل الكوفة وشخصياتها البارزة قد حرضته على التحرك ضد الأمويين حيث قالوا له: "ادع إلي نفسك فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان"، كما وأن والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز أراد أن يحتفظ بعبد الله بن معاوية كورقة رابحة قد يستغلها في الظروف المواتية إذا ساءت علاقته بمروان بن محمد، وبذلك يتمرد عبد الله بن عمر ضد مروان بن محمد مستغلاً اسم عبد الله بن معاوية شعاراً لحركته ورمزاً للمعارضة ضد الأمويين. على أننا يجب أن نستدرك ونقول بأن فئات أخرى من أهل الكوفة لم تستجب له وطلبت منه الخروج من المدينة التي أنهكت من كثرة الضربات التي تلقتها وقالوا له:

"لقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت وأشاروا عليه بقصد فارس ونواحي المشرق، فعمل بذلك وبث دعاته في الشرق يدعون الناس بخلاف ما كان يدعون إليه في الكوفة"[58].

ومن هنا فإن تأييد أهل الكوفة للحركة لم يكن جماعياً، بل أيدته فئات أخرى عديدة كان من بينها شخصيات عربية بارزة من غير أنصار العلويين مثل منصور بن جمهور الكلبي من قادة جند الشام وسليمان بن هاشم وشيبان الخارجي، كما جاءه فيما بعد أمراء من بني أمية وبني العباس مثل عمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان وأبو العباس وأبو جعفر وعيسى بن علي وعبد الله بن علي وهم من

العباسيين[59]. هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه قبل قليل من موقف عبد الله بن عمر والي العراق من عبد الله بن معاوية ومحاولة استخدامه ضد مروان بن محمد. وفي هذا يقول الطبري أن عبد الله بن عمر "احتبس... عبد الله بن معاوية عنده وزاده فيما يجري عليه واعده لمروان بن محمد ان هو ظفر بإبراهيم بن الوليد ليبايع له ويقاتل به مروان فماج الناس في أمرهم..."[60].

ورغم اختلاف الروايات في توقيت بيعته وهل أنها كانت في أيام يزيد الثالث أم بعد وفاته مباشرة، فالواقع أن الأحداث كانت تسير بسرعة في تلك الفترة الحرجة من أيام الدولة الأموية وأن عهد يزيد الثالث هذا لم يدم إلا خمسة أشهر تقريباً فإذا كان عبد الله بن معاوية قد تحرك في بداية محرم من سنة 127هـ فإن ذلك يعني أنه أعلن حركته بعد وفاة يزيد الثالث بحوالي ثلاثة أسابيع فقط[61].

والمهم في أمر البيعة لأنها لم تتم لشخص معين بذاته وإنما إلى "الرضا من آل محمد"[62] وهو شعار طالما رفعه العلويون في بداية حركاتهم لكي يجمعوا حولهم كل الفئات المعادية للحكم الأموي ثم لا يلبثوا بعد أن يشعروا بقوة نفوذهم واتساع دائرة أنصارهم أن يدعو إلى أنفسهم وهذا ما حدث بالضبط حيث دعى ابن معاوية لنفسه بعد أن ثبت كيانه السياسي في بلاد فارس فيما بعد.

بعد أن بايعته فئات من أهل الكوفة وجند أهل الشام والشخصيات المنشقة عن الأمويين وعلى رأسهم عمر بن غضبان ومنصور بن جمهور وإسماعيل القسري كان. لا بد أن يتحرك ابن معاوية نحو الحيرة لكي يخضع عبد الله بن عمر رمز السلطة الأموية في العراق.

ورغم أن عبد الله بن عمر فوجئ بالتطورات السريعة في الكوفة، إلا أنه استطاع أن يعد للأمر عدته فقد تحصن في الحيرة واستعمل ما لدية من أموال في سبيل كسب المعركة، فقد عرض 500 درهم لكل رأس من جند ابن معاوية، تقول رواية الطبري[63]:

"فنادى من جاء برأس فله خمسمائة فو الله ما كان بأسرع من أن آتي رأس فوضع بين يديه فأمر له بخمسمائة فدفعت، فلما رأى أصحابه وفاءه لصاحب الرأس نادوا بالقوم ما كان إلا هنيهة حتى نظرت إلى نحو من خمسمائة رأس قد ألقيت بين يديه".

ومع أن ربيعة بقيادة عمر بن غضبان وكذلك الزيدية من أهل الكوفة استبسلوا في القتال ولكن المعركة انتهت بهزيمة عبد الله بن معاوية الذي اعتصم بالقلعة داخل الكوفة، ودافع الزيدية وبعض ربيعة عنه في إحياء الكوفة وسككها، وحين أدرك عبد الله بن معاوية انفراج الناس عنه وبقاءه مع ثلة قليلة من أعوانه قرر طلب الحماية من عمر بن غضبان شيخ ربيعة فأرسل إليه يقول:

"يا معشر ربيعة قد رأيتم ما صنع الناس بنا، وقد أعلقنا دماءنا في أعناقكم فإن كنتم مقاتلين معنا قاتلنا معكم وإن كنتم ترون الناس خاذلينا والياكم فخذوا لنا ولكم أماناً فما أخذتم لأنفسكم فقد رضينا لأنفسنا"(64).

وهكذا علق عبد الله بم معاوية مصير حركته بما يقرره شيخ بني ربيعة من جهة حيث أجابه شيخ ربيعة قائلاً:

"ما نحن بتاركيكم من إحدى خلتين إما نقاتل معكم، وإما أن نأخذ لكم أماناً كما نأخذ لأنفسنا فطيبوا نفساً"(65).

أن ابن معاوية كان يدرك أن الوالي على العراق عبد الله بن عمر يمر بظروف صعبة حيث لا تزال الحالة مرتبكة في بلاد الشام وأن أعداءه في العراق من المنشقين على بني أمية لا يزالون يتربصون الفرص للاصطياد في الماء العكر، ولذلك فإن والي العراق سوف يقبل بطلب ربيعة بإعطاء الأمان لعبد الله بن معاوية لأنه لا يملك في مثل هذه الظروف أن يغضب ربيعة ويثيرها ضده، خاصة بعد أن انسحب زعيمها عمر بن غضبان من المعركة بطلب من القائدين الأمويين من جند أهل الشام من ربيعة وهما عامر بن ضبارة ونباته بن حنظلة، وبالفعل فقد وافق

الوالي الأموي على العراق بإعطاء أمان موقت إلى عبد الله بن معاوية وأتباعه شرط انسحابهم إلى حيث يريدون انسحاباً غير ملاحق.

الانسحاب إلى فارس:

قرر عبد الله بن معاوية الانسحاب باتجاه بلاد فارس فخرج وشيعته ومن تبعه من أهل السواد وأهل المدائن وأهل الكوفة، فسار بهم رسل عمر حتى أخرجوهم من الجسر[66]. وبهذا أخذ ابن معاوية بنصيحة أهل الكوفة بالتوجه نحو بلاد فارس فكانت خطوته هذه خطئاً ثانياً بعد خطئه الأول بإعلان الحركة في الكوفة، المدينة لم يكن لها سجل حافل في تأييد أهل البيت تأييداً فعلياً. وفي الساعة الحرجة كان عبد الله بن معاوية يحث أتباعه من أهل الكوفة وغيرها على القتال فلم يجيبوه!! فقد "ملوا القتال" قبل أن يحاربوا". ويعلق دينت على موقف الوالي عبد الله بن عمر فيقول:

"في مثل هذه الظروف نحن نعلم جيداً ما يفعله الوالي لو كان هذا الوالي هو من نمط الحجاج بن يوسف الثقفي، ولكن ابن عمر الوالي المشفق كان من طينة أخرى، فقد أرسل إلى ابن معاوية يطلب منه فقط أن يغادر الإقليم (العراق) إلى أي مكان يشاء ضامناً، له الأمان"[67]، على أن دينت نسي أو تناسى ظروف ابن عمر وعدم رغبته في إثارة قبائل ربيعة، كما وأن ابن عمر لم يشأ أن ينهك قواته في حرب مع جهة تعتبر عدوة لمروان بن محمد فلماذا إذن لا يدع ابن عمر صديقة القديم ابن معاوية قوة معارضة لمروان تثير ضده القلاقل ولكن من إقليم آخر بعيد عن العراق مقر ابن عمر ومركزه؟ وهكذا يضرب ابن عمر عصفورين بحجر واحد وهي بلا شك سياسة حكيمة فالجهة التي تعادي عدوي هي بلا شك صديقه لي!! حيث أثبت ابن عمر فيما بعد أنه لا يبالي في محالفة أية حركة- وحتى الخوارج- مادامت موجهة ضد مروان. قبل ابن معاوية العرض الجديد وانسحب مسرعاً باتجاه المدائن شرقي دجلة واستقر فيها مدة من الزمن حيث تجمع حوله

العديد من الأتباع الجدد من العراق فبالإضافة إلى الزيدية أنصاره القدماء وتجمع حوله أهل السواد وأهل المدائن وعبيد أهل الكوفة والموالي، كما كان معه العديد من رجالات العرب البارزين الذين أشرنا إليهم وانضم إليه كذلك بعض رؤوس العرب من أهل الكوفة مثل عبد الله بن العباس التميمي.

دخل ابن معاوية بأتباعه بلاد فارس واستقر أول الأمر في أصفهان وجعلها مقراً له أو عاصمة لكيانه السياسي الذي بدأ يتسع بصورة تدريجية حتى شمل منطقة الجبال وحلوان وإقليم فارس والري، وفي سنة 128هـ جعل من اصطخر (برسيبوليس) العاصمة القديمة للفرس مركزاً له، ولعل مما ساعده على مد نفوذه السياسي إلى هذه المنطقة الواسعة أن الأقاليم الشرقية كانت بلا سلطان وأن أمراء الأقاليم غدو في حيرة من أمرهم بسبب غموض الحالة السياسية في بلاد الشام والعراق، كما وأن والي العراق عبد الله بن عمر كان في شغل شاغل عن مسؤولياته السياسية والإدارية في بلاد فارس بسبب الاضطرابات في العراق أولاً وتدهور علاقته بالسلطة المركزية في دمشق. إضافة إلى الظروف السياسية التي أشرنا إليها، فقد ساعد عبد الله بن معاوية في مد سلطته إلى تلك الأقاليم بروز عدد من القادة الميدانيين الأكفاء في صفوف قواته لعل أبرزهم محارب بن موسى مولى بني يشكر الذي يبدو أنه كان يتمتع بقابليات عسكرية جيدة حيث تصفه رواية تاريخية "كان عظيم القدر بفارس" كما ويفصل الطبري(68) في أخبار استيلائه على العديد من المدن والقصبات ومنها اصطخر وشيراز وأصفهان وغيرها وأخذ البيعة لعبد الله بن معاوية على "ما أحب الناس وكرهوا". وبعد أن أضاف محارب بن موسى كرمان إلى نفوذ ابن معاوية كان هو الذي أشار إليه أن يجعل عاصمته (اصطخر) عاصمة الفرس القديمة قبل الإسلام فتحول ابن معاوية إليها سنة 128هـ/ 746م.

نجح عبد الله بن معاوية بعد طرده من العراق أن يشكل له كياناً سياسياً في غربي بلاد فارس حيث خضعت له بطريقة أو بأخرى أقاليم فارس وكرمان

والأحواز والجبل، وقد عين الولاة فاستعمل أخاه الحسن على اصطخر وأخاه جعفر على شيراز وأخاه صالحاً على قم، كما التحق به بعض العباسيين والأمويين "فمن أراد منهم عملاً قلده ومن أراد منهم صلة وصله" كما ضرب النقود وكتب على دراهمه "قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى" وكان عماله يجبون الأموال من تلك الأقاليم ويرسلونها إلى اصطخر[69].

إن الكيان السياسي الذي أسسه عبد الله بن معاوية في غفلة من الزمن[70] كان كياناً غريباً يضم بين دفتيه عناصر متباينة ومتناقضة لا يجمعها سوى معارضة النظام الأموي، لقد كانت هذه العناصر تتألف من قوى عراقية وجند من الجيش الشامي المرابط في العراق وجماعات من أنصار العلويين من أهل الكوفة من الزيدية وكذلك من جماعات الغلاة اللذين تستروا بشعار الولاء للعلويين دون أن يؤمنوا به، وجماعات من أنصار الأمويين أو من الشخصيات الأموية التي انشقت على مروان بن محمد، وشخصيات عباسية وهاشمية. وأعجب من ذلك كله انضمام جماعات من الخوارج إليه بعد أن طردهم مروان بن محمد من الجزيرة الفراتية إلى بلاد فارس. ان عبد الله بن معاوية لا بد أن يكون قد أدرك بأنه يغامر بنفسه ومستقبله السياسي باعتماده على هذا الخليط المتنافر من الأنصار، وأن الكيان الذي بناه لا بد أن ينهار أمام أول ضربة من أعدائه، ذلك أن معارضة هذه الجماعات للسلطة الأموية لم تكن بالضرورة تعني ولائهم لعبد الله بن معاوية واعترافهم بخلافته.

إن الأمور في بلاد الشام لم تبق على ما هي عليه من الارتباك والفوضى، فقد استطاع مروان أن يفرض نفسه على الأحداث وأجبر إبراهيم بن الوليد على الهروب، ثم حصل مروان على البيعة بالخلافة لنفسه، وكان أول عمل قام به تدبير أمر العراق حيث أرسل في التو يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على العراق وأمره بمحاربة المنشقين من الأمويين والخوارج وتمكن يزيد بن عمر في العراق وسليمان بن حبيب المهلبي في الأحواز[71].

وجه يزيد بن عمر والي العراق القائد المحنك عامر بن ضبارة في جيش قوي إلى بلاد الفارس لمحاربة عبد الله بن معاوية، وكان مع ابن ضبارة خيرة القادة الأمويين أمثال نباته بن حنظلة ومعن بن زائدة الشيباني وغيرهما، والمتتبع لسير المعارك يدرك رجحان كفة الجيوش الأموية على ذلك الخليط من أنصار عبد الله بن معاوية اللذين جمعت بينهم الظروف السياسية والعسكرية والفت بينهم الضرورة والمصلحة، ولذا يشير الأصفهاني أن ابن معاوية حين ندب أصحابه إلى محاربة الجيش الأموي القادم "فلم يفعلوا ولا أجابوه"(72)، وفي رواية تاريخية أخرى أن أربعين ألف استسلموا دون قتال، وأن مقاتلة آخرين تثاقلوا عن القتال مدعين أنهم لم يتلقوا أوامر الحرب!!، أما محارب بن موسى ساعد ابن معاوية الأيمن فقد انشق عنه وتركه دون سبب واضح حيث تشير رواية تاريخية أن محارب هذا نافر ابن معاوية دون أن تزيد على ذلك(73).

ومع ذلك كله ورغم إدرك ابن معاوية ضعف وتفكك قواته، فيبدو أنه كان يتوقع شيئاً من الصمود والقتال ولهذا فقد فوجئ بأخبار انهيار جبهته واندهش أشد الدهشة على رواية الأصفهاني(74) وترك اصطخر هارباً مع أخويه الحسن ويزيد إلى كرمان ثم سجستان، حيث تفرق عنه بقية أصحابه فذهب من هناك إلى هراة.

انهار الكيان السياسي الذي أقامه عبد الله بن معاوية في غربي بلاد فارس في نهاية عام 130هـ/ 747م وبهذا تكون دولته القصيرة الأمد قد صمدت لمدة ثلاث سنين فقط، وهي بهذا تشبه الكيانات السياسية التي كان يقيمها الخوارج في جنوبي بلاد فارس وفي منطقة الخليج واليمن حيث لا تلبث أن تنهار بسرعة حين يداهمها الجيش الأموي.

على أن عبد الله بن معاوية الذي وقفت دولته حاجزاً بين الجيش الأموي وأنصار الدعوة العباسية الهاشمية بخراسان و وشغلت الأمويين ردحاً من الزمن عن إيصال المدد والمعونة لنصر بن سيار والي السلطة الأموية في خراسان وبذلك

مكنت إتباع العباسيين من تثبيت مركزهم في العديد من مدن خراسان... ان عبد الله بن معاوية نفسه وقع الآن بين فكي الكماشة فمن جهة القوة الأموية بقيادة عامر بن ضبارة ومن جهة القوة العباسية بقيادة سليمان بن كثير الخزاعي وأبي مسلم وقحطبة الطائي، وبين هذين الخيارين لم يجد عبد الله بن معاوية إلا أن يغامر بورقته الأخيرة في اللعبة السياسية ويرتمي في أحضان الدعوة الهاشمية (العباسية) في خراسان.

وفي رواية تاريخية يبدو عبد الله بن معاوية على علم بأخبار الثورة العباسية التي كانت قد أعلنت بصورة علنية في 25 رمضان 129هـ/ حزيران 447م وسيطر دعاتها على العديد من مدن خراسان ومنها مدينة هراة التي وصلها عبد الله بن معاوية، فقد أرسل مالك بن الهيثم الخزاعي والي الثورة العباسية على هراة إلى عبد الله بن معاوية يسأله عن سبب قدومه فأجابه: "بلغني أنكم تدعون إلى الرضا من آل محمد فأتيتكم" وقد أخبر مالك بن الهيثم أبا مسلم الخرساني بالخبر فأمر بالقبض عليه ومن معه وحبسهم(75).

لم يدرك عبد الله بن معاوية أن العباسيين كانوا ومنذ مدة ليست بالقصيرة قد نظموا دعوة سرية دقيقة استطاعت أن تحكم قبضتها على خراسان بعد ان كسبت تأييد الكثير من المقاتلة والمستقرين من القبائل العربية في هذا الإقليم... وقد يكون غريباً لأول وهلة ان تنضم شخصيات عباسية مهمة إلى حركة في نفس الوقت الذي يدبرون فيه دعوة سرية لها نفس أهداف حركة ابن معاوية. ومع ذلك فبعد فشل عبد الله بن معاوية وهربه إلى خراسان ألقي القبض عليه وسجن، ان ذلك في واقع الأمر من خصائص الخطة التي اتبعها العباسيون فإن عبد الله بن معاوية – مثله مثل زيد بن علي والمختار الثقفي قبله – كان قد نجح في بداية حركته وكان شعاره يشابه شعار الدعوة العباسية، ولذلك فإن هدف العباسيين من تأييدهم حركة عبد الله بن معاوية هو إنهاك الجيش الأموي وإشغاله بحروب وفتن في العراق وبلاد فارس، ليترك المجال للعباسيين لتجميع أنصارهم وضبط حركتهم في خراسان، هذا من

جهة ومن جهة أخرى شجع العباسيون عبد الله بن معاوية ليروا بصورة عملية إمكانيات النجاح أو الفشل لحركة تشبه حركتهم المرتقبة من نواح عديدة وليتلافوا نقاط الضعف في تجربتهم القادمة في صراعهم مع الأمويين.

إن الأمر لم يطل بعبد الله بن معاوية في السجن فقد أمر أبو مسلم الخراساني بقتله سنة 131هـ إما بالسم أو بالخنق[76] وتحاول بعض الروايات التاريخية أن تبرر سبب قتله بطريقة أو بأخرى فتشير بعضها إلى طموحه السياسي وبلاغته وقدرته، وتشير رواية أخرى إلى تحريضه أهل خراسان أن ينقضوا طاعة أبي مسلم الخراساني حيث قال لبعضهم:

"ليس في الأرض أحمق منكم يا أهل خراسان في طاعتكم لهذا الرجل قبل أن تراجعوه في شيء وتسألوا عنه"[77].

وحين سمع أبو مسلم بالخبر قال[78]:

"ما ظنكم برجل يتكلم بهذا وهو أسير والله لو أطلق أفسد كور خراسان".

فقتله وكتب إلى أبي العباس بذلك، وهكذا انتهت حياته الحافلة بالأحداث المثيرة والسريعة في تتابع وقائعها.

مبادئ الحركة الدينية- السياسية:

رغم أن عبد الله بن معاوية لم يكن علوياً بل كان من أو أولاد جعفر الطيار بن أبي طالب، فإن حركته تعد من الحركات الشيعية[79] التي ساندها شيعة العلويين وأنصارهم إضافة إلى جماعات أخرى في العراق وبلاد فارس، كما وأن عبد الله بن معاوية كان من أهل البيت مثله مثل أية شخصية هاشمية أخرى... وكان بإمكان أية شخصية قيادية من أهل البيت أن ترشح نفسها للخلافة كبديل للأمويين، كما أن المتعارف عليه والمقبول في تلك الفترة أن ينقل أنصار بني هاشم أو أهل البيت

ولاءهم من شخص إلى آخر بسهولة ودون إحراج شرط أن يكون ذلك الشخص المرشح من أهل البيت.

اهتم العديد من الباحثين والمؤرخين المحدثين[80] بآراء عبد الله بن معاوية الدينية وما بثه أتباعه باسمه وعلمه أو دون علمه من معتقدات تجعل من الواجهة الدينية لحركته واجهة متطرفة نادت بآراء مغالية بعيدة عن الإسلام ومنحرفة عن الدين الصحيح، أو على أقل تقدير فإن جناحاً معيناً في حركته كان يدين بالغلو والتطرف في الدين- على نمط الجناح الراوندي المتطرف في الثورة العباسية- وأن عبد الله بن معاوية كان على علم به إلا أنه تساهل معه وتركه يعمل من أجل كسب أكبر عدد ممكن من الإتباع إلى حركته، تماماً كما كان موقف العباسيين من الراوندية خلال فترة الثورة وبعد تأسيس الدولة بقليل حتى قضى عليهم المنصور حينما بات خطرهم يهدد الدولة والمجتمع على حد سواء.

والواقع أن روايات عديدة ساقها المؤرخون[81] الرواد وكتاب الفرق[82] الأوائل تدين عبد الله بن معاوية وجماعة من أتباعه المقربين وأنصاره بالزندقة وإشاعة عقائد متطرفة بعيدة عن روح الدين الإسلامي. لقد ارتبط اسم عبد الله بن معاوية بفرقة من فرق الغلاة سميت "الجناحية" نسبة إلى جده الأعلى جعفر الطيار، ومن الناحية العقائدية كانت الجناحية تمثل كل خصائص الغلو والغلاة حيث أكدت على مبدأ الحلول والتناسخ وقدسية الإمام وأنكرت البعث والحياة الآخرة وأولت آيات القرآن والفرائض الدينية والإسلامية بحيث أخرجتها عن هدفها الأساسي.

ويبدو أن عبد الله بن معاوية في محاولاته الدعوة لنفسه وكسب الأتباع كان على اتصال بجماعة من أهل الكوفة وكان من بينهم زمرة من "غلاة" أهل الكوفة، وأن هؤلاء هم الذين روجوا إشاعة مفادها أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية قد أوصى بالإمامة من بعده إلى عبد الله بن معاوية، ومعنى ذلك أن شعبة من الفرقة

الهاشمية انشقت بعد وفاة أبي هاشم ووالت عبد الله بن معاوية واعتقــدت بإمامتــه وسميت بالجناحية[83].

وتشير روايات عديدة إلى حقيقة العقائد المنسوبة إلى الجناحية، فقد اتفق كتاب الفرق[84] أن الجناحية زعموا "أن روح الله تحل في الأنبياء والأئمــة... وأن هــذه الروح تناسخت في الأنبياء والأئمة حتى صارت إلى أبي هاشم عبد الله بن محمــد بن الحنفية ثم انتقلت إليه [عبد الله] منه وصارت فيه".

وان عبد الله بن معاوية "زعم انه إله وان العلم ينبت في قلبه كما تنبت الكمأة".

وبهذا يكون قد ادعى العلم الإلهي عن طريق الإلهام!! ويضيف المقريــزي أن مذهب الجناحية "يستحل الخمر والميتة ونكاح المحارم وأنكروا القيامة" كما ويــرى البغدادي إنهم أسقطوا فرائض العبادات.

وبسبب من براعة عبد الله بن معاوية في التعبير وسحر البيــان وميلــه إلــى السجع في الكلام والكتابة كما هو واضح من رسائله، فقد نسب إليه كــذلك فكــرة معارضة القرآن خاصة وأنها تنسجم وتتفق مع دعواه بالعلم الإلهي الملهم[85] وفــي رواية ان الجناحية: "استحلوا الزنا وشرب الخمر وأكل الميتــة وكــانوا لا يــرون وجوب الصلاة والزكاة والحج ويؤولون ذلك بموالاة قوم من أهل البيت ويتــأولون قوله تعــالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴿٩٣﴾ ﴾ المائدة: ٩٣ [86]. ويقول الــشهرستاني[87] عــن الجناحية بأنهم "كفروا بالقيامة لاعتقادهم أن التناسخ في الدنيا والثواب والعقاب فــي هذه الحياة"، وأشار إلى أن هذه الفرقة زعمت أن من وصل إلــى الإمــام وعرفــه ارتفع عنه الحرج من جميع ما يطعم، ووصل إلــى الكمــال والــبلاغ. وزعمــت الجناحية ان عبد الله بن معاوية لم يمت وهو حي بجبل بأصــفهان. ولا بــد مــن الإشارة هنا إلى أن الجناحية انقسموا إلى فرقتين بعد موته، فبعضهم زعم أنه حــي وسيرجع بعد فترة، وبعضهم اقتنع بموته ونقل إمامته إلى عبد الله بن الحــارث أو

اسحق بن زيد بن الحارث ويزعمون ان روحه تحولت إلى ابـــن الحــارث وهــم (الحارثية) وآرائهم لا تختلف عن آراء الجناحية في شيء منهم يبيحون المحرمــات ويعيشون عيشة من لا تكليف عليه.

وقال الرازي في كتاب الزينة أن الحارثية زعموا:

"إن عبد الله بن معاوية حي لا يموت وأنه مقيم بجبال أصبهان ولا يموت حتى يقوم وهو القائم المهدي الذي بشر به النبي ﷺ ... وقال قوم: بل مات ولم يوصـــى وليس بعده إمام وقالوا بإمامة رؤسائهم..".

ويعزو الرازي الغلو إلى عبد لله بن معاوية صراحة[88].

ويشير الكشي إلى الاتفاق بين الجناحية والحربية والبيانية في أن معرفة الإمام تجعل المرء مؤمناً صحيحاً دون حاجة إلى القيام بالفرائض المطلوبة، وهي تــسوغ ذلك عن طريق التأويل لبعض آيات القرآن وادعائها بأن بعض الآيات نسخت آيات أخرى، وبهذا أحلت هذه الفرق لأصحابها الزنا واللواط وخففت عــنهم الواجبــات الشرعية مما شجع الغلاة والشكاك الانضمام إليهم.

وقد ذكر الأصفهاني عدة روايات تتهم عبــد الله بــن معاويــة بالزندقـــة أو مصاحبته للزنادقة كما وأن صاحب شرطته قيس بن عيلان العنسي كان "دهريــاً لا يؤمن بالله"، أما ابن حزم فيقول عنه "كان غاية في الفسق مــذكوراً بفــساد الــدين" ويشير الطبري عن عبد الله بن علي العباسي أن أصحاب عبد الله بن معاوية يرمون باللواط. ويفصل ابن كثير في هذه التهمة ناقلاً أحداثاً تتهم عبــد الله بــن معاويـــة وأصحابه باللواط[89].

لقد مال المؤرخون المحدثون إلى عزو الزندقة وفساد الدين والغلو فيه إلى عبد الله بن معاوية وأصحابه بسبب معاشرة عبد الله بن معاوية بعض المتهمين بالزندقة وبسبب انتشار اللواط بين أصحابه، ولكن من جهة أخرى يشير المطلبي[90] إلى أن

الدعوة الى الخلق الحميد والإسلام والإيمان بقضاء الله وقدره تكاد تغلب علـــى مـــا لدينا من شعره، كما وأنه في مفاخراته يعتز بأمجاد أسرته في الإسلام، وقد اعتبـــر من المحدثين وامتدحه بعض المؤرخين، لهذا كله فهو يدافع عنه ويتهم خصومه من أمويين وعباسيين بتشويه سمعته وتلفيق الاتهامات ضده.

من كل ذلك يمكننا ان نستنتج بأن عبد الله بن معاوية كان شخصية ذكية ومثقفة تتمتع بقابليات متعددة إلا أنه لم يكن قيادياً ولا يتميز بمؤهلات رجل الدولة القـــوي. لقد أحسن اختيار الفرصة المناسبة للانقضاض علـــى الحكـــم الأمـــوي المتـــداعي والمنقسم على نفسه، وساعدته ظروف عديدة في البداية على النجـــاح والاســـتمرار حتى ظهر وكأنه البديل الوحيد للنظام الأموي، والتف حوله العديد مـــن الهاشـــميين ومن أقطاب العرب ومجموعات من الموالي والعبيد، ولكنه في كل تحركاته كـــان انتهازياً ومغامراً سياسياً قصير النظر يفضل الكسب الآني على البعيد، ولهذا فـــشل في احتواء المعارضة لبني أمية ولم يستطيع على المدى البعيد أن يقيم بديلاً سياسياً مقنعاً لكل الزمر السياسية التي انضوت تحت لوائه، هذا إذا أضفنا عاملاً آخر هـــو التناقض الحاد بين هذه الزمر والتي لم يستطيع عبد الله بن معاوية أن يوحدها لمدة طويلة تحت سيطرته.

إلا أن الخطأ الذي ارتكبه عبد الله بن معاوية هـــو اختيـــاره لمدينـــة الكوفـــة – مدينة التناقضات السياسية والدينية العميقة – مقراً لحركته رغم إدراكه بموقفهـــا من العديد من الحركات العلوية التي سبقت حركته وتحذير العديد مـــن الهاشـــميين لغيره بعدم التحرك في الكوفة. وبان قصر نظره بصورة أوضح حين اختار بـــلاد فارس مكاناً له بعد طرده من الكوفة، وكان عليه أن يدرك بأن الموالي – حتـــى إذا افترضنا انخراطهم تحت لوائه – لم يكونوا في تلك الفترة القوة الضاربة التي تمكنه أن يقابل الجيش الأموي، وقد أثبتت الأحداث أنهم لم يقاتلوا معه بل ظل إلى النهاية معتمداً على أنصاره من العرب ومن الزيدية من أهل الكوفة. ثم بعد ذلك كله فـــإن عبد الله بن معاوية لم ينتبه إلى أن كلا المركزين الكوفة وأصفهان كانا قريبين جداً

من جند أهل الشام في واسط ولذلك فإن يزيد بن عمر بن هبيرة بعد أن استقر في ولايته على العراق لم يجد صعوبة في تشتيت أنصار ابن معاوية. ولا بد إلا ننسى كذلك بأن من سوء حظ عبد الله بن معاوية أن وقت حركته كان في وقت اختمرت فيه الدعوة العباسية في خراسان بعد أن عمل التنظيم العباسي في الحميمة - الكوفة - مروا على كسب الأتباع مدة تزيد على ربع قرن من الزمان، وكانت الدعوة العباسية من السرية والتنظيم والقوة بحيث لا يمكن أن تقف أمامها حركة غير منظمة وغير محكمة التدبير والقيادة مثل حركة ابن معاوية. ولهذا فإن التجاء عبد الله بن معاوية إلى رؤوس الدعوة العباسية بخراسان كان خطأً آخر اقترفه بحق نفسه حيث سلمها لقمة سائغة لأبي مسلم الخراساني.

بعد ذلك كله يبقى السؤال الذي تصعب الإجابة عليه في خضم الروايات المتضاربة والتي لا يمكن بحال من الأحوال الكشف عن الحقيقة من خلالها. وهذا السؤال هو ما هي حقيقة عقيدة عبد الله بن معاوية وما هي مبادئ الحركة التي اعترفت بإمامته؟

مما لا شك فيه أن أعداء عبد الله بن معاوية ومنافسيه قد لعبوا دوراً في تشويه سمعته الشخصية واستغلوا صحبته لبعض الزنادقة وغيرهم فاتهموه بالزندقة والانحراف عن الإسلام، كما لعبت طموحاته السياسية العريضة وقابلياته البلاغية دوراً في اتهامه بمعارضة القرآن... ولكن هذا لا ينفي انه - ومن أجل غايات سياسية واضحة - اتخذ موقفاً مرناً توفيقياً ومتساهلاً تجاه الآراء المتطرفة والبعيدة عن روح الإسلام الصحيح التي نادت بها الفرقة الجناحية، وبمعنى آخر فإن ابن معاوية كان يدرك أن جناحاً فعالاً ومتطرفاً يعمل ضمن الدعوة التي يدعو إليها والحركة التي يقودها ومع ذلك أبقاه من أجل يكسب إليه أكبر عدد ممكن من الأتباع ضد الأمويين.

ولقد استمرت الفرقة الجناحية التقليدية تمجد ذكرى ابن معاوية مدعية أنه سيعود لأنه القائم، بينما انشقت عنها فرق أخرى نقلت الإمامة من بعده إلى شخصيات أخرى من أتباعه، وهكذا استمر الخط المتطرف في دعوة ابن معاوية بعد وفاته ودان بنفس المبادئ المغالية التي بشرت بها الجناحية.

في مثل هذا الجو المتوتر الذي وقع أو أوقع عبد الله بن معاوية نفسه فيه لا بد وأن تكون الأحداث السياسية السريعة والمتتابعة قد جعلته يدرك، ولكن بعد فوات الأوان، ان ما قام به لم يكن سوى مغامرة سياسية مكتوب لها بالفشل قبل أن تبدأ، وأن عبد الله بن معاوية لم يكن أكثر من مغامر سياسي جرب نصيبه في الميدان ففشل.

❖ مسلم بن عقيل بن أبي طالب:

من أبرز أعوان الحسين بن علي بن أبي طالب (ت سنة 60هـ/ 680م) وأمه أم ولد من أصل نبطي اسمها عليّة. وقد شارك في معركة صفين سنة 37هـ/ 657م ضمن قوات علي بن أبي طالب مع أولاد عمومته الحسين والحسن وعبد الله بن جعفر. ولم تشر مصادرنا إلى حوادث عكّرت صفو العلاقات بين معاوية بن أبي سفيان ومسلم بن عقيل خلال مدة خلافة الأول.

لم يلمع اسم مسلم بن عقيل ويتقدم بين رجال عصره إلاّ حين أرسله الحسين بن علي إلى الكوفة باعتباره ممثلاً شخصياً له وكانت مهمته أن يقيم المساندة الحقيقية التي يمكن أن تقدمها الكوفة للحسين في حالة إعلانه الثورة ضد الأمويين. وبعد مشقة كبيرة وصل مسلم إلى الكوفة والتف حوله شيعة العلويين الذين تقدرهم الروايات التاريخية بين 12 ألفاً أو 30 ألفاً. مبهوراً بهذا الدعم كتب مسلم إلى الحسين يطلب منه الإسراع بالمجيء إلى الكوفة.

أما موقف والي الأمويين النعمان بن بشير فلم يحرك ساكناً تجاه مسلم رغم علمه بدخوله الكوفة، وترحيب المختار بن أبي عبيد الثقفي به وإيوائه في بيته سنة 60هـ/ 769م. وقد استبدل الخليفة يزيد بن معاوية والي الكوفة بعبيد الله بن زياد الذي كان والياً على البصرة، وقد شدد عبيد الله بن زياد أساليب التحري عن مسلم مما اضطره إلى الثورة المبكرة قبل وصول الحسين بن علي وقد انضم إليه عدد من أهل الكوفة قدر بأربعة آلاف شخص، ولكن الوالي استطاع بالوعد والتهديد أن يقنع شيوخ القبائل بالتخلي عن مسلم حيث لم يبق معه سوى ثلاثين مقاتلاً، وقد اضطر مسلم إلى الاختفاء ثانية حتى عثر عليه فخرج بسيفه وقاتل حتى أُسر. ثم أمر الوالي بقتله. وتشير رواية تاريخية[91] انه أوصى الحسين في آخر وصية له بعدم المجيء إلى الكوفة لفقده الثقة بأهلها. وقد سمع الحسين بن علي بمصير مسلم متأخراً، ووقعت معركة كربلاء حيث قتل من إخوان مسلم عبد الله وعبد الرحمن وجعفر، وفي روايات أخرى خمسة من إخوانه، وكذلك ابنه عبد الله. ورغم أن مسلم بن عقيل لم يقتل في كربلاء إلا أنه يعد من شهداء كربلاء ويلقب (أول الشهداء) من قبل المصادر الشيعية[92].

❖ علي بن عبد الله بن العباس وآله

العباسيون والادعاء بالخلافة:

العباسيون هم أحفاد العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ وكان لهم طموحاً سياسياً للوصول إلى السلطة (للخلافة) اختلف المؤرخون في تتبع جذوره التاريخية... ولكننا نستطيع القول بأن ادعاء العباسيين بحقهم في الخلافة مر بمرحلتين مختلفتين تتميز كل منها عن الأخرى من حيث الفحوى والأهمية.

ففي فترة الدعوة السرية ضد الحكم الأموي، تلك الفترة التي كان الدعاة العباسيون فيها يهدفون إلى كسب أكبر عدد ممكن من المعارضين للسلطة الأموية. رفعت الدعوة شعارات عامة مثل "حق أهل البيت" أو "بني هاشم" في حكم الجماعة

الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ. وفي هذه الفترة نادى الدعاة العباسيون بأن حق العباسيين في الخلافة يرجع إلى وصية أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب. وهذا يعني بأن العباسيين قد ورثوا حقهم في الخلافة من الفرع الحنفي (لأن محمداً كان يسمى محمد بن الحنفية نسبة إلى أمه خوله الحنفية) من العلويين بصفة شرعية. ولكن ما أن نجحت الدعوة وتأسست الدولة الجديدة حتى "تناسى" العباسيون روابطهم بأبي هاشم ومنظمته السرية "الهاشمية" وبدأوا يؤكدون بأن حقهم في الخلافة يرجع إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ ووارثه.

وصية أبي هاشم... (الصحيفة الصفراء):

قبل مناقشة الادعاء الأول لا بد لي أن أستعرض باختصار فعاليات الحركة السرية التي قامت باسم محمد بن الحنفية ثم قادها ابنه أبو هاشم من بعده حتى سلم قيادتها إلى تلميذه محمد بن علي العباسي، فأقول بأن الثورة التي قادها المختار بن أبي عبيد الثقفي (66/ 685م – 67/ 686م) في الكوفة[93] والتي شملت العراق وجزءاً من منطقة الجزيرة الفراتية كانت باسم محمد بن الحنفية. ولا بد من القول بأن هذه الحركة استحدثت مبادئ جديدة في تطور حركة المعارضة العلوية، فلقد أعلن المختار بأن محمد بن الحنفية هو المهدي المنتظر ثم ادعى المختار النبوة. ولكن الذي يهمنا من هذه الحركة في هذا المقام هو أنها نقلت الإمامة من الفرع الفاطمي (الحسن والحسين – رضي الله عنهما –) إلى محمد بن الحنفية.

ولقد عرفت حركة المختار في مصادر الفرق بأسماء مختلفة منها: الكيسانية[94] والمختارية والخشبية[95] إلا أن وفاة محمد بن الحنفية سنة 81هـ – 700م أدى إلى انقسام أتباعه فرقاً وأشياعاً. **ويمكن القول بأن هؤلاء الأتباع انشطروا شطرين رئيسيين:**

1- الكربية[96]: وهم الأتباع الذين لم يصدقوا بوفاة محمد بن الحنفية، وأعلنوا أنه اختفى في جبل رضوى أو ربما في مكان آخر، وكان من رؤساء هذه الفرقة

حمزة بن عمارة الذي اعتقد بأن محمد بن الحنفية كان إلهاً وأنه (أي حمزة) نبيه وبهذا فقد بث آراء غالية.

2- الأتباع الذين آمنوا بوفاة محمد بن الحنفية وهؤلاء اختلفوا فيمن يخلفه في الإمامة:

أ- فمنهم من ادعى أن الإمامة انتقلت من بعده إلى علي بن الحسين (زين العابدين)، وهذه الرواية[97] فريدة وليس لها ما يؤيدها في المصادر الأخرى. وهناك رواية أخرى[98] فريدة في بابها تتفق مع سابقتها في أنها تؤيد انتقال الإمامة إلى علي زين العابدين ولكنها تختلف معها في اسم الإمام الذي انتقلت منه وهو في هذه الحالة أبو هاشم وليس محمد بن الحنفية. ولا بد لي أن أقول أنه إذا كان في مثل هذه الروايات من صحة تاريخية فإنها لا تعني أكثر من القول بأن وفاة ابن الحنفية قد دفع قسماً من أتباعه إلى الانخراط في الكتلة العلوية الحسينية.

ب-ومنهم من ادعى بأن الإمامة انتقلت إلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية[99]. ولقد نظم أبو هاشم هذا أتباعه في منظمة سرية فعالة سميت "بالهاشمية" وكانت فعالياته مراقبة من قبل الأمويين وعيونهم.

وبوفاة أبي هاشم سنة 97 أو 98هـ - 715 - 716م من دون أن يكون له ولد يخلفه تشتت أتباعه إلى كتل وجماعات كل منها يؤمن بإمامة شخص معين. وبصورة إجمالية يمكن تصنيفهم إلى الكتل التالية:

الكتلة الأولى: نقلت الإمامة من أبي هاشم إلى أخيه علي بن محمد بن الحنفية، ثم انتقلت الإمامة في أولاد الأخير واحداً بعد الآخر[100] ويظهر أن هؤلاء الأتباع ظلوا مخلصين لذكرى محمد بن الحنفية وموالين لعقبه من بعده.

الكتلة الثانية: ادعت ان الإمامة انتقلت من البيت العلوي إلى البيت العباسي بوفاة أبي هاشم وذلك بناء على وصية أبي هاشم إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس(101). ومهما يكن فبالنسبة إلى هذه الفرقة بقيت الإمامة في بني هاشم عائلة الرسول ﷺ.

الكتلة الثالثة: وهم أتباع بيان بن سمعان التميمي الكوفي(102) الذين اعتقدوا بأن بيان خلف أبا هاشم في قيادتهم وأنه نبي. وقد نادى بيان التميمي بمبدأ الحلول والتناسخ فقال بأن الروح الإلهية تناسخت في الأئمة واحداً بعد واحد وحلت أخيراً فيه. ولقد كانت نهايته أن ألقى والي الكوفة خالد بن عبد الله القسري القبض عليه سنة 119هـ - 837م وأحرقه في الكوفة مع صاحبه المغيرة بن سعيد العجلي.

الكتلة الرابعة: وهم أتباع عبد الله بن عمرو بن حرب(103) الذين أعلنوا أن ابن حرب هو الإمام بعد أبي هاشم، ولكن الظاهر ان حركتهم لم تكن نشطة وأن زعيمهم لم يكن مؤهلاً أو كفوءاً لقيادة حركتهم حيث أنه تراجع عن مبادئه ولذلك لم يكن لهذه الحركة شأن كبير، ولا تذكر عنها مصادرنا التاريخية أو غير التاريخية إلا النزر القليل.

الكتلة الخامسة: وهي الفرقة التي تعرف تاريخياً باسم الجناحية(104) أتباع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وهو بطبيعة الحال ليس علوياً ولا فاطمياً. ولقد ثار عبد الله بن معاوية في الكوفة سنة 127هـ - 744/ 745م وكان لثورته كما أشرنا أهمية كبيرة في تاريخ حركة المعارضة الهاشمية فلقد اتسعت حركته التي نادت بآراء متطرفة من العراق إلى فارس، وأسس دولة فتية شملت المناطق التي امتدت إليها سلطته السياسية، وقد أعانته بعض الشخصيات العباسية في إدارة دولته إلا أن الجيش الأموي لم يترك له المجال حيث قضى على حركته بفترة قصيرة واضطر عبد الله إلى الهرب إلى خراسان حيث قبض عليه أبو مسلم وسجنه مدة ثم قتله ذلك لأن الدعوة العباسية كانت قد اختمرت في خراسان في

ذلك الحين وأن خراسان لا تتسع إلى منافس جديد فعال للعباسيين مثل عبد الله بن معاوية. ومما هو جدير بالذكر أن الجناحية ادعوا بأن أبا هاشم كان قد أوصى إلى عبد الله بن معاوية بالإمامة من بعده. وتذكر المصادر وقوع مشادة كلامية بين الجناحية والعباسية حول مصير الإمامة بعد أبي هاشم فكل منهما يدّعي أن أبا هاشم أوصى لإمامه.

من هذا الاستعراض للفرق والكتل الدينية السياسية التي ادعت وصية أبي هاشم يظهر لنا بوضوح المشادة العنيفة حول هذه الوصية كما وأنه يعكس الانقسامات الحادة بين الكتل والجماعات المختلفة حول مسألة الإمامة.

وبقدر ما يتعلق الأمر بادعاء العباسيين لهذه الوصية، فلقد اختلف موقف المؤرخين المحدثين من مسلمين ومستشرقين من ذلك ففان فلوتن وبرنارد لويس موسكتي[105] يقبلونها على انها صحيحة تاريخياً. أما ولهاوزن[106] فيعتبرها "ربما كانت رواية أسطورية أو خيالية، ويكذب أتسترون ودي خويه وكترمير رواية الوصية والسم[107].

أما الدوري فقد كان حذراً من قبولها أول الأمر "وعلى كل فيمكننا أن نجزم بأن أبا هاشم توفي ولا عقب له وبان التفاهم بينه وبين محمد بن علي جعل الهاشمية ينضمون إلى محمد ويكونون نواة الدعوة العباسية". ولكن الدوري عدل عن رأيه بعد اطلاعه على مخطوطة أخبار العباس وأكد على أهمية الوصية وحقيقتها . التاريخية[108]. ويقول حسن إبراهيم حسن "وكان البيتان (العلوي والعباسي) متحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية إلى أن انتقل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبي هاشم" وهو بهذا يقر بصحة الوصية[109]. أما كلود كاهيين فلا يقيد نفسه برأي فيقول "ان مسألة حقيقة وصية أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي لم يعد لها اليوم نفس الأهمية التي كانت لها من قبل وإلى وقت قريب" ثم يضيف

"ولكن من غير الممكن أن نشك في أن شيعة أبي هاشم قد حلفوا يمين الولاء لمحمد وأن هذا الأخير قد تصرف وكأنه أمامهم"[110].

أما المؤرخون الأقدمون فالكثير منهم يؤكد أن أبا هاشم قد أوصى فعلاً لمحمد العباسي. فيذكر البلاذري (ت 279هـ - 892م) انه "لما استخلف سليمان بن عبد الملك (96هـ/ 715م-99هـ/ 717م) أتاه أبو هاشم عبد الله.. وافداً في عدد من الشيعة.. وكان محمد بن الحنفية حين حضرته الوفاة أوصى إليه وقلده أمر الشيعة والقيام بشأنهم. فلما دخل عليه استبرع بيانه وعقله.. ثم شخص فبعث سليمان معه دليلاً وأمره أن يخدمه فحاد به عن الطريق وقد أعد له أعرابياً في خبا ومعه غنم له ومعه سم فوافاه وقد كاد العطش يأتي عليه فاستقى من الأعرابي فسقاه لبناً قد جعل فيه ذلك السم فلما شربه مرض فمال إلى محمد بن علي وهو بالحميمة فمات عنده"[111]. وفي رواية ثانية للبلاذري لا تختلف كثيراً عن الأولى يقول أن أبا هاشم قال لمحمد العباسي "يا ابن عم إنا كنا نظن ان الإمامة فينا فقد زال الشك وصرح اليقين بأنك الإمام دون أبي وأعطاه كتبه وسمى له شيعته"[112]. وفي رواية ثالثة للبلاذري أن أبا هاشم قال لمحمد "ان هذا الامر أمر أنت أول من يقوم به ولولدك آخره"[113]. ويوافق اليعقوبي البلاذري في روايته عن الوصية إلا أنه كعادته لا يذكر مصادره في بدء كل رواية فيقول: بعد أن سقي أبو هاشم السم قال: "ميلوا بي إلى ابن عمي محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فإنه بأرض الشراة فأسرعوا السير حتى أتوا محمداً بالحميمة فلما قدم عليه قال له يا بن عم أنا ميت وقد صرت إليك وهذه وصية أبي إلي وفيها أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك والوقت الذي يكون فيه ذلك والعلامة وما ينبغي لكم العمل به". أما الطبري فيتفق في جوهر الرواية مع سابقيه ولكنه يقول أن أبا هاشم قال لمحمد "يا ابن عمي ان عندي علماً انبذه إليك فلا تطلعن عليه أحداً ان هذا الأمر الذي ترتجيه الناس فيكم"[114].

والجدير بالذكر أن روايات البلاذري (ت 279هـ - 892م) واليعقوبي (ت 284هـ - 897م) والطبري (ت 310هـ - 923م) ربما استقت من مصدر

واحد هو إما الهيثم بن عدي (ت 206هـ - 821م) أو المدائني (ت بين 215- 234هـ/ 830- 848م) وكلا الراويين على جانب لا يستهان به من حيث صحة رواياتهما التاريخية. هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الاختلاف في أسلوب الرواية وكلماتها مع أنها تؤدي إلى المعنى نفسه وتروي نفس الحادثة يؤكد صحة الخبر المروي ويزيد نسبة الثقة فيه.

ويعالج موضوع الوصية مؤرخون آخرون فيذكر ابن سعد (ت 230هـ - 845م) في طبقاته أن الوفاة لما حضرت أبا هاشم "أوصى إلى محمد بن علي... وقال له أنت صاحب هذا الأمر وهو في ولدك وصرف الشيعة إليه. ودفع كتبه ورايته إليه". ويؤكد ابن حبيب (ت 245هـ - 859م) أن سليمان سم أبا هاشم الذي مات عند محمد العباسي[115]. ويذكر ذلك أيضاً ابن قتيبة (ت 267هـ - 889م) ويقول أن أبا هاشم عرف محمداً العباسي برجاله وكتبه. وإذا صح لنا أن نعزو كتاب الإمامة والسياسة إلى ابن قتيبة فهو يذكر خبر الوصية، ويقول أن أبا هاشم "اشهد له (لمحمد العباسي) من الشيعة رجالاً"[116]. ويؤيد المسعودي[117] (ت 345هـ/ 956م) خبر انتقال الإمامة من العلويين إلى العباسيين بوصية أبي هاشم ولكنه يخطئ حينما يقول بأن الوصية كانت لعلي بن عبد الله العباسي وليس لابنه محمد. أما كتاب العيون والحدائق فيقول أن أبا هاشم سم بحلواء وليس بلبن وبعد أن أحس أبو هاشم بها "تحامل إلى الحميمة وكتب كتاباً إلى ولد الدعاة وسلم إليهم خاتماً يختم به الكتب إلى الدعاة وكتب بذلك إلى الشيعة بتسليم الأمر لبني العباس[118]. ولا يفوتني أن أذكر بأن الجاحظ[119] (ت 255هـ/ 868م) يندد بالأمويين لأنهم سموا أبا هاشم عبد الله.

ومن المصادر المهمة التي تبحث في الوصية هو كتاب "أخبار العباس وولده" للمؤلف المجهول. يقول الكتاب تحت عنوان"أخبار الإمامة" "والكيسانية منتسبون إلى المختار بن أبي عبيد... وكان يلقب كيسان وهو أول من قال بإمامة محمد بن علي وبها كان يقول علي بن عبد الله (العباسي) وولده إلى أيام المهدي. وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد بن الحنفية". ويقول "قدم أبو هاشم.. فنزل على محمد

بن علي (العباسي) فاشتكى فأوصى إلى محمد وكان يسمى بعده الإمـــام". ويفـــصل الكتاب في علاقة محمد العباسي بأبي هاشم والظروف التي أدت إلى مـــوت أبـــي هاشم، ولكنه لا يذكر أن أبا هاشم قد سم وإنما يقول أنه مـــات موتـــاً طبيعيـــاً[120]. ومهما يكن من أمر فإن أهم ما يذكر في موضوع الوصية هي "الصفيحة الصفراء". ويرجع أصل هذه الصحيفة إلى محمد بن الحنفية الذي ورثها عن أبيه علي بن أبي طالب حيث أعطاه إياها الحسين بن علي أخاه. وتحتوي هذه الصحيفة علـــى "علـــم رايات خراسان السود متى تكون ومتى تقوم ومتى زمانها وعلاماتها وآياتهـــا وأي إحياء العرب أنصارهم وأسماء رجال يقومون بذلك كيف صفتهم وصـــفة رجـــالهم وأتباعهم، فكانت تلك الصحيفة عند محمد بن علي بن الحنفيـــة حتـــى إذا حـــضره الموت دفعها إلى ابنه عبد الله بن محمد وهو الذي يكنى أبا هاشم وكانت عنده حتى إذا حضره الموت... ومات في الحميمة عند محمد بن علي فـــدفع الـــصحيفة إليـــه وأوصاه بما أحب.."[121]. ثم يسرد الكتاب الوصية الشفوية التي أوصى أبو هاشـــم محمداً بها وهي لا تختلف في فحواها عما ذكر في المصادر السابقة ولو أنها تتميز بالتفصيل والشمول فتذكر أنه بعد وفاة أبي هاشم قام محمد العباسي وخطـــب فـــي الشيعة قائلاً "لئن كنتم أصبتم بموته لقد خصصت بذلك منه، وقد جمعنـــي وإيـــاكم القيام بهذا الأمر وعلمت منه كثيراً مما لم تعلموا، فاتقوا الله ربكم وحافظوا على هذا الحق الذي سعيتم في إقامته واحفظوا ألسنتكم فلا تطلقوها إلا فـــي مواضـــع النفـــع والغنا وتصبروا للمكروه فقد قرن بكم فإن حفظتم ذلك فأنتم شيعتي وخاصتي وأولى الناس بي في محياي ومماتي". فأجابه أحد كبار الأتباع قائلاً "قـــد أوصـــى إليـــك صاحبنا الذي كنا نأتم به وذكر أن هذا الأمر فيك وفي ولدك وقد قبلنـــا ذاك فمرنـــا بأمرك نقف عليه ولا نتعده"[122]. ولما كان كتاب "نبذه من التاريخ" للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر مختصراً لأخبار العباس وولده الآنفة الذكر[123]. فـــإن مـــا ذكر في الأول يتفق مع ما ذكر في الثاني.

يظهر مما سبق أن المصادر التي ناقشنا رواياتها المستندة على رواة مختلفين تتفق على الحقيقة التاريخية للوصية، وتذكر أنه في سنة 97هـ/ 715م، سنة 98هـ - 716م كان أبو هاشم في طريق عودته من الشام إلى الحجاز بعد زيارته لسليمان بن عبد الملك. وقد تمرض أبو هاشم إما بسبب السم الذي دبره له الخليفة الأموي، أو بسبب مرض طبيعي وكان في منطقة الشراة، ولذلك أمر أصحابه ان يعرجوا به إلى الحميمة مقر العباسيين، فأوصى هناك لمحمد بن علي العباسي وجعله إماماً للحركة السرية الهاشمية. ولم يكن لأبي هاشم ولد ولذلك أمر أتباعه باتخاذ محمد العباسي إماماً لأنه أعلم[124] من غيره وكيف لا وقد أخذ محمد العلم على يدي أبي هاشم نفسه. وقد حول محمد العباسي الهاشمية إلى منظمة عباسية صرفة.

وكان لا بد للعباسيين بعد تسلمهم السلطة أن يجدوا أساساً جديداً لتثبيت دعواتهم بالخلافة عليه، فلم تعد (وصية أبي هاشم) ملائمة لهم بعد تسلمهم الحكم ذلك لأنها من الناحية السياسية تربطهم بالعلويين وتظهر أن حقهم بالخلافة جاء عن طريق أبناء الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، ثم أنها من الناحية العقائدية تفضح أن جذور حركتهم السرية تعود إلى المنظمة الكيسانية والهاشمية "المتطرفة". وبمعنى آخر فإن حاجة العباسيين إلى تأييد الفقهاء والناس لنظامهم الجديد هو الذي دعاهم إلى أن يتبرؤوا من صلتهم بأبي هاشم ومنظمته المتطرفة ويعلنوا تمسكهم بالكتاب والسنة. أما الأساس الجديد لدعوى العباسيين، فقد كان يستند إلى أن العباس عم الرسول ﷺ وأنه ورثه يوم وفاته ولذلك فالإمامة في ولده.

ولا بد من القول بأن هذا التحول لم يحدث فجأة وإنما كان هناك فترة انتقال بين الادعاء الأول والثاني. وتمتاز هذه الفترة بمرونتها وغموضها وتظهر بصورة خاصة في تعليقات وخطب الساسة والخلفاء العباسيين. ففي خطبة أبي العباس[125] 1320هـ/ 750م - 136هـ/ 754م) يؤكد أن العباسيين ينتمون إلى الرسول من جهة الآباء فيقول: ".. وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا أحق بها وأهلها وخصنا برحم

رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه وانبتنا من شجرته". ثم يتكلم عن حـق "أهـل البيت" و"ذوي القربى". ولا يخفى ما لهذه الاصطلاحات من مرونـة فـي المعنـى تختلف الروايات في تفسيره. ثم يهاجم الخليفة العناصر المعارضـة التـي بـدأت تتحرك بعد تأسيس الدولة الجديدة، ولكن خطبته بصورة عامة امتـازت بالمرونـة السياسية حيث يقرن فيها الوعد بالوعيد. ولا تختلف خطبة داود بن علي[126] عـم الخليفة عن الخطبة الأولى من حيث مرونتها السياسية ومحاولتهـا التوفيـق بـين العلويين والعباسيين بالرغم من أن نبرتها أكثر عباسية من سابقتها. فداود بن علـي يحمد الله ويشكره لأنه "أصار إلينا ميراثنا من نبينا ﷺ".

أي أن العباسيين هم ورثة الرسول ﷺ وهم أحق الناس بالخلافة من بعـده. إلا أن داود يستدرك فيقول "إلا أنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسـول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد وأشار بيده إلى أبي العباس". ولكن داود يعود فيقول "فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخـارج منـا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم". وفي مناقشة بين الفقيه الأوزاعي وعبـد الله بـن علي عم الخليفة في الشام يؤكد عبد الله أن الحق حق بني هاشم ويلمح أن العباسيين ورثوا حقهم في الخلافة عن طريق العلويين[127].

ولكن الأمر لم يبق على هذه الصورة المرنة الغامضة زمناً طويلاً فلقد انـشق بنو هاشم إلى عباسيين حاكمين وعلويين معارضين بمرور الزمن تبلورت وجهتـا النظر العباسية والعلوية. ويعتبر المنصور، الخليفة الثاني والمؤسس الحقيقي للدولة العباسية، أول من أبرز وجهة النظر العباسية بصورة واضحة لا ريب فيهـا ففـي رسائله المتبادلة مع محمد النفس الزكية الثائر العلوي (الحسني) في الحجاز يقـول "لقد عملت أنه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غير (العباس) فكان وراثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهليـة

ولا إسلام في دنيا ولا آخرة إلا العباس وارثه وموروثه". وفي زمن المنصور كان الصراع السياسي والفكري بين العلويين والعباسيين على أشده، فقد راقب المنصور الإمام جعفر الصادق ﷺ وابنه إسماعيل، كما سجن عبد الله بن الحسن المحض وعدداً من العلويين وتشدد في البحث عن محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم حتى اضطرهما إلى الثورة وقضى على ثورتهما[128]. وسمى نفسه "المنصور" بعد انتصاره على العلويين. هذا ولا يخفى ما لهذا اللقب من أهمية معنوية بين الناس فهو يعني "الشخص المساند من قبل الله لإحراز النصر" وبكلمة أخرى فهو يعني المنقذ المنتظر أو (القائم المنتظر) الذي كان يتوقعه الناس[129]. وكان المنصور في اتخاذه هذا اللقب يرد على ادعاءات العلويين ويظهر للناس أن قيادته هي الصحيحة. ورداً على ادعاءات عبد الله بن الحسن المحض بأنه ابنه محمد النفس الزكية هو المهدي المنتظر روج المنصور أحاديث تقول بأن "المهدي هو محمد بن عبد الله" ولكن أمه ليست هاشمية[130] وذلك للدلالة على أن المهدي هو محمد بن المنصور تمهيداً لإعلانه ولياً للعهد.

ولقد شجع المنصور الشعراء، وهم وسائل الدعاية في ذلك العصر، على ترويج الادعاء العباسي. كما وأنه شجع الكتابة في الإمامة. فقد ألف عيسى بن روضة صاحب المنصور وكان متكلماً جيد الكلام كتاباً في الإمامة[131]. وقد راجت أحاديث كثيرة نسبت إلى الرسول ﷺ وإلى عبد الله بن العباس والإمام علي بن أبي طالب ﷺ والإمام جعفر الصادق ﷺ وغيرهم تدعم رأي العباسيين في الخلافة[132]. كما وذكرت روايات أخرى لا شك أنها موضوعة بأن عبد الله بن الحسن المحض نفسه هو الذي أشار على جماعة من أهل خراسان بأن يتخذوا محمد بن علي العباسي إماماً وقائداً باعتباره أفضل بني هاشم وسيدهم[133].

وهكذا فقد خاض المنصور معركة سياسية وفكرية مع العلويين تبلورت بموجبها وجهة النظر العباسية، ولذلك فحينما تسلم المهدي الخلافة (158هـ/ 775م-169هـ/ 785م) كان عهده عهد استقرار نسبي، وأعلن المهدي رسمياً بأن حق

العباسيين بالخلافة يعود إلى أن العباس عم الرسول ووارثه. فيقول النوبختي حين يتكلم عن أصل الشيعة العباسية "... فأوصى أبو هاشم إلى محمد بن علي... فأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم المسمى بالإمام وهو أول من عقدت له الإمامة من ولد العباس وإليه دعا أبو مسلم ثم أوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس ثم أوصى أبو العباس إلى المنصور والمنصور إلى المهدي. فردهم المهدي عن إثبات الإمامة لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم وأثبت الإمامة بعد النبي وآله للعباس بن عبد المطلب ودعاهم إليها. وقال كان العباس عمه ووارثه أولى الناس به..." ويؤكد ذلك سعد القمي أيضاً[134]. ويقول المسعودي أن الراوندية ادعوا "بأن رسول الله ﷺ قبض وأن أحق الناس بالإمامة بعده العباس بن عبد المطلب لأنه عمه ووارثه وعصبته لقول الله، قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥]. وأن الناس اغتصبوه حقه وظلموه إلي أن رده الله إليهم وتبرؤوا من أبي بكر وعمر وأجازوا بيعة علي بن أبي طالب بإجازة عباس له وذلك حين قال (يا ابن أخي هلم إلي أبايعك فلا يختلف عليك اثنان)[135].

ويوضح الأشعري أن الادعاء الذي ظهر رسمياً زمن المهدي كان رجوعاً عن الادعاء الذي سبقه فيقول "ثم رجع بعض هؤلاء (الكيسانية) عن القول، وزعموا أن النبي نص على العباس بن عبد المطلب ونصبه إماماً ثم نص العباس على إمامة عبد الله... وهؤلاء هم الراوندية"[136]. ويقول الشهرستاني أن الهاشمية تفرعت إلى فروع إحداها نادت بأن "العباسيين أحق في الخلافة لاتصال النسب وقد توفي رسول الله وعمه العباس أولى بالوراثة"[137].

ويؤكد ابن حزم أن الراوندية قالت بأن الخلافة لا تجوز إلا في ولد العباس بن عبد المطلب، وأن العباس عصب رسول الله ووارثه فإذا كان كذلك فقد ورث مكانه. ويرد ابن حزم عليهم فيقول "ان هذا لو كان لجاز في المال، وأما الرتبة فما

جاء قط في الديانات انها تورث. ولقد مات النبي والعباس حي فما ادعى العباس لنفسه قط في ذلك حقاً"[138].

ان تعليق ابن حزم الأخير ليدعونا أن نلقي نظرة سريعة على تاريخ الطموح السياسي للعباسيين. فالمصادر لا تذكر للعباس بن عبد المطلب أي طموح سياسي لنيل الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ. فلم يكن العباس من أوائل المسلمين حيث انه على الأغلب أسلم قبيل فتح مكة سنة 8هـ/ 630م. ومع ذلك فقد أبقى الرسول ﷺ مسؤولية سقاية الحجاج على عاتقه بعد الفتح. وأيد العباس علي بن أبي طالب بعد وفاة الرسول ﷺ ولكن الملاحظ ان منزلة العباس الدينية المتصلة بالحرم المكي قبل الإسلام وبعده وكذلك قرابته من الرسول ﷺ ومواقفه الايجابية من الرسول قبل فتح مكة وأثناءه وشيخوخته وسعت من شهرته بين الناس، واتخذها العباسيون فيما بعد أساساً في دعم حقهم بالخلافة. فالمنصور يقول في رده على محمد النفس الزكية "ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة والأولياء لأن الله جعل العم أباً"، وقال أيضاً "ولقد عملت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم فصارت للعباس من بين إخوته"[139].

ولم يكن عبد الله بن العباس[140] طموحاً من الناحية السياسية كما لاحظنا سابقاً وكانت علاقته بالعلويين طيبة. وبالرغم من أن الروايات ذات الصبغة العباسية تظهره بمظهر المدافع عن حق العباسيين في البلاط الأموي، إلا أن المعتقد أن عبد الله بن العباس كان يلمح أحياناً بحق الهاشميين بصورة عامة وليس حق العباسيين بالتخصيص. ونفى عبد الله بن الزبير كلا من عبد الله بن العباس ومحمد بن الحنفية إلى الطائف لعدم مبايعتها له.

- علي بن عبد الله والخلافة:

ولذلك فإن الطموح السياسي للبيت العباسي بدأ يظهر بظهور علي[141] بن عبد الله بن العباس الذي كان نشطاً من الناحية السياسية ولذلك نظـرت إليـه السلطة الأموية بعين الشك والحذر، إلا أن عبد الملك بن مروان كان يتودد إليه لأنه كـان يرى بأن النزاع معه ربما أدى إلى ازدياد شهرته بين الناس. أما الوليد الأول فقـد سجنه وضربه بالسياط ثم نفاه إلى الشراة فاتخذ الحميمة مكاناً لإقامته.

- محمد بن علي العباس منظم الدعوة:

وبعد وفاة علي العباسي 118/ 736 ظهر ابنه محمد[142] شخصية قوية بـين العباسيين. وكانت علاقة محمد العباسي بأبي هاشم عبد الله علاقة صداقة وتلمذة.

ويظهر أن صلته بعبد الله بن الحسن كانت جيدة أيـضاً. إلا إننـي يجـب أن استدرك فأقول بأن المعارضة الهاشمية للأمويين كانت تبقى موحدة ما دامت السلطة الأموية قوية ولكن ما أن بدأت هذه السلطة بالضعف وبدأ الأمل يكبر فـي إمكـان إسقاط دولة الأمويين حتى ظهرت قيادات متعددة من بين بني هاشم مما أدى إلـى تصدع وحدة المعارضة الهاشمية. والتي يهمنا هنا أن نقول بأن أبا هاشم هذا هـو الذي أوصى لصديقه وتلميذه محمد العباسي بوصيته المشهورة وأعلمه أسماء دعاته وأتباعه. وبهذا انتقلت القيادة من العلويين إلى العباسيين كما أشرنا سابقاً. ان هـذا التقارب بين أبي هاشم (وهو علوي غير فاطمي) وبين محمد العباسي ربما يمكـن تفسيره على ضوء الروايات التي تقول بأن كلا الادعاءين الحنفي (نسبة إلى محمد بن الحنفية) والعباسي كانا مرفوضين وغير معترف بهما من قبل العلويين من نسل فاطمة ﵂ أي الحسنيون والحسينيون. ولقد حذر الدعاة العباسـيون أتبـاعهم مـن الاشتراك في ثورة زيد بن علي حين قيامها أو مساعدة ابنه يحيى في خراسان. كما وأن أبا مسلم الخراساني قتل عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب[143] ذلـك لأن خراسان لا تتسع لأكثر من دعوة واحدة هي الدعوة العباسية.

يظهر من هذا أن المناداة "بوصية أبي هاشم" للعباسيين بغض النظر عن كونها حقيقة تاريخية مسلم بها كما تثبتها أغلب المصادر الأصلية، كانت ضرورة سياسية ملحة حتمتها الظروف التي مرت بها الدعوة العباسية. فالسر في نجاح الدعوة العباسية هو أنها ظهرت بواجهات مختلفة ورفعت شعارات متنوعة من أجل أن تجذب أكبر عدد ممكن من المعارضين للحكم الأموي. وقد غير العباسيون نظرتهم بعد نجاح الثورة وبنوا حقهم على دعوى أن العباس عم الرسول ووارثه ذلك لأنهم كانوا بحاجة إلى تأييد "الجماعة" الإسلامية وعلى رأسها أصحاب الحديث والفقهاء وكان يدعم الدولة الجديدة جيش خراساني قوي يقف بالمرصاد لكل الجماعات المنشقة أو المعارضة.

- إبراهيم الإمام مفجر الثورة.

لقد لاحظنا قبل قليل بأن نواة الدعوة العباسية تشكلت حول محمد بن علي العباسي الذي يعد بحق المنظم الأول للدعوة السرية ثم انتقلت بعد وفاته إلى ابنه إبراهيم الإمام الذي يعد مفجر الثورة العباسية سنة 128هـ/ 745م. ولد أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس[144] والمعروف تاريخياً (بإبراهيم الإمام) من أم غير عربية في مدينة الحميمة بالأردن حيث استقر والده في هذه القرية الواقعة على الطريق التجاري بين بلاد الشام والحجاز، وقد نشأ هناك مع إخوته موسى وعبد الله (أبي العباس) وعبد الله (أبي جعفر) والعباس. في حوالي سنة 97هـ/ 715م انتقل التنظيم السري للدعوة الهاشمية إلى محمد بن علي العباسي الذي بث نشاطه السياسي من الحميمة إلى الكوفة بالعراق ولكنه سرعان ما نقل فعالياته الى خراسان دون أن يقطع صلاته بالمركزين الآخرين للحركة. كما نجح محمد بن علي العباسي في تحويل الدعوة الهاشمية السرية إلى منظمة تدين بالولاء للعباسيين.

توفي محمد بن علي العباسي سنة 125هـ/ 742 – 743م وكان قد أوصى لابنه إبراهيم بقيادة الدعوة السرية العباسية. يقول النوبختي حين يتكلم عن أصل شيعة بني العباس:

"... فأوصى محمد [بن علي العباسي] إلى ابنه إبراهيم المسمى بالإمام وهو أول من عقدت له الإمامة من ولد العباس واليه دعى أبو مسلم..".

وحين تسلم إبراهيم الإمام القيادة بدأ وجه جديد وفعّال للدعوة، ويعود الفضل في ذلك إلى أسلوبه العلمي البراكماتيكي وكرمه وشعبيته بين بني هاشم وخصوصاً منهم العباسيين. ثم أن نجاحه في بناء صلات وثيقة برؤساء الدعوة في العراق بكير بن ماهان ثم أبي سلمه حفص بن سليمان الخلال، وكذلك في خراسان سليمان بن كثير الخزاعي جعل منه رجل الساعة الذي يفي باحتياجات المرحلة آنذاك أكثر من غيره من شخصيات بني هاشم الأخرى.

وكان أبرز ما قام به إبراهيم الإمام في المرحلة الجديدة للدعوة تكثيف النشاط السياسي والدخول في مرحلة الاستعداد العسكري للأنصار والشيعة العباسية. فقد أمر إبراهيم الإمام رئيس الدعوة بالكوفة بكير بن ماهان بالسفر إلى خراسان ليأمر الشيعة بالاستعداد وتسويد الرايات، ويخبرهم بنبأ وفاة أبيه، فبايع الجميع الإمام الجديد. وعاد بكير بن ماهان ومعه بعض رؤساء الشيعة من خراسان الذين التقوا بإبراهيم الإمام وتعرفوا عليه وعجّلوه بأمر إعلان الثورة.

ويرتبط اختيار اللون الأسود شعاراً للعباسيين باسم إبراهيم الإمام، وتشير روايات تاريخية إلى أن سبب ذلك يعود إلى تيمّن العباسيين براية الرسول ﷺ السوداء أثناء فتح مكة. ثم أن السواد جاء ليتفق مع ما تذكره كتب الملاحم والفتن والنبوءات من أن الرايات القادمة من المشرق للقضاء على الأمويين ستكون سوداء ومن هنا جاءت تسمية الشيعة العباسية بالمسوّدة.

لقد كان للتطورات السياسية في بلاد الشام ذاتها أثرها على الأوضاع في العراق وبالتالي خراسان. فلقد بدت بوادر الضعف واضحة في الخلافة الأموية منذ تولي الوليد الثاني (125هـ/ 743م – 126هـ/ 744م) الذي اغتيل في السنة التالية إثر مؤامرة دبّرها يزيد الثالث الذي اعلن نفسه خليفة في دمشق. وكان من الطبيعي أن يستغل منافسو والي خراسان الأموي نصر بن سيار الكناني أمثال جديع بن علي الأزدي الكرماني والحارث بن سريج المرجئي هذه الأزمة ليحاولوا الاصطياد في الماء العكر. ولقد زاد من تفاقم الأزمة وصعوبة موقف نصر بن سيار موت يزيد الثالث المفاجئ وعدم وجود سلطة شرعية معترف بها في دمشق إثر الاضطرابات التي تلت ذلك حتى مجئ مروان بن محمد إلى الخلافة، (127هـ/ 744م – 132هـ/ 750م) الذي أعاد القوة نسبياً إلى مركز نصر بن سيار في خراسان.

لقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة العباسية حيث وجدت المجال للتغلغل بين أهل خراسان الذين كانوا "يتوقون إلى أمر يجمعهم" فكانت الدعوة هي ذلك الأمر. وقد أمر إبراهيم الإمام أبا سلمه الخلال (وزير آل محمد) بالكوفة القيام بعدة زيارات إلى المشرق، حيث زار جرجان والتقى بأبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي "وهو يومئذ رئيس القوم وقد لقي الإمامين جميعاً [محمد بن علي وإبراهيم] وعظم قدره في الدعوة". ثم زار أبو سلمه الخلال مرو عاصمة خراسان والتقى بسليمان بن كثير الخزاعي "صاحب أمر الشيعة بخراسان" كما أرسل مجاشع بن حريث الأنصاري ومعه راية سوداء إلى بلاد ما وراء النهر.

حين اختمرت الدعوة العباسية وحان الوقت لإعلانها طلب النقباء في خراسان من إبراهيم الإمام سنة 128هـ/ 742 إرسال من ينوب عنه من أهل البيت ليكون ممثلاً له أثناء إعلان الثورة على الأمويين. وبعد أن فشل إبراهيم الإمام في إقناع عدد من الرجال من أهل بيته وغيرهم قرر اختيار مولاه أبا مسلم الخراساني ليمثله في خراسان. وكان إبراهيم الإمام قد تعرّف للمرة الأولى على أبي مسلم الخراساني

وكسبه إلى دعوته حين جاء هذا الأخير مع بعض الدعاة العباسيين إلى الحميمة من الكوفة. وقد رأى إبراهيم الإمام فيه المقدرة والذكاء فقرّبه وأبقاه عنده، ثم بدّل اسمه إلى عبد الرحمن بن مسلم وكنّاه بأبي مسلم وبقي في خدمته يستعمله في حمل رسائله إلى الكوفة ومرو حتى سنة 128هـ/ 745م حين أرسله إلى خراسان. على أن إبراهيم الإمام حين أرسل أبا مسلم الخراساني هذه المرة قال له: "أنت منّا أهل البيت" تلك العبارة التي تدل على ثقته التامة به والتي رفعت من منزلته بين شخصيات الدعوة العباسية في خراسان. وكانت وصية إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم كما جاءت الطبري وابن قتيبة:

"يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت، احفظ وصيتي: انظر إلى هذا الحي من اليمن فألزمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وان استطعت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل. وأيما غُلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله. ولا تخالف هذا الشيخ [سليمان بن كثير الخزاعي] ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني".

إنّ وصية إبراهيم الإمام هذه غير متفق على نصها بين المؤرخين الرواد لذلك لا يمكن قبولها دون نقد وتمحيص. فالنقد الخارجي للنص يكشف عدم وجود سند (سلسلة رواة) في رواية الطبري. أما رواية ابن قتيبة فيضعفها كون المؤلف مرتبك وغير متكامل وغامض في العديد من رواياته في التاريخ العباسي. ولا ذكر لنص الوصية في مصادر مهمة مثل أنساب الإشراف للبلاذري وأخبار العباس وولده. ثم ان رواية أبي حنيفة الدينوري وكذلك كتاب العيون والحدائق للمؤلف المجهول لا تشير إلى النص الذي يأمر إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني بقتل العرب دون تمييز، بل أن الأمر كان يخص العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة أو المشكوك في ولاءهم لها "واقتل من شككت في أمره".

ويؤيد ما ذهبنا إليه رواية في أخبار العباس وولده على لسان أبي مسلم حيث يقول:

"أمرني الإمام [إبراهيم] أن أنزل في أهل اليمن، وأتألف ربيعة، ولا ادع نصيبي من صالحي مضر واحذر أكثرهم من أتباع بني أمية واجمع إليّ العجم...

وأخيراً وليس آخراً فإن سياسة أبي مسلم الخراساني وسليمان بن كثير الخزاعي لا تتفق والوصية المزعومة ذلك لأن الدعوة العباسية تقربّت لليمانية والربعية وقبلت العديد من المضرية كذلك في صفوفها، وذلك لإدراكها بأن العرب يمثلون القوة الضاربة في تلك الفترة. وهذا لا يعني بطبيعة الحال إسقاط الموالي من الحساب.

لم يكن سليمان بن كثير الخزاعي نقيب النقباء في خراسان يتوقع أن إبراهيم الإمام سيرسل مولاه ليمثله في خراسان، ولذلك كان موقف سليمان الخزاعي غير ودي من أبي مسلم الخراساني أول الأمر. ولكنّ أبا مسلم استطاع بدهائه إقناع الخزاعي، ثم أن هذا الأخير خاف على الدعوة العباسية من التصدع والضعف إذا وقع الخلاف بين الدعاة فاضطر الى قبول أبي مسلم والاعتراف به وكتب بذلك إلى رؤساء شيعة بني العباس بخراسان يخبرهم بأمر إبراهيم الإمام وإرساله أبي مسلم.

جاءت أوامر إبراهيم الإمام إلى الدعاة بضرورة إعلان الثورة، كما وصل قحطبة بن شبيب الطائي إلى خراسان ومعه علمين من إبراهيم الإمام الأول يسمى الظل ويرمز إلى أن الدعوة العباسية ستبقى بقاء الظل على هذه الأرض فهي دعوة دائمة إلى يوم القيامة.

والثاني السحاب ويرمز إلى عالمية الدعوة وانتشارها الذي سيشمل كل العالم المعروف آنذاك فكان إعلانها في 25رمضان سنة 129هـ مايس 747م.

وحين وصل النزاع بين نصر بن سيار والي الأمويين بخراسان وعلي بن الكرماني ذروته، تحرك زعماء الدعوة العباسية نحو ابن الكرماني حيث اعترفوا به وقتياً أميراً على خراسان وبذلك كسبوا إلى جانب الدعوة العباسية أتباع ابن الكرماني من القبائل اليمانية وبعض الربعية. وقد ساعدهم هذا الوضع الجديد على دحر قوات نصر بن سيار وطردها من مرو. وبعد أن سيطرت الدعوة العباسية على خراسان جاءت أوامر إبراهيم الإمام بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائداً لجيش الدعوة العباسية المتجه نحو العراق.

وفي الوقت الذي كانت الدعوة العباسية تحقق النجاح تلو النجاح وتتقدم باتجاه العراق ألقي القبض على إبراهيم الإمام في الحميمة. أما كيف عرف الخليفة الأموي مروان بن محمد، الذي لم يكن أقل كفاءة وإمكانيات من إبراهيم الإمام، بأن الدعوة كانت عباسية وأن إبراهيم زعيمها فتختلف الروايات في ذلك. على أننا نستطيع القول بأن اسم إبراهيم الإمام كان معروفاً لدى الحلقات العليا من شيعة بني العباس، كما وأن إبراهيم الإمام كان شخصية هاشمية جذابة فحين حج سنة 131هـ/ 748م ومعه بعض إخوته وولده اشتهر بالحرمين وتجمع حوله الناس.

وقد كتب مروان بن محمد إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك واليه على دمشق يأمره أن يطلب من عامل البلقاء القبض على إبراهيم الإمام فقبض عليه وزج بالسجن في حران حيث لاقى حتفه في المحرم سنة 132هـ/ 749م إما خنقاً أو بالسم كما تؤكد ذلك روايات عديدة. ومن المحتمل أن يكون إبراهيم الإمام قد وقع ضحية الطاعون الذي انتشر في بلاد الشام وأطرافها في تلك السنة.

لقد أوصى إبراهيم الإمام أن يكون أخوه أبو العباس عبد الله بن محمد إماماً للدعوة من بعده حيث تشير رواية تاريخية أنه أعلن ذلك في جمع من الهاشميين ومواليهم قبل مغادرته الحميمة إلى حران. كما أكد ذلك في وصية جديدة كتبها من حرّان وبعث بها مع مولاه سابق الخوارزمي حيث نعى فيها نفسه إلى أهل بيته

أوصى بالإمامة إلى أخيه أبي العباس وأمره بالسير هو وأهل بيتــه إلــى الكوفــة، وأوصى أهل بيته بالسمع والطاعة لأبي العباس. وأشارت رواية أخــرى الــى أن إبراهيم الإمام أرسل برسالة اخرى يؤكد نفس القرار إلى كل من أبي سلمة الخــلال وأبي مسلم الخراساني. وقد نفذ أبو العباس وأهل بيتــه وصــية إبــراهيم الإمــام وتحركوا في المحرم أو صفر من سنة 132هـ إلى الكوفة.

الهوامش

(1) ابن سعد، جـ 1/2، ص 58، جـ/2، ص 33، 154. - البلاذري، انساب، ص 400، 404 فما بعد. - اليعقوبي، تاريخ، جـ 2، ص 254 فما بعد. - الدينوري، الأخبار، ص 230. - ابن أبي الحديد، شرح، جـ 2، ص101 - 104. انظر كذلك[2]: E.I مادة (الحسن بن علي). - عادل الأديب، دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسية، بيروت، 1988.

(2) الطبري، تاريخ، جـ 5، ص 158. - انظر: محمد ضيف الله بطاينة، المرجع السابق، ص 20 فما بعد. - فاروق عمر، النظم الإسلامية، ص23 فما بعد.

(3) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، م 2، جزء الثالث، ص 287 فما بعد.

(4) قارن: الطبري، تاريخ، جـ 5،ص 162. - الدينوري، الأخبار الطوال، 216 فما بعد.

(5) ابن اعثم الكوفي، الفتوح، م 2، جـ 3، ص289.

(6) الدينوري، المصدر السابق، ص 217. - المسعودي، مروج، جـ 3، ص 8. - الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ 3، ص 263.

(7) الطبري، تاريخ، جـ 5، ص 162 فما بعد. - ابن اعثم الكوفي، الفتوح، جـ 3، ص 293.- الدينوري، الأخبار، 218.

(8) ابن اعثم الكوفي، الفتوح، م 2، جـ 3، ص 293. - الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ 3، ص 364.

(9) ابن اعثم الكوفي، المصدر نفسه.

(10) الطبري، تاريخ، جـ 5، ص 165.

(11) البخاري، صحيح (المناقب).

(12) الذهبي، سير، جـ 3، ص 478. - السيوطي، تاريخ الخلفاء، 177 ويلاحظ أنها روايات متأخرة.

(13) الهيثمي، الجنان واللسان، القاهرة، 1965، ص 26.

(14) ابن سعد، طبقات، جـ 2 ق 2، 89، جـ 3 ق 1، 21، 26، 152. - الأصفهاني، مقاتل، 78 - 122.- الشيخ المفيد، الإرشاد، 197 - 253. - العاملي أعيان، جـ 4، 121 - 405. E.I(2) الحسين بن علي. مادة (الحسين بن علي بن أبي طالب) شهيد كربلاء في دائرة المعارف الشيعية العامة، بيروت، 1993.

(15) ابن عبد ربه، العقد الفريد، بيروت، 1953، جـ 4، ص 93 Donaldson. The Shi'ite Religion. London. 1933.

(16) راجع: فاروق عمر، النظم الإسلامية. العين، 1983، ص 53.

(17) المصدر نفسه.

(18) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، 187.

(19) المصادر التي تكلمت عن ثورة الحسين بن علي فيها الكثير من المبالغات وقد انتقدت هذه الروايات وخاصة الشيعية منها بشدة من قبل ابن كثير. راجع: البداية والنهاية، القاهرة، جـ 8، ص 201 فما بعد.

(20) راجع: الطبري، تاريخ، جـ 6، ص 19 فما بعد.- البلاذري، أنساب، جـ 2، ص 224 فما بعد. - انظر كذلك: فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، بيروت، 1983، هند أبو الشعر، حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، عمان، 1983.

(21) الطبري، تاريخ، (بيروت 1987)، جـ 3، ص 491.

(22) البكري، سمط اللآلئ، القاهرة، 1936، جـ 1، ص 320. - قارن الذهبي، تاريخ الإسلام، ص 10. - ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 8، ص 167.

(23) الأصفهاني، مقاتل، ص 92 فما بعد. - ابن سعد، طبقات، جـ 2، ص 160. - ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 56 فما بعد. - أحمد محمود صبحي، الزيدية، ص 17 فما بعد، ص 66. - E.I (1) مادة (زيد بن علي).

(24) عباس محمد زيد، تراجم، ص 9، ص 7.

(25) الأصفهاني مقاتل 96.

(26) عباس محمد زيد، تراجم أئمة أهل البيت، ص 43.

(27) موسوعة الحضارة الإسلامية (مادة الإمامة) نشر مؤسسة آل البيت، عمان، الأردن.

(28) ابن اعثم الكوفي، الفتوح، بيروت 1986، مجلد 3، ص 159. – محمد خريسات، موقف الأمويين من استيطان الهاشميين، مجلة دراسات، العدد 10، ص 52.

(29) ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، حيدر أباد الدكن، 1960، 472. – الأصفهاني، الأغاني، جـ 12، ص 224.

(30) اليعقوبي، تاريخ، جـ 3، ص 8 فما بعد. محمد خريسات، المرجع السابق، ص 55.

(31) ابن اعثم الكوفي، المصدر السابق، ص 357.

(32) راجع: فاروق عمر، حركة المختار الثقفي.. سوء تقدير أم مغامرة سياسية، في (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، (بغداد، 96. كذلك هند أبو الشعر، حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، عمان، 1983، ص 187 فما بعد.

(33) عن تفاصيل المصادر والروايات راجع: فاروق عمر، بحوث في التاريخ العباسي، بغداد، بيروت، 1978.

(34) راجع: الواقدي، فتوح الشام، جـ 1، ص 101. – ابن حبيب، المنمق في أخبار قريش، ص 472. – البلاذري، أنساب الأشراف، جـ 4، قسم 2، ص 307 فما بعد.– الأصفهاني، الأغاني، جـ 12، ص224. – ابن عساكر، تاريخ دمشق، تراجم النساء، ص 105.– محمد خريسات، المرجع السابق، ص 52، 54.

(35) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص 118 فما بعد. – الطبري، تاريخ، القسم الثاني، 1882. E.I.(2) – (مادة عبد الله بن معاوية).

(36) عن نسبه راجع: أنساب الإشراف للبلاذري، 305. – ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، القاهرة 1782هـ، ص 68 – 69.

(37) راجع: عبد المنعم ماجد التاريخ السيياسي، جـ 2، ص 316.

(38) شعبان، الثورة العباسية، ص 237.

(39) فاروق عمر، الخلافة العباسية، (بالانجليزية)، ص 88 فما بعد. - عرفان عبد الحميد، دراسات في الفرق..، ص 51، 52، 55، 64.

(40) محمد جابر الحيني، حركات الشيعة المتطرفين، ص 75. - عبد الله سلوم السامرائي، الغلو والفرق الغالية، 95 - 96.

(41) راجع: الطبري، تاريخ، 200، 1752 فما بعد.

(42) المصدر السابق، ص 1881 فما بعد.

(43) دنيت، مروان بن محمد، ص 248 عن الطبري، جـ 7، ص 304 (الطبعة المصرية). كذلك انظر تاريخ خليفة بن خياط، ص 394.

(44) دنيت، المصدر السابق، الفصل الأول، (الترجمة العربية، بغداد دار واسط، 1985).

(45) عن هذه الأحداث انظر الطبري، جـ 7، ص 304 فما بعد (الطبعة المصرية).

(46) الطبري، 1883، الطبعة الأوروبية، كذلك راجع 1879 - 1887 (نفس الطبعة).

(47) الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، ص 563.

(48) حول شعره راجع: المطلبي، الأديب المغامر..، بغداد، 1978.

(49) البلاذري، أنساب الإشراف، 305.

(50) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ 1، ص 353. - ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، جـ 15، ص 272.

(51) الأصفهاني، الأغاني، جـ 12، ص 237 فما بعد. - ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 52، الطبري، تاريخ، جـ 7، ص 171.

(52) راجع: عيون الأخبار، الموفقيات، ص 563.

(53) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، ص 1970.

(54) المسعودي، مروج الذهب، طبعة القاهرة، جـ 3، ص 243 فما بعد. - البغدادي، الفرق بين الفرق، طبعة القاهرة، 1948، ص 150. - الطبري، تاريخ، جـ 7، ص 304.

(55) الطبري، تاريخ، جـ 7، ص 308. الأصفهاني، الأغـاني، جـ 12، ص 237.
- المحاسن والمساوئ، ص 48.

(56) المسعودي، المصدر السابق، جـ 3، ص 243 - 245.

(57) الطبري، جـ 7، ص 303. الأغاني، جـ 12، ص 228. - خليفـة بـن خيـاط، تاريخ، ص 394. - ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 131. - ابن خلدون، العبـر، جـ 3، ص 115.

(58) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص 162. - كذلك الأغاني، جـ 12، ص 228.

(59) راجع الطبري، جـ 7، ص 305. - ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 131.

(60) الطبري، جـ 7، ص 304.

(61) المصدر السابق، جـ 7، ص 305.

(62) الأصفهاني، الأغاني، جـ 12، ص 228.

(63) الطبري، تاريخ، ق 2، ص 1885 فما بعد (الطبعة الأوروبية).

(64) المصدر السابق، جـ 7، ص 308.

(65) المصدر نفسه.

(66) المصدر نفسه.

(67) دنيت، مروان بن محمد، بغداد، دار واسط، 1985، ص 65 (مترجم).

(68) الطبري، جـ 7، ص 372.

(69) مقاتل الطالبين، ص 115. - الأغاني، جـ 12، ص 229.

(70) يقول ولها وزن عن ابن معاوية "كان ابن معاوية رجلاً شهماً ذو أهمية وهيبة إلا أن الظروف هي التي رفعته إلى القمة ولم يكن هو نفسه يحلم بأن شيئاً من هذا سيحدث في يوم من الأيام..." راجع: دنيت، مروان بن محمد، ص 73 نقلاً عن والهـا وزن الأصل الألماني.

(71) راجع دينت مروان بن محمد (مترجم) ص 72 فما بعد.

(72) مقاتل الطالبين، ص 115.

(73) ابن الأثير، جـ 5، ص 150. – كذلك راجع الطبري، جـ 7، ص 372 – 373.

(74) الأغاني، جـ 12، ص 230. – مقاتل الطالبين، ص 115.

(75) ابن الأثير، جـ 5، ص 150 فما بعد.

(76) الأغاني، جـ 12، ص 230. – خليفة بن خياط، تاريخ، ص 413. – ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 151.

(77) الأغاني، جـ 12، ص 230.

(78) البلاذري، أنساب الإشراف (مخطوط) ورقة 304.

(79) شعبان، الثورة العباسية، ص 237. - Watt, Shi'sm under the Umayyads, p. 170

(80) راجع: Cahen, Points du Vue.. p. Moscati, Per Uma Storia,p. 259f 4,18 ولها وزن، الخوارج والشيعة، (مترجم)، ص 264.

(81) الأصفهاني، الأغاني، جـ 12، ص 222 فما بعد، جـ 13، ص 279، جـ 12، ص 231. الطبري، تاريخ، جـ 7، ص 274. – ابن الأثير، الكامل، جـ 5، ص 149. – ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 68. ابن كثير، البداية والنهاية، جـ 10، ص 33.

(82) الشهرستاني، الملل والنحل، ص 290. – الأشعري، مقالات الإسلاميين، ص 67. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 235. – الاسفرايني، التبصير بالدين، ص 110. – النوبختي، فرق الشيعة، ص 55.

(83) النوبختي، المصدر السابق، ص 29. – القمي، المقالات والفرق، ص 39. الشهرستاني، الملل والنحل، جـ 1، ص 151.

(84) راجع المصادر السابقة في 46 و47 و48.

(85) راجع محمد جابر الحيني، حركات الشيعة المتطرفين، ص 78 – 79.

(86) القمي، ص 43. - البغدادي، ص 246. - النوبختي، ص 31.

(87) الشهرستاني، ص 293.

(88) الرازي، كتاب الزينة، ص 298.

(89) راجع حاشية رقم 208.

(90) عبد الجبار المطلبي، الأديب المغامر، ص 206 فما بعد.

(91) ابن اسعد، طبقات، جـ 4 - 1، ص 29. - الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ص 55، 68 فما بعد. - ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص 69. - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 3، ص 267.

(92) راجع: E.I(2) مادة (مسلم بن عقيل) وخاصة المصادر في آخر المقالة. - دائرة المعارف الشيعية العامة، تحرير محمد حسين الأعلمي، بيروت، 1993.

(93) ولها وزن - الدولة العربية وسقوطها، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، ص 181 فما بعد.. دائرة المعارف الإسلامية مادة (المختار) كتبها ديلا فيدا.

(94) يختلف الرواة في نسبة الاسم فيرجعه بعضهم إلى أنه كان لقباً للمختار ويرجعه البعض الآخر إلى صاحب شرطته. راجع: (الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ 1، ص 17، ابن قتيبة، المعارف، ص 622).

(95) ترجع هذه التسمية إلى العصي والخشب الذي كان السلاح الوحيد بيد الموالي الذين تقرب إليهم المختار (انظر نوبختي، فرق الشيعة، ص 20 - 21).

(96) النوبختي - فرق الشيعة، ص 23 فما بعد. القمي، الفرق والمقالات، ص 21، 35 - 38، الأشعري، جـ 1، ص 19. الكشي، الرجال: ص 266.

(97) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 28.

(98) الأشعري، مقالات الإسلاميين، جـ 1، ص 23.

(99) النوبختي، نفس المصدر السابق، ص 27، الأشعري، المصدر السابق، جـ 1، ص 20.

(100) نوبختي، نفس المصدر، ص 28 – 29. القمي، المقالات والفرق، ص 38.

(101) أخبار العباس، ص 185. نوبختي، المصدر نفسه، ص 39 – 40. الأشعري، المصدر نفسه، ج 1، ص 21. البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 28. الشهرستاني، الملل والنحل، ص 15.

(102) نوبختي، المصدر نفسه، ص 30 وما بعدها. القمي، نفس المصدر، ص 33 – 34. الأشعري، نفس المصدر، ج 1، ص 23. البغدادي، ص 28. ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج 1، ص 34. والجدير بالذكر ان البغدادي يذكر ان أتباعه انقسموا الى قسمين "فمنهم من زعم انه كان نبياً ومنهم من زعم انه كان إلهاً".

(103) الأشعري، نفس المصدر، ج 1، ص 22. ابن حزم، نفس المصدر، ج 1، ص 37. شهرستاني، نفس المصدر، ص 112.

(104) النوبختي، ص 26. الأشعري، ص 22 – "فمن عرف الإمام فليصنع ما يشاء". الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف بمصر 1966، ج 7، ص 302.

(105) فان فلوتن، السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات، ص 92 فما بعد. برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص 78، دائرة المعارف الإسلامية الجديدة (العباسيون). موسكتي، وصية أبي هاشم 1952، ص 9 وما بعدها.

(106) ولها وزن، الدولة العربية وسقوطها (بالانكليزية) ص 503.

(107) دائرة المعارف الإسلامية (مادة أبو هاشم). دي خويه، أنساب الإشراف للبلاذري، في مجلة Z.D.M.G 1881، ص 394. إلا أن ادعاء دي خوييه بأن العباسيين هم الذين سموا أبا هاشم وادعوا أنه أوصى إليهم بقيادة حركته السرية لا يستند على مصادر تاريخية.

(108) الدوري، ضوء جديد على الدعوة العباسية، مجلة كلية الآداب والعلوم، العدد الثاني 1957، ص 68.

(109) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص 11.

(110) كاهين، وجهة نظر حول العباسية (باللغة الفرنسية)، 1966، ص 311.

(111) البلاذري، أنساب الإشراف، ص 687 – 687 ب عن الهيثم بن عدي.

(112) البلاذري، نفس المصدر السابق، أبو مسعود الكوفي عن عوانه.

(113) البلاذري، نفس المصدر، ص 686. المدائني. وانظر أيضاً ص 746 ب قالوا.

(114) اليعقوبي، التاريخ، نجف 1964، ج 3، ص 42. الطبري، تاريخ الرسل، طبعة ليدن، السلسلة الثالثة، ص 24.

(115) ابن سعد، الطبقات، ج 5، ص 241. ابن حبيب، أسماء المغتالين.. (نوادر المخطوطات)، تحقيق هارون 1954، ص 179 – 180).

(116) ابن قتيبة، المعارف، ص 111. الإمامة والسياسة (منسوب إليه)، ج 2، ص 207 – 209 عن الهيثم بن عدي.

(117) المسعودي، مروج الذهب، ج 6، ص 58 – 59.

(118) العيون والحدائق (لمؤلف المجهول)، ص 180.

(119) الجاحظ، فضل بني هاشم على بني عبد شمس (السندوبي)، ص 79.

(120) أخبار العباس، ص 174 – 84 ب.

(121) أخبار العباس، ص 84 ب – 185 أ.

(122) المصدر السابق، ص 85 أ – 87 ب عن إبراهيم بن سلمه. والجدير بالذكر ان هناك رواية تذكر الوصية وكأنها حدثت قبل وفاة أبي هاشم بكثير حينما كان محمد يدرس على يديه حيث أوصى أبو هاشم أتباعه بإتباع محمد بعد وفاته (ص 78).

(123) أخبار العباس، 88.

(124) المصدر السابق.

(125) الدينوري، الأخبار الطوال، ص 467 – 468. الطبري، المصدر نفسه السابق، السلسلة الثالثة، ص 29 – 30. المسعودي، مروج الذهب، ج 6، ص 97 – 99. نبذة من كتاب التاريخ، للمؤلف المجهول، ص 292 أ .

(126) الطبري، تاريخ الرسل، السلسلة الثالثة، ص 32 – 33، المبـــرد، الكامــــل، ج 4، ص 110.

(127) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 170.

(128) الطبري، المصدر السابق، السلسلة الثالثة، ص 219. المبرد، الكامــل، ج 4، ص 118.

(129) ابن الحائك الهمداني، الإكليل، تحقيق انــستاس الكرمـــي، بغـــداد، 1931، ص 71 – 72. نشوان الحميري، شمس العلوم، ليدن 1916، ص 103. ان لقب المنصور يظهـــر في الروايات الأسطورية منها والتاريخية بمظهر المهدي أو المنقذ المنتظر فهنـــاك "منصور حمير" و "منصور اليمن" وقد نادى أتباع المختار زعـــيمهم قـــائلين "يـــا منصور أمت". وكان أتباع زيد يقولون له بأنهم يأملون انه "المنصور" وان الوقـــت وقت زوال الأمويين. وكان من جملة شعارات الدعوة العباسية "يا محمد يا منصور" إشارة إلى محمد بن علي العباسي. (الطبري، السلسلة الثانية، ص 1676، 1972، أخبار العباس، ص 110 أ فما بعد. ولها وزن الدولة العربية، ص 234، 245).

(130) الأصفهاني، الأغاني، ج 12، ص 85 ".. ان النبي ﷺ قال (المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا يملأها عدلاً كما ملئت جوراً".

(131) النجاشي، الرجال، ص 208.

(132) البلاذري، أنساب الإشراف، ص 700 أ. الأصفهاني مقاتل الطالبين، ص 177 – 178. نبذة من التاريخ (للمؤلف المجهول) ص 239 أ، 240 أ. أخبار العبـــاس، ص 5 أ فما بعد. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 7، ص 226 – 241. الأصـــفهاني، حليـــة الأولياء، ج 1، ص 315 – 318. ابن عبد ربه، العقد، ج 4، ص 13. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 10، ص 48. العالمي، أعيان الـــشيعة، ج 2، ص 133، ج 4، ص 554، ج 6، ص 24، 279.

(133) العيون والحدائق (المؤلف المجهول)، ص 169 فما بعد.

(134) النوبختي، ص 42 – 43.

(135) المسعودي، مروج الذهب، ج 6، ص 54 – 55. الأشعري، ج 1، ص 21.

(136) الأشعري، ج 1، ص 21.

(137) الشهرستاني، الملل والنحل، ص 112.

(138) ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ص 90 – 92.

(139) الطبري، تاريخ، السلسلة الثالثة، ص 211.

(140) ابن هشام، سيرة، ج 2، ص 1008، البلاذري، أنساب الإشراف، ص 724، ج 4، ص 3. أخبار العباس، ص 9 أ، 12 أ، 36 ب.

(141) البلاذري، أنساب الإشراف، ج 4، ص 76، ج 11، ص 226، 254. ابن سعد، طبقات، ج 5، ص 229. أخبار العباس، 64 ب، 65 ب، 96 أ.

(142) البلاذري، المصدر السابق، ص 748 – 750. أخبار العباس، ص 73، 78.

(143) أخبار العباس، ص 110، 115. نبذة من كتاب التاريخ، ص 255 أ. الأصفهاني، الأغاني، ج 11، ص 74. انظر كذلك الجاحظ البيان، ج 2، ص 85.

(144) حول المصادر والمراجع انظر (مادة إبراهيم الإمام) في موسوعة الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، الجزء الأول، الأردن.

الفصل الثالث

بنو هاشم في مطالع العصر العباسي

132هـ/ 749م – 247هـ/ 861م

العباسيون وتسنم الخلافة والدولة

الحسنيون والزيدية... المعارضة المسلحة

الحسينيون... المعارضة السلمية

قال الشاعر سديف بن ميمون مادحاً الحكم العباسي:

أصبحَ الملـك ثابـت الآّسـاس بالبهاليـل مـن بنـي العبـاس
بالـصدور المقـدمّين قـديماً والـرؤوس القمـاقم الـرؤاس

وقال أبو عطاء الندي معبراً عن موقف العلويين من الحكم العباسي:

يا ليت جور بني مروان عـاد لنـا

يا ليت عـدل بني العباس في النـار

العباسيون خلفاء للدولة الجديدة

132 – 656هـ/ 749 – 1258 م

العباسيون نسبة إلى العباس من عبد المطلب عم الرسول محمد ﷺ[1] الذي أسلم علناً بعد فتح مكة سنة 8هـ/ 629م. وتشير روايات أخرى أن إسلامه كان قبل ذلك، إلا أنه أخفاه من أجل أن يساعد الرسول ﷺ لدى قريش ويكون عيناً له على خططها وتحركاتها. وتشير روايات أخرى أنه كان سفيراً بين الرسول ﷺ وأبي سفيان صخر بن حرب بن أمية أثناء مفاوضات فتح مكة مما سهل عملية الفتح دون إراقة الدماء.

أسس العباسيون كياناً سياسياً مركزياً ضم لفترة كل أجزاء العالم الإسلامي المعروف آنذاك، ودام لمدة زمنية طويلة تجاوزت الخمسة قرون (524 عاماً) من 132هـ/ 749م – 656هـ/ 1258م.

وقد حكم الدولة سبعة وثلاثون خليفة أولهم أبو العباس عبد الله بن محمد (السفاح) وآخرهم المستعصم بالله وبقيت الخلافة بالعراق، ثم انتقلت إلى مصر حيث حكم في مصر حوالي سبعة عشر خليفة عباسي في عهد السلطنة المملوكية كانت بيدهم السلطة الاسمية بينما للسلاطين المماليك السلطة الفعلية حتى سيطر العثمانيون على مصر سنة 923هـ/ 1517م وأعلنوا أن الخلافة انتقلت إليهم.

العراق مركز الخلافة العباسية[2]:

كان أول عمل جابه الخليفة الأول أبي العباس السفاح هو تنظيم المعركة ضد الخليفة الأموي مروان الذي تخندق بين دجلة والزاب الكبير. عين أبو العباس عمه عبد الله بن علي العباسي لقيادة الجيش، وكان الجيشان متقاربي العدد ولكنهما لم يكونا بنفس الانسجام والقوة المعنوية. فقد كان الجيش الأموي تعوزه القوة المعنوية

وتفتته العصبية القبلية وأنهكته الحروب الكثيرة ضد الخوارج والثوار. واستمرت المعركة عشرة أيام خسر مروان في نهايتها وانسحب باتجاه الموصل التي أغلقت أبوابها بوجهه فاضطر إلى التقهقر إلى بلاد الشام. وقد حاول مروان أن يستنجد بالقبائل الشامية وخاصة القيسية ولكنها لم تستجب له، وانقسمت دمشق على نفسها بين مؤيد ومعارض، فتركها يتبعه الخراسانية حتى قتل في بوصير إحدى قرى صعيد مصر في تموز 750م ذي الحجة 132هـ قائلاً قولته المشهورة:

"انفرجت عني قيس انفراج الرأس ما تبقى منهم أحد، وذلك إننا وضعنا الأمر في غير موضعه".

أما في الجزيرة الفراتية فقد فتحت الموصل أبوابها للجيش العباسي مستقبلة إياه بالتهليل. وأرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر لحصار واسط بالعراق حيث تحصن ابن هبيرة. واستطاع أبو جعفر أن يغري القبائل اليمانية المعتصمة داخل واسط قائلاً لهم "السلطان سلطانكم والدولة دولتكم". فانشقت والتحقت به ولذلك ثمن موقفها هذا قائلاً "يحق لنا أن نعرف لهم حق نصرهم لنا...". مما اضطر ابن هبيرة أن يستسلم ويطلب الأمان. على أن أبا جعفر قتله بعد أن أعطاه الأمان لأسباب سياسية. أما في البصرة فقد اعتصم مسلم بن قتيبة الباهلي ولم يسلم الإمارة لسفيان المهلبي إلا أن اعتصامه هذا لم يدم طويلاً حيث ترك البصرة إلى الحجاز لما علم بمقتل ابن هبيرة. وبهذا استطاع أنصار العباسيين أن يقضوا على فلول الأمويين في العراق.

يعد الخليفة أبو جعفر المنصور باني الدولة الجديدة ومؤسسها. يقول عنه ابن طباطبا "أن المنصور هو الذي أصل الدولة وضبط المملكة ورتب القواعد وأقام الناموس واخترع أشياء...". ويقول عنه يزيد بن هبيرة "ما رأيت رجلاً في حرب أو سلم أمكر وأنكر ولا أشد تيقظاً من المنصور..."، ويمكننا أن نصنف الأخطار التي واجهت الدولة على عهد المنصور إلى:

حركة أبو مسلم الخراساني:

لقد أصاب صاحب كتاب الفخري كبد الحقيقة حين صور العلاقة بين الخليفة وأبي مسلم فقال: "وكأن المخترع للدولة (أي أبي مسلم) يكون عنده من الدولة والتبسط ما تأنف منه نفوس الملوك (أي المنصور) فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا فيه".

فقد أصبح أبو مسلم أقوى شخصية سياسية في خراسان وكان تعيين الخليفة له والياً على خراسان بمثابة اعتراف بأمر واقع فعلاً. واستطاع أبو مسلم خلال فترة قصيرة أن يتخلص من منافسيه، فقتل شيبان بن سلمه الحروري وعلي بن جديع الكرماني شيخ الأزد. وفي الوقت الذي زار فيه أبو جعفر خراسان حين كان لا يزال أميراً، قتل أبو مسلم نقيب النقباء سليمان بن كثير الخزاعي دون أخذ موافقة أبي جعفر. كما أنه تخلص من دعاة عديدين آخرين، وهكذا توطدت سلطته في خراسان بعد قضائه على الطامحين في نيل ولاية خراسان. ولقد كان رأي أبي جعفر في أبي مسلم يتمثل في قوله لأخيه الخليفة "لست خليفة ولا أمرك بشيء أن تركت أبا مسلم ولم تقتله".

وحين أصبح المنصور خليفة أمهل أبا مسلم ولم يهمله، فكان اللقاء بالمدائن حيث قتله عثمان بن نهيك أثناء اجتماع الخليفة به. ولم يكن قتل أبي مسلم سوى نزاع علىْ النفوذ، فخليفة مثل المنصور لا يمكن أن يحتمل والياً قوياً نفوذ واسع مثل أبي مسلم.

حركة عبد الله بن علي العباسي:

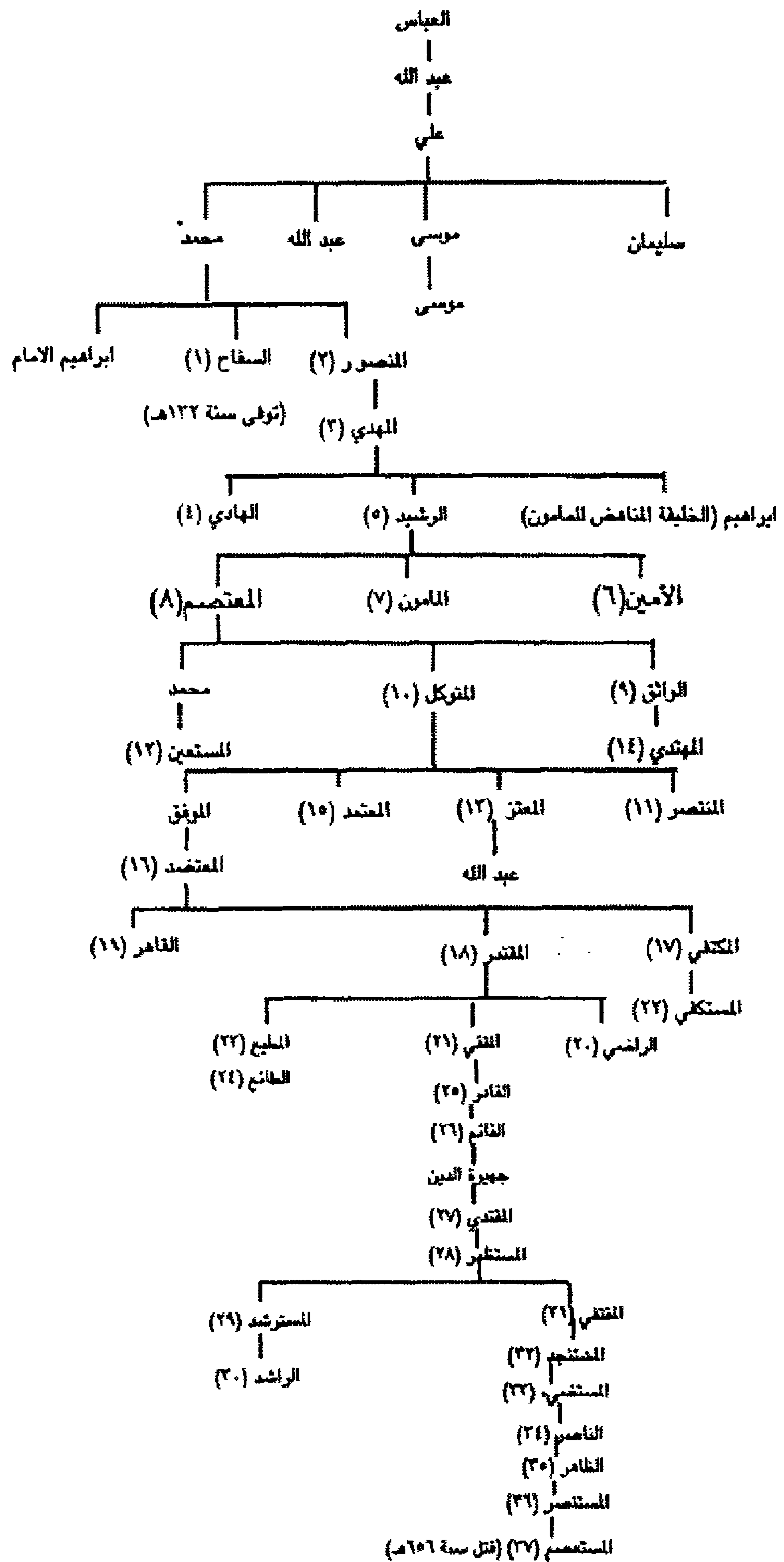
ثار عبد الله بن علي والي بلاد الشام ضد المنصور مدعياً أنه أحق بالخلافة، وأن أبا العباس كان قد وعده بالخلافة من بعده. فأرسل المنصور أبا مسلم مع عدد من قواد العرب من أهل خراسان لحرب عبد الله. والواقع فإن إرسال أبي مسلم إلى

الشام كان كسباً للخليفة ذلك لأنه استطاع أن يثنيه عن السفر إلى خراسان مقر ولايته ومصدر قوته. ثم أن أيهما ربح المعركة أبا مسلم أم عبد الله فهو كسب للخليفة لأنه تخلص من أحد أعدائه. وكانت نتيجة المعركة انتصار أبي مسلم على عبد الله الذي كان عليه أن يدرك عدم جدوى الاعتماد على أهل الشام في نزاعه مع الخليفة، ذلك لأن أهل الشام لا يمكن أن يخلصوا لشخص عباسي مثله. وقد هرب عبد الله واختفى عند أخيه سليمان بن علي حتى أعطاه الخليفة الأمان الذي كتبه له عبد الله بن المقفع، وحين جاء عبد الله إلى البلاط سجنه المنصور ثم مات في ظروف غامضة سنة 147هـ/ 765م.

حركة العلويين:

أما العلويين فنظروا إلى العباسيين كمغتصبين للسلطة، وهكذا أصبح النزاع بين الهاشميين أنفسهم. ولم يكن العلويين متفقين على زعامة واحدة تنظم كفاحهم. ثم إن كثرة الزعامات العلوية يعني بالتالي أن ولاء الشيعة العلوية في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح متبلور. بل إن أحداث القرنين الأول والثاني للهجرة تشير بأن هؤلاء الأتباع كانوا يغيرون ولاءهم من فرع لآخر بكل سهولة وحسب الظروف. وقد برز من بين العلويين في هذه الفترة عبد الله المحض وولديه محمد النفس الزكية وإبراهيم، وقد أشاع عبد الله المحض أن ابنه محمد هو (المهدي المنتظر) وكان هذا الإدعاء خطوة مهمة في تصاعد الثورة العلوية لأنها جذبت إلى محمد إعداد متزايدة من الأتباع من بينهم المتطرفين أتباع المغيرة البجلي وبيان النهدي. وكذلك انضم إليه المتذمرون والضعفاء الذين ربما لم يكن لديهم أي ولاء للعلويين أو تفهم للقضية العلوية ولكنهم أملوا بأن "المهدي الجديد" سينقذهم من وضعهم السيء ويوفر لهم حياة أفضل. وسنتكلم عن حركة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم في محور قادم.

شجرة نسب الخلفاء العباسيين ٣٧ خليفة حكموا (٥٢٤ سنة)



ثم جاء المهدي بعد المنصور فتنفس الناس الصعداء بعد فترة المنصور وشدته، وقد "افتتح عهده بالنظر في المظالم والكف عن القتل وأمن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في العطاء"، إلا انه لم يكن يمتاز بالكفاءة والدهاء اللذين تميز بهما والده. وجاء بعده ابناه الهادي والرشيد.

إن القرار السياسي الذي اتخذه الرشيد بتقسيمه الدولة بين أبنائه الثلاثة ينم عن قصر نظر في السياسة، ولعل هذا الموقف يجعله مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون. لقد علق أحدهم على قرار الرشيد حول ولاية العهد بقوله "لقد ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة على الرعية". وقد لعب الرجال الذين كانوا مع الأمين والمأمون دوراً في تعميق الخلاف لمصالح شخصية وسياسية. فكان حول الأمين الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان والسندي بن شاهك وبكر بن المعتز. وكان حول المأمون الفضل بن سهل والحسن بن سهل وطاهر بن الحسين. وكان دور الفضل بن سهل كبيراً في إعطاء الثقة للمأمون بعدم الاستسلام لمطالب الأمين بالتنازل عن بعض الأقاليم الواقعة تحت نفوذه أولاً ثم بالتنازل عن ولاية العهد ثانياً. وقد تبودلت الرسائل بينهما دون جدوى فكانت الحرب بين سنة 195هـ/ 812م، 198هـ/ 814م. وكانت قوة الأمين تتركز في العراق وبلاد الشام، أما قوة المأمون فانحصرت في خراسان وبعض الأقاليم الفارسية. وقد حاول بعض المؤرخين أن يفسروا الحرب تفسيراً عنصرياً أي أنها نزاع بين الفرس والعرب، انتهى بانتصار الفرس واختلال التوازن مرة ثانية بين العنصرين، معتمدين على أقوال الفضل بن سهل مثل قوله للمأمون "أنت بين أخوالك وشيعك"، إلا أن المتمعن في الحرب يرى بأنها استمرار للكفاح الاجتماعي الذي ميز الفترة السابقة وازداد تعقيداً بدخول نزاعات إقليمية (عراقية – شامية – خراسانية) وليست عنصرية. وقد حاول الأمين أن يعتمد على أهل الشام كذلك إلا أنه فشل في مسعاه وكان عليه أن يستفيد من تجربة عبد الله بن علي العباسي التي سبقته فقد تخوف أهل الشام وأدركوا إنهم أوقعوا أنفسهم في ورطة ليس لهم فيها

مصلحة فقال احدهم يخطب في أخوانه ويحثهم على العودة إلى بلاد الشام: "إنكم بعدتم عن بلادكم وخرجتم من أقاليمكم ترجون الكثرة بعد القلة والعز بعد المذلة... النفير قبل أن ينقطع السبيل".

وبعد مقتل الأمين بويع للمأمون بالخلافة سنة 198هـ/ 814م. وقد حاول المأمون أن يستقر في مرو عاصمة خراسان معتمداً على العون والمساندة من الأقاليم الشرقية ولكنه واجه تحدياً عنيفاً من العراق المركز التقليدي للخلافة العباسية وخاصة من أهل بغداد.

أما بالنسبة لسياسة المأمون الاعتزالية فالمعروف انه بعد تجارب عديدة مع آراء مذهبية مختلفة قرر العباسيون تبني عقيدة أهل الحديث المعروفين فيما بعد بأهل السنة والجماعة، ولكن الخليفة المأمون قرر اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة ولكن المعتزلة الذين نادوا بحرية الرأي والإرادة وأفضلية العقل تعسفوا حين وصلوا إلى كرسي الحكم واضطهدوا مخالفيهم في الرأي فكانت "المحنة" التي قاسى منها احمد بن حنبل وأتباعه الأمرين، وكانت لها ردود فعل مشابهة على عهد المتوكل فيما بعد الذي قضى على نفوذ المعتزلة السياسي.

نهاية دور القوة:

لقد أدت إجراءات المهدي حول ولاية العهد ثم أخطاء الرشيد وما وقع في أعقابها من حرب أهلية إلى ازدياد نفوذ القادة العسكريين والمتنفذين في البلاط في أمر البيعة وولاية العهد. وقد امتنع بعض القادة عن البيعة للمعتصم وحاولوا البيعة للعباس بن المأمون ولكن المعتصم بطبيعته العسكرية المجبولة على الشجاعة بادر إلى السيطرة على زمام الأمور مستنداً على الموالين له وعلى شرعية خلافته بعد أخيه المأمون.

إن أهم ظاهرة في عهد المعتصم (218هـ/ 833م، 227هـ/ 842م) هي كثرة استخدام "الأتراك" وتزايد عددهم في الجيش والبلاط، رغم أن الأتراك وجدوا في البلاط قبل عهد المعتصم بكثير حيث نجدهم منذ زمن الخليفة المنصور. بل يذهب بعض الباحثين إلى أكثر من ذلك فيدعون بأن الأتراك في بلاد ما وراء النهر وتركستان ساعدوا العباسيين في القضاء على الأمويين وتأسيس الدولة الجديدة. ولا شك فإن هذه النظرة الأخيرة مبالغ بها. ومهما يكن من أمر فحين جاء المعتصم رأى السبيل ممهداً أمامه وبصفته رجل عسكري فقد كان "اعرف الناس بهم حين جمعهم واصطنعهم" على حد قول الجاحظ الذي يصف هؤلاء الأتراك بأنهم "بدو العجم". فأصبح الأتراك رجال العباسيين وجندهم لفضائلهم على سائر الجند. والظاهر أن نفوذ الأتراك بدء بالقوة في عهد المعتصم نفسه. ويظهر ذلك من رواية الطبري التي يشكو فيها المعتصم من عدم إخلاص الترك وتناقص ولائهم.

ولكن اصطناع الخليفة للأتراك أدى إلى سخط "أهل بغداد" وجند بغداد عليه. فقد ضاقت المدينة بمن جاء إليها من الأتراك البدو الجفاء الذين لم يعرفوا كيف يتصرفوا تجاه البغداديين، كما شعر الجند من الفرق الأخرى وخاصة الحربية (وهو من أهل خراسان) بالحسد تجاه الأتراك المقربين إلى الخليفة والمتمتعين بامتيازات كثيرة. أن خوف المعتصم من الفتنة وعدم اطمئنانه إلى ولاء العرب وغيرهم من الجند القدماء جعله يقرر البحث عن موضع جديد ليؤسس فيه معسكراً ينتقل إليه، فبنى سنة 220هـ/ 835م مدينة (سر من رأى).

توفي المعتصم سنة 227هـ/ 841م فخلفه ولي عهده الواثق الذي اتصفت فترته باستمرار نفوذ المعتزلة وازدياد نفوذ القادة العسكرية الأتراك مثل اشناس الذي لقب (بالسلطان).

وقد حذا الواثق حذو أبيه وعمه في سياسة الاعتزال وتشدد في القول بخلق القرآن، وقد أدى ذلك إلى تمرد جماعة من أهل بغداد ضده سنة 231هـ يعرفون

بأهل الحديث بزعامة أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي، ولكن السلطة استطاعت أن تجهض الحركة، وألقي القبض على زعيمها الذي اتهم بنشر آراء مخالفة لعقيدة الدولة وحوكم محاكمة رسمية حضرها قاضي القضاة المعتزلي احمد بن أبي دؤاد، وحكم عليه بالموت حيث الخليفة أمر بقتله وصلبه في بغداد. ولكن سياسة إسكات المخالفين في الرأي والعقيدة كانت ذات مردودات سلبية ذلك أنها اذكت المعارضة وشدت من عزم القوى المضادة فكان من السهل على الخليفة الجديد المتوكل أن ينهي سلطة المعتزلة السياسية فيما بعد.

ولم يكن حصول المتوكل على الخلافة 232هـ/ 847م وليد خطة مدبرة بل نتيجة الظروف التي أعقبت موت الواثق الذي لم يعهد لأحد من بعده. فقد اضطرب قادة الجيش وعقدوا اجتماعاً لاختيار الخليفة الجديد وقد اقترح ابن الزيات أن يكون محمد بن الواثق خليفة ولكن وصيف رفض الاقتراح باعتبار أن محمداً صغيراً ولا تجوز الصلاة وراءه. ثم نظر المجتمعون في أسماء مقترحة أخرى حتى تقرر اختيار المتوكل حيث لعب القادة العسكريين وعلى رأسهم وصيف وايتاخ دوراً بارزاً في ذلك وأيدهم أحمد أبي دؤاد بإسراعه بمبايعة المتوكل الأمر الذي جعل الوزير ابن الزيات يعترف بالأمر الواقع.

إن أهمية مجيء المتوكل الخلافة تكمن في أن القادة العسكريين استطاعوا ربما لأول مرة في التاريخ العباسي أن يجعلوا كلمتهم هي النافذة في أمر سياسي مهم ألا وهو اختيار الخليفة.

وعلى ذلك فقد جاء المتوكل إلى الحكم (232 – 247هـ) بترشيح ومساندة القادة الأتراك في الجيش، وكنتيجة للمنافسة الحادة بين القادة الترك وبين (البيروقراطية) المدنية التي يرأسها الوزير ابن الزيات. وقد سقط ابن الزيات بعد حوالي الشهر من تسلم الخليفة الجديد الحكم وبدأت فترة الاضطراب السياسي، أدرك الخليفة المتوكل خلالها خطر تدخل القادة الأتراك في السياسة وحاول أن ينهج

نهجاً جديداً ويربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلافة من الأزمة ولكنه فشل في مسعاه وقتل.

تعد الأزمة بين الخليفة والقادة العسكرية سبباً في اغتيال المتوكل. لقد بدأت الأزمة بسقوط ايتاخ وظهور "البيروقراطية" المدنية على الصعيد السياسي تحت زعامة الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان. ثم تطورت الأحداث التي صعدت الأزمة حتى انفجرت حين بدأ المتوكل يتخذ إجراءات متتالية لاستئصال الترك واستبعادهم فصادر ضياع وصيف. وانتهز الأتراك الفجوة بين الخليفة وابنه المنتصر فتحالفوا مع المنتصر ووضعوا نهاية مؤلمة للخليفة باغتياله.

بغداد العاصمة الجديدة[4]:

باعتلاء العباسيين السلطة انتقل مركز الخلافة إلي العراق من بلاد الشام ولم يكن هذا الإجراء اعتباطياً، يقول الأزدي: أن أبا جعفر المنصور أشار على أخيه أبي العباس وكانا في طريقهما من الحميمة إلى الكوفة قبل قيام الدولة العباسية بضرورة تأسيس عاصمة جديدة حوالي مدينة الرقة لو قدر العباسيين المجيء إلى الحكم، لتكون هذه المدينة مقراً لشيعتهم. وهذا يدل على أن العباسيين كانوا مقتنعين بأن العراق هو الإقليم المناسب ليكون مكاناً لإيوائهم مع أنصارهم وجهازهم الإداري، خاصة وأن العراق هو مصدر القبائل العربية التي هاجرت إلى خراسان وثارت على الأمويين وأنهت خلافتهم. وأكثر من ذلك فإن هذا التحول إلى العراق كان ضرورة سياسية واقتصادية لأسباب عديدة.

إن استمرار تحول الخليفة الأول أبي العباس من موقع إلى آخر خلال مدّة حكمه ليدل دلالة بينة على قلة الشعور بالأمان. ومع أنه بويع بالخلافة في الكوفة ولكنه لم يعتبرها مقراً دائمياً. فاتخذ أول الأمر معسكر أبي سلمه الخلال في حمام أعين في أطراف الكوفة مقراً له وللجند الخراسانية ثم أسس عاصمة جديدة في مشارف الكوفة على نفس الموقع الذي كان يزيد بن عمر بن هبيرة قد عزم على

بناء مدينة له، ولكن مروان الثاني أمره بترك المشروع، وقد سمى أبو العباس المدينة الجديدة بـ (الهاشمية).

وبعد فترة من الوقت انتقل أبو العباس إلى الأنبار التي كان يسكنها فئة من المسيحيين حيث تركها العرب منذ السنوات الأولى للفتح الإسلامي لكثرة ذبابها، وبنى مدينة سماها (الهاشمية) أيضاً بعد أن اقتنى مساحة واسعة من الأراضي التي عوّض مالكيها.

ولما أصبح المنصور خليفة سنة 136هـ عاد فاستقر في هاشمية الكوفة فترة من الزمن مضيفاً إليها بنايات جديدة، ولعل استقرار الخليفة المنصور كان في موقع مدينة ابن هبيرة القديمة أو في موقع مجاور لها.

ورغم أن المنصور بنى له مدينة أخرى في ظاهر الكوفة سميت (الرصافة) فقد أمضى معظم وقته في هاشمية الكوفة مراقبا شيعة العلويين في هذه المدينة.

على أن تمرد الراوندية وهم شيعة العباسيين في الهاشمية 141هـ/ 758م جعل العباسيين أكثر تصميماً على هجر الكوفة، ذلك لأننا إذا وضعنا أنفسنا موضع الخليفة العباسي فننا ندرك المصير الذي كان ينتظر العباسيين إذا استطاع شيعة العلويين أن يكسبوا إلى جانبهم الراوندية ثم إن العباسيين أرادوا أن يقطعوا كل صلة بالعهد الأموي ومظاهره ولذلك لم يفكروا في جعل واسط حاضرة الأمويين في العراق أو مدينة ابن هبيرة مقراً لهم.

على أن أول رحلة قام بها المنصور بقصد البحث عن موقع لبناء عاصمته الجديدة كان سنة 141هـ. وفي هذا الوقت كان المنصور مهدداً من قبل العلويين في الحجاز، وكانت بلاد الشام والجزيرة الفراتيه لا تزالان تعجان بالحركات الموالية للأمويين والخوارج.

أما بلاد فارس فكانت في حالة من الاضطراب بسبب سلسلة من الحركات السياسية الدينية زادت تعقيداً بعد مقتل أبي مسلم. كل ذلك كان داعياً إلى الإسراع في إيجاد عاصمة جديدة ومشيراً إلى موقع بغداد كمحل مناسب لعاصمة الخلافة. وعلى حد قول ابن الجوزي فإن موقع بغداد حصين يحميه نهر دجلة من العجم ونهر الفرات من العرب. فالنهران وما يتفرع منهما من جداول وقنوات زادت من خصوبة الأرض التي تجهز السكان بالغذاء، واستخدمت في نفس الوقت كوسائل دفاعية عن المدينة، وكانت المواصلات النهرية سهلة ومتيسرة ذلك لأن كلا النهرين صالح للملاحة النهرية.

وإذا ما استبقنا الأحداث فإننا نستطيع القول بأن الأسباب الدفاعية والإستراتيجية التي دعت المنصور إلى بناء الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة سنة 151هـ/ 768م والرافقة على التخوم السورية سنة 155هـ/ 771 – 772م كانت ضرورية وملزمة.

وقد تمركزت قوات خراسانية في كلا المدينتين تحت إشراف ولي العهد المهدي، ويظهر بأن الدافع الرئيسي لبناء الرصافة والرافقة كان الرغبة في تأسيس خط دفاعي عن العاصمة. فكانت الرصافة قلعة دفاعية ضد الإيرانيين، كما وأن قربها كان يعطي الخليفة القدرة على استخدام القوات الموجودة في الرصافة لضرب أي تمرد بين جنده في داخل المدينة المدورة. في الوقت الذي كان واجب الرافقة هو مراقبة حركات السوريين أشياع الأمويين المخلصين.

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الإجراءات التي اتخذها المنصور لبناء أسوار وحفر خنادق حول البصرة والكوفة فإن يمكننا القول بأن الخليفة لم يحصن المدينة المدورة فقط بل اهتم بالمنطقة الواقعة حواليها من جميع الاتجاهات ببناء المدن والقلاع العسكرية وإعادة تحصين الأمصار القديمة كإستراتيجية دفاعية لا هجومية كما كانت في السابق. ولم يكن الخليفة وحده مدركاً الحاجة لعاصمة جديدة فلقد رأى

الخراسانية جند الدعوة العباسية في بغداد رمزاً للعهد العباسي الذي صنعوه بأيديهم وكانوا يعتبرون بغداد (خراسان العراق) وبهذا أصبحت بغداد موطنهم الجديد الذي ينتسبون إليه.

لقد حاول المؤرخون من قدماء ومحدثين أن يعطوا تفسيرات عديدة لتبرير اختيار الخليفة لموقع بغداد. ولقد لعبت دون شك الاعتبارات المناخية والاقتصادية والإستراتيجية دورها المساعد في هذا الاختيار، على أن الواجب الأول لمدينة السلام هو أن تكون معسكراً للجند ومركزاً إدارياً للموظفين. فالروايات التاريخية تظهر بوضوح بأن غرض المنصور الرئيسي كان إيجاد موقع مناسب لجنده. فقد كان المنصور بحاجة إلى موقع حصين يضمن له الأمان في تلك الفترة الحرجة وهي فترة التأسيس وتثبيت أركان الدولة الفتية. ولهذا السبب فقد بنى المنصور قصره وقصر أولاده الصغار والدواوين داخل أسوار المدينة المدورة التي كان يحرسها (4000) جندي من أهل خراسان بنسبة ألف جندي على كل باب من أبوابها الأربعة.

ومع مرور الوقت شعر الخليفة بأن الوقت قد حان لإبداء بعض المرونة فتساهل في سنة 156هـ حيث أمر ببناء (قصر الخلد) خارج أسوار المدينة المدورة على الضفة الغربية لدجلة.

إن أوامر المنصور بنقل الأسواق التي كانت داخل أسوار المدينة المدورة إلى خارجها لإشارة أخرى إلى إدراك الخليفة بضرورة الحيطة والحذر. وتشير بعض مصادرنا التاريخية والجغرافية إلى رواية غريبة مشكوك في صحتها مفادها أن السفير البيزنطي لدى المنصور الذي زار بغداد هو الذي أشار على الخليفة بنقل الأسواق إلى الخارج، ذلك لأنه من السهولة على الجواسيس أن يدخلوا أسوار المدينة إلى السوق على هيئة تجار، ولكننا نعتقد بأن سبب نقل السوق يعود إلى الاضطرابات ذات الصبغة الموالية للعلويين التي أثارها المحتسب أبو زكريا في

أسواق بغداد حيث اعتقل وصلب بعدئذ، وحينذاك قرر الخليفة إخراج أهل السوق خارج سور المدينة. كما وان الخليفة ربما كان مدفوعاً بالحذر من تواجد جواسيس بيزنطيين وغيرهم من أعداء الدولة داخل المدينة. ومهما يكن من أمر فإن الخليفة سمح بفتح حوانيت للبيع في شوارع المدينة وسككها وكذلك في الأرباض. وكانت هذه الحوانيت بطبيعة الحال صغيرة لأنها كانت محلية تخدم سكان شوارع معينة أو أحيائها ولكن السوق الكبير كان في الكرخ وهو سوق تجاري قديم طمست معالمه ثم انتعش ببناء مدينة بغداد في ضواحيه، وكان لكل حرفة ولكل تجارة مكانها الخاص بها في سوق الكرخ. وبنى الخليفة كذلك مسجداً خاصاً بالسوق حتى لا يضطر السكان إلى الدخول إلى المدينة المدورة في أيام الجمع ليؤدوا صلاة الجمعة.

تصميم المدينة وبناؤها:

لقد عالج الكثير من المؤرخين بناء بغداد وخططها، وسنحاول هنا أن نعرض بعض المظاهر الخاصة ببغداد (مدينة السلام). فلقد بنى العرب المسلمون أمصارهم ودور الهجرة الجديدة في البلاد المفتوحة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والجابية والقيروان. وكانت هذه الأمصار مدناً عسكرية بالدرجة الأولى، وهي المأوى الطبيعي للمقاتلة العرب المسلمين، ومحل سكنهم وعيالاتهم، ولذلك كانت عربية في صفتها، واستطاعت بحضارتها العربية الإسلامية – التي انتعشت فيها فيما بعد – أن تحتوي التيار الحضاري الذي وجده المسلمون في البلاد المفتوحة. وبالرغم من أنهم تأثروا به دون شك فقد صبغوه بصبغة إسلامية وطوروه ضمن هذا الإطار.

ولقد شهد العهد الأموي تطوراً جديداً في بناء المدن الإسلامية، فكانت الرملة مثلاً عاصمة إدارية بينما كانت واسط قلعة عسكرية للجند السوري في العراق، كما أنشئت مدن أخرى للنزهة والراحة مثل الرصافة والرملة وقصير عمرة.

أما في العهد العباسي فإن السلطة العباسية كانت مرتبطة ارتباطاً كبيراً بالجيش والموظفين، ولهذا فإن فكرة إنشاء بغداد ثم سامراء من بعدها كانت تهدف إلى أن تكون المدينة الجديدة عاصمة تضم دواوين الموظفين ومعسكراً يضم الجند.

إن بغداد القلعة الحربية في عهدها الأول شملت قصر الخليفة ودواوين الحكومة المركزية داخل الأسوار، ووزعت الأرباض والقطائع على الكتل والجماعات والشخصيات المختلفة التي ضمت الكثير من أنصار الدعوة بالإضافة إلى جماعات أخرى كالحجازيين مثلاً. ولذلك فقد سكن بغداد وحواليها عناصر بشرية ذات ثقافات مختلفة، ولكن المنصور استطاع أن يسيطر على هذه الكتل وذلك لتمسكه بالعروبة والإسلام، وتشجيعه النزعة العربية الإسلامية وباعتماده على أنصار الدعوة (أهل خراسان) الذين كانت تقول عنهم إحدى الروايات التاريخية "لم تتقسمهم الأهواء والبدع".

إن هذا التنوع السكاني والاختلاف بين ثقافات هؤلاء السكان أعطى بغداد صبغتها التي يمكن أن نطلق عليها عالمية (متروبوليس) ولكن هذه الحضارات ما لبثت بمرور الزمن أن تطورت إلى حضارة متناسقة، ازدهرت بفضل الثراء الذي انصب بغداد لكونها مركز الدولة الجديدة حيث تصل إليها واردات الضرائب التي تجبى من الأقاليم المختلفة. وكذلك بفضل الأمن والاستقرار النسبي.

والملاحظ أن المنصور في بنائه بغداد كان مدفوعاً بضرورة عملية أكثر من رغبة ارستقراطية. وهو لم يعط المدينة اسماً فخماً وإنما سماها رسمياً (مدينة السلام). تفاؤلاً بما ورد في القرآن الكريم عن الجنة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وهناك تفاسير أخرى ولكن التفسير الذي ذكرناه هو الراجح حيث يؤكده ان القصر الذي بناه المنصور بعد ذلك هو (قصر الخلد) وهي كلمة استعملت في القرآن كذلك، على أن هذه التسمية بقيت رسمية واستمر الناس يسمون المدينة بأسماء مختلفة منها بغداد وبغدان والمنصورية والزوراء.

وتظهر صفة المنصور من حيث كونه خليفة عملياً راعى الاقتصاد في النفقات قدر المستطاع فلم يحفل كثيراً – كما في المدن الرومانية والإغريقية – بالحدائق العامة والتماثيل وساحات السباق. فلقد كانت نفقات الجند باهظة، وكان على الخليفة أن يقتر في الأمور الأخرى. وأكثر من ذلك فإن الخليفة لم يشعر بأن من واجبات الحكومة إنشاء الأبنية العامة ما عدا القنوات الحيوية التي أنشئت بعد فترة ليس بالقصيرة من بناء المدينة. حتى الجوامع الرسمية في بغداد كانت أربعة وهي قليلة. ولذلك نرى أن المنشآت المدنية التي تخدم الناس كانت قليلة أو شخصية يقوم بها المقتدرون باعتبارها عملاً دينياً. فكان هؤلاء يبنون الحمامات والمساجد التي تقوم بخدمات كثيرة، فهي محل للتدريس ومأوى لمن لا نزل له حيث يجد فيها طعاماً، وفيها كذلك حمامات ومغاسل وفيها يقيل الناس ويرتاحون، وفيها تجري عقود الزواج ومجالس العزاء على أن عدم الاهتمام بالبهرجة والزخرفة والتجميل كان من التقاليد العربية الموروثة حيث لم يهتم العرب إلا بالجمال الصوتي من شعر ونثر.

ولم يضع المنصور أسس البناء إلا سنة 145هـ/ 762م حينما اجتمع لديه عدد كاف من المهندسين والعمال، ومقدار هائل من المادة البنائية. وكان بناؤها على الضفة اليمنى من دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى نهر الصراة ومجرى دجلة شمالاً. وكانت المنطقة قبل بنائها مزرعة للبغداديين تسى المباركة.

وقد توقف البناء بسبب حركة إبراهيم العلوي في البصرة حيث انشغل المنصور بالثورة وترك مولاه سلام يحرس مادة البناء، ويروى أن سلام لما سمع

باقتراب إبراهيم من الكوفة حرق معظم المادة البنائية لئلا تقع في يد إبراهيم. ولذلك تأخر إكمال البناء إلى سنة 149هـ.

ولما كان العمال والبنائين يحتاجون إلى أماكن لسكناهم فإن المناطق المحيطة ببغداد تطورت قبل تطور المدينة المدورة نفسها، وهكذا فإن تطور بغداد يختلف عن تطور الأمصار حيث تطورت بغداد من الخارج نحو الداخل وليس العكس أي Concentric بمفهوم الهندسة المعمارية للمدن.

ورغم ادعاء اليعقوبي بأن بغداد هي أول مدينة خططت دائرياً، فإن المؤرخين وعلماء الآثار ذكروا عدداً من المدن ذات الشكل الدائري قبل بغداد، وسواء أكان أبو جعفر المنصور قد تأثر بإحدى هذه المدن أم لم يتأثر فإن التصميم الدائري لبغداد ذو مغزى عسكري استراتيجي حيث يسهل الدفاع عن الموقع من كافة الجهات إذا كان دائرياً ذلك لأن أية نقطة منه تبعد عن المركز بعداً متساوياً.

ويذكر الطبري المبالغ الكاملة التي صرفها المنصور لبناء المدينة وهذه المبالغ إضافة إلى رواتب الجند والموظفين والإداريين لتسلط أضواءً على الثروة الكبيرة لدى العباسيين في عهدهم الذهبي.

ولكننا نشير إلى الرحبة المركزية ففيها (قصر باب الذهب) ذو القبة الخضراء وهو المقر الرسمي للخليفة المنصور وللخلفاء من بعده. وإلى جانب القصر المسجد الجامع ثم هناك دار الحرس، وهناك سقيفة لصاحب الشرطة وأخرى لصاحب الحرس. ولذلك لم يكن حول قصر باب الذهب بناء، وكانت منازل الأمراء الصغار من أولاد الخليفة تدور حول الرحبة وكذلك الدواوين. فقد كان لا بد من إنشاء مؤسسات لإدارة المدينة، ويذكر اليعقوبي الدواوين التالية في داخل المدينة:

ديوان الخراج، ديوان الرسائل، ديوان الحوائج، ديوان النفقات، ديوان الخاتم، ديوان الجند، ديوان الحشم. وكان هناك بيت المال وخزانة السلاح والصدقات والقضاء والحرس والشرطة.

وكان لكل ديوان عدد من الموظفين لا نعرف عنهم إلا القليل، أما رواتبهم فكانت تتراوح بين 230 درهم شهرياً لكبار الكتاب، و30 درهم شهرياً لصغار الكتاب. أما القاضي فيذكر أن راتبه كان حوالي 360 دينار سنوياً. على أن لرؤساء الإدارة مخصصات وعلاوات خاصة. إضافة إلى رواتب الجند التي كانت ترهق الخزينة فكان المقاتل من أهل خراسان يأخذ ثمانين درهماً، ثم خفضت في عهد أبي العباس وعاد المنصور فزادها إلى ثمانين درهم حين أرسل الخراسانية لقمع الثورة العلوية بالحجاز. ويروي صاحب أخبار العباس بأن النقباء الخراسانيين وكبار القواد كانوا يستلمون راتباً شهرياً يتراوح بين 1000 – 2000 درهم ولمن دونهم من 100 – 1000 درهم.

بناء الرصافة:

لقد بنى المنصور أول الأمر قصراً خاصاً لابنه المهدي خارج المدينة المدورة وفي الضفة الغربية من دجلة جنوبي بغداد وقد عمرت هذه المنطقة وعرفت باسم (الشرقية) .

وفي سنة 148هـ/ 765م أنشأت المنصور معسكراً على الضفة الشرقية لدجلة سمي (معسكر المهدي) حيث كان تحت إشراف الأمير محمد المهدي، وقد توسع هذا المعسكر ببناء (الرصافة) سنة 151هـ/ 769م. التي شملت قصر المهدي والمسجد الجامع، وقد انتقل المهدي بحاشيته ومجلسه من الشرقية إلى الرصافة التي أصبحت مقره أما الأسباب التي دعت إلى بناء الرصافة فيمكن إرجاعها إلى ما يلي:

أولاً: تؤكد المصادر التاريخية إدراك الخليفة منذ البدء الإمكانيات الكبيرة الموجودة في الجانب الشرقي لدجلة وخاصة الإمكانيات الإستراتيجية منها، فيروي الطبري أن الخليفة وافق بعض صحابته على رأيهم بضرورة وضع جزء من الجيش في الجانب الشرقي حتى يكون بالإمكان الاستعانة به في حالة حدوث تمرد

أو ثورة في المدينة المدورة وكان العكس صحيحاً. كما أن الرصافة وما فيها من جند يمكن اعتبارها من الناحية العسكرية موقعاً مهماً عن بغداد من الناحية الشرقية.

ثانياً: ارتبط بناء الرصافة قوياً بجهود المنصور من أجل رفع شأن ابنه محمد المهدي تمهيداً لتعيينه والياً للعهد. فلقد استخدم مختلف الوسائل لتحقيق هذا الهدف حيث أرسل ابنه المهدي والياً على خراسان ولقمع الاضطرابات فيها وحين رجوعه استقبل الأبطال المنتصرين. وفي السنة نفسها أعلن المنصور عن تعيينه ولياً للعهد بعد أن أفلح بإقناع عيسى بن موسى ولي العهد الشرعي على التنازل عن ولاية العهد الأولى بالتهديد تارة والهبات والأموال تارة أخرى. وقد أوعز المنصور لأهل خراسان (أنصار الدعوة) وللهاشميين القيام بمساندة ترشيح المهدي كما وأمر عماله في الكوفة والبصرة والشام بإرسال الوفود إلى بغداد للمشاركة في الاحتفالات بإعلان ولاية العهد لابنه.

وهكذا فإن الاحتفال الرسمي الكبير بعودة المهدي من خراسان ثم الاحتفال الشعبي ببيعته ولياً للعهد، وتنازل عيسى عن ولاية العهد الأولى ومجيء الوفود من الإقليم ثم بناء الرصافة كلها حوادث متتالية مرتبطة تهدف إلى رفع منزلة المهدي رسمياً وشعبياً ولتأكيد خلافته بعد المنصور.

ثالثاً: رغبة المنصور في إسكان العدد المتزايد من الناس الذين بدأوا يفدون إلى عاصمة العباسيين، والعدد الكبير من الموظفين ورجال الإدارة والجيش حيث لم تعد ارباض المدينة المدورة وقطائعها تكفي لإيوائهم، ولذلك أنشأ المنصور الرصافة للمهدي واقطع الناس والموظفين حولها القطائع ولارباض، ولهذا نلاحظ أن كثيراً من رجال الإدارة والجيش اقطعوا في الجانب الشرقي لا في الجانب الغربي.

وكان جامع الرصافة الكبير أول بناء شيد فيها سنة 143هـ/ 760م وهو أوسع من جامع مدينة المنصور وأكثر جمالاً. ثم بنى قصر المهدي بجوار الجامع،

ووزعت القطائع حوله. وقد انتقل المهدي إلى الرصافة حين تولى الخلافة وأصبح المقر الرسمي للخليفة حيث أتمها سنة 159هـ/ 776م.

وفي شمالي الرصافة تقع مقبرة الخيزران (حيث سميت بهذا الاسم فيما بعد نسبة إلى زوج المهدي) وفيها دفن الإمام أبي حنيفة الذي ساعد في بناء المدينة المدورة، ومات حوالي سنة 150هـ/ 767م.

وتقع في شمالي الرصافة أيضاً محلة الشماسية نسبة إلى باب الشماسية، وفيها كانت قطائع البرامكة حيث بنى يحيى بن خالد (قصر الطين) وبنى جعفر والفضل قصرين يعرفان بهما. وبنى المهندس اليهودي سند بن علي المنجم كنيسة لليهود هناك كما كانت هناك أيضاً دار معز الدولة البويهي فيما بعد.

وقد عقد الخليفة المنصور جسراً فوق دجلة ليسهل الاتصال بين المدينة المدورة والرصافة، وهذا هو الجسر الكبير. ويذكر الخطيب بأن الخليفة أمر بإنشاء ثلاثة جسور إضافية أخرى منها واحد للنساء، وآخر لاستعمال الخليفة ورجال بلاط وحاشيته ليسهل انتقال الخليفة في حالات الاضطرار.

ومن محلات الجانب الشرقي الشهيرة (محلة باب الطاق) وهي جزء من قصر أسماء بنت المنصور، ثم صار زمن الرشيد مجلساً للشعراء. ومحلة (دار السلام) نسبة إلى الأسرى الروم الذين سكنوا هناك زمن الخليفة المهدي حيث شيدوا كنيسة وديراً لهم. ومحلة (سوق الثلاثاء) وهو موقع قديم يعود تاريخه إلى ما قبل تأسيس . الرصافة بكثير، وقد ازدهرت إلى جواره محلتا دينار الكبرى والصغرى على ضفاف دجلة وهما تنسبان إلى دينار بن عبد الله من موالي الرشيد ومن كبار قادة المأمون.

الحياة الفكرية في العصر العباسي: نظرة[5] عن الازدهار العلمي في القرن الرابع الهجري (عصر النهضة).

بدأت الحركة الفكرية العربية الإسلامية بصفة عامة مع بداية الإسلام، وحين وصل العباسيون إلى الحكم كانت قد اجتازت مرحلة التكوين إلى مرحلة التبلور حتى وصلت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي مرحلة النضج والازدهار. وقد ساعدت عوامل عديدة على هذه النهضة الفكرية: لعل من بينها تشجيع الدولة متمثلة بالخلفاء العباسيين وكبار الموظفين لبعض العلماء والأدباء لأسباب ذاتية أو لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ومناهضتها للمعارضة الدينية والسياسية، فكان ذلك بداية لحركة واسعة لرعاية أهل الفكر وتوفير أسباب العطاء العلمي لهم سواء بالكتابة أو من خلال مجالس العلم والأدب التي كانت تعقد في بلاط الخليفة أو قصور الوزراء والولاة وغيرهم. كما وأن ظهور المذاهب الفقهية والكلامية والفلسفية والتنافس بين الفرق الإسلامية. وتنوع التركيبة الاجتماعية والدينية من إسلامية وذمية كان لها أثرها في تنوع الإنتاج الفكري وغزارته ابتداءاً من مطالع العصر العباسي. ومهما قيل في أثر هذه العوامل وغيرها في النهضة العلمية التي بلغت أوجها في القرن الرابع الهجري وما بعده فإن هذا الانبعاث الفكري ما هو إلا استجابة للمستوى الحضاري الراقي الذي وصل إليه المجتمع الإسلامي في مختلف الأصعدة والتي وفرت للفرد المال والوقت الكافيين للإنتاج الفكري والإبداع، وكذلك ما توفر من أجواء الأمن والحرية النسبية، وأخيراً وليس آخراً طبيعة النزعة العربية الإسلامية المتفتحة على سائر الثقافات والأفكار الأجنبية الأخرى وهي نزعة متأتية من طبيعة الإسلام العالمية التي تسقط من الاعتبار حواجز الإقليم والعنصر واللغة وتدعو إلى تثاقف الأفكار وتفاعلها، ومن ثم هضم المفيد والمنسجم منها وتمثيله ضمن قيم الحضارة العربية الإسلامية، وكانت هذه الخاصية إحدى مرتكزات الحضارة العربية الإسلامية التي استمرت في النمو رغم المعوقات.

لقد كان التأليف في مطالع العصر العباسي في العلوم النقلية والعلوم العقلية (علوم الأوائل)، كما ساهمت (بيت الحكمة) في نقل العلوم الأجنبية إلى العربية وكان المنصور "أول خليفة ترجم الكتب القديمة... وفي أيامه وضع محمد بن إسحق

كتاب المغازي... وكان أبو جعفر قد نظر في العلم وروى الحديث وكثرت علـوم الناس في أيامه".

ولم تكن الحركة الفكرية حكراً على فئة دون أخرى، وقد أباح المجتمع والدولة لكل الفئات المشاركة في مجالات الحياة العامة شرط ان تثبت كفاءتهـا وولاءهـا. ومن هنا نلاحظ تواجد العرب والموالي وأهل الذمة في الإدارة والتجارة والحـرف وفي مجالات العلم والفكر، ولم يكن هناك تقسيم مقصود للأعمال أو الفعاليات فـي المجتمع، والمتمعن في التاريخ لا يجد صعوبة في إدراك المغالاة التي وقـع فيهـا المؤرخون الذين روجوا لفرضية التمايز الاجتماعي والاقتصادي والـسياسي تجـاه الموالي، فقد كان من طبيعة العربي ومن تعاليم الإسـلام الـدعوة إلـى التفاعـل والاندماج، ومن هنا لم يكن هناك ما يدعو لاستغراب ابن خلدون من "أن حملة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم" فمن الطبيعي أن الغالبية من العرب انشغلوا بالسياسة والحكم والحرب في صدر الإسلام، أما الموالي فدورهم لا بد أن يظهر تدريجياً في مجالات متعددة منها العلم والثقافة، وان العرب الرواد هم الـذين علمـوا المـوالي وشجعوهم على التفاعل في المجتمع العربي الإسلامي الجديد. كان العرب أسـاتذة الموالي في العلوم الدينية وعلوم العربية وعلى أيديهم تفقّه المـوالي الأوائـل فـي العقيدة واللغة وآدابها. ففي رواية "لما مات العبادلة صار الفقه في جميع البلدان إلى الموالي"، وكان سعيد بن المسيب القرشي فقيه أهل المدينة قبل أن يظهر فيها زيـد بن أسلم وغيره، وقد أخذ سعيد بن جبير فقيه الكوفة علمه عن عبد الله بن عبـاس، وأخذ الحسن البصري علمه عن عمران بن حصين والنعمان بن بشير، وأخذ محمد بن سيرين علمه عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك. ولم يكن بإمكان هؤلاء العلماء من الموالي أن يبرزوا لولا العرب المـسلمون الـذين أتـاحوا لهـم الفرصة ولم يستخدموا سياسة التمييز ضدهم، وقد خرجت البصرة عن بكرة أبيهـا لتشييع المولى الحسن البصري إلى مقره الأخير، وكان أحمد بن حنبل يقـول عـن المولى سعيد بن جبير "ما على وجه الأرض أحد إلا وهو يفتقر إلـى علمـه". ان

الفكرة التي فهمت خطأ عن ابن خلدون في أن المجتمع في القرون الإسلامية الأولى كان مجتمعاً بدوياً ولذلك كان العلم من نصيب الموالي (العجم) بسبب احتقار العرب لهم وحرمانهم من المشاركة في أمور الدولة مما دفعهم إلى تلمس طريق المعرفة لا يمكن تبريرها ولا تستند على روايات موثوقة. ويعزو أحمد أمين بروز الموالي في المجتمع فيقول:

"إن الصحابة قد استكثروا من الموالي يستخدمونهم في بيوتهم وفي أعمالهم، فإذا كان الصحابي تاجراً فمواليه في التجارة، وإذا كان عالماً كانت مواليه تلاميذه في العلم ومتى كان عندهم حسن استعداد نبغوا فيه بحكم مخالطتهم لسادتهم... ودليلنا على ذلك نافع مولى عبد الله بن عمر فقد أخذ عنه أكثر علمه".

ويزيد عبد العزيز الدوري على ما ذكر من أن العلم نهض به الموالي بقوله:

"إن هذا القول يعود انتشاره إلى كثرة تكراره لا إلى أساس تاريخي، فالعصر الأموي كان عصر حركة ثقافية نشيطة، فيه بدأت العلوم الأجنبية تتسرب إلى العرب... أما العلوم الدينية من حديث وفقه وتفسير وما يتصل بها كالتاريخ فقد نهض بها العرب، وكان جل القائمين بها منهم، ولم يبدأ الموالي بالمساهمة بشكل ملموس إلا بعد أن عربّت الدواوين أي بعد أن تعربوا ثقافة ولغة".

وفي مطالع العصر العباسي وبسبب ازدهار الترجمة ظهر علم الكلام الذي يعتمد المنطق والجدل، وتكلم الناس وكانت مجالس البرامكة تعج بالعلماء والأدباء من مختلف المشارب، حتى اضطر الخليفة الرشيد إلى منع الجدل والنقاش في المساجد والسكك، ولكن الخليفة المأمون الذي مال إلى مذهب الاعتزال شجع المناظرة وأوجد مجالس للجدل بين العلماء. ومن أشهر المتكلمين في هذه الحقبة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والعلاّف والنظام.

لقد شهدت هذه الحقبة ظهور نخبة كبيرة من العلماء في مختلف فروع المعرفة: فكان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من وضع قواعد النحو وأول من

صنف المعاجم (كتاب العين) وأول من صنف في علم العروض، وبرز سيبويه في النحو وكان عبد الله بن المقفع قد اشتهر بنثره وبترجمته من (الفارسية القديمة) الفهلوية إلى العربية، وجاء بعده ابن قتيبة الدينوري والجاحظ وهما من أكثر الأدباء نتاجاً في هذه الفترة. واختص علماء بقراءات القرآن منهم: يحيى بن الحارث الذماري (ت 145هـ/ 762م) وحمزة بن حبيب الزيات (ت 156هـ/ 772م). وكان هارون بن موسى البصري (ت حوالي 170هـ/ 786م) أول من حاول نقد القراءات، وبدأ مفسرو القرآن يجمعون كل ما وصل إليهم ويدونونه دون تحري الدقة وادخلوا آراء أهل الكتاب وكان منهم في هذا العصر: مقاتل بن سليمان الأزدي (ت 150هـ/ 767م). وفسر المعتزلة القرآن معتمدين على العقل ومن أوائلهم أو بكر الأصم (ت 240هـ/ 854م)، وظهرت كتب ألفها علماء العربية مثل الفرّاء (ت 207هـ/ 822م) في كشف غوامض الآيات أطلقوا عليها "معاني القرآن"، مثلما ألف فقهاء هذه الحقبة كتباً سموها "أحكام القرآن". واهتم الكسائي والأصمعي وأبو عبيدة وخلف النحوي باللغة قواعدها وآدابها وأهدى المفضل الضبي (المفضليات) للخليفة المهدي.

واهتم المسلمون بالأحاديث النبوية باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع وبرز في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ/ 869م) ومسلم بن الحجاج القشيري (ت 261هـ/ 874م) صاحبا الصحيحين وهما من أشهر كتب السنن. أما في الفقه فقد تبلور في هذه الفترة في مذهبين: مذهب أهل الحديث في الحجاز ومذهب أهل الرأي في العراق، وبرز فقهاء مشهورون هم: مالك بن أنس في المدينة وأبو حنيفة النعمان في الكوفة ثم محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل وجعفر الصادق وألف هؤلاء عدداً من الكتب والمدونات التي نقلت أحكامهم.

وظهرت نزعة التجديد في الشعر في عصر العباسيين الأوائل وكان أبو نؤاس أشهر المجددين، ولكن الشعر تعددت أغراضه ومعانيه فكانت قصائد البحتري تمتاز

بالأوصاف البديعة وأبي تمام الطائي بالأفكار الفلسفية وابن الرومي بعمق الصورة وبشار بن برد بتنوع المعاني ودقة الأوصاف، وكان لكل فرقة ولكل مذهب أو طائفة شعراء ينظمون الشعر للدعاية لآرائها فظهر شعراء السياسة وشعراء الفرق وشعراء الزهد وشعراء الغزل والترف وغيرها.

ولقد انبثق التاريخ في المجتمع الإسلامي من الحديث النبوي، ومثلما كان هناك مذهبان في الحديث كان هناك مدرستان للتاريخ تمثل في اتجاهين: الاتجاه الإسلامي ومركزه المدينة المنورة بالحجاز والاتجاه القبلي ومركزه الكوفة والبصرة بالعراق. فتأثر المؤرخون الأوائل الذين كانوا محدّثين أيضاً في نقد نص الرواية وسندها (سلسلة رواتها)، واهتموا بمغازي الرسول ﷺ وسيرته، وهو موضوع متفرع من علم الحديث. وقد شمل في واقع الأمر عصر الرسول ﷺ بكامله. ويمثل الدراسات الأولى في التاريخ في مطالع العصر العباسي مجموعة من الإخباريين مثل: موسى بن عقبة (ت 141هـ/ 758م) ومعمر بن راشد (ت 150هـ/ 767م) ومحمد بن اسحق (ت 151هـ/ 761م).

أما الاتجاه الثاني والذي اهتم بالأنساب والأيام والأمجاد القبلية (الإخبار) فمثّله مجموعة من الإخباريين والنسابين عاشوا في أمصار العراق ومنهم: عوانة بن الحكم (ت 147هـ/ 764م) وأبو مخنف لوط بن يحيى (ت 175هـ/ 774م) وسيف بن عمر (ت 180هـ/ 796م) والمدائني (ت 225هـ/ 839م)، أما النسابة فأشهرهم محمد بن السائب الكلبي وولده هشام.

وبسبب من اتساع التجارة وتنوع الرحلات البرية والبحرية وحركة الترجمة من الثقافات الأجنبية بدأت بواكير كتب الجغرافية والرحلات تظهر على التوالي خلال الفترة العباسية، وكان كتاب (المسالك والممالك) لابن خرداذبة أول كتاب جغرافي من نوعه يظهر في مطالع العصر العباسي. حين تأسست دولة العباسيين في العراق كان هناك على الأقل بؤرتان من بؤر الثقافة الأجنبية (اليونانية خاصة)

على مقربة من بغداد، أولاهما حرّان وأهلها من الصابئة الذين يعرفــون العربيــة واليونانية وساعدوا في ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية. وثانيهما جنديشابور في الأحواز (خوزستان) التي كانت ملاذاً للفلاسفة والأطباء اليونان المــضطهدين ثــم غدت مركزاً لتدريس علوم اليونان في المنطقة. وقد استطاع العباسيون الأوائل من خلال تأسيس (بيت الحكمة) ترجمة أنــواع الكتــب الفلــسفية والطبيــة والفلكيــة والرياضية والكيماوية وغيرها، ومن أشهر مترجمي: العصر ثابت الحراني وحنين بن اسحق وقسطا بن لوقا وآل نوبخت، وقد صرفت الأموال الوفيرة وخاصة مــن قبل الرشيد والبرامكة والمأمون وآل موسى بن شاكر للحصول على الكتــب فــي (علوم الأوائل) وترجمتها إلى العربية. وقد أثمرت هذه الحركة ثمارهــا المرجــوة فبرز العديد من العلماء المسلمين في مجالات متنوعة تمثلوا علوم الأوائل وأضافوا إليها إضافات مبتكرة ساهمت في تقدم العلوم والثقافة الإنسانية. كما بــدأت فنــون العمارة والزخرفة والريازة تنال من اهتمام المسلمين في هذه الفترة المبكــرة مــن عصر العباسيين خاصة بعد بنائهم بغداد وسامراء والجعفرية وما احتوته من عمائر متنوعة وكذلك الأبنية المتعلقة بالخدمات العامة والراحة والاستجمام.

ولعل أهم ما نلحظه في الحقبة التالية (أي في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين) إن الحياة العلمية لا تتبع بالضرورة الأوضاع الــسياسية ازدهاراً أو تدهوراً، فلقد كانت أوضاع المشرق الإسلامي مضطربة إدارياً ومجزأة سياسياً، وكان القائد التركي أو الملك البويهي لا يحسن العربية ولا يتذوق آدابها ولا يفطن إلى مغازي العلوم العقلية ومع ذلك كانت بلاطاتهم تزخر بالعلماء يتنافــسون على كسبهم وتشجيعهم. وكان أبو بكر الصولي من المقربين إلى القائد بجكم التركي الذي كان إلا يحسن العربية وقد سمع تهكم الناس بأميّته مــع اصــطناعه وتقريبــه للعلماء فقال: "أنا إنسان وان كنتُ لا أحسن العلوم والآداب أحــب ألا يكــون فــي الأرض أديب ولا عالم ولا رأس في صناعة إلا كان في جنبتي وتحت اصــطناعي وبين يدي لا يفارقني". ويبدو من هذا التعليق إضافة إلى تنافس الحكام فــي جــذب

العلماء تغير نظرة المجتمع وتبدلها بالنسبة للعلوم. فبعد أن كانت تعتبر صنعة من الصنائع باستثناء العلوم الشرعية، وينظر إليها نظرة استخفاف غدت من المراتب المرموقة في المجتمع.

لقد بقي العراق خلال هذه الفترة يحتل المكان الأول في دار الإسلام على الصعيد العلمي، كما تركزت في بغداد مراكز النشاط الفكري من مدارس ومكتبات ووراقين ونساخ ومؤلفين، ولعل كتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي وما يحويه من تراجم للعلماء في مختلف الفروع خير دليل على ذلك.

ورغم إسقاط الخليفة المتوكل لمذهب الاعتزال كمذهب رسمي للدولة العباسية، فقد ظل الاعتزال نشطاً من الناحية الفكرية، ومن علمائه المشهورين في هذه الحقبة أبو علي الجبائي وتلميذه محمد بن عمر الصيمري ثم قاضي القضاة عبد الجبار (ت 415هـ/ 1024م). وكان أبو الحسن الأشعري (ت 330هـ/ 941م) تلميذاً للجبائي ولكنه خالف الاعتزال وكوّن مذهباً مستقلاً تبعه العديد من العلماء منهم أبو حامد الاسفرايني الذي درّس في بغداد حتى وفاته (406هـ/ 1015م). وازدهرت الحركة الفقهية في العراق وظهر عدد كبير من المجتهدين مثل: داود الظاهري (ت 270هـ/ 883م) ومحمد بن جرير الطبري (ت 310هـ/ 922م) صاحب التفسير والتاريخ ومن أعلم الناس بفقه المذاهب، والزمخشري المعتزلي صاحب الكشاف. وكان للحنابلة نفوذ كبير في هذه الفترة وأمامهم عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290هـ/ 902م) ثم أبو بكر عبد الله بن داود الأزدي السجستاني (ت 316هـ). وقد ازدهر التصوف في هذا العصر وأخذ أفكاراً عن الفلسفة اليونانية والهندية على يد الحارث المحاسبي (ت 243هـ) ثم ازدهر على يد الجنيد (ت 297هـ) القائل أن "التصوف صفاء المعاملة مع الله"، وكان الحلاّج الذي قتل 309هـ/ 921م من تلاميذه. وبرز بسبب اختلاف وجهات النظر في العلوم الشرعية والإنسانيات بصفة عامة ما سمي "بأدب الاختلاف وأصول المناظرة" التي أساسها تفهم وجهة النظر المقابلة والرأي الآخر ثم الرد عليها، وقد زخرت كتب

الفرق والتراجم والطبقات بالأمثلة التاريخية في معالجة القضايا الخلافيـة نقتطـف منها موقف أبي حنيفة حين قال: "هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحـداً عليـه ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به". وفي قوله تعليقاً على علم جعفر الصادق "أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس". وفي مجال اللغة والأدب ظهر محمد بن دريد الأزدي العماني (ت 321هـ) وصنف عدة كتب أشهرها الجمهرة والاشتقاق، ثم أبو علي القالي صاحب الأمالي وأبو سعيد السيرافي وأخيراً وليس آخراً أبو بكر بن الأنباري (ت 328هـ) والذي ألـف فـي مختلـف العلوم الأدبية والشرعية، ناهيك عن العدد الكبير من الشعراء الـذين نظمـوا فـي مختلف أغراض الشعر.

وحين بدأ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كانت الحركة الثقافيـة قـد بلغت أوج نضجها والذي يطلع على كتاب الفهرسـت لابـن النـديم (ت حـوالي 378هـ/ 988م) يدرك العدد الكبير من المؤلفين في مختلف فروع المعرفة. وقـد كان الجيل الثاني من الأمراء البويهيين سواء في العراق أو بلاد فارس أكثر مـيلاً للسان العربي والأدب والعلم، بعد أن احتوتهم الثقافة العربية الإسلامية ونخص منهم بالذكر الأمير عضد الدولة والوزراء ابن العميد والصاحب بن عبّاد والمهلبي الذين كانت مجالسهم منتديات للنشاط الفكري ومكتباتهم مخازن للفكر الإسلامي والأجنبي أنتجت أرفع ما توصلت إليه الإنسانية من المعرفة في ذلك العصر، وبذلك عاد العلم سيرته أيام السفاح والمنصور والمأمون فقد كان السفاح يقول لأبي بكر الهذلي "إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلاً قال كيـف؟ قـال يتـرك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك".

أما عضد الدولة البويهي فكان يؤثر مجالسة الأدباء مما جعله ذا ثقافة واسـعة كما وان عدد الشعراء والأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه في شيراز أو بغداد يدل على اهتمامه الكبير بالمعرفة والثقافة، ويعطينا مسكويه صورة واضـحة عـن موقف عضد الدولة من الحركة الفكرية في عصره، واهتمامه بالعلوم النقلية والعقلية

ورعايته عدداً من الفلكيين والأطباء والفلاسفة إضافة إلى الأدباء. ووصف المقدسي بإعجاب مكتبة عضد الدولة في شيراز التي كانت تنافس مكتبة الصاحب بن عماد وابن العميد ومكتبة السامانيين في بخارى. أما ابن العميد فكان وزير ركن الدولة البويهي، وقد برز في علوم المنطق والهندسة والفلسفة والطبيعة والإلهيات إضافة إلى الأدب، وقد عمل عنده مسكويه قيّماً لمكتبته التي كانت تحوي الكتب من كل العلوم والآداب، وله مجلس ذائع الصيت يحضره العلماء والأدباء من كل صنف. أما الصاحب بن عماد فكان تلميذاً وصديقاً لابن العميد وأصبح وزيراً لمؤيد الدولة وفخر الدولة وكان الصاحب بن عباد معتزلياً في مذهبه مولعاً بالإنسانيات من علوم شرعية وأدبية ولسانية، وكان عالماً بالحديث والتوحيد وأصول الدين وله مجالس علمية عامرة وصفها أبو حيان التوحيدي في كتابي (الامتناع والمؤانسة) و(مثالب الوزيرين)، وفيها إشارات للعلماء الذين كانوا يداومون على حضور هذه المجالس. ولم يقتصر الاهتمام بالعلوم والرعاية للكتب والمكتبات على هؤلاء الوزراء بل تبعهم في ذلك وزراء آخرون ساروا على نهجهم مثل أبي عبد الله سعدان وزير صمصام الدولة وأبي نصر سابور وزير بهاء الدولة الذي انشأ داراً في الكرخ ببغداد وجمع لها أكثر من عشرة آلاف مجلد وسماها (دار العلم) لينتفع منها أهل العلم، وقد ذكرها أبو العلاء المعري في قصيدة له، وكذلك فعل الشريف الرضي في بغداد. أما شرف الدولة فقد بنى سنة 378هـ/ 988م مرصداً لرصد الكواكب على غرار ما كان الأمر في عهد المأمون العباسي وعين لإدارته ابن رستم الكوهي يساعده أبا حامد الاصطرلابي. وقد توفر للعلماء دعم الدولة وتشجيعها ولم يتعرضوا بصورة عامة لاضطهادات بسبب آرائهم الفكرية فكانوا يتلقون الهبات والمرتبات والأعطيات مقابل ما يؤلفون من كتب. وعندما أهدى أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني إلى سيف الدولة الحمداني أعطاه ألف دينار فبلغ ذلك الصاحب بن عباد فقال: قصّر سيف الدولة وانه يستحق إضعافها، على أن النسبة الكبيرة من العلماء كانوا يكسبون أرزاقهم في العمل كموظفين في مؤسسات الدولة

أو في المهن والصنائع كالوراقة (النسخ) أو الخزن أو الطب أو التدريس أو التجارة.

كما شهدت هذه الحقبة المحاولات الأولى لإحياء الثقافة الإيرانية، وقد أشرنا سابقاً إلى المظاهر الاجتماعية للحركة الشعوبية التي برزت بوضوح في مطالع العصر العباسي، ولكن إذا نظرنا إلى الشعوبية من منظور ثقافي فقد كانت نزعة معادية للغة العربية والتراث العربي الإسلامي ولدور العرب التاريخي في الحفاظ على الحضارات الإنسانية وتطويرها، والاستهزاء بالقيم والمثل الإسلامية مقابل الاعتزاز بالتراث الحضاري الأعجمي وإحياء الثقافات الأعجمية. ولما كانت العروبة والإسلام صنوين متلازمين خلال القرون الإسلامية الأولى فقد استهدفت الشعوبية الإسلام أيضاً وبثت روح التشكيك في مبادئه ونشر روح الاستخفاف والاستهتار تحت ستار الظرف والمجون والفكر الحر. لقد كانت القضية الرئيسية في الصراع الشعوبي – العربي الإسلامي هو إن إنشاء المجتمع الجديد يتطلب من وجهة نظر الشعوبيين إدخال النظم والمؤسسات الإدارية الساسانية، وتشجيع الآراء الأعجمية في الثقافة بينما أكدت النظرة العربية الإسلامية على فاعلية التراث العربي الإسلامي وجدوى اللغة العربية وإمكانية استيعاب وتمثل الثقافة العربية الإسلامية للمنسجم والقابل للهضم من الإرث الأعجمي. وبمعنى آخر فإن استمرار العباسيين الأوائل الاعتماد على العرب رغم توسيع قاعدة اعتمادهم لتشمل العناصر غير العربية واستمرار اتجاههم نحو الثقافة والإرث العربي الإسلامي رغم تذوقهم للمنسجم والمتفق مع القيم الإسلامية من الإرث الأجنبي أدى إلى رد فعل عنيف وجهد منظم لتشويه التراث العربي الإسلامي من خلال قيمه ومثله، فالصراع كان بين حركتين متضادتين ويتناول في جوهره الوجهة الثقافية للمجتمع الإسلامي الجديد. لقد شملت المظاهر التي هاجمتها الشعوبية كل عناصر الثقافة في المجتمع من شعر ونثر وأمثال وحكم وتاريخ وانساب وعقيدة دينية (الإسلام).

لقد أدرك أنصار النزعة العربية الإسلامية وعلى رأسهم الجاحظ وابن قتيبة بأن خطر الشعوبية لا يكمن فقط في تغذية روح الحقد بين فئات المجتمع الإسلامي الواحد بل كذلك فيما ولدته من شك واستخفاف بالقيم الاجتماعية لدى الناس عموماً، ولذلك لم يقف أنصار العروبة والإسلام مكتوفي الأيدي، بل تعاونوا مع الدولة في الرد على الشعوبيين بأسلوب مرن جامع موافق لذهنية العصر المتفتحة أكثر إقناعاً من الجدل الشعوبي. وصمد الشعوبيون بعض الوقت لكنهم اضطروا في النهاية إلى الإقرار بانتصار النزعة العربية الإسلامية.

أما النزعة الثانية المعاصرة للشعوبية في مطالع العصر العباسي فهيْ الزندقة، ومهما اختلف الباحثون في مدلولها اللغوي والاصطلاحي، فإن مفهومها الرسمي والتاريخي في تلك الحقبة يعني (المانوية الجديدة) وهي حركة فكرية منظمة ينادي أصحابها بنشر المانوية باعتبارها بديلاً للإسلام، ومن هنا جاءت خطورتها على الدولة والمجتمع، خاصة وان أدبيات المانوية غدت كثيرة ومنشورة بلغات عربية وفارسية وسريانية. وحاول الكتّاب المانوية (الزندادته) التعرض للقرآن من حيث الأسلوب والمحتوى وإنكار الديانات السماوية. وقد هاجم الجاحظ الزندقة وربط بينها وبين الشعوبية، وهذا معناه أن المشاعر العدائية الموجهة ضد العروبة؟ والعكس صحيحاً في تلك الفترة المبكرة. على أن إخفاق الحركتين كان يعني أن عناصر الوحدة والتماسك في المجتمع كانت لا تزال أقوى من عناصر التجزئة والانفصال أولاً، وان التراث العربي الإسلامي كان ينبوعاً ثراً أمدّ المفكرين بالحجج والآراء لمجابهة الشعوبيين والزنادقة ثانياً.

وإذا كانت الشعوبية والزندقة قد فشلتا في مطالع العصر العباسي في تحقيق أهدافهما فإن التراث الفارسي الديني واللغوي والثقافي عموماً ظل في بعض الأقاليم الإيرانية مثل فارس وخراسان، ولكن البويهيين الديالمة الذين سيطروا على الأقاليم الغربية لإيران ولا سيما فارس لم يشعروا بأي ارتباط حقيقي بالثقافة الفارسية، وحينما سيطروا على العراق احتوتهم الثقافة العربية الإسلامية القوية بل إنهم غدوا

من المعجبين بها والعاملين على ازدهارها. وقد قامت خراسان في ظل السامانيين الفرس بدور في إحياء الثقافة الفارسية الجديدة. صحيح أن حركة إحياء الثقافة الفارسية بدأت مع حركة الترجمة في عصر العباسيين الأوائل وتأكدت في حقبة الحركات الانفصالية في القرن الرابع الهجري، على يد الرودكي والبلعمي والفردوسي (ت حوالي 411هـ/ 1020م)، وكانت مساهمات البويهيين بحركة الثقافة الفارسية محدودة إذا ما قورنت بدورهم في تنشيط الثقافة العربية الإسلامية، وكان أعظمهم عضد الدولة معجباً بالعربية مشبعاً بآدابها لدرجة انه لم يعر اهتماماً للنزعات التي تدعو لإحياء الثقافة الفارسية، بل أنهم طلبوا من المؤرخ الصولي أن يختلق لهم نسباً عربياً.

كما شهدت هذه الحقبة وهي مرحلة ازدهار الفكر الإسلامي بفروعه المتعددة صراعاً فكرياً بين المذاهب الفقهية والمدارس الكلامية بدءاً من عصر العباسيين الأوائل حتى مجيء السلاجقة (منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي) والتي مرت خلالها بمراحل النشوء والتطور ثم النضج. ورغم استمرار الضعف السياسي المتمثل بوجود خلافة عباسية ضعيفة في بغداد يسيطر عليها البويهيون ويهددها خطر الفاطميين في مصر وبلاد الشام الذين بثوا دعاتهم في أرجاء العالم الإسلامي يروجون للمذهب الاسماعيلي. ثم الصراع في أقصى المشرق الإسلامي بين الغزنويين والقوة التركية الجديدة (السلاجقة)، فإن النهضة الفكرية استمرت في التطور حيث تفاعلت وتصارعت مذاهب أهل الحديث (أهل السنة والجماعة فيما بعد) والمعتزلة والشيعة والصوفية والفلاسفة وغيرهم. وكان هذا الصراع الفكري دون شك انعكاساً للأوضاع السياسية. لقد بدأ مفهوم "أهل السنة والجماعة" يتبلور تدريجياً حتى شمل في أواخر القرن الرابع الهجري فئتين: الاشاعرة أتباع أبي الحسن الأشعري والماتريدية أتباع أبي منصور الماتريدي. وقد حكم خلال هذه الحقبة في بغداد الخليفة العباسي القادر بالله (381 – 422هـ) الذي نجح في أن يعيد لمؤسسة الخلافة بعض القوة والهيبة بسبب استمرار تدهور النفوذ

البويهي وتنامي قوة تركية جديدة في المشرق الإسلامي وتقـدمها علـى حساب البويهيين هي الغزنوين، كما نجح في تقوية مذهب أهل السنة تجاه المذاهب الأخرى المعارضة له وخاصة الشيعة والمعتزلة. لقد كان الخليفـة القـادر أول مـن حـدد نشاطات المعتزلة وراقب تحركات الشيعة وأول من طعن بنسب حكام الفاطميين في مرسوم رسمي صدر في بغداد ووقع عليه عدد من مشاهير الفقهاء مـن مختلـف المذاهب. والأهم من ذلك كان القادر قد اصدر منشوراً وضّح فيه عقيدة "أهل السنة" سمي باسمه "الاعتقاد القادري".

لقد لاحظنا أن أواخر عصر العباسيين الأوائل شهد نشاط أهل الحديث مقابـل حركتي الاعتزال والشيعة العلوية، بعد أن ألغى المتوكل الاعتزال كمذهب رسـمي للدولة وشدد على الشيعة العلوية، ثم ازداد ضعف المعتزلة بعد أن انشق أبو الحسن الأشعري (ت 330هـ) عنهم في أواخر القرن الثالث الهجري. لقد برز الاشـاعرة والماتريدية في موقف وسط بين أهل الحديث من جهة والشيعة والمعتزلة من جهـة أخرى، كان للأشعري أتباعاً لامعين نجحوا في نشر مذهبه من بعـده أمثـال ابـن فورك الأصبهاني (ت 406هـ) أبي بكر الباقلاني (ت 403هـ). وأبـي اسـحق الاسفرايني (ت 418هـ) وعبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت 429هـ). إن ظهور البويهيين على المسرح السياسي في المشرق الإسلامي أعطى قوة دفع جديدة للشيعة والمعتزلة على حد سواء بحيث صار يخشى من تأثيرهم على العوام، أما المعتزلـة فكان القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (ت 415هـ) من أبرز شخصياتهم في هذه الفترة وقد أعاد للمذهب الاعتزالي الحياة بمؤلفاته العديدة مثل: المغني وشـرح الأصول الخمسة وفضل الاعتزال وطبقات وكتب الفرق وأصول الدين. أما الشيعة العلوية فكانت ثلاث فرق رئيسية: الاثنا عشرية (الأمامية) والزيدية والإسـماعيلية. وكانت قضية الإمامة ووجوبها بالنص والتعيين لكونها أصل من أصـول الـدين، القضية المركزية في الخلاف بينهم وبين أهل السنة والمعتزلة، وقد أثـارت هـذه المسألة وما تفرع عنها مناقشات بين إعلام الفئتين لعل أبرزها ما كتبـه الجـاحظ

المعتزلي في مهاجمة آراء الشيعة في كتابه (فضيلة المعتزلة) وقد رد عليه ابن الراوندي الشيعي في كتاب (فضيحة المعتزلة) ثم أجابه الخياط المعتزلي في كتابه (الانتصار والرد)، ثم الحوار الذي جرى بين القاضي عبد الجبار المعتزلي وبين الشريف الرضي الموسوي (436هـ). هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن نشاطات الشيعة الإسماعيلية في المشرق الإسلامي باتت خطراً يهدد العباسيين سياسياً ودينياً. فقد خطب قرواش العقيلي باسم الحاكم بأمر الله الفاطمي في الموصل 401هـ وكان بعض الشيعة أثناء الفتن الطائفية في بغداد يهتفون باسم الخلفاء الفاطميين بل إن نقيبهم في بغداد الشريف الرضي نظم شعراً موالياً للفاطميين قبل سنة 400 هـ وكان نشاط الدعاة الفاطميين الإسماعيلية قد بلغ ذروته في المشرق الإسلامي خلال هذه الفترة، وفي رسالة للخليفة المعز لدين الله الفاطمي 302هـ يقول فيها: "وما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ويدلون علينا ويأخذون بيعتنا... ويبشرون بأيامنا بتصاريف اللغات واختلاف الألسن"، وكتاب الخليفة الفاطمي العزيز بالله (ت 386هـ) ملوك المشرق الإسلامي يدعوهم لطاعته وقبول مذهبه، فكان رد فعل العباسيين قد تمثل بإصدار القادر 302هـت/ 1011م مرسوما يطعن في عقيدة الفاطميين ونسبهم وحثه العلماء على تأليف الكتب للرد عليهم فكتب البلاقلاني الاشعري والاصطخري المعتزلي حيث أهدى هذا الأخير كتابه للخليفة نفسه. كما وبدأ القادر بالله وبالتعاون مع السلطان محمود الفزنوي حملة للتشديد على المذاهب المناهضة لمذهب أهل السنة والجامعة 408هـ/ 1017م فقد نهى الشيعة والمعتزلة عن الكلام في مقالاتهم المخالفة للمذهب السني، وسار وسار محمد الفزنوي سيرة الخليفة القادر فتتبع "المعتزلة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة". وصلبهم وحبسهم ونفاهم وأمر بلعنهم على منابر المسلمين.. وصار ذلك سنّة في الإسلام". ومثلما رعى البويهيون أعلام الشيعة والمعتزلة، شجعوا الفلاسفة وأفرد عضد الدولة في داره موضعاً خاصاً بالحكماء والفلاسفة يجتمعون فيه آمنين من السفهاء والعامة فعاشت علومهم وازدهرت،

ومنهم إخوان الصفا وابن سينا (ت 428هـ) ويعتبر هذا الأخير إمام الفلاسفة في أواخر القرن الرابع/ أوائل الخامس الهجري. وقد حاول التوفيق بين الإسلام والفلسفة ولكن محاولته هذه جرّت عليه نقد المتكلمين والفقهاء. ونشب الصراع بين علماء أهل السنة وبين فئة من المتصوفة بدأت بالظهور منذ أواخر القرن الرابع الهجري ابتعدت عن الشريعة ورأت أنها تمتلك الكشف والإلهام وأولت العبادات تأويلاً باطنياً وأسقطت الفرائض. وقد نادى الفقهاء بضرورة تطهير التصوف من هؤلاء الدخلاء وإعادته إلى نقائه الحقيقي، وكان من هؤلاء أبي نصر السراج الطوسي (ت 378هـ) في كتابه اللمع وأبي عبد الرحمن السلمي (ت 412هـ) في كتابه طبقات الصوفية ثم كان أبو القاسم القشيري (ت 465هـ) ورسالته المشهورة التي أراد منها إعادة ربط التصوف بالشريعة الإسلامية وتنقيته مما لحق به من العقائد الهدامة.

وأخيراً وليس آخراً فإن ما يثير الملاحظة في هذه الحقبة من أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجري هو التلاقي الفكري بين الشيعة الأمامية والمعتزلة رغم تناقص مذهبهما تناقضاً أكدته المناظرات التي أشرنا إلى بعضها سابقاً، حيث شعر المعتزلة بالحاجة إلى حليف في المعركة من أجل البقاء فوجدوا ذلك الحليف في الشيعة الأمامية، ورغم تواجد معالم من الفكر المعتزلي عند بعض علماء الشيعة الأمامية في القرن الرابع الهجري أمثال الشيخ المفيد والطوسي والشريف الرضي إلا أن هذا التحالف كان تستراً مرحلياً حتمته الظروف السياسية والفكرية التي كانت سائدة في الشرق الإسلامي. وقد شهد فكر المعتزلة فترة إحياء جديدة في أماكن مختلفة من المشرق الإسلامي كالري حيث الوزير الصاحب بن عباد المعتزلي والاحواز (خوزستان) وشيراز وهرمز في إقليم فارس، وتجاه هذا الانتشار أصدر القادر بالله مرسوماً من دار الخلافة 409هـ/ 1018م فحواه أن من قال بخلق القرآن فهو كافر حلال الدم. كما وان انتصارات محمود الغزنوي في بلاد فارس شجعته لعقد عدد من المجالس في دار الخلافة 420هـ/ 1029م دعى إليها الفقهاء

والقضاة والوعاظ والإشراف واصدر محضراً يتضمن الإيضاح لمذهب أهل السنة أطلق عليه الاعتقاد القادري كما أشرنا سابقاً.

لقد شهدت بغداد ازدهاراً علمياً ملحوظاً خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلا أنها كان عليها أن تصبر على النفوذ البويهي أكثر من قرن من الزمان حتى تتخلص منه بإسناد قوة مشرقية جديدة هي قوة السلاجقة.

الحسنّيون والزيدية.. المعارضة المسلحة

بعد أن تأسست الدولة العباسية وجد العباسيون دعوى جديدة لإسناد حقهم بالخلافة، بعيداً عن وصية أبي هاشم العلوي، فأكدوا بأن العباس وارث الرسول ﷺ والإمامة في ولده. ومنذ الخطبة الأولى للخليفة الأول هاجموا المعارضة وخاصة الناشطين من العلويين. وهكذا انشق بنو هاشم إلى عباسيين حاكمين وعلويين معارضين حيث تبلورت وجهات النظر لكلا الطرفين، كما تباينت مواقف المعارضة العلوية بين ايجابية نشطة مسلحة وسلمية سلبيه. وكانت محمد النفس الزكية ومن سانده من أبناء زيد بن علي من أبرز المعارضين النشطين.

محمد النفس الزكية

(محمد بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط).

علوي حسني تحرك ضد الخليفة أبي جعفر المنصور في المدينة بالحجاز بينما تحرك أخوه إبراهيم الحسني بالبصرة في العراق سنة 145هـ/ 762م.

لقد كانت نشأة محمد النفس الزكية وتربيته الأولى تدل على أنه كان معُداً لكي يكون حاكماً أو خليفة. وقد لقبه والده (بالمهدي) ودانت له بالولاء بعض الفرق المتطرفة (الغلاة) مثل المغيرة والبيانية، كما اعترف به المعتزلة والزيدية وبالطبع أتباع الجناح الحسني من شيعة العلويين.

ولا تهمنا الوقائع التاريخية لحركة محمد النفس الزكية التي انتهت باندحاره على يد الخليفة المنصور العباسي، بل إننا سنركز على المظهر الفكري للنزاع بين

العلويين والعباسيين في هذه الحقبة التاريخية من مطالع العصر العباسي. وسنستعرض دعاوى الطرفين ونحللها استناداً إلى الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية.

المواقف السياسية والعقيدية كما تعكسها الرسائل المتبادلة بين المنصور والنفس الزكية(6):

في النصف الأول من القرن الثاني الهجري – الثامن الميلادي – حينما بدا الانحلال السياسي يدب في جسم الدولة الأموية، أظهر عدد من الشخصيات الهاشمية طموحاً سياسياً ملحوظاً وبدأ كل منهم ينظم حركة معارضة سرية مستقلة ضد الأمويين.

ولم تكن الفكرة الشائعة بين الناس في تلك الفترة أن يكون خليفة رسول الله ﷺ بالضرورة فرداً معيناً بذاته أو فرعاً هاشمياً بعينه، بل كان من حق كل هاشمي علوياً كان أو عباسياً أو جعفرياً (نسبة إلى جعفر بن أبي طالب) أن يدعي الخلافة ويعمل لها باسم (أهل البيت) ولذلك انقسم شيعة الهاشميين إلى كتل: فمنهم من التف حول محمد بن الحنيفة العلوي، ثم نقلوا ولاءهم إلى ابنه أبي هاشم عبد الله الذي أسند قيادة حركته من بعده إلى محمد بن علي العباسي، ومنهم من اتبع عبد الله بن معاوية بن جعفر الطالبي، ومنهم من ناصر زيد بن علي (زين العابدين) ودعوا إلى شهر السلاح وقتال الأمويين، ومنهم من شايع الإمام جعفر الصادق الحسيني ﷺ الذي لم يعرف عنه أنه دعا إلى الثورة ضد الحكم الأموي بل كانت معارضته سلبية سليمة.

وما أن تسلم العباسيون السلطة حتى بدأوا ينظرون إلى العلويين نظرة شك باعتبارهم المنافسين لهم على الخلافة ومصدر خطر على الدولة الجديدة. أما العلويون فقد نظروا إلى العباسيين كمغتصبين مبتزين للسلطة من أصحابها

الشرعيين. وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعاً بين الهاشميين أنفسهم: بين العباسيين والعلويين.

على أن العلوين لم يكونوا متحدين أو متفقين على زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين. ثم أن كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي أن ولاء هؤلاء الشيعة العلوية في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد نحو فرع علوي معين. وتدل الأحداث التاريخية في القرنين الأول والثاني الهجريين بأن هؤلاء الأتباع كانوا على العموم يغيرون ولاءهم من فرع لآخر بكل سهولة وحسب الظروف.

فبعد وفاة زيد بن علي سنة 122هـ/ 740م وابنه يحيى سنة 125هـ/ 743م لم يبق بين العلويين سوى شخصيتين رئيسيتين هما: الإمام جعفر الصادق الحسيني وعبد الله بن الحسن (المحض) من الفرع الحسني. وكان الصادق مسالماً لا يؤمن بالعنف وقد أعطى هذا الموقف من الإمام الصادق الفرصة لعبد الله بن الحسن المحض ليجمع حوله الشيعة العلوية التي تميل إلى الثورة ضد الأمويين.

إن طموح عبد الله المحض لم يكن شخصياً فهو لم يطلب الخلافة لنفسه بل إلى ابنه محمد النفس الزكية، حيث أشاع عبد الله المحض الفكرة القائلة بأن ابنه محمداً هو (المهدي المنتظر) الذي سينقذ الناس من الجور العباسي، وكان هذا الادعاء خطوة مهمة في تصاعد الثورة العلوية لأنها جذبت إلى محمد النفس الزكية أعداداً متزايدة من الأتباع من بينهم المتطرفين أتباع المغيرة بن سعيد البجلي وبيان بن سمعان النهدي. وكذلك انضم إليه المتذمرون والضعفاء الذين ربما لم يكن لديهم أي ولاء للعلويين أو تفهم للقضية العلوية ولكنهم أملوا بأن المهدي الجديد سينقذهم من الظلم ويوفر لهم حياة أفضل.

وقد حاول الهاشميون أن يوحدوا صفوفهم بتكوين جبهة موحدة تحت قيادة متفق عليها ضد الأمويين، فعقدوا اجتماعاً سرياً في الابواء[7] قرب مكة سنة

127هـ/ 744م حينما كانت كل البوادر تتنبأ بتدهور دولة الأمويين بعد مقتل الوليد بن زيد سنة 126هـ/ 743 – 744م حيث زادت الشكوك والتكهنات حول إمكانية صمود الكيان الأموي طويلاً، وهذا بطبيعة الحال زاد من آمال الهاشميين وطموحهم في الخلافة. وقد دعا عبد الله المحض الحاضرين إلى البيعة لابنه محمد المهـدي، ولكن المجتمعين انشقوا على أنفسهم واختلفوا في الرأي وانفض الاجتماع دون اتخاذ قرار معين. إن القارئ المتمعن في الروايات المتعلقة باجتماع الابواء يدرك حقيقـة بارزة وهي أن الرواة ذوي الميول المختلفة قد جعلوا من هذا الاجتمـاع مـسرحاً لتلفيقاتهم ليعزز كل منهم وجهة نظره التي تنسجم مع عاطفته السياسية، على أننـا نتساءل هل من المعقول أن يبايع العباسيون شخصية هاشمية أخرى (غير عباسية) وهم يعلمون علم اليقين بأن هناك حركة سرية في خراسان تعمل من أجـل إنـشاء دولة عباسية منذ سنة 98هـ/ 716م.؟! ولو أن العباسيين بايعوا محمداً فـي هـذا الاجتماع لما سكت هذا الأخير من الإشارة إلى هذه البيعة في رسالته المشهورة إلى الخليفة المنصور سنة 145هـ/ 762م[8].

وحين تسلم الخليفة العباسي الأول أبو العباس عبد الله بن محمد الخلافة حاول أن يخلق جواً من الوفاق الهاشمي (العباسي – العلوي) وأن يجعل من فترة حكمـه القصيرة (132هـ – 136هـ) رمزاً لانتصار الحق الهاشـمي[9]. ورغـم إدراك الخليفة بوجود تحركات موالية للعلويين في العراق وخراسان ومعرفته باتـصالات يزيد بن عمر بن هبيرة مع محمد النفس الزكية، ومراسلات أبي سلمه الخلال مـع شخصيات علوية، وثورة شريك بن شيخ المهري باسم العلويين في خراسان فإنـه استمر على سياسة الترضية واللين التي تظهر في محاولاته التقرب مـن العلـويين ومن أشعار شعراء البلاط العباسي في ذلك العهد. ولكن يجدر بنا القول بـأن أبـا العباس أعلنها منذ البداية وبوضوح لا يقبل الشك بأن الخلافـة عباسـية وسـتبقى عباسية وأنكر أن يكون لأحد غيرهم الحق فيها[10].

إن حالة الموادعة التي يشوبها جو التأزم لم تدم طويلاً فلم تكن هذه السياسة لتوافق المنصور الخليفة العباسي الثاني (136هـ - 158هـ) الذي أظهر بجلاء أثر تسلمه الحكم بأن "الملوك لا تحتمل القدح في الملك"، وأن هدفه تثبيت كيان الدولة العباسية مهما كان الثمن. وقد ركز الخليفة جهوده على الحركة العلوية لإدراكه بأن هذه الحركة أصبحت رمزاً للمعارضة ضد العباسيين(11) حيث أن الكتل المتذمرة والتي أخفق العباسيون في كسبها نقلت ولاءها إلى العلويين وأخذت تدعو لهم سواء كان ذلك بإخلاص أو بمجرد التظاهر لاتخاذهم واجهة سياسية لغايات أخرى مبيتة.

وقد زار المنصور الحجاز سنة 136هـ وسنة 140هـ للحج لكي يقف عن كثب على الجو السياسي. وطلب من عبد الله الحض أن يخرج ابنيه محمد وإبراهيم اللذين اختفيا عن الأنظار ولكن المحض لم يعطه أية إشارة إلى مكان وجودهما ولا عن فعالياتهما. والظاهر أن فعاليات محمد النفس الزكية كانت شغل الخليفة الشاغل "فم تكن له همة إلا طلب محمد والمساءلة عنه". ومن "أجل أن يستخرج الثعلب من جحره" على حد قول الخليفة نفسه، كان لا بد من إجراءات جديدة وقوية، فصرف الأموال وأرسل العيون والجواسيس على هيئة تجار، وكتب الرسائل عن لسان القادة والشيوخ إلى محمد النفس الزكية يتظاهرون بالولاء للقضية العلوية. ولكن هذه الإجراءات كلها لم تحقق نتائج إيجابية ولذلك قرر الخليفة إرسال رباح بن عثمان المري والياً على المدينة حيث وصلها في 23 رمضان سنة 144هـ/ 761م.

يُعد تعيين رباح المري بداية النهاية لتحديات محمد النفس الزكية ذلك لأن الإجراءات التي اتخذها كانت من الشدة بحيث أجبرت محمداً على الظهور وإعلان الثورة. ولعل عنف رباح المري يظهر من قوله لعبد الله المحض: "أيها الشيخ إن أمير المؤمنين والله ما استعملني لرحم قريبة ولا يد سلفت إليه والله لا لعبت بي كما لعبت بزياد بن عبيد الله الحارثي ومحمد بن خالد القسري والله لأزهقن نفسك أو لتأتيني بابنيك محمد وإبراهيم".

وخاطب أهل المدينة قائلاً: "يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا. أنا ابن عم مسلم بن عقبة الشديد الوطأة عليكم الوبن الوقعة بكم، الخبيث السيرة فيكم. ثم أنتم اليوم عقب الذين حصدهم السيف، وأيم الله لأحصدن منكم عقب الذين حصدهم، ولألبسن الذل عقب من ألبس".

وسجن المري بأمر الخليفة عدداً من العلويين والطالبيين وحين عاد المنصور من الحج سنة 144هـ/ 761م قرر جلبهم معه إلى هاشمية الكوفة حيث سجنوا جميعاً، ثم قتل منهم ثلاثة هم: عبد الله بن الحسن ومحمد بن عبد الله العثماني ومحمد بن إبراهيم بن الحسن[12]. ولما سمع محمد النفس الزكية قصيدة في رثاء أهل بيته العلويين قال: "والله لقد كنا نقمنا. على بني أميه ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم وان الحجة على بني العباس لا وجب منها عليهم، وقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر [المنصور]".

أعلن محمد النفس الزكية ثورته في أول رجب 145هـ في المدينة وتعد هذه الثورة وثورة إبراهيم بن عبد الله المحض في البصرة ذروة الكفاح العلوي ضد العباسيين.

رسالة المنصور الأولى إلى محمد النفس الزكية:

ومن أجل أن يضع التبعة على عاتق محمد النفس الزكية.. ثم من أجل أن يكسب مزيداً من الوقت ليجمع القوات الخراسانية المتفرقة في الأقاليم، دخل المنصور في سلسلة من المراسلات مع محمد النفس الزكية فأرسل رسالته الأولى[13] قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ

خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤]

ولك علي عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ، أن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك وجميع ولدك وأخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم، على دمائكم وأموالكم، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال، وأعطيك ألف درهم وما سألت من الحوائج، وأنزلك من البلاد حيث شئت، وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك، ثم لا أتبع أحداً منهم بشيء كان منه أبداً، فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إليّ من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به".

جواب محمد:

فأجابه محمد النفس الزكية قائلاً:(14) "بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد. ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت عليّ، فإن الحق حقنا، وإنما أدعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم له بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا. وإن أبانا علياً كان الوصي وكان الإمام، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا. لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذي نمت به من القرابة والسابقة والفضل، وإنا بنو أم رسول الله ﷺ، فاطمة بنت عمرو

الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الإسلام دونكم. إن الله اختارنا واختار لنا، فوالدنا من النبيين محمد ﷺ ومن السلف أولهم إسلاماً علي، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة. ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، ومن المولدين في الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة، وإن هاشماً ولد علياً مرتين وأن عبد المطلب ولد حسنا مرتين، وان رسول الله ﷺ ولدني مرتين من قبل حسن وحسين، وإني أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أباً، لم تعرق في العجم، ولم تنازع في أمهات الأولاد. فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام حتى اختار لي في النار، فأنا ابن أرفع الناس درجة في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنة وابن خير النار. ولك الله علّي إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي، أن أؤمنك على ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله، أو حقاً لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجالاً قبلي فأي الأمانات تعطيني؟ أأمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله ابن علي؟ أم أمان أبي مسلم؟

رسالة المنصور الثانية:

فرد عليه الخليفة المنصور "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد! فقد بلغني كلامك، وقرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاء والغوغاء. ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء، ولا كالعصبة والأولياء، لأن الله جعل العم أباً، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا. ولو كان اختيار الله لخلقة على علمه لما مضى منهم، واصطفائه لهم. وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبي طالب وولادتها، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام لا بنتاً ولا ابناً. ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة، رزقه عبد الله، أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه من

يشاء قال الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦]

ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فأنذرهم ودعاهم، فأجاب اثنان احدهما أبي وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينه وبينهما إلاّ ولا ذمة ولا ميراثاً.

وزعمت انك ابن أخف أهل النار عذاباً، وابن خير الأشرار. وليس في الكفر بالله صغير، ولا في عذاب الله خفيف ولا يسير،وليس في الشر خيار ولا ينبغي لمؤمن يؤمن بالله يفخر بالنار وسترد فتعلم:﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]

وأما ما فخرت به من فاطمة أم علي، وأن هاشماً ولده مرتين، ومن فاطمة أم حسن وأن عبد المطلب ولده مرتين، وأن النبي ﷺ ولدك مرتين، فخير الأولين والآخرين رسول الله ﷺ، لم يلده هاشم إلا مرة، ولا عبد المطلب إلا مرة. وزعمت أنك أوسط بني هاشم نسباً وأصرحهم أماً وأباً، وانه لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد، فقد رأيتك فخرت على من هو خير منك نفساً وأباً أولاً وأخراً، إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وعلى والد ولده وما خيار بني أبيك خاصة، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد.

وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين وهو لام ولد، ولهو خير من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر، وجدته أم ولد ولهو خير منك، وأما قولك: إنكم بنو رسول الله ﷺ، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

ولكنكم بنو ابنته وأنها لقرابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث، ولا ترث الولاية، ولا تجوز لها الإمامة، فكيف ترث بها؟.. ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهاراً ومرضها سراً، ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أب الأم والخال والخالة لا يرثون.

وأما ما فخرت به من علي وسابقته، فقد حضرت رسول الله ﷺ الوفاة فأمر غيره بالصلاة، ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فلم يأخذوه، وكان في الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها، ولم يروا له حقاً فيها. أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان، وقتل عثمان وهو له متهم وقاتله طلحة والزبير، وأبى سعد بيعته، وأغلق دونه بابه، ثم بايع معاوية بعده، ثم طلبها بكل وجه وقاتل عليها، وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته قبل الحكومة، ثم حكم حكمين رضي بهما وأعطاهما عهده وميثاقه، فاجتمعنا على خلعه، ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودارهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية ودفع الأمر إلى غير أهله، وأخذ مالاً من غير ولائه ولا حله، فإن كان لكم شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه. ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة فكان الناس معه عليه، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل، وأحرقوكم بالنيران، ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام، حتى خرجنا عليهم، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم وسنينا سلفكم وفضلناه، فاتخذت ذلك علينا حجة، كما وظننت، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين، متسلماً منهم، مجتمعاً عليهم بالفضل وابتلي أبوك بالقتال والحرب، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة فاحتججنا له وذكرناهم فضله، وعنفاهم وظلمناهم بما نالوا منه. ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم، وولاية زمزم، فصارت للعباس من بين إخوته، فنازعنا فيها أبوك، فقضى لنا عليه عمر، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام. ولقد قحط أهل المدينة، فلم يتوسل عمر إلى

ربه، ولم يتقرب إليه إلاّ بأبينا، حتى نعشهم الله، وسقاهم الغيث، وأبوك حاضر لم يتوسل به.

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي ﷺ غيره، فكان وارثه من عمومته. ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم، فلم ينله إلا ولده: فالسقاية سقايته، وميراث النبي له، والخلافة في ولده، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا في إسلام في دنيا ولا آخرة، إلا والعباس وارثه ومورثه.

أما ما ذكرت من بدر، فإن الإسلام جاء والعباس يمون آل أبي طالب وعياله، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته. ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها، لمات طالب وعقيل جوعاً، وللحسا جفان عتبة وشيبة، ولكنه كان من المطمعين، فأذهب عنكم العار والسبة، وكفاكم النفقة والمؤونة، ثم فدى عقيلاً يوم بدر. فكيف تفخر علينا وقد علناكم في الكفر، وفديناكم من الأسر، وحزنا عليكم مكارم الآباء.. وورثنا دونكم خاتم الأنبياء، وطالبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم؟ والسلام عليك ورحمة الله"[15].

إن الرسائل التي تبودلت بين محمد المنفس الزكية وأبي جعفر المنصور ربما كانت أهم وأظرف وجه للعلاقات العباسية العلوية في العصر العباسي الأول لأنها:

1- عكست آراء زعيمين متنافسين حول مسألة شائكة هي الخلافة.

2- لقد كانت الرسائل هذه ذات أهمية دعائية كبيرة لكلا الطرفين المتنازعين. حيث بينت وجهة نظرهما ودافعت عنها بشدة.

3- اعتبرت الرسائل بمثابة إعلان للحرب، وتبرير للنزاع المسلح بين فرعي بني هاشم. فلقد كان واضحاً منذ البداية أن الطرفين لم يكونا يتوقعان الخضوع أو الصلح كنتيجة لهذه المراسلات. والحقيقة أن الرسالة الأولى لأبي جعفر تدل على استحالة الصلح لأنها تهدد وتتوعد قبل أن تمني أو تعفو. وقد كان محمد النفس الزكية يدرك ذلك حيث كتب إلى عيسى بن

موسى القائد العباسي بأن العباسيين لو ظنوا بأنه سيقبل الوعود والامتيازات التي قدموها له لما ذكروها.

ولا بد لنا أن نتذكر بأن الخليفة راسل محمداً النفس الزكية بعد أن ظهر وأعلن ثورته. ويشير ابن الطقطقي إلى ذلك فيقول بأن الأمور كانت تمر ببطء، والتأزم بلغ أشده حين "تكاتباً وتراسلاً". وحين يصف هذه الكتب يقول بأنها كتب نادرة تعد من محاسن الكتب، وأنهما أي الخليفة والثائر "احتجا وذهبا في الاحتجاج كل مذهب"[16]. أما المبرد فيعتبرها "طريفة ومستحسنة جداً"[17].

ولعنا نعيد إلى الأذهان القول بأن محمداً النفس الزكية أجبر على الخروج من محل اختفائه على حد قول بعض الروايات، حيث تذكر أن الخليفة قال بأنه استطاع أن يخرج الثعلب من مخبئه. ولذلك فالخطوة التالية بالنسبة للخليفة كانت على حد قول نفس الروايات "انذره قبل قتاله"[18]. وعبر الخليفة في رسالته عما كان يجول في خاطره من أفكار وقد منع الخليفة وزيره أبا أيوب المورياني من أن يرد عليه بنفسه قائلاً: "إذا تقارعنا على الاحساب فدعني له"[19].

ولعلنا نذكر كذلك أن الخليفة كان دؤوباً في التفتيش عن محمد. يقول عمر بن شبة عن الخليفة: "لم تكن له همة إلا طلب محمد والمسألة عنه". وتقول رواية أخرى أنه"جد في طلب محمد وألح في طلبه"[20]. أما إجراءات الخليفة الذي كان يعرف أنه ينازع شخصاً "لا يؤمن وثوبه عليه وانه للذي لا ينام عنه"[21] فتتخلص بالآتي:

1- إرسال العبيد للتجسس على محمد النفس الزكية في الحجاز على هيئة تجار وبائعي عطر وغيره[22].

2- محاولة إقناع عبد الله بن الحسن المحض بإظهار ابنه محمد فكان جوابه دون وجل. "لو كان تحت قدمي ما رفعتهما عنه".

3- حبس الحسنيين والطالبين من أقرباء محمد وخاصة أبيه.

4- إقصاء الولاة الذين لم يجدّوا في طلب محمد وتعيين ولاة آخرين.

5- ولم يتورع الخليفة عن استخدام السحر لمعرفة مكان اختفاء محمد كما تذكر بعض الروايات.

6- إرسال كتب على لسان الولاة والقواد في الأقاليم يدعون محمداً إلى الظهور.

ولعل هذا الإجراءات[23] تعكس مقدرة الخليفة في استغلال الموقف لصالحه عن طريق الاستفادة من النزعة الشريرة لدى أتباعه وتوجيههم ضد محمد. كل ذلك يوضح لنا الموقف السياسي المتأزم والحالة النفسية الحرجة لكلا الزعيمين.

ونشير أخيراً إلى الملاحظات النقدية التالية حول الرسائل:

(أ)- أن الرسالة الأولى للخليفة كانت نذيراً ببدء النزاع المسلح وكانت صفتها دعائية، ذلك لأنها في الوقت الذي تدعو إلى الاتفاق والسلم فإنها تجعل ذلك السلم مستحيلاً بالتهديدات. فهي توعد بالقتل قبل أن تمنّي بالصلح والوفاق، كما أنها تسأل من محمد النفس الزكية أكثر مما تعطيه فعلاً. وهي لذلك بمثابة الإنذار قبل القتال.

(ب)- إن جواب محمد النفس الزكية على رسالة الخليفة يعبّر بصورة واضحة وصحيحة عن موقف المعتدلين من العلويين حول مسألة الخلافة.

1- لقد استند محمد في ادعائه الخلافة لا على كونه من نسل الإمام علي ﷺ فقط ولكن على كونه من نسل فاطمة ﷺ ابنة الرسول ﷺ. وكان على محمد أن يؤكد هذا المفهوم الجديد في نزاعه مع

العباسيين وذلك لأن العباسيين هم أحفاد العباس عم النبي ﷺ بينما علي ﷺ كان ابن عم النبي ﷺ. والعم أقرب من ابن العم.

2- افتخر محمد على أبي جعفر بكونه ابن أم عربية حرة. وهذه الإشارة لا بد أن تكون قد أغضبت الخليفة الذي كان ابن أمة بربرية اسمها (سلاّمة) بينما كان محمد ابن أم عربية هاشمية من نسل الحسين ﷺ. وكان هذا المفهوم الارستقراطي في النسب سائداً في عهد الأمويين بصورة خاصة الذين حرموا أولاد الإماء مثل مسلمة بن عبد الملك من الخلافة رغم مقدرتهم.

ثم أن افتخار محمد بنسبه العربي الأصيل لا يمكن أن يكون قد لاقى قبولاً من الموالي (المسلمين من غير العرب) في الحجاز وخراسان والعراق الذين كانوا أنصاراً للعلويين، خاصة وأنه كان بحاجة إلى الأنصار لأن أكثر القبائل الحجازية لم تكن علوية كما هو الحال في الكوفة. وربما كان الناس في الحجاز يعطفون على العلويون لما لا قوه من شدة وعنف، ولكن الذين يعتقدون بأحقية آل علي في الخلافة كانوا قلة في الحجاز.

لقد ذكّر محمد أبا جعفر بأن جده العباس كان من بين الطرداء والطلقاء واللعناء. أما الطلقاء فهم أهل مكة من الكفار حيث أطلق عليهم الرسول ﷺ هذه التسمية بعد فتح مكة. أما الطرداء واللعناء فهم بعض الأمويين، ولعلها تشير بصورة عامة إلى أولئك الذين حاربوا الرسول ﷺ ولم يدخلوا الإسلام إلا بعد فتح مكة سنة 8هـ/ 632م.

والمعروف أن العباس حارب إلى جانب قريش في معركة بدر، وأسر من قبل المسلمين على أن موقف العباس من الإسلام مسألة فيها نظر كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

3- ولم يلقب محمد نفسه أمير المؤمنين أول الأمر وإنما سمى نفسه (المهدي) وهي الفكرة البراقة التي كانت تجذب إليها العامة أكثر من أية فكرة أخرى لأنها تبعث فيهم الآمال وترضي التطلعات نحو المستقبل.

4- يستهزئ محمد بأمان الخليفة مذكراً إياه بالأمان الذي أعطاه قبل ذلك لعبد الله بن علي ولأبي مسلم الخراساني وليزيد بن عمر بن هبيرة.

5- ولم يترك الخليفة المنصور في جوابه على رسالة محمد النفس الزكية دعوى علوية إلا وأجاب عليها بدعوى عباسية. والواقع أن إجابته تسلسلت نقطة فنقطة دون أن يهمل شيئاً من ذلك. وأهم ما في رسالته الجوابية هو:

(1) دحض أبو جعفر ادعاء محمد على اعتبار أنه يستند على قرابة النساء بينما تعتبر قرابة العمومة (العباس) أقرب من قرابة النساء (فاطمة). لقد كانت محاولة من الخليفة أن يبني ادعاءه على أسس شرعية وأسس تستند على التقاليد العربية فالعم يصبح كالأب بالنسبة لأبناء أخيه المتوفى، والعم والد كما هو معروف لدى العرب.

(2) ذكر أبو جعفر محمداً بأن العباس كان مسؤولاً عن سقاية الحجاج عند الكعبة في الجاهلية والإسلام. وهذا ما يسمى "بحق الحرمة" التي زادت من شهرة العباس بين الناس، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ استغاث به حين حصل الجفاف في الحجاز في إحدى سنوات عهده.

ولعل ذكر أبي جعفر لقرار عمر بن الخطاب كانت له دلالته حيث جعل نفسه في صف (أصحاب الحديث) الذين تطوروا فيما بعد إلى ما يسمى (بأهل السنة والجماعة).

(3) وكان أبو جعفر متعمداً في رسالته حين مدح الفرع الحسيني وفضلهم على الفرع الحسني. ففضل علياً زين العابدين على عبد الله بن الحسن وفضل جعفراً الصادق على محمد النفس الزكية. وبما أن زين العابدين من أبناء أمهات أولاد وأن عبد الله بن الحسن وابنه من أمهات عربيات هاشميات فإن الخليفة يدحض بذلك فخر محمد بقرابة النساء ونقاء الدم بصورة غير مباشرة، ويثبت مركزه باعتباره ابن أم ولد.

(4) إلا أن أهم نقطة في رسالة الخليفة هي حين تتكلم الحقائق والوقائع التاريخية، وهنا يحقق أبو جعفر كسباً قوياً في منافسته لمحمد حيث يبين الخليفة بوضوح أن العلويين حاولوا مرات عديدة الثورة ولكنهم فشلوا ثم حاول العباسيون محاولتهم الثورية فنجحت.

وكرر الخليفة فكرته قائلاً بأن بني هاشم وأهل البيت عموماً لهم الحق نفسه في الخلافة وبما أن العباسيين قد حققوا الانتصار بالقوة فإن انتصارهم يبرر حصولهم على السلطان على عكس العلويين حاولوا مرات الثورة ضد الأمويين ولكن ثوراتهم فشلت المرة تلو الأخرى ثم حاول العباسيون محاولتهم الذين حاولوا ففشلوا.

وقد بين الخليفة هذه النظرة نفسها في خطبة ألقاها على قواده ومواليه وأهل بيته حين سمع بنبأ ثورة محمد حيث قال: (وألقيا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين). أما والله لقد عجزوا عن أمر قمنا به فما شكروا القائم ولا حيوا القائم. كلا والله لأن أموت معززاً أحب إلي من أن أحيا مستذلاً ولئن لم يرض بالعفو مني ليطلبن ما لا يوجد عندي والسعيد من وعظ بغيره).

(5) ويظهر الخليفة نفسه بأنه يستطيع أن يكون كمنافسه فخوراً ومتعالياً حينما يرد في آخر رسالته على ما ذكره محمد من أن العباس كان من الطلقاء فيقول: بأن العباس نفسه خلص طالباً وعقيلاً وفداهما من الأسر. وذكره

كذلك بأن العباسيين قسموا الكثير من الأراضي الأموية على العلويين وأكرموهم.

(6) كما أشار الخليفة بأن العباسيين أخذوا بثأر أبناء عمهم العلويين من الأمويين.

الحسين بن علي بن الحسين بن الحسن المثنى (صاحب فخ) الحسني:

مثلما كانت علاقة آل جعفر الطيار، بصورة عامة، جيدة مع الأمويين كذلك كانت علاقة آل الحسن حسنة مع الأمويين وحين علم عبد الملك بن مروان بوجود مكاتبات بن الحسن السبط وبين أهل العراق كتب إلى عامله بالمدينة بإرساله في التو إلى الشام حيث أبقاه مدّة واستجوبه حول الإشاعات التي تشير إلى مكاتبة أهل العراق له يمنونه بالخلافة ثم أطلق سراحه[24].

وكانت علاقة الخليفة سليمان بن عبد الملك ودية مع عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وبعد أن ثار يزيد الثالث على الوليد الثاني وقتله وكانت الفتنة حرض الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب عبد الله بن الحسن على الثورة إلا أن عبد الله دعا إلى بيعة ابنه محمد النفس الزكية، ولكن مروان بن محمد لم يأبه بنشاطات آل الحسن وكان يقول: لا تهيجوه فليس هو بالذي يخاف ظهوره علينا[25]. والذي يلاحظ أن بني هاشم كانوا مختلفين حول الزعامة وكانت المنافسة حادة ليس بين العباسيين والعلويين فحسب، بل بين آل الحسين وآل الحسن من العلويين أنفسهم: وتشير روايات[26] إلى أن جعفر الصادق كان يدفع الناس عن الولاء لمحمد النفس الزكية، وأن عبد الله بن الحسن المحض الحسني هو الذي وشى ببني العباس ونشاطاتهم ضد الأمويين في عهد مروان بن محمد، وربما كانت هذه الروايات موضوعة أو مبالغ فيها، ولكن العلويين لم يكونوا على وئام.

وقد تردّت العلاقة بين الطرفين بعد مجيء العباسيين إلى الحكم كما أشرنا إلى ذلك، أما الحسين بن علي الحسني هذا فقد تحرك في عهد الخليفة العباسي الهـادي. وكان الحسين بن علي يسمى (العابد) وكذلك (صاحب فخ) وذلك لمقتله في موقعـة فخ[27]. ثار الحسين بن علي الحسني في موسم الحج سنة 169هـ/ 785م وكـان العامل المباشر للثورة اعتقال وسجن عدد من العلويين في المدينة من قبـل واليهـا عمر بن عبد العزيز العمري وتشهيره بهم في شوارع المدينة. إلا أن السبب كـان أعمق من ذلك ويعود إلى سياسة الدولة في متابعة العلويين والتضييق عليهم. كمـا وأن عدداً من الروايات تشير إلى أن الثورة لم تكن رد فعل عفوي على إجـراءات والي المدينة، بل سبق وأن عدّ لها إعداداً محكماً قبل مدة ليست بالقـصيرة حيـث وصل العديد من الأتباع من الكوفة والمناطق القريبة من المدينة. وقد اجتمع الحسين بأنصاره في المسجد فجراً وبعد الخطبة أخذ البيعة بالخلافة من الحاضرين الذين لم يتجاوز عددهم الخمسمائة شخص. وقد تصدى أنصار الدولة العباسية للثائرين وبعد إحدى عشر يوماً من القتال انسحب الشيعة العلوية تاركين المدينة المنورة إلى مكة. وعاد الوالي المختفي إلى دار الإمارة وخرج أهل المدينة إلـى الأسـواق لقـضاء مصالحهم.

بعد دخول أنصار العلويين مكة زادوا من عددهم بقبول أعداد من العبيد إلـى صفوفهم، ولكن الهادي أمر كل العباسيين وأنصارهم المتواجدين فـي مكـة لأداء فريضة الحج تحت زعامة محمد بن سليمان بقتال الشيعة العلوية. ووقعت المعركة في (وادي فخ) في يوم التروية 8 ذي الحجة حيث انتهت بانتصار أتباع العباسـيين ومقتل الحسين بن علي وأكثر من مائة من أنصاره. أما البقية فقد هربـوا تـاركين أرض المعركة[28].

كما قتل عدد من العلويين بعد أن سلموا أنفسهم بعد اطمئنانهم للأمـان الـذي أعلن بعد انتهاء المعركة. وقد امتعض الخليفة حين سماعه بهذه المجزرة وخاصـة

بعد إعلان الأمان ووبخ القائمين بها. وقد صادر والي المدينة عدداً من أملاك ودور الذين شاركوا في الحركة. وحدث الشيء نفسه في الكوفة.

الحسينيون... المعارضة السلبية

مقدمة:

اشرنا سابقاً إن العلويين لم يكونوا متفقين على زعامة واحدة، وهذا يعني بالتالي بأن ولاء شيعة العلويين في تلك الفترة لم يكن موحداً نحو فرع واحد من آل علي. وقد نتج عن ذلك أن هؤلاء الأتباع كانوا بكل سهولة وحسب الظروف يغيرون ولاءهم من فرع علوي لآخر، ومن شخصية علوية إلى أخرى. لقد ظهر هذا التنافس على "الزعامة الروحية" لشيعة علي في حياة علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فقد كانت العلاقة متوترة بينه وبين عمه محمد بن الحنفية ومن بعده ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. كما وأن العلاقة لم تكن ودية بين علي زين العابدين والحسن المثنى ابن الحسن السبط (الفرع الحسني).

وإذا كان زين العابدين يواجه الفرع الحنفي بالقول بأنه ليس من نسل علي بن أبي طالب فحسب، بل من نسل فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، فإنه في مواجهة آل الحسن كان يشير إلى أنه ليس لهم حق في الزعامة بعد تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب ﵁ عنها[29].

محمد الباقر:

خلف محمد الباقر أباه على زين العابدين في زعامة شيعة آل الحسين ﵁، وتشير بعض مصادر الشيعة الإمامية أن أباه قد نص سراً على تعيينه وريثاً له. وأخبر بذلك مجموعة صغيرة من أتباعه المخلصين ولم يصرح بذلك علناً باعتبار أن الإمامة سلطة روحية تورّث بالتعيين والنص والتعاقب للابن الأكبر[30]. كانت

أيام محمد الباقر صعبة فمن جهة لحفت بحركات غلـو مختلفـة مثـل المغيريـة والجناحية التي اعتقدت بآراء متطرفة خاصة حول شخص الإمام وطبيعة الإمامـة، وقد حاول الباقر يعيدهم إلى التشيع المعتدل، بل انه تبرأ علانية من بعضهم بعد أن فشل في إقناعهم بترك تلك الآراء المتطرفة المغالية[31].

أما من الجهة الثانية فقد واجه محمد الباقر كأبيه منافسات ودعـاوى حـول الزعامة الروحية (الدينية) بل على تقلد السلطة الدنيوية. كما نقل بعض النشطين من أتباع محمد الباقر ولاءهم إلى عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن الـسبط ومـن هؤلاء المغيرة بن سعيد العجلي وجماعته. وأنكر الباقر من جهة ثالثة على بعـض شيعته اعتقادهم بأن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب هو (القـائم) وسـيعود ثانية بعد غيبته "ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"[32].

ومن أجل أن يعزز موقفه تجاه منافسيه من شخصيات آل البيت العلوي، طوّر الباقر مفهوم العلم السري الذي يملكه الإمام الحق من آل البيت، وأن هذا العلم انتقل من الأنبياء إلى الرسول ﷺ ومنه إلى الإمام علي بن أبي طالب ﷺ ومن ثم إلـى أولاده من بعده حيث ينقله كل إمام قبل موته إلى خلفه[33]. وهـذا العلـم يتـضمن القرآن وتفسيره ظاهراً وباطناً والشريعة كاملة[34]. ولذلك فإن التعرف علـى علـم الإمام الحق ضروري لكل فرد ومن خلال إرشادات الإمام يمكـن للفـرد العـادي التعرف على الطريق السوي. والإمام الحق له علامات وآيات مميزات[35]. وهـو يمثل قيادة روحية ملهمة Charismatic Leader. على أننا لا بد أن نـشير بـأن العديد من الصفات التي ألصقت بالباقر والاراء التي نـسبت إليـه بحيـث جعلتـه شخصية غير عادية تعود إلى الحلقات المتطرفة والذين عاشوا بعده وكـان للبـاقر أتباع في مكة أشهرهم ميمون القداح مولى بني مخزوم ولكن غالبية أتباعه كانوا في الكوفة من القبائل اليمانية[36]. إن الموقف المسالم سياسياً الذي اتخذه الباقر قـد أدى

إلى انشقاق أتباعه النشطين والفعالين ونفورهم إلى زعامات علوية أخـــرى، وقـــد تذمر الباقر وابنه الصادق منهم وسماهم الأخير (النصّاب)[37].

جعفر الصادق:

كان جعفر (الصادق) أكبر أولاد الباقر وقد ولد سنة 80هـ/ 699م بالمدينـــة المنورة وينتسب من جهة والدته أم فروة إلى الخليفة أبي بكر الصديق[38].

خلف الصادق والده في زعامة شيعة آل الحسين سنة 119هـ/ 737م وكانت إمامته في فترة حرجة شهدت العديد من الثورات كما شهدت الانتقال من الأمـــويين إلى العباسيين[39].

كان الصادق محدثاُ وراوية للحديث وفقيهاً ذائع الصيت ومروياته اعتمد عليها فقهاء أهل السنة في أسانيدهم مثلما اعتمد عليها فقهاء الشيعة[40].

يعدّ الصادق آخر الأئمة العلويين المعترف بهم من قبل كـــل فـــرق الـــشيعة، الإمامية منها والإسماعيلية، وكان موقفه السياسي لا يختلف عن موقف أسلافه مـــن الأئمة من آل الحسين ويتسم بمهادنة السلطة السياسية وعدم حمل الـــسلاح ضـــدها والوقوف منها موقف يمكن أن نطلق عليه المعارضة السلبية. وخلال حركة زيد بن علي زين العابدين سنة 122هـ/ 739م كان الصادق رمزاً لعدم استعمال الـــسلاح كما بقي الصادق وشيعته مسالماً ومحايداً خلال الحركات السياسية التي تلـــت مقتـــل الخليفة الوليد الثاني بن يزيد سنة 126هـ/ 744م. ولذلك ذهب القول عنه مثلاً "لقـــد شغل الصادق بالعبادة عن طلب الرئاسة"[41].

لقد جابه الصادق المشاكل نفسها التي جابهها أبوه الباقر ألا وهـــي: منافـــسة بعض الشخصيات العلوية لزعامته الروحية، والانشقاق في صفوف شيعته وخاصة الفعالين منهم الذين يؤمنون بالمعارضة الإيجابية ويرون حمل السلاح ضد الـــسلطة الأموية ثم العباسية. إلا أن جعفر الصادق ظل ثابتاً على موقفه السلمي ولم يـــستغل

الفراغ السياسي الذي تركه مقتل زيد بن علي زين العابدين في الوقت الذي كان عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن أسرع إلى استغلاله وجمع الأتباع حول ابنه محمد النفس الزكية الذي رشحه أبوه للخلافة[42]، كما اشرنا إلى ذلك.

أما شيعة العلويين في أيام الصادق فيمكننا تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: المجموعة التي أيدت مواقف زيد بن علي المعتدلة في عقيدتها النشطة في معارضتها السلطة. وكان يساندها آل الحسن وشيعتهم وكـذلك مجموعـة مـن الفقهاء المعتزلة وأهل الحديث في المدينة المنورة والكوفة. وقد نقلت ولاءهـا بعـد زيد إلى ابنه يحيى.

الثانية: المجموعة التي أيدت جعفر الصادق والتي كانت تعبّر عـن مواقفهـا السلمية وعدم رغبتها في الفتنة وطورت من خلال جعفـر الـصادق آراءاً حـول الإمامة ومسؤوليات الإمام تميل إلى الاعتدال والوسـطية بـين الزيديـة والغـلاة المتطرفين.

الثالثة: الغلاة (المتطرفون) ولم يكونوا فرقة واحدة، بـل مجموعـات تـدين صغيرة متعددة انبعث أصلاً من حركة الكيسانية وغالبيتهم في الكوفة، وكانت هـذه المجموعات تدين بآراء بعيدة عن الإسلام الصحيح مثل الحلول والتناسخ والتـشبيه وما إلى ذلك، وقد اتخذت حب آل البيت العلوي خاصة شـعاراً وبرقعـاً لتمريـر نشاطاتها بين الناس. وقد تبرأ منها الأئمة العلويون ومنهم الصادق. وكـان جـابر الجعفي وأبو الخطاب من الغلاة وكانت شخصية أبي الخطاب الأسدي مـولى بنـي أسد أقوى شخصية بين الغلاة وكان يعزو بعض أفكاره إلى الصادق ولكن الصادق أنكرها وتبرأ منه[43]. ورغم أن بعض هذه الآراء الغالية جعلـت مـن شخـصية الصادق وإمامته جذابة وكسبت له العديد من الأتباع إلا أن الصادق لم يقبـل بهـا وعمل على السيطرة عليها وتحجيمها بحيث لا تتجاوز الحدود المقبولة.

جعفر الصادق وتبلور الموقف من الإمامة[44]:

تجاه هذه الظروف طوّر جعفر الصادق مفاهيم جديدة حول الإمام وطبيعة الإمامة. أما الإمام فليس من الضروري على الإمام الشرعي de Jure (أو الإمام الحق) أن يجمع بين السلطتين الدنيوية والدينية أو يدعي أي نفوذ سياسي لنفسه إذا كانت الظروف غير مواتية ولا تسمح له بذلك. وبمعنى آخر فقد قسم الصادق الرئاسة إلى مؤسستين الإمامة والخلافة وتستمران كذلك حتى يأذن الله بنصر من عنده. وكان يحيل أتباعه النشطين الذين يدعونه إلى التحرك ضد السلطة يحيلهم إلى المستقبل واعداً إياهم أن النصر سيتم على يد الإمام السابع إذا أذن الله بذلك. ويرتبط بهذا المفهوم مبدأ (القعود) وفحواه أن الإمام الحق لا يحتاج إلى الوصول إلى السلطة ما لم تكن الظروف مهيأة والوقت مناسباً ويبقى الإمام خلال هذه الفترة مقتنعاً بإعطاء العلم.

وبلور الصادق مفهوم "العلم" الذي نادى به أبوه الباقر ومضمونه أن الإمام يمتلك قدراً من العلم اللّدني الشرعي المتوارث الذي أخذه الأئمة بالتتابع عن الرسول ﷺ.

وليس من الصعب بعد ذلك كله فهم موقف الصادق غير المعني بالصراع على السلطة في أيامه. فاستناداً إلى مفهومه للإمامة لم يكن من الضروري للإمام المنصوص عليه (بالنص والتعيين) أن يقود مجابهة مسلحة من أجل الوصول إلى الحكم. إن مكانة الإمام – من وجهة نظر الصادق – فوق مكانة الحاكم السياسي (الخليفة أو السلطان) الذي يتحتم عليه أن ينفذ تعليمات الإمام باعتباره السلطة الدينية العليا.

لقد كان الصادق يرى أن الثوار من العلويين أمثال زيد بن علي وابنه يحيى ومحمد النفس الزكية إذا ما نجحوا في حركاتهم فإن لهم الحق في السلطة السياسية، أما السلطة الدينية (الروحية) فتبقى بيد آل الحسين. وقد تكلم عن أتباع الزيدية ناعتاً

إياهم "النصاب" وأنكر أن يكون لآل الحسن أية دعوى للرئاسة بعد تنازل الحسن عنها.

لقد دعى الصادق إلى الرئاسة الروحية مستنداً على مبدأ النص والتعيين والعلم السري اللّدني مؤكداً أن الإمام حجة الله في الأرض يلهمه الصواب في القول والفعل، بينما لم يدعي الزيدية أو الحسنية النص والتعيين، وهي كما يقول الأشعري نقطة الارتكاز لدى الإمامية التي تميزّهم عن غيرهم من الفرق الشيعية[45].

ولكن لا بد من الإشارة إلى أن شخصية الصادق ومفاهيمه حول الإمامة قد اختلطت فيها الروايات الموثوقة بالروايات الموضوعة والمنسوبة إليه ولا سيما من قبل الغلاة (المتطرفين)، وليس من السهل على الباحث أن يفصل بين الحقيقة والأسطورة. وثمة أمر آخر وهو أن المصادر التي بحثت في سيرة الصادق، تلك الشخصية المؤثرة والنشطة، سواءً كانت مصادر أمامية أو إسماعيلية أغلبها مصادر متأخرة خلطت التاريخ بالروايات الشعبية أعطت صورة مبالغ فيها عن الصادق وسائر الأئمة العلويين. وحتى المصادر السنيّة المتأخرة لم تستطيع أن تتخلص من هذه المؤثرات الأسطورية، بل إن بعضها عدّه رأس الصوفية وقطباً للعديد من طرقها، في الوقت الذي كان ينظر إلى الإمام الصادق من مجتمع عصره كفقيه وعالم ومحدث كبير مثلما كان ينظر إلى الإمام مالك بن أنس أو واصل بن عطاء أو الحسن البصري أو الليث بن سعد أو الأوزاعي أو أبي حنيفة مع الفارق وهو أنه من ذرية آل البيت. كما وأنه بقي على رأس الشيعة من آل الحسين فترة طويلة نسبياً تفوق أي إمام آخر وتقرب من الثمان وعشرين سنة.

لقد كان فقهاء المدينة المنورة والكوفة مثل محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ومحمد بن شبرمة وسفيان بن عيينة وابن جريج وروح بن القاسم وأبي حنيفة يزورونه ويسألونه في مسائل شرعية وفي تفسير القرآن. وكان الصادق في كل إجاباته وفتاواه للفقهاء أو العامة من الناس يتقي كل ما من شأنه إثارة السلطة. فقد

زاره المحدث والفقيه سفيان الثوري فقال له الصادق: "يا سفيان إنك رجل يطلبه السلطان وأنا أتقي السلطان قم فأخرج غير مطرود"[46]. وقد قال أبو حنيفة بعد أن قابل الصادق وسأله بعض الأسئلة الفقهية: "أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس".

إن هذا الموقف المتزن من الصادق بالإضافة إلى شخصيته النافذة كان موضع تقدير من السلطة الأموية ثم العباسية. من هنا كانت علاقته طيبة مع الخليفة أبي جعفر المنصور، وفي رواية تاريخية أن هذا الخليفة هو الذي لقّبه (بالصادق)[47]، كما وأنه امتدحه في الرسائل المتبادلة بينه وبين الثائر محمد النفس الزكية وعدّه أفضل العلويين المعاصرين لتلك الفترة حيث يقول[48]:

"وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله ﷺ أفضل من علي بن حسين وهو لام ولد ولهو خير من جدك حسن بن حسن وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علي وجدته أم ولد ولهو خير من أبيك ولا مثل ابنه جعفر وجدته أم ولد ولهو خير منك".

ويعود هذا الموقف من المنصور إلى أسباب عديدة هي:

1- حذّر الصادق أتباعه من الاشتراك في أية فعاليات سياسية في تلك الفترة الحرجة كما حاول جهده أن يبتعد وأتباعه عن كل الحركات الهاشمية التي حدثت في أيامه وهي كثيرة مثل الزيدية والجناحية والهاشمية والدعوة العباسية وأخيراً حركة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم الحسني.

2- كفقيه وشخصية مؤثرة من آل البيت ابتعد الصادق عن الصراع بينما كان غيره من الفقهاء يصدر الفتاوى المباشرة أو غير المباشرة لإسناد هذه الحركة أو تلك.

3- تبرأ الصادق من نشاطات وآراء أبي الخطاب الأسدي وكل الفعاليات التي كان يقوم بها الغلاة الذين تستروا تحت اسم التشيع والولاء للصادق أو آل البيت عامة.خاصة وأن شخصية الصادق وعلمه كان يجذب إليه الكثير

من المفكرين النشطين أمثال جابر الجعفي والفيلسوف المتكلم هشام بن الحكم ومحمد بن النعمان الملقب (شيطان الطاق) وغيرهم.

4- ونشير هنا إلى مواقف أخرى تتسم بالحكمة والتعقل والاعتدال حفظها له المنصور منها[49].

أ. موقفه الرافض من بيعة محمد النفس الزكية في اجتماع الابواء قرب مكة في أواخر عهد الدولة الأموية.

ب. رفضه العرض الذي تقدم به أبو سلمه الخلال وزير آل محمد بنقل الخلافة من عباسية إلى علوية وتنصيب الصادق خليفة للمسلمين.

ج. إخباره السلطة العباسية باتصال أحد الدعاة العباسيين به وهو بسّام بن إبراهيم وعرضه إعلان خلافة علوية برئاسته.

توفي الصادق سنة 148هـ/ 765م واختلفت الروايات في أسباب وفاته والأغلب أنه مات موتاً طبيعياً ودفن بالبقيع بالمدينة والمنورة. وأشارت روايات أخرى أنه مات بالسم ونسبت إليه القول "ما منا إلا مقتولون أو شهيدون" إلا أن هذه الروايات ضعيفة وليس لها ما يبررها.

لقد كان الصادق علماً من أعلام الشريعة والفقه ورمزاً من رموز الدعوة إلى السلم وتجنب الفتنة، حافظ على أرواح أتباعه وتماسكهم وتمسك بالنهج الإسلامي الصحيح لمذهب الشيعة من آل الحسين محاولاً الحد من الآراء الدخيلة التي كان الغلاة ينسبونها إليه. وفي حياته بدأ يتضح شيئاً فشيئاً موقف متبلور لشيعته التي سميت باسمه (الجعفرية) والتي سميت فيما بعد (الاثنا عشرية والأمامية). ولم يكن في حياته اختلاف واضح بين مذهبه والمذاهب الأخرى من الناحية الفقهية، فقد كان الفقهاء والمحدثون يستفتونه ويأخذون برأيه دون حرج ومن هنا جاء قول هاملتون جب[50]:

"لي هناك في الواقع برهان قاطع في تلك الفترة عن انشقاق بين مذهبي السنة والشيعة الأمامية... ولم يكن هناك من يهتم بتقييد نشاطهم أو معاقبتهم بسبب مذهبهم.. ".

وإذا كانت سياسة الصادق في جنوحه للمسالمة والابتعاد عن السياسة قد أبعدت عنه أتباعه النشطين والفعالين وأنقصت من شيعته على المدى القصير فإنها في المدى البعيد حققت نجاحاً واضحاً، لأن الناس عامة تفضل السلم وعدم التورط في القتال وعلى حد قول أحد أتباع الزيدية:

"ان الباقر والصادق دعوا الناس إلى الحياة ونحن دعوناهم إلى الموت".

لقد انضمت غالبية الشيعة العلوية إلى مذهب جعفر الصادق وعدته إمامهم. وقد امتدحته كتب الشيعة والسنة على حد سواء ونسبت إليه العديد من الرسائل والكتب. وعدّ قطباً من أقطاب الصوفية ومعلماً لجابر بن حيان في الكيمياء. ونسب إليه كتاب (الجفر) الذي يتنبأ بالمستقبل، كما نسبت إليه العديد من الأحكام والأقوال والأحاديث في مختلف أبواب العلم بحيث اختلطت الأمور على الباحثين المحدثين في التعرف على آرائه الحقيقية أو تلك التي تنسب إليه.

وينسب إلى الصادق مؤلفات منها:

رسالة في شرائع الدين.

رسالة في الغنائم ووجوب الخمس.

كتاب مصباح الشريعة.

رسالة إلى أصحاب الرأي والقياس.

رسالة في وجوه المعايش للعباد ووجده إخراج الأموال.

رسالة في الاحتجاج على الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق.

ووصاياه لابنه موسى الكاظم.

- وكان الصادق قد أوصى أولاً لابنه إسماعيل وهو أكبر أبنائه وأمه عربية حفيدة الحسن السبط ومات إسماعيل في حياة أبيه.
- ولكن فئة من أتباعه لم يعترفوا بوفاته وأشاروا إلى اختفائه واعتقدوا برجعته.
- إلا أن فئة أخرى من شيعة الصادق اعترفت بموت ابنه إسماعيل ونقلت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل. ومن هؤلاء (القرامطة) الذين اعترفوا بإمامة محمد بن إسماعيل وتوقفوا عنده ولم يعترفوا بوفاته وانتظروا رجعته مهدياً منتظراً.
- فئة من أتباع الصادق اعترفت بعبد الله بن جعفر الصادق باعتباره أكبر أولاد الصادق بعد إسماعيل ولكن عبد الله مات بعد فترة قصيرة أيضاً.
- وفئة أخرى اعترفت بمحمد بن جعفر الصادق.
- وفئة أخرى قالت أن جعفر الصادق نفسه لم يمت بل اختفى وسيعود مهدياً منتظراً.
- على أن الأغلبية استقرت بعد ذلك وبتوجيه من الصادق على إمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهذه الفرقة تطورت إلى الاثني عشرية أو الأمامية وعدت الصادق الإمام السادس وابنه موسى الإمام السابع.

إن هذه الانشطارات التي تعرضت لها فرقة واحدة من فرق الشيعة بعد وفاة الإمام إن دلّت على شيء فإنما تدل على الاختلاف في وجهات النظر السياسية/ الدينية بين الفئات التي تكوّن المجموعة الواحدة وانعدم الوضوح في الرؤية وضعف الولاء للإمام بحيث يسهل على فئة معينة تغيير ولائها من شخص لآخر من العلويين، هذا بالإضافة إلى تواجد قدر معين من الشقاق والنفاق بين شرائح معينة ضمن

المجموعة الواحدة. لقد نجح الصادق بعد جهد طويل في كسب غالبية الشيعة إلى جانبه وانتصر على منافسيه في الزعامة الروحية وكان ينصح زوّاره بالقول: "من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ومن حزنه أمر فليقل لا حول ولا قوة إلا بالله".

نظرية الإمامة عند الجعفرية (ألاثني عشرية):

يمكننا أن نلخص نظرية الإمامة عند شيعة الاثني عشرية بأنها فرض من الفروض، بمعنى وجوبها ووجودها في كل زمان ومكان. وهي منصب ديني إلهي لا يجوز تركه للبشر بمعنى أن الله ورسوله ينصان على الإمام فهي والحالة هذه بالنص والتعيين وهي ميراث النبوة وللإمام ما للنبي باستثناء الوحي والكتاب.

فإذا كان مبدأ النص والتعيين أول المبادئ لدى الجعفرية، فإن المبدأ الثاني هو العصمة أي عصمة الإمام من الأخطاء والذنوب. وقد تطور مفهوم العصمة في عهد الإمام جعفر الصادق وبرز في الكلام عنه أحد متكلمي الشيعة المشهورين وهو هشام بن الحكم. وعصمة الرسول ﷺ لا تغني عن عصمة الإمام لأن أحوال الزمان تتغير والأحكام تتجدد والناس في كل عصر بحاجة إلى إمام يفسر. أما المبدأ الثالث فهو العلم اللّدني للإمام الذي لا يشوبه سهوٌ أو خطأ. وهذا العلم ليس تحصيلياً ولا تعليمياً وإنما علم حضوري. وهذا العلم يرثه الأئمة عن الأنبياء دون اكتساب، بل هو ينتقل من أصلاب الأنبياء ثم الأئمة الواحد بعد الآخر. وإذا كان الوحي قد انقطع بعد النبي ﷺ فإن فيض الله ولطفه لم ينقطع وان الإمام يلقن العلم في قلبه. وبجملة واحدة فإن الشيعة الإمامية ترى أن الإمامة خلافة عن الله ورسوله معاً وأن أحكام الإمام إلهية إذ هو يشارك الرسول محمد ﷺ في العصمة. وتشارك الاثنا عشرية فرقاً إسلامية أخرى في مبدأ التقية وهي أخفاء المعتقد خوفاً من الهلاك أو السجن وقد عرّفها أحد فقهاء الإمامية "كتمان الحق وستر الاعتقاد به... بما يعقب ضرراً في الدنيا والدين"[51].

لقد عوّض الإمام جعفر الصادق عن النشاط السياسي بالنشاط العلمي والفقهي الذي تميّز به، وقام بتطوير "مذهب آل البيت" وبمرور الزمن تكاثر أتباعه، خاصة بعد خلو المسرح السياسي من العلويين النشطين الذين تحركوا فقتلوا أو سجنوا من قبل العباسيين. وقد شجع العباسيون أئمة العلويين على النشاط في مجالات الفقه والعلوم الدينية دفعاً لهم عن التفكير في الرئاسة والأمور السياسية. ثم أن شخصية الصادق وعلمه الغزير جعله في مأمن من السلطة وموضع احترامها. ولم يأت بعده إمام مماثل لشخصيته أو مساو لمستواه الفقهي.

موسى الكاظم:

خلف الإمام موسى (الكاظم)[52] أباه جعفر في زعامة الشيعة الأمامية سنة 148هـ/ 765م وقد وصفته المصادر بالتقوى والصلاح وصفاء السريرة وقد شابه أباه وجده في هدوئه وجنوحه للسلم وكان يعتمد عدم الظهور في النشاطات العامة تجنباً لشكوك السلطة العباسية.

لم يتميز الكاظم على عكس أبيه الصادق في العلوم الشرعية أو في تطوير المذهب الإمامي ومع ذلك فقد كسب ولاء الناس المتعاطفين مع آل البيت من خلال صفاته الخلقية الحميدة. ورغم ابتعاد موسى الكاظم عن الفعاليات السياسية إلا أن كثرة الروايات حول ما يصله من أموال الخمس من أتباعه التي ازداد مقدارها بحيث كونت ثروة لا بأس بها في حياة الكاظم، وكذلك حقيقة كونه علوياً فاطمياً جعلت منه مصدر خطر على العباسيين. فقد استدعاه الخليفة العباسي محمد المهدي إلى بغداد واصفاً إياه تحت الإقامة الإجبارية ثم سمح له بعد فترة بالعودة إلى المدينة المنورة. ومن المعروف أن الكاظم لم يساهم في ثورة فخ التي قادها في المدينة المنورة الحسين بن علي الحسني سنة 169هـ. إن تشديد الخليفة المهدي العباسي على العلويين يعود إلى فشله في محاولة التوفيق بين العباسيين والعلويين الذين شكوا في سياسته المرنة ولم يثقوا بإجراءاته لتحسين العلاقة بين فرعي آل البيت

الرئيسين. كما وأن التشديد بصفة خاصة على موسى الكاظم يعود إلى نشاطات فرقة من (الغلاة) الذي عرفت بتسترها تحت شعار العمل من أجل آل الحسين وهي الفرقة الحسينية نسبة إلى الحسين بن أبي منصور التي تحرك وقتل في عهد المهدي. أن الشيعة كانت تعلق آمالاً كبيرة على موسى الكاظم باعتباره الإمام السابع (القائم) الذي سيقود أتباعه إلى النصر "ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"، ولكن ذلك لم يتحقق[53].

ولكل العوامل أنفة الذكر فقد اتهم الكاظم مرة أخرى في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي اعتقله في البصرة ثم في بغداد دون أن يوجه له أية اتهامات محددة، وتذكر العديد من الروايات الاثني عشرية[54] حسد أقربائه المقربين له مثل محمد بن إسماعيل الذي وشى به إلى الرشيد. وترى روايات أخرى أن الذي حاك خطة الوشاية به هم جماعة من البلاط العباسي المقربين للخليفة. ومهما كان الأمر فقد ذكرت بعض الروايات أن الكاظم قتل في سجن الرشيد، والأصح أنه مات ميتةً طبيعية في بغداد حيث كان تحت الإقامة الإجبارية في عهد الرشيد[55].

علي الرضا:

جاء علي الرضا بن موسى الكاظم[56] بعد أبيه في زعامة الشيعة الأمامية أو الجعفرية كما بدأوا يسمون أنفسهم نسبة إلى جعفر الصادق. وفي عهده اكتملت عقائد الشيعة الاثني عشرية إذ تنسب إليه صحيفة تحوي نصوصاً مذهبية بحتة عن الإمامة. ويظهر الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم كأبرز إمام بين الأئمة الاثني عشرية المتأخرين، وكان ذو شخصية نافذة حافظ على أتباعه ووازن بين مبادئه وعلاقاته بالعباسيين، فكان موضع احترام وتقدير من إلى الحد الذي جعل الخليفة المأمون يختاره ولياً للعهد. وسنتطرق فيما يلي إلى تلك العلاقة الفريدة والتي يكتنفها الغموض بين الإمام علي الرضا والخليفة المأمون.

علي الرضا وولاية العهد للمامون العباسي:

المعروف أن الخليفة المأمون كان أول خليفة يتخذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة، كما أنه يتميز بسياسته التوفيقية تجاه العلويين بحيث بايع لعلي الرضا بولاية العهد سنة 201هـ. وفي ذلك يقول ابن الطقطقي "ومن اختراعاته نقل الدولة من بني العباس إلى بني علي"[57]. ورغم أن الكثير من المؤرخين المحدثين بحثوا في خلافة المأمون إلا أنهم – عدا جابر يللي وسورديل[58] لم يحاولوا أن يربطوا بين سياسة الخليفة الاعتزالية وبين ميله للعلويين. كما أظهر برنارد لويس[59] أن سياسة المأمون الاعتزالية كانت محاولة للتوفيق بين الدولة العباسية والمعارضة الشيعية العلوية.

إن الباحث في دوافع الخطوة التي خطاها الخليفة المأمون لا بد أن يرجع، كما يرى سورديل[60]، إلى الفترة التي سبقت عصر المأمون. ففي خلافة هارون الرشيد الطويلة (170 – 193هـ/ 786 – 809م) حيث تعقدت المشاكل السياسية وزادت مؤامرات دار الخلافة ودور الحريم في السياسة كما يلاحظ بروز الكثير من الميول الفكرية والنزعات السياسية وتصادمها واصطراعها في حلقات المثقفين والمفكرين في بغداد. ولعل أبرز ما كان يدور في هذه الحلقات من المواضيع السياسية الفكرية هو المشادة العنيفة بين دعاوى العباسيين والعلويين حول الخلافة. فبعد أن استطاع العباسيون بالقوة القضاء على الخلافة الأموية، استمر العلويون من معارضتهم فقابلهم المنصور بشدة وقضى على حركاتهم. على أن الرشيد لم يكن قوياً كالمنصور، ولهذا نلاحظ بوادر الانحلال السياسي تظهر في عهده[61]، بل إن أول انشقاق في موقف الدولة تجاه المعارضة العلوية ظهر في عهد الرشيد أيضاً. فقد حاول الرشيد أن يكون شديداً مع العلويين ولكن البرامكة الذين سيطروا على الإدارة زهاء 17سنة (170هـ/ 786م – 187هـ/ 830م) لم يوافقوا الرشيد على هذه السياسة مما أثار غضب الرشيد في عدة مناسبات. ولعل الفضل البرمكي كان من

أبرز المعارضين وقد استطاع أن يقنع يحيى بن عبد الله الحسيني، بمرافقته من بلاد الديلم إلى بغداد وضمن له أمان الخليفة الذي لم يدم طويلاً حيث قتله الرشيد بعد فترة وجيزة أو سجنه ومات في السجن[62]. وقد وسع هذا النقض للأمان الشقة بين الخليفة والفضل البرمكي – الذي عزل عن مسؤولياته الإدارية في المشرق الإسلامي. كما وأن الفضل البرمكي بعد فترة ليست بالبعيدة عن اعتقال يحيى الحسني، رفض أوامر الرشيد بالتخلص من موسى الكاظم بشكل من الأشكال[63]. وبسبب ذلك لم يعد الفضل البرمكي يلعب إلا دوراً ثانوياً في السياسة العباسية. وهناك روايات تشير إلى عطف الفضل البرمكي على محمد بن إبراهيم طباطبا وكذلك علاقة يحيى البرمكي بأحمد بن عيسى الحسيني[64]. وهكذا فالبرامكة – أو بعضهم بتعبير أدق – عرفوا بعطفهم لا تأييدهم لبعض العلويين على عكس السياسة العباسية المتبعة. وربما فسر ذلك لنا سبباً من أسباب نكبتهم.

ومهما يكن من أمر فإن وضع البرامكة يبقى غامضاً ومحيراً. فهل كان البرامكة قانعين بإبداء عواطفهم تجاه العلويين، أم أنهم حاولوا التوفيق بين[65] البيتين العلوي والعباسي، أم أنهم كانوا يتحينون الفرصة لقلب الحكم من عباسي إلى علوي؟؟

وليس هنا محل بحث أو استقصاء هذه الأسئلة ولكننا نقول بأن موقف البرامكة المتميز بالمرونة والعطف نحو العلويين كان يتماشى تماماً مع الوجهة الفكرية والثقافية للعصر. تلك الوجهة التي تتميز بحرية الرأي والمناقشة في مختلف المواضيع الدينية والسياسية والفلسفية. وقد عرف بعض البرامكة بتشجيعهم لهذا الاتجاه وعقدهم الندوات لسماع المناقشات الفكرية التي كان يحضرها أنصار من مختلف الفرق والمذاهب السياسية والكلامية. كما عرف عن البرامكة أنهم شجعوا الترجمة من الإغريقية إلى العربية تلك الحركة التي زادت في عهد المأمون. ورغم أننا لا نستطيع القول بأن البرامكة كانوا معتزلة إلا أنهم اتخذوا الموقف الذي تبنته

المعتزلة بعدئذ ألا وهو مناقشة الآراء والمذاهب ودحض الضعيف منها وذلك بتحكيم العقل والمنطق ودافعوا عن هؤلاء الذين عرفوا بهذه الآراء "الحرة"[66].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فالمعروف أن هناك ارتباطات غير قليلة بين المعتزلة والحركة الشيعية العلوية المعتدلة رغم الاختلافات في بعض الظواهر العقائدية والفكرية والمواقف السياسية. وقد رفض واصل ابن عطاء الغزال رأس المعتزلة الأوائل أن يقرر هل أن مرتكب الكبيرة كافر أم مؤمن. ومعنى ذلك أن المسلم الذي يحمل السلاح ضد أخيه المسلم لا يكون كافراً أو مؤمناً، بل "منزلة بين المنزلتين". بل أكثر من ذلك فقد عرف بصداقته لمحمد بن الحنفية وإن بن زيداً علي كان تلميذاً له. وهذا يدل على ارتباط واصل بالعلويين[67]. ويشير سورديل "ورغم أن البعوث التبشيرية التي أرسلها واصل إلى الأقاليم لم تترك لنا شيئاً يعرفنا على فعالياتها إلا أنه يمكن القول بأنها مرتبطة بفعاليات شيعية علوية رغم فرضية نيبرك"[68]. كما يشير سورديل إلى تأييد المعتزلة لمحمد بن عبد الله المحض (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم في البصرة. مما يدل على أن المعتزلة والزيدية من شيعة العلويين كانا أقرب إلى بعضهما بحيث شكلا جبهة واحدة[69]. وفي عهد الرشيد كان جماعة من الزيدية يدعون "معتزلة بغداد". وقد أمر الرشيد بسجن بشر بن المعتمر لميوله العلوية، كما ولاقى ثمامة بن الأشرس المعتزلي العناء بسبب دفاعه عن أحمد بن عيسى الزيدي[70].

وهكذا فرغم أن معتزلة البصرة تبنوا بصورة عامة موقف من سموا فيما بعد "أهل السنة" حول الخلافة وطبيعتها، فإننا نلاحظ في نهاية القرن الثاني للهجرة ظهور كتلة كبيرة من المعتزلة التي تقاربت مع الزيدية في آرائها وكانت عوناً لها في مواقفها السياسية كما ظهر في ثورة محمد النفس الزكية وإبراهيم. والمهم أن ارتباط البرامكة بهذه الكتلة وتأييدهم لآرائها لا يمكن إلا أن يكون له أهميته السياسية.

إن المناخ الفكري والسياسي في أواخر عهد الرشيد والذي كان يمثله المثقفون ويؤيده البرامكة كان يتميز بالتسامح والمرونة وحرية الرأي، وبمعنى آخر سعة الأفق المبنية على تحكيم العقل وهو الشعار الذي نادى به المعتزلة ثم المرونة تجاه العلويين. على أن هذا الاتجاه بأبعاده المختلفة كان لا يلقى قبولاً لدى الخلفاء العباسيين وعارضه كذلك بعض الفقهاء والعامة. فقد عارض الفقيه أبو يوسف آراء المعتزلة ووسائلها في استعمال المنطق والكلام في موضوع العقيدة والشريعة وقال قولته المشهورة "من طلب العلم بالكلام تزندق"[71]. وقد اشتد الرشيد على أهل الكلام ومنع المناقشات حول مسألة "خلق القرآن" كما وطارد القائلين بها مثل بشر المريسي[72]. وقد استمرت مطاردة المعتزلة في عهد الأمين كما هو واضح من رواية الكندي[73] الذي يشير فيها إلى أن قاضي مصر رفض شهادة احد الشهود المهتمين بالقدرية ويؤكد الجاحظ التعسف الذي قاسى منه المعتزلة قبل عهد المأمون من السلطة ومن العامة الذي يهاجمهم الجاحظ ويتهمهم بالجهل والتقليد وإثارة الفوضى[74]. ويظهر الجاحظ امتعاضه الشديد من "عامة بغداد" الذين عارضوا سياسة المأمون المعتزلي. ورغم أن الجاحظ معتزلي في آرائه[75]، ولذلك يجب الحذر من مبالغاته إلا أن الحوادث التاريخية تؤكد معارضة بأهل بغداد لسياسة المأمون الموالية للعلويين والمعتزلة.

ولكن ما هو دور المعتزلة في سياسة المأمون العلوية؟؟ من المعروف أن المأمون كان محاطاً بالمعتزلة حين اتخذ قراره بالبيعة لعلي الرضا سنة 201هـ/ 817م، وكان بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشرس بين الشهود الذين وقعوا وثيقة العهد. والمعروف كذلك أن بشر بن المعتمر وثمامة من معتزلة بغداد المعروفين بميولهم العلوية. كما وأننا ذكرنا سابقاً التقارب المذهبي بين المعتزلة والزيدية. على أن الذي يثير الاستغراب هو أن المأمون اختار علوياً من الفرع الحسيني هو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وهو من الأئمة الأمامية وليس من التي الزيدية لا تعترف بإمامته. ولذلك فنحن لا نستطيع أن نقول بأن دور

المعتزلة كان كبيراً في هذا الاختيار بالذات ولكنهم أثروا على الخليفة بصورة غير مباشرة بأن سوغوا له جدوى النظرية الزيدية في الإمامة مما دفعه إلى هذا الاختيار[76].

ويشير سورديل إلى أن وجود الفضل بن سهل وهو من صنائع البرامكة ساعد أيضاً على هذا الاختيار، خاصة وأن المصادر تتهمه بمحاولة السيطرة على الخليفة وتحويل السلطة من أيدي العباسيين. وأن ارتباطاته بالشيعة جعلته يندفع في مغامرة كلفته حياته في النهاية[77].

ومهما يكن من أمر فإن هدفنا هو التأكيد على نقطة واحدة ألا وهي أن الجو الفكري والسياسي في الفترة التي سبقت عصر المأمون، وكذلك الظروف السياسية كانت كلها إلى جانب السياسة المرنة والتوفيقية المتعاطفة مع العلويين... ولعل ذلك يفسر سياسة المأمون المتعاطفة مع العلويين وبيعته للرضا بولاية العهد.

البيعة لعلي الرضا:

إن اعتلاء المأمون يعني بالنسبة لكثير من المؤرخين انتصار النزعة الفارسية على النفوذ العربي الذي كان بارزاً قبل المأمون. ويستطرد هؤلاء المؤرخون فيقولون بأن من مظاهر النزعة الفارسية هو الميل للعلويين والتشيع لهم[78]. على أن هذا الرأي خاطئ، ذلك لأن التشيع في هذه الفترة المبكرة لم يكن فارسياً بل كان عربياً وأن الثورات العلوية كانت ثورات عربية قادها عرب ووقعت في أقاليم عربية وأن أنصارها من العرب. ثم أن الميل "للفارسية" لم يكن واقع سياسة المأمون بل من تخطيط وزيره الفضل بن سهل وأعوانه خاصة خلال السنوات بين (198هـ - 202هـ). وقد أزعجت هذه النزعة ليس فقط بني هاشم وأعوانهم بل أهل بغداد الذين شعروا بضعف مركزهم بالنسبة لمرو وكذلك قادة كبار من أمثال طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين. وقد أبعد الأول إلى الرقة لفترة من الزمن، أما الثاني فقد استطاع أن يتصل بالمأمون ويلومه على تأييده للسياسة التي يتبعها الفضل

بن سهل قائلاً "قدمت هذا المجوسي على أوليائك وأنصارك"[79] علـــى أن الفــضل استطاع سجنه ثم قتله فخسرت الدولة قائداً من ألمع أنصارها. ولكن ثـــورة بغـــداد استمرت رافعة شعار: "لا نرضى بالمجوسي ابن المجوسي الحسن بن سهل"[80] بـــين سنتي 200هــ - 201هـــ بقيادة محمد بن أبي خالد وابنه عيـــسى[81]. أمـــا كتلـــة المأمون في بغداد فكان يمثلها المنصور بن المهدي والحسن بن سهل أخو الفــضل وحميد بن عبد الحميد الطوسي[82].

تشير بعض الروايات التاريخية إلى "تشيع" المأمون[83]، على أن المستـــشرق كبريللي يعتقد بأن للمأمون ميلاً عاطفياً للعلويين وهذا الميل دفعه ليبايع الرضا[84]. إلا أننا يجب أن نفرق بين العواطف وبين الأعمال، فالبيعة للرضـــا لـــيس بـــالأمر العاطفي، ولكنه أمر سياسي له عواقبه الخطيرة ذلك لأنه يعني نقل الخلافة أو نقـــل الدولة – على حد قول ابن طباطبا – من العباسيين إلى العلويين.

يقول الطبري ويؤيده اليعقوبي[85] أن المأمون أرسل رجاء بن أبي الـــضحاك (وهو من أقرباء الفضل بن سهل) وفرناس الخادم إلى المدينة المنورة سنة 200هـــ ليرافق علي الرضا إلى مرو، حيث أعلنت البيعة رسمياً واستبدلت الأعلام الـــسود بالأعلام الخضراء وضربت السكة باسم ولي العهد الجديد. وأصدر الخليفـــة أمـــراً وزع على كل الأقاليم وأظهر فيه أنه اختار علي الرضا بعد أن "نظـــر فـــي بنـــي العباس وبني علي فلم يجد أحداً هو أفضل ولا أورع ولا أعلم منه". ولا تشير رواية الطبري أو اليعقوبي إلى الدوافع الحقيقية التي دفعت المأمون إلى هذه الخطوة على أنهما يذكران رد الفعل لدى أهل بغداد الذين علقوا على النبأ بقولهم "هذا دسيس من الفضل بن سهل".

وهناك روايات كثيرة تؤكد اتهام الفضل بن سهل بهذه البيعة نجدها في البلعمي والجهشياري وابن طباطبا[86] ويظهر الجهشياري اندفاع الفضل بن سهل ودوره في البيعة. أما الفخري فيقول "كان الفضل بن سهل هو القائم بهذا الأمر والمحسن لـــه".

ورغم أن الباحث يتردد في قبول هذه الروايات التي تؤكد دور الفضل بن سهل ويحتار في تفسير دوافعه وهو الذي تربى في كنف الدولة وأصبح صنيعة من صنائعها وأن مصلحته باتت في بقائها، إلا أن هذه الروايات يؤكدها أوائل المؤرخين حيث يقول الأصفهاني(87) وأن المأمون شاور الفضل بن سهل وأخاه الحسن في نيته نقل الخلافة إلى الرضا، فعارض الحسن المشروع مبدياً قلقه من العواقب ولكن الخليفة بقي متصلباً في رأيه متعذراً بأنه كان قد وعد بأن ينقل الخلافة إلى العلويين إذا ما انتصر على الأمين وبقيت الخلافة بيديه "إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع".

ونحن هنا أمام رأيين(88) الأول ما يقرره كبريللي حيث يقول أن المقرر الأول لفكرة البيعة للرضا هو الخليفة المأمون نفسه حيث كانت الفكرة قد اختمرت في ذهنه وصمم بطبيعة المجبولة على العناد على أن ينفذها. أما الرأي الثاني فهو رأي عبد العزيز الدوري حيث أنه يميل إلى تأثير الفضل بن سهل ووجود المأمون في خراسان هما اللذان اضطراه إلى اتخاذ هذه الخطة". ويدلل الدوري بالأدلة التالية:

1- الروايات التاريخية التي تؤكد دور الفضل الرئيسي في البيعة.

2- لوم البغداديين للفضل بن سهل في تدبير هذه الخطة وعدم لومهم للخليفة.

3- رغبة الفضل في إرجاع سلطة الفرس، لأن نقل الخلافة إلى علوي معناه إبقاء مركز الخلافة في خراسان لعدم رغبة أهل بغداد بمبايعة علوي.

4- خيبة أمل الخراسانيين (ويقصد بهم الفرس من أهل خراسان) من الدولة العباسية فنقلوا ولاءهم إلى المعارضة العلوية.

5- إن انتصار المأمون كان ضربة لبني العباس أخوال الأمين ودحراً لأمالهم ففقد المأمون تأييدهم، ولذلك أراد أن يكسب ثقة وتأييد الفرع الهاشمي الآخر وهو الفرع العلوي.

على أن الروايات التاريخية لا يتوقع منها أن تضع اللوم كل اللوم على الخليفة صاحب السلطة بل لا بد أن تضعه على الفضل الذي سقط وهوى من عليائه... ولعلنا نستطيع أن نذكر التهم العديدة التي كالها الرواة لأبي مسلم الخراساني وللبرامكة بعد نكبتهم... ويؤكد المستشرق كبريللي ذلك ويشير أولاً إلى السرعة واليسر الذي استطاع بهما الخليفة أن يتخلص من الفضل بن سهل وأعوانه، ولذلك فالخطة من بنات أفكار المأمون قبل الفضل بن سهل. وثانياً إلى تصميمه في التخلص من الرضا دون كبير عناء. وثالثاً لم يستبدل المأمون شعار الخضرة حتى دخل بغداد وتمركز فيها وبعد توسلات طاهر بن الحسين والأميرة زينب. ويعتبر كبريللي كل ذلك دلائل على شخصية المأمون واستبداده برأيه. ويستطرد كبريللي فيقول بأن الظروف السياسية التي أحاطت بالمأمون أثناء الحرب الأهلية وبعدها ثم أن عواطف المأمون تجاه العلويين ورغبته في إحياء حكم العدل الذي وعد به إذا تسلم السلطة لعبت دورها في قرار الخليفة بالبيعة للرضا.

ولعل الظروف السياسية لعبت دوراً أكبر من الميول العاطفية عند الخليفة فلم ينفك العلويين وأتباعهم من الثورة ضد حكم المأمون العباسي، ولقد أراد المأمون الذي مل حالة القلق السياسي بعد الحرب الأهلية أن يبدأ فترة من الاستقرار والتوفيق بين السلطة والمعارضة فاختار علياً وسماه (الرضا) وهو نفس اللقب الذي كان الثوار العلويين يتخذونه وتبنى الشعار الأخضر وهو شعار الجنة وأهلها ليرمز إلى المحبة والتسامح والتوفيق، والمرونة التي حاول الخليفة المهدي أتباعها مع العلويين كذلك.

هذا من جهة ولكن من جهة ثانية فإننا نرى أنه من الصعب أن يصل ميل الخليفة وتعاطفه من العلويين إلى الحد الذي يحول به الخلافة إلى شخصية علوية، فالتعاطف الذي خطط له المأمون لا يتعدى حدود المعنويات إلى الأعمال والأفعال. فالمأمون كافح في سبيل الحصول على الخلافة ولا يمكن أن يتفق مع الشيعة الحسينية حول الخلافة. ولذلك فإننا نرى بأن حركة المأمون في بيعة الرضا كانت

تهدف ظاهرياً التعاطف والتوفيق، وعملياً ليست إلا مناورة سياسية بارعة لكشف بعض الشخصيات العلوية وإظهار عزوفها عن الخوض في غمار السياسة ومعترك الحياة، ففي رواية أن المأمون ناقش الرضا قائلاً:

- بم تدعون هذا الأمر؟

- قال: بقرابة علي من النبي ﷺ وبقرابة فاطمة ؓ.

- قال المأمون: إن لم يكن هاهنا شيء إلا القرابة ففي خلف رسول الله ﷺ من أهل بيته من هو أقرب إليه من علي ومن هو في القرابة مثله. وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين وليس لعلي في هذا الأمر حق وهما حيّان. وإذا كان الأمر على ذلك فإن علياً قد ابتزهما جميعاً وهما حيان صحيحان واستولى على ما لا يجب له.

ويورد القفطي[89]:

"كان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين مختنعين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بني العباس، ورأى العوام قد خفت عنهم أمورهم بالاختفاء فظنوا بهم ما يظنونه بالأنبياء ويتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي، فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء فنظر في هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم، ولا نقلب شكرهم لهم ذماً. ثم قال إذا – أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة عند الآدميين فيتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء فإذا تحقق ذلك أزلت ما أقمته ورددت الأمر إلى حالته الأولى".

وقوي هذا الرأي عنده وكتم باطنه عن خواصه، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه وفكرا فيمن يصلح

فوقع إجماعهما على الرضا، فأخذ الفضل بن سهل في تقرير ذلك وترتيبه وهـو لا يعلم باطن الأمر وأخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا فاختار طالع السرطان وفيه المشتري.

قال عبد الله بن سهل بن نوبخت أردت أن أعلم نية المأمون في هذه البيعة وأن باطنه كظاهرة أم لا لأن الأمر عظيم فأنفذت إليه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه وكان يجيء في مهم أمره وقلت له أن هذه البيعة في الوقت الذي اختاره ذو الرئاستين لن تتم بل تنقضي، لأن المشتري وإن كان في الطالع في بيت شرفه فإن السرطان برج متقلب... وهو نحس وقد أغفل ذو الرئاستين هذا.

فكتب إلي قد وقفت على ذلك أحسن الله جزاك فخذ كل الحذر أن تنبه ذا الرئاستين على هذا فإنه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له، فهم ذو الرئاستين بذلك فما زلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لي وما أغفلت أمري حتى مضى أمر البيعة فسلمت من المأمون".

وتؤكد روايات أخرى في مصادر شيعية إماميه نفس الهدف الذي كان يسعى إليه المأمون ألا وهو كشف العلويين عن طريق جعلهم أكثر مشاركة في الحياة السياسية ويقول الصدوق في (عيون أخبار الرضا جـ 2، ص 239):

"إن المأمون جعل له (الرضا) ولاية العهد من بعده ليرى الناس أنه راغب في الدنيا فيسقط محله في نفوسهم".

وفي رواية أخرى في نفس الكتاب أن المأمون كان يعتقد أن الرضا يدعو إلى نفسه في السر فأراد أن يجعله ولي عهده ليعترف بالخلافة والملك له "وليعتقد فيه المفتونون به أنه ليس مما ادعى في قليل ولا كثير وأن هذا الأمر لهم (العباسيين) دونه"، جـ 2، ص 170".

وفي كتاب التوحيد يقول الصدوق (ص 329 – 330):

إن المأمون كان يجلب على الرضا متكلمي الفرق والأهواء وكل من سمع بـــه حرصاً على انقطاع الرضا عن الحجة مع واحد منهم وذلك حداً منه له... ".

ولا ينكر أثر المبالغة في هذه الروايات خاصة وأن المصادر الشيعية تحـــاول دوماً تصوير العلويين وكأنهم ضحايا مظلومون من قبل الخلفاء الظـــالمين، وأنهـــم كانوا مجبرين مضطرين فيما اتخذوه من قرارات فيما يخص علاقـــاتهم بالـــسلطة. ومع ذلك كله فإن رواية القفطي والروايات الأخرى تدل دلالة واضـــحة علـــى أن الخليفة المأمون حاول إبراز العلويين وإظهارهم إلى الحياة العامة وعلى المـــسرح السياسي الذي يتقبل الأخذ والرد والجدل وإظهار المواقف والآراء ثـــم العلـــويين. وذلك لأن استتار العلويين أو ندوة ظهورهم أدى إلى قلة معرفـــة النـــاس بـــآرائهم ومواقفهم ما جعلهم يعدونهم فوق مستوى البشر ويعتقدون فـــيهم آراء – متطرفـــة غالية. وبمعنى آخر فإن اشتراك العلويين في المعترك الـــسياسي وأمـــور الدولـــة والمجتمع بصورة أكبر سيظهرهم للناس ويجعلهم يتعاملون معهم وسيرى الناس أن العلويين مثل غيرهم لهم محاسنهم ومساوئهم ومنهم من يخطئ ومنهم من يـــصيب وعندئذ ستضعف الشيعة العلوية ويقل خطرها – بنظر المـــأمون – علـــى الدولـــة العباسية.

أما دور الفضل بن سهل فقد أيد المأمون في البيعة وأخفـــى عنـــه رد الفعـــل المعادي في بغداد للبيعة قائلاً أن إبراهيم بن المهدي الذي بويع خليفة في العراق لم يكن إلا ممثلاً عنه هناك[90]. ولكن علاقة الفضل بالرضا لم تكن ودية بل أن الرضا أظهر امتعاضه من تدابير الفضل وأنه هو الذي أخبر الخليفة في نهاية الأمر بحقيقة الوضع في العراق. ولذلك فإن تأييد الفضل لسياسة المأمون كانـــت منبثقـــة عـــن طموحه العريض ورغبته في الحفاظ على سلطاته الواسعة في خراســـان والعـــراق معاً.

ولم يكن علي الرضا ذا طموح سياسي كبير فلقد ولد في المدينة سنة 148هـ/ 765م من أم ولد نوبية وبلغ عمره 53 سنة دون أن يلعب دوراً في السياسة، على أن شهرته في ميادين العلم والورع كانت واسعة، وقد امتنع الرضا أول الأمر عن قبول العهد حيث تشير الروايات[91] إلى أنه (كان معرضاً عن الدنيا ولولا خوفه من المأمون لما أجاب إلى ولاية العهد). وأنه قال (إني قد أجبت امتثالاً للأمر وإن يكن الجفر والجامعة يدلان على ضد ذلك). وهذا ربما يفسر رواية الأصفهاني التي تؤكد أن المأمون هدد[92] علي الرضا بوجوب قبول البيعة، وقد بايع كل العباسيين الموجودين في مرو لولي العهد الجديد وكان أولهم العباس بن المأمون. وقد كتب الخليفة نفسه نص كتاب البيعة ثم رد علي الرضا على الكتاب مبدياً قبوله لولاية العهد وأشهد على ذلك شهوداً وهم أمير المؤمنين المأمون ثم الفضل بن سهل، سهل بن الفضل، يحيى بن أكثم، عبد الله بن طاهر، ثمامة بن أشرس، بشر بن المعتمر، حماد بن النعمان. وأمر الخليفة أن يقرأ نص البيعة في المدينة قرب قبر الرسول ﷺ بين الروضة والمنبر بحضور الهاشميين والجند[93].

والملاحظ في نص كتاب الخليفة أنه لم يشر إلى نقل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ذلك الأمل الذي كافح العلويون من أجله بالثورة حيناً وبالحجج والأدلة النظرية حيناً آخر، بل أشار فقط إلى فضل علي الرضا وورعه وأنه (أرجا للقيام بأمر الله وحقه)[94]. ولكن نص خطاب علي الرضا يشير بوضوح إلى حقوق العلويين التي اعترف بها المأمون وإلى التئام بني هاشم (أهل البيت) بعد انقسامهم وتنازعهم. ولكن هذه الوثائق الرسمية لا تمس مسألة ولاية العهد بعد علي الرضا، وهي بطبيعة الحال مسألة حساسة جداً. والطريف أن البلعمي يعتبر أن خليفة علي الرضا سيكون بطبيعة الحال علوياً لا عباسياً وستبقى الخلافة بأيدي العلويين[95].

لقد كان من الصعب انتقال الخلافة إلى عباسي إذا ما تلقفها علوي، ذلك لأن العلويين سيحرصون على بقائها في نسلهم، وهذا شيء طبيعي عند الأسر الحاكمة،

رغم أن المأمون حاول أن يوثق الروابط بين كلا البيتين الهاشميين بأن زوج إحدى بناته للرضا والأخرى لابن الرضا محمد. ومهما يكن من أمر فإن المؤتمن وهو ثالث أبناء الرشيد والذي كان ثالث ولاة العهد حسب أوامر الرشيد، أصبح في طي النسيان. وبات الشيعة العلوية يسمعون لأول مرة منذ وفاة علي بن أبي طالب ﷺ اسم أحد أحفاده يذكر في خطبة الجمعة باعتباره ولياً للعهد.

ردود فعل تجاه البيعة(96):

لم يكن ما قام به الخليفة في أمر البيعة أمراً يسيراً وذلك لأنه قلب السياسة العباسية السابقة رأساً على عقب مما كان له صداه في الأقاليم المختلفة. وكان من الطبيعي أن يطيع ولاة الأقاليم أوامر الخليفة ويذعنوا لها وكان من بينهم الحسن بن سهل والي بغداد، إلا والي البصرة إسماعيل بن جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي الذي رفض البيعة قائلاً: "هذا نقص لله وله (الخليفة) وقد اعتقل ونفي إلى جرجان".

وقد هلل أهل قم للقرار. ولكن أهل بغداد لم يرضهم هذا القرار. وقالوا ".. لا نبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس". ورغم أن المأمون قد جعل مقره مرو فإن الكثير من العباسيين كانوا يعيشون في بغداد عاصمة المنصور المهجورة كما كان فيها كتلة كبيرة مؤيدة للعباسيين. وبدأت حركة المعارضة للبيعة في بغداد بإلقاء اللوم على آل سهل ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى شخص الخليفة حيث رشحوا خليفة جديداً هو (المنصور بن المهدي) الذي رفض تقلد الخلافة خوفاً أو ولاء للمأمون بل اعتبر نفسه ممثلاً للخليفة الشرعي. لكن الأمر كان أخطر من ذلك فالبيعة كانت تعني نقل السلطة إلى بيت آخر، وبكلمة أخرى فإن هذا الإجراء مس طموح العباسيين وهدد مصالحكم للخطر. وفي يوم الجمعة أعلن الناس في المسجد الجامع بيعتهم (لإبراهيم بن المهدي) خليفة وتلقب بلقب (المبارك) في محرم سنة 212هـ/ 817م وبايعه كل الأمراء العباسيين وأهل

بغداد وهكذا فقد قطع أهل بغداد كل علاقة بالمأمون وإدارته. ويشير الطبري إلى أنهم إنما فعلوا ذلك:

"غضباً منهم على المأمون حين أراد إخراج الخلافة من ولد العباس إلى ولد علي ولتركه لباس آبائه من السواد ولبسه الخضرة".

فقد ترك إبراهيم بن المهدي بغداد إلى المدائن حيث معسكر الجند لإعداده للحرب المقبلة وللدفاع عن حق العباسيين في الخلافة، وقد أعطى الجند عطاء نقدياً إضافة إلى مقادير عينية من الحنطة والشعير. أما في بغداد فبقي العباس واسحق بن موسى الهادي وقد استمرت المقاومة في بغداد حتى 203هـ على أن شعار الدولة كان في هذه المرة الأخضر بينما كان شعار المعارضة الأسود. ورغم أن الكوفة سقطت في يد الجيش الموالي للمأمون وأصبح العباس بن موسى بن جعفر العلوي والياً عليها ودعا أهل الكوفة للانضمام إليه والبيعة للمأمون والرضا ولكنهم لم يقبلوا دعواه ودعوه إلى الدعوة لنفسه أو لعلوي آخر. وبينما كانت الكوفة على هذا الحال تقدم جند إبراهيم بن المهدي رافعين شعار "إبراهيم يا منصور لا طاعة للمأمون" واستطاعوا احتلال الكوفة وهرب العباس منها.

على أن الثوار لم يستطيعوا احتلال واسط واندحروا منسحبين إلى بغداد التي بقيت تحت سيطرتهم حتى سقطت على يد المأمون.

إن أهم مظاهرة تلفت النظر في حوادث بغداد خلال هذه الفترة هي حركة "المتطوعة" التي نظمها سهل بن سلامة سنة 203هـ وهدفها في بداية الأمر لم يكن سياسياً بل لحفظ النظام والآداب والأمن العام في بغداد. وقد برزت هذه الحركة كنتيجة لفقدان سلطة الدولة بعد قرار المأمون البقاء في مرو. وقد زاد نفوذها تدريجياً حتى أصبحت سلطة داخل سلطة. يقول الطبري: "فكان كل من أجابه (سهل بن سلامة) قد عمل على باب داره برجا وآجر ونصب عليه السلاح والمصاحف حتى بلغوا قرب باب الشام، سوى من أجابه من أهل الكرخ وسائر

الناس" ولكن هذه الحركة ضربت حيث اعتقل زعيمها وتبعثر أنصارها وسجن بعضهم بأمر من إبراهيم بن المهدي.

وفي أوائل سنة 203هـ كان العباسيون وأهل بغداد لا يزالون صامدين أمام المأمون رغم أن الخليفة بعث إليهم برسالة يدعوهم فيها إلى المصالحة فإنهم رفضوا ذلك مما دعا الخليفة إلى التحرك نحو بغداد. وكان على رأس الجند حميد الطوسي وعلي بن هشام اللذان حاصرا بغداد حتى استسلمت في 17 ذي الحجة سنة 203هـ بعد سنة و11 شهراً من التحدي لسلطة الخليفة العباسي وهرب إبراهيم بن المهدي مع بعض أعوانه. على أن عاصمة المنصور حققت هدفها الرئيسي فعادت عاصمة للمأمون وعاد العراق إقليماً مركزياً للدولة.

يمكننا بعد ذلك كله أن نقرر بأنه لولا رغبة المأمون وتعاطفه ونواياه لما حصلت البيعة وأنه هو لا الفضل بن سهل لعب الدور الأول فيها. وقد جاءت هذه السياسة مواقفه لخطط الفضل في السيطرة وازدياد النفوذ والقضاء على المنافسين له أمثال طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين فحببها إلى الخليفة ولكنه ما لبث أن وقع ضحيةً لها.

انقسام الشيعة الامامية بعد وفاة جعفر الصادق:

أشرنا سابقاً أن الحركة الشيعية العلوية دخلت منعطفاً جديداً بظهور جعفر الصادق، فقد تبلور التشيّع ووضحت معالمه على يد الصادق الذي عاش بمعزل عن الحركات السياسية؛ رغم أن عصره الذي عاش فيه كان يعجّ بالحركات والثورات المسلحة. ويؤكد كُتّاب الفِرق هذه النزعة السلمية لدى الصادق؛ فيقول عنه الشهرستاني[97]:

"وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة... دخل العراق وأقام بها مدة؛ ما تعرّض للإمامة قط ولا نازع أحداً في الخلافة. ومن غرق في بحر المعرفة

لم يطمع في شط...". وقد نجح في تكوين مدرسة فكرية في المدينة تبحث في العلوم الدينية؛ وصفها "دونالدسون" أنها مدرسة شبه سقراطية[98] ويعلّق "هودسون"[99] على بروز إمامة جعفر الصادق وشيعته بين باقي الفِرَق الشيعية فيعزوها إلى عوامل؛ أهمها:

1- تضاؤل الشيعة الكيسانية المنافسة لشيعة جعفر الصادق؛ حيث اندمجت الكيسانية بالعباسية وعملت على ظهور الخلافة العباسية، وبهذا لم يعد لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم شيعة يعملون من أجلهما أو ذريتهما.

2- مقتل الكثير من آل الحسن على يد العباسيين، وقد كان من نتائج ذلك خلّو المسرح لآل الحسين؛ أي جعفر الصادق ومن جاء بعده.

3- لعبت شخصية جعفر الصادق وأبيه من قبله دوراً في تبلور فرقة الشيعة الإمامية، وتجمّع الأتباع حول زعامة الصادق الدينية. فلقد استطاع الصادق أن يوضح أصول مذهبه، ويعتقد "هودسون" بأنّ هناك ثلاثة مبادئ رئيسية ساهمت في قوة مذهب الصادق؛ أولها: فكرة (النص) ومفادها أنّ الإمامة بالنص من الله ورسوله، وأنّ الأئمة من آل الحسين منصوص عليهم؛ وثانيها: فكرة (العِلْم) التي تعني أنّ الأئمة محيطون بالعلوم الإلهية، وهذا يضفي عليه قدسية خاصة حيث يُتوارث العِلْم من إمام إلى إمام. كما وأنّ معرفته أهّلته أمام أتباعه لكي يقرر فيما إذا كان الوقت مناسباً لإعلان الإمامة الشيعية ومناهضة العباسيين بالسلاح، وهل من الضروري له أن يُصبح خليفةً دنيوياً إضافة إلى إمامته الدينية؟

أما العامل الثالث الذي ساعد في تثبيت إمامة الصادق؛ فهو إيثاره العِلْم وتكوين حلقه من تلاميذه الذين أخذوا عنه، وانتشار صيته في جميع البلدان؛ وبالتالي تزايدُ عدد أتباعه. وإذا كان بعض الأتباع الجريئين من شيعة الصادق قل ملّوا الانتظار وخابت آمالهم من تأجيل الصادق للثورة ضد العباسيين؛ فانشقوا عليه وكوّنوا فِرَقاً

أُخرى، فإنّ سياسة الصادق السلمية لعبت دوراً في تزايدُ شيعته الذين يفضّلون السلام، وعدم التورط في فتنة مع العباسيين لا تُبقي ولا تذر. على أنّ أتباع جعفر الصادق انقسموا بعد وفاته إلى عدة أقسام؛ أهمها:

1- أتباع الصادق التقليديين: الذين أُطلق عليهم الإمامية؛ أو فيما بعد الإثنا عشرية، وقد اعتقدوا بإمامة موسى الكاظم مؤكدين أنّ الصادق نَصّ عليه رغم كونه الابن الأصغر له؛ خاصة وأنّ إسماعيل الابن الأكبر كان قد مات في حياة أبيه.

2- الإسماعيلية: وتسمّت السبعية لأنها تقول بأنّ الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق الذي نَصّ عليه الصادق ليكون خليفته، اعتقادهم أنّ "النص لا يرجع القهقرى والفائدة من النص بقاء الإمامة في الإمام المنصوص عليه دون غيره"[100].

بعد وفاة الصادق سنة 148هـ/ 765م، بدأت إمامة موسى الكاظم واستمرت حتى سنة 183هـ - 799م. وتؤكد شيعته إمامته بعد أبيه بنصوص عن الصادق نفسه[101]، وبذلك تُبعد إمامة إسماعيل أو ابنه محمد وإمامة عبد الله بن جعفر، ونتيجة تشدّد السلطة العباسية وحذر العلويين أنفسهم دخلت الشيعة دور التكتم.

ورغم أنّ الكاظم لم يكن فعّالاً على النطاق السياسي، كما وأنّ دوره في إثراء عقائد الشيعة الكلامية لا يُقارن بدور أبيه وَجَدّه؛ فقد راقبه المهدي ثم الرشيد وسجنه هذا الأخير حتى توفي في السجن، وقد كان صبوراً على احتمال الشدائد؛ ولذلك سُمِيَ بالكاظم. على أن بعض شيعته لم يصدقوا وفاته، وقالوا إنه لا يموت حتى "يملأ الأرض عدلاً كما مُلئتْ جَوْراً"، وعدوّه القائم المهدي باعتباره الإمام السابع عندهم[102]. وسُمّيَ هؤلاء بالواقفة، وتقول رواية عن سبب وقوفهم عند موسى بن جعفر:

"إنّ موسى عاش أيام الرشيد وقد كثر أتباعه ومن يسعى به إلى الرشيد، ومن يقول إنّ لديه الأموال الكثيرة، وإنه يدّعي الإمامة ويروم الخروج؛ فأراد موسى أن ينفي هذه الشائعات؛ ففرّق أمواله بين أصحابه؛ ومنهم: زياد القندي، وكان عنده سبعون ألف ديناراً، وعليّ بن أبي حمزة وعنده ثلاثون ألف ديناراً، فلما مات موسى بن جعفر وخلفه ابنه عليّ بن موسى الرضا؛ امتنعا عن دفع المال وأنكرا موت موسى بن جعفر"[103].

أما الرشيد فقد أمر بعرض جثته وأراد بذلك أن يحقق هدفين:

الأول: دحض آراء الواقفة التي تنكر وفاته وتدّعي غيبته وتنتظر عودته وتقول إنه القائم المهدي.

الثاني: نفي الإشاعات التي راجت بأنّ السلطة العباسية قتلت الكاظم، ولذلك فقد عرضت جثته للناس ليشاهدوا خلوها من أي أثرٍ للصدمات والكدمات أو غير ذلك؛ مما يدلّ على القتل أو الخنق، وشهد فقهاء وهاشميون أنّ الكاظم مات ميتةً طبيعية[104].

وقد اعترفت غالبية أتباع موسى الكاظم بإمامة ابنه علي الرضا من بعده؛ لنصّ أبيه عليه ولفضله على جماعة أخوته وظهور علمه. لقد اكتمل التشيّع على عهد الصادق مذهباً وعقيدة؛ وصيغت هذه العقائد بشكل نصوص على عهد الرضا، وقام بالدور الأكبر رجال من الشيعة عاشوا في عصر الصادق وبعده؛ مثل: هشام بن الحكم وزارة بن أعين ومؤمن الطاق.

حين مات علي الرضا كان ابنه محمد الجواد في السابعة من عمره فأثار مسألة إمامة الصبية، ومع ذلك فقد ذكرت كتب الشيعة له معجزات وكرامات؛ لأنّ علمه اللدني كما يرى شيعته جاء بالنقل والأخذ عن أبيه الإمام رغم حداثة سنّه، وإن اختلفت الشيعة في هذا الشأن[105] على أنّ أتباعه أكدوا علمه وعصمته[106]، وهنا

صارت العصمة مبدئاً أساسياً من مبادئ الشيعة الإمامية. وقد مات محمد الجواد سنة 219هـ/ 834م ولما يبلغ 25 سنة من عمره.

التفّت شيعة محمد الجواد بعد وفاته حول ابنه عليّ الهادي، وقالت بإمامته بعد أبيه. وقد عاش عليّ الهادي في خلافة المتوكل المعروف بتشدده مع الشيعة العلوية، وتشير الروايات التاريخية: "كان المتوكل ناصبياً(107) يكره عليّ بن أبي طالب وأولاده، وكان يستدعي علي الهادي من المدينة المنورة لسؤاله وإحراجه"(108)، وكان يرسل إليه من يفتش داره بحثاً عن السلاح والمال. ولكن هذه الأقوال مبالغ فيها على ما يبدو ولم تكن سياسة ثابتة.

وحين توفيّ عليّ الهادي في خلافة المعتز سنة 254هـ/ 868م، خلفه على الإمامة الحسن العسكري ومات وهو لا يزال في 29سنة من عمره، وتقول بعض الروايات إلى أنّ الخليفة المعتمد العباسي قد سمّه.

وقد اختلفت فِرَقْ لشيعة الإمامية في خليفته؛ على أنّ الفِرَقَ الإمامية تعترف بابن له هو محمد إماماً، وتقول بأنه غاب وسيعود إلى الأرض ليملئها عدلاً، وتلقبّه بالحيّ وصاحب الزمان والمهدي(109).

يظهر من هذا الاستعراض لأئمة الشيعة الإمامية أنّ دورهم السياسي كان ضعيفاً. كما وأنّ الشيعة انقسمت في آرائها حولهم، ولا تساعدنا كتب الفِرَق والحديث وكتب الرجال بنوعيها الشيعية والسنية كثيراً في الإجابة على الأسئلة التي تراود أذهاننا مثل.. متى ظهرت الإمامة الشيعية بصورة واضحة ومحددة المعالم وكيف تطورت؟ ولماذا اختلفت الشيعة إلى فِرَق؟ وماذا كان دور كل فرقة في الحياة الفكرية والسياسية؟ وكيف تُنظّم هذه الفِرَق تاريخاً؟ ثم الفرق بين ما يرويه الشيعة والسُنّة عن هذه الفِرَق؟ وما هو الصحيح وما هو الموضوع؟ ولماذا حدثت الانقسامات حول شخصية الإمام بعد الصادق؟. ولعلّ من المناسب أن أختتم الكلام

على أئمة الشيعة الإمامية بملاحظة علي النشّار عن دورهم الروحي بعد وفاة جعفر الصادق حيث يقول:

"لا نجد في حياة هؤلاء الأئمة الستة ولا في نتاجهم ما نراه في حياة السابقين من الأئمة؛ فلم يُنقل عنهم ما نقل عن الأولين من علْمٍ سابغ ونظرة متعددة واسعة للمجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه، ولم يرد عن واحد منهم في الرواية العلمية الصحيحة مذهب خاص يجعل الشيعة من بعده يَنسبون المذهب إليه. لا جَـرَمَ بعد ذلك أنّ تتعلّق الإثنا عشرية باسم جعفر الصادق؛ فحاولوا نسبة المذهب إليه ولم يحاولوا نسبته إلى أي واحد من هؤلاء الأئمة الستة المتأخرين(110).

إسماعيل بن جعفر الصادق... الفرقة الإسماعيلية وانشقاقاتها:

قلنا سابقاً أن جعفر الصادق لم يشغل نفسه من بعيد أو قريب بالطموحات الدنيوية؛ بل كان شغله الشاغل الخوض في مجالات العلم؛ مما قّوى إمامته الروحية بين الشيعة العلوية، وزاد من منزلته باعتباره فقيهاً من ألمع فقهاء الإسلام في عصره.

وبسبب ذلك كان الصادق سلبياً في نظرته وفعالياته حول الخلافة، ولم يتعرض للسلطة العباسية الحاكمة، وامتنع رغم إلحاح بعض أتباعه عن الدعوة إلى شهر السلاح ضدهم كما فعل الحسنية والزيدية والكيسانية، وكان المنصور يفضله على سائر العلويين، وقد مدحه عدة مرات ورثاه عند موته؛ حيث يقول اليعقوبي إنه قال عن الصادق حين سمع بنبأ موته(111):

"إن جعفراً كان ممن قال الله فيه (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات". على أنّ جماعة من الغلاة التفتوا حول الصادق ونقلوا عنه أحاديث وآراء لم يقلها، وطالبوه بالتحرك ضد العباسيين؛ منهم: المفضّل بن عمر الجعفي الصيرفي وجابر الجعفي وأبو الخطاب

الأسدي. ولكن هذه الآراء لم تَلْقَ قبولاً لدى الصادق؛ فحاول هؤلاء المتطرفون أن يلتفوا حول ابنه الأكبر إسماعيل ليكسبوه إلى جانبهم.

ولإسماعيل هذا ميزات[112]؛ أولها: أنه الابن الأكبر للصادق. وثانيها: أنه من أم عربية، ومعنى ذلك كونه من دم عربي وليس كبقية إخوته. وثالثها: أنّ علاقته كانت قوية مع أبيه الذي كان يعدّه ليكون خليفته في زعامة الشيعة الحسينية.

وقد أزعجت أخبار اتصال أبي الخطاب وجماعته بإسماعيل كُلاً من الصادق والسلطة العباسية، وقد نهاهم الصادق عن الاتصال به؛ كما استدعاهم المنصور إلى العراق واستجوبهم، فقتل أحد شيعتهم المتطرفين وهو بسام بن عبد الله الصيرفي، وحذّرهم من مغبّة العمل السياسي ضد السلطة ثم أطلق سراحهم. كما قُتِلَ أحد شيعتهم في المدينة وهو المُعلى بن خنيس بأمر والي المدينة داود بن علي.

لقد استمر أبو الخطاب يَبُثّ آراءه المتطرفة حول طبيعة الإمام وقدسيته، وعلمه بالغيب وتحوّل الإمامة إلى نبوّة. هذا إضافة إلى فعالياته السياسية وتبشيره بانتهاء حكم العباسيين على يد "القائم المنتظر". واستطاع أن يجذب إسماعيل إلى جانبه مما دعى الصادق إلى التنبؤ منهما، ولكن إسماعيل لم أبو إلى يبقَ طويلاً حيث مات سنة 145هـ/ 762م، وبعد ذلك بخمس سنوات ثار أبو الخطاب بالكوفة وقُتِلَ على يد واليها العباسي عيسى بن موسى، فقد استطاع أبو الخطاب أن يجمع حوله الأتباع واختار منهم عدداً من النقباء وزوّدهم بالعصيّ والسكاكين؛ حيث استُعملت السكاكين للمرة الأولى في معركة شيعية متطرفة، وقد قُتِلَ جميعهم عدا أبو مسلمة سالم الجمّال حيث تُرِك في ساحة القتال على اعتبار أنه ميت، ولكنه شُفي فيما بعد[113].

ورغم أنّ الصادق حين شيّع إسماعيل إلى مقره الأخير، أمر أن يوضع على الأرض ليتحقق الناس من وفاته، وبذلك لا يدع مجالاً للظنون[114]. فإن أغلبية الخطابية لم يعترفوا بموته وذكروا أنه أخفى نفسه وسيرجع. فالمباركية بإمامة

موسى الكاظم لأن النص لا يرجع القهقرى، وأن الصادق نص على إسماعيل وأن الامامية فيه وفي أبنائه من بعده.

وقد افترقت الإسماعيلية بعد ذلك؛ حيث وقفت إحداها عند محمد بن إسماعيل وانتظرته مهدياً يرجع، وهي فرقة القرامطة. وثانيها اعترفت بسلسلة متصلة من الأئمة من نسل إسماعيل وأولاده من بعده، وهؤلاء هم الذين أسسّوا الدولة الفاطمية.

تشير الروايات التاريخية إلى أنّ ميمون القداح وابنه عبد الله كانا من أوائل من بدأوا بنشر الدعوة الإسماعيلية؛ حيث بدأت الإسماعيلية المتطرفة (الباطنية) على يديهما. وكان ميمون مولى للصادق؛ أما ابنه فقد عاش في منتصف الثالث الهجري وتوفي سنة 261هـ - 874/ 845م. وكان مركز الدعوة الأول الأحواز (عربستان) ثم انتقل إلى قرية سلمية في بلاد الشام[115]. إلاّ أنّ مطاردة السلطة لهم اضطرتهم إلى تغيير مراكزهم؛ فنزحوا إلى اليمن والمغرب، وفي المغرب نجح الداعي أبو عبد الله الشيعي في نشر الدعوة وتأسيس الدولة الفاطمية التي كان أول خليفة لها عُبيد الله المهدي.

لقد قارن عبد العزيز الدوري[116] بين فرضية برنارد لويس، وفرضية إيفانوف حول أصول الإسماعيلية. ففي الوقت الذي يؤكد "لويس" أنّ ميمون القداح كان من أتباع الصادق، وأنه ترأس الدعوة الإسماعيلية بعد أبي الخطاب، وتعهد محمد بن إسماعيل بالتثقيف على المذهب الباطني. وأنه ظهرت سلسلة من الأئمة المستورين (المستقرين) بين محمد بن إسماعيل ومحمد القائم بسبب الظروف السياسية وملاحقة السلطة العباسية، وكان يعمل نيابة عنهم دعاتهم المدعوون (بالأئمة المستودعين). فالإمام المستقر هو الإمام الحقيقي الذي تنتقل الخلافة في نسله، أما الإمام المستودع فهو داعية وحجّة يعمل من أجل نشر الدعوة ولا تنتقل الإمامة في نسله، ومن هؤلاء: ميمون القداح وابنه وذكرويه وغيرهم. ويستنتج "لويس" أنّ عُبيد الله المهدي

كان آخر الأئمة المستودعين وكان قداحيا، وبعد وفاته سلّمها لأبي القاسم محمد القائم الفاطمي.

أما إيفانوف فينكر أن يكون ميمون القداح وابنه "أئمة مستودعين" ذلك لأنّ هذا النظام متأخر؛ عُرف في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. كما وأنّ الإسماعيلية تدين بالمبدأ القائل: بأنّ الصغير غير البالغ لا يمكن أن يكون إماماً، ولا يجوز انتقال الإمامة لغير فاطمي؛ فكيف تنتقل إلى القداحين بألقابها ووظائفها. ولا يعترف إيفانوف بأي دور للقداح في أحداث الحركة الإسماعيلية ويُسميّ ما ذُكِرَ عنه من روايات "أسطورة القداح"، وينفي التفسير التقليدي الذي يقول: بأنّ القداح أراد أن يهدم الإسلام باستغلاله التشيّع وابتداعه المذهب الباطني القرمطي، وتبشيره باسم إسماعيل بن جعفر لإثارة حركة جماهيرية نقلت السلطة إلى أحد أحفاده باسم المهدي. ويميل الدوري إلى فرضية لويس باعتبارها أقرب إلى الصحة. والواقع؛ أن تفسير لويس في نظرنا معتدل ومعقول، وقبل كل شيء يستند إلى روايات تاريخية مقبولة.

ومعنى ذلك إننا أمام ثلاث فرضيات حول الأئمة الإسماعيلية في المغرب ومصر:

الأولى: الفرضية القائلة بأنهم من نسب الداعي ميمون القداح.

الثانية: الفرضية القائلة بأنّ لأئمة المستودعين كانوا من القداحين، وكلن آخرهم عُبيد الله المهدي الذي سلّمها إلى القائم، وهو الإمام الفاطمي المستقر.

الثالثة: فرضية إيفانوف الذي لا يعتقد بنظام الإمام المستودع والإمام المستقر ويرى أنّ الأئمة الإسماعيلية فاطميون.

على أنّ القرامطة توقفت عند محمد بن إسماعيل وانتظرت رجعته وقالت بمهديته. وقد حدث تطور جديد في الدعوة الإسماعيلية حين توفي في النصف الأول

من القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي – الداعية الإسماعيلي في سلمية وخلفه ابنه، وقد لاحظ حمدان القرمطي في العراق نبرة جديدة في رسائل الداعية الجديد، ولذلك أرسل رسولاً إلى سلمية الذي التقى بالداعية، وأخبره بأنّ الأئمة الإسماعيلية من نسل عبد الله بن ميمون القداح، ولكن زعماء قرامطة العراق لم يعترفوا بذلك؛ مما دعا الإمام القداحي إلى التخلص منهم، ولكن أبا سعيد الجنابي زعيم قرامطة البحرين أخذ الموقف نفسه الذي اتخذه قرامطة العراق. وهكذا انشقت الحركة على نفسها إلى جناحين: الأول اعتقد بوجود إمام ظاهر على رأس الجماعة. وهذا الجناح اعترف بالأئمة الإسماعيلية الذين كانوا على رأس الدولة الفاطمية. والثاني ظلّ متعلقاً بالإمام الغائب محمد بن إسماعيل، وقالوا بأنه القائم المنتظر، ومن هؤلاء قرامطة البحرين والعراق. وكان العامل الحاسم في تقرير العلاقة بين الكتلتين المصالح وليس العقائد.

نظرية الإمامة لدى الإسماعيلية:

(نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق)[117]:

تظهر نظرية الإمامة عند الإسماعيلية بأكمل صورتها لدى منظري الشيعة الإسماعيلية الأوائل وعلى رأسهم (إخوان الصفا وخلان الوفا) في رسائلهم العديدة والمنشورة والتي تجاوزت الخمسين رسالة.

وعند الإسماعيلية: الخليفة هو من استخلفه الله بأمره وأيده بملائكته فجمع له السعادات الفلكية كلها. وترتبط نظريتهم في الإمامة بنظريتهم في تفسير الكون والوجود. وبكلمة مختصرة هناك توازن بين مثل وممثول. وفي كل شيء هناك ظاهر وباطن، فالدنيا مثل والآخر ممثول وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول والنبي مثل والعقل الأول ممثول وهكذا.

وهناك الكثير من الارتباك في تفاسير الباحثين حول أصول الإسماعيلية ونظمها، ولعل ذلك يعود إلى غموض هذه الحركة منذ بداياتها الأولى خاصة وأنها مرت بدورين رئيسين: دور الستر أو الكتمان ودور الظهور بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب ثم مصر. ففي الدور الأول استخدموا (مبدأ التقية) واستخفى الأئمة وأظهر الشيعة الإسماعيلية خلاف ما يبطنون.

وقد تبع ذلك – في تخريج بعض الباحثين – ظهور فكرة الإمام المستقر والإمام المستودع. فالأول هو الإمام الحقيقي ومن النسب العلوي الفاطمي إلا أنه يختفي عن الأنظار أثناء الشدائد والمحن التي تتعرض لها الدعوة خوفاً على حياته وينوب عنه في مهامه الإمام المستودع وهو واحد من الدعاة البارزين المقربين للإمام. فالأئمة الفاطميون هم أئمة مستقرون أما الأئمة الذين تزعموا الدعوة الفاطمية قبلهم فهم أئمة مستودعون. هذا مع إدراكنا للمشادة التي وقعت حول صحة نسب الخلفاء الفاطميين قديماً في العصر العباسي وحديثاً بين الباحثين المختصين.

وفيما عدا مبدأ (التقية) وعقيدة الظاهر والباطن (المثل والممثول) وعقيدة (الإمام المستقر والمستودع) هناك عقيدة مهمة عند الإسماعيلية هي عقيدة (التبني الروحي) أو النسب الروحي فتلميذ الإمام أجدر أن يكون ابناً له بموجب هذه الرابطة المذهبية والروحية التي يعدّونها أقوى من رابطة الدم أو النسب. وفي هذا الشأن يقول إخوان الصفا:

"اعلم أن المعلم أو الأستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها وعلة حياتها.. إن والدك أعطاك صورة جسدانية ومعلمك أعطاك صورة روحانية".

إن التنظيم السري المحكم للدعوة الإسماعيلية والتقسيم الهرمي للدعاة والأنصار وتوزيع الواجبات، هو الذي كان وراء نجاحات الدعوة الإسماعيلية في الأقاليم الإسلامية المختلفة حيث انتهت بتأسيس الدولة الفاطمية وتابعت نشاطها

لاكتساح العالم الإسلامي فما كان من العباسيين وفقهائهم سوى مجابهتها بدعاية ودعوة مضادة لها.

الحركة القرمطية:

يغلب على الظن أن قرمط كان لقباً لحمدان بن الأشعث زعيم قرامطة جنوبي العراق ومعناها "أحمر العينين".

وترتبط القرمطية بالحركة الإسماعيلية في تنظيمها وعقيدتها، بل يعدها بعض المؤرخين جزءاً من الحركة الإسماعيلية العامة. فقد استطاع إسماعيل بن جعفر الصادق أن يجمع حوله الأتباع، وحين توفي انقسم أتباعه إلى جماعتين: الأولى قالت بغيبته وأنه لم يمت وهو القائم. والثانية نقلت الإمامة من بعده إلى ابنه محمد، وهذه هي المباركية نسبة إلى المبارك مولى إسماعيل. وقد انبثق القرامطة من هذه الفرقة المباركية(118).

استطاع عبد الله بن ميمون القداح، أحد رؤوس الدعاة الإسماعيلية حيث كان أبوه من تلاميذ أبي الخطاب مؤسس الحركة الإسماعيلية الملتفة حول إسماعيل بن جعفر الصادق؛ استطاع عبد الله هذا أن يكسب إليه حمدان بن الأشعث المسمى "قرمط" من أهالي أحد القرى المجاورة للكوفة فأخذ حمدان "قرمط" يدعو الناس إلى الحركة، وكان أكثر من أجابه الفلاحون في منطقة السواد، ولذلك كانت الدولة لا تستطيع أن تقسو على حركة القرامطة خوفاً من هرب أو إبادة الفلاحين الذين تعتمد عليهم الزراعة وبعض الصناعات اليدوية. ويرى الغزالي(119): أنّ المبادئ الباطنية وجدت لها أرضاً خصبة بين العوام والجهلة من الناس الذين لا يفهمون الشريعة والمحرومين من الفلاحين والعمال. كما انضمت إلى الحركة القرمطية قبائل العراق (السواد) وبادية الشام(120). ويقول ابن الجوزي على لسان أحد دعاتهم:

"أمرت أن أدعو أهل [هذه القرية] من الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الشقاوة إلى السعادة، واستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم مالاً يستغنون به من التعب والكد"(121).

وقد تظاهرت الحركة بالتشيّع للعلويين باعتبار المعارضة العلوية حركة معارضة للخلافة العباسية التي تمثل السلطة، ولكن غاية القرامطة كانت الخروج على النظام السائد وإحلال نظام جديد بدله.

وقد شملت الحركة القرمطية أجزاءاً من الدولة، فعدا جنوبي العراق وبادية الشام، انتشرت الحركة في اليمن سنة 266هـ/ 879م، على يد ابن حوشب، ووفي جنوبي فارس والبحرين على يد أبي سعيد الجنابي(122).

وحين بدأت الحركة القرمطية في العراق في عهد المعتمد؛ لم تستطع الدولة مجابهة فعالياتها بسبب انشغالها بحركة الزنج وتمرّد يعقوب الصفار في سجستان وأحمد بن طولون في مصر. وقد بدأ القرامطة بالتسلح ابتداءاً من سنة 276هـ/ 889م، حيث كانت أخبار تحركاتهم المسلحة وصداماتهم تصل إلى مسمع السلطة. ولكن حمدان وصهره عبدان حاولا الانفصال عن الإسماعيلية فقُتلا، وبرز زعيم جديد يدعى (زكروية) الذي أبدى ولاءاً أكبر للإسماعيلية. وثار القرامطة عدة مرات في عهد المعتضد والمكتفي والمقتدر في العراق وبلاد الشام والبحرين. وقد هاجموا القرى وقوافل الحجاج والمساجد كما هاجموا الكعبة ونهبوا الحجر الأسود، ونقلوه إلى عُمان. وقد نجح من القرامطة أبو سعيد الجنّابي الذي استطاع أن يُؤسس دولة طّبق فيها مبادئ القرامطة.

وقد أدرك الخليفة العباسي المعتضد بالله امتداد خطرهم الذي بدأ يشمل سواحل الخليج، كما أنهم هددوا إقليم الحجاز وقطعوا طرق مواصلاته مع العراق والبحرين.

وقد أرسل الخليفة قائداً من قواده وعيّنه والياً على البحرين؛ هو العباس الغنوي، وكانت مهمته حرب القرامطة ليس إلاّ. وفي الوقت نفسه حصّن الخليفة

البصرة وعزّز إمكاناتها العسكرية. وقد اصطدم الجيش العباسي بالقرامطة وخسر المعركة وقُتل وأُسر العديد من أفراده. ولكن الجنّابي لم يقتل قائد الجيش بل أطلقه ومعه رسالة يتهدد فيها المعتضد، ولكن المعتضد صمّم على الاستمرار في المجابهة حيث تشير رواية تاريخية أنه قال:

"والله لئن طال بي العمر لأشخصنّ إلى البصرة وجميع غلماني ولأجهزّن إليه جيشاً كثيفاً؛ فإن هزمهم خرجت في جميع قوادي وجيشي إليه حتى يحكم الله بيني وبينه".

وقد تنبأ هذا الخليفة قبيل وفاته أنّ قلاقل واضطرابات ستأتي من ناحية الخليج؛ فهو يذكّر قواده وحاشيته بأنه كان مصمماً على تأديب العصاة واستتباب الأمن في البحرين ويحذّرهم قائلاً:

"... وإني أخاف أن يكون من هناك حوادث عظيمة". واستمر نشاط القرامطة في بادية الشام حيث هاجموا مدينة الرصافة، وحاصروا دمشق وأخذوا الضرائب من أهلها، واستولوا على حمص وضواحيها؛ وكانوا يفتكون بالناس دون تمييز. وقد استنجد سكان الشام بالعباسيين وبعد أن لم ينجدهم الطولونيون؛ فقاد الخليفة المكتفي جيشاً وعسكر بالرقة وأرسل قواته بقيادة أبي الأغر إلى حلب، وفي معركة قرب حلب انتصر القرامطة. مما اضطر الخليفة إلى إرسال إمدادات جديدة استطاعت تشتيت شمل القرامطة وتراجعهم إلى الصحراء.

ولم يكن القرامطة كما رأينا، على وفاق دائم مع الإسماعيلية، ومن أسباب الخلاف الزعامة والنزعة والفردية وحب الاستقلال عن الحركة العامة لدى بعض الزعماء الطموحين، ثم أنّ الخلاف برز حول الوسيلة التي توصل إلى الهدف؛ فكان القرامطة يؤمنون بالعنف والقوة، أما الإسماعيلية فأرادوا بعد وصولهم إلى الحكم في مصر أن يطبقوا منطق الدولة بدل منطق الثورة أي (سياسة المرونة والمساومة بدلاً من سياسة القوة). وحين زاد الخلاف وتأزمت الحالة حاول الحسن الأعصم

القرمطي أن يستنجد بالخليفة المطيع العباسي ضد النفوذ الفاطمي فرفض المطيع[123]:

إنّ الحركة القرمطية ضمّت إلى صفوفها المحرومين من العرب والنبط والموالي وانضم إليها البدو من القبائل العربية. وكانت الارستقراطية الإيرانية معارضة للقرامطة[124]. كما وأنّ الحركة القرمطية لم يُكتب لها النجاح في بلاد فارس.

فالحركة القرمطية كانت انتفاضة، آرائها خليط من عقائد مختلفة؛ ثم أنها توسلت ظاهرياً بالدين من أجل ضرب النظام القائم، وإنشاء نظام اجتماعي اقتصادي يحقق على حد زعمهم المساواة الاجتماعية والرفاه المادي، وهذا ما سمّاه قرامطة السواد "نظام الألفة" حيث تسدّ حاجات الأفراد ولا يبقى معوز بينهم.

وهناك حركة أخرى انشقت عن الإسماعيلية التقليدية وهي الدعوة الحشيشية[125] (الدعوة الجديدة) كما يسميها أتباعها وسنتكلم عنها حين كلامنا عن الدولة الفاطمية في محور قادم.

الهوامش

(1) أخبار العباس وولده (أخبار الدولة العباسية) للمؤلف المجهول، بيروت، 1978.

(2) من أجل المصادر والمراجع انظر: فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 1 بيروت، 1971.

(3) انظر التفاصيل في كتاب (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية)، فاروق عمر، بيروت – بغداد، 1982.

(4) راجع: فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج 2، دمشق، 19878 ص 13 فما بعد.

(5) عن المصادر انظر: F.Omar Fawzi, Political and Cultural Development C.S.D. Unesco, 1998.

(6) حول التفاصيل راجع: البلاذري، أنساب الأشراف، 8. 6.– الطبري، تاريخ، القسم الثالث (طبعة ليدن)، ص 144 فما بعد.

(7) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 143، 176، 178.– الطبري، المصدر السابق، 144 فما بعد.

(8) الطبري، ج3، ص 209–210.– الازدي: تاريخ الموصل، ص 182– 183، القاهرة 1967.

(9) البلاذري، المصدر السابق، ص 783 ب.– الطبري، ج3، ص 39.– المسعودي، مروج الذهب، ج6، ص 116.

(10) البلاذري: المصدر السابق: ص 784 ب– 784أ.– الطبري: المصدر السابق، ج3، ص 29 فما بعد.

(11) البلاذري، المصدر السابق، ص 160أ.– المؤلف المجهول: العيون والحدائق، (الطبعة الأوروبية)، ص 246.

(12) البلاذري: فتوح البلدان، ص 24.– الأصفهاني: مقاتل، ص 140، 157، 158.– الطبري: ج3، ص 182، 185، 188 العاملي: أعيان الشيعة، ج 5ص 141.

(13) الطبري، ج3، ص 209، العيون والحدائق، ص 240 فما بعد.

(14) الطبري، ج3، ص 209–210.– الازدي: المصدر السابق، ص 182–183.

(15) الطبري، المصدر السابق.

(16) ابن الطقطقي: الفخري، الطبعة الأوروبية، ص 225.

(17) المبرد: "الكامل" الطبعة الأوروبية، ص 302.

(18) الطبري، ق3، ص 206.
(19) ابن الأثير: الكامل، الطبعة الأوروبية، ج5، ص 409-410.
(20) الطبري، ق 3، ص 156، 158، 144.
(21) المصدر السابق، ج3، ص 144.
(22) البلاذري، أنساب الأشراف، ص 610.- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج3، ص 171.
(23) عن هذه الإجراءات انظر: الطبري، ق 3، 161 فما بعد.
(24) الزبيري، نسب قريش، ص 46.- البلاذري، أنساب الأشراف (تحقيق محمد باقر)، ص 74.
(25) البلاذري: أنساب (المحمودي) ص 78.- محمد خريسات، المرجع السابق، ص 65.
(26) مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص 389.
(27) E.I (2) مادة (الحسين بن علي) صاحب فخ.
(28) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، 150-161.- الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 551-568.- المسعودي، مروج، ج 2، ص 257.- الطقطقي، الفخري، ص 172 فما بعد.- الازرقي، تاريخ مكة، ج 2، 184 فما بعد.
(29) راجع: E.I (2) مادة (علي زين العابدين).- دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، بيروت، 1992.
(30) عن محمد الباقر، راجع: E.I (2) مادة (محمد الباقر).
(31) الكليني، الكافي، ج1، ص 36.
(32) الكشي، الرجال، 203.- الأصفهاني، مقاتل، 129 فما بعد.- نوبختي، فرق الشيعة، ص 52.- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 201.
(33) الكليني، الكافي، 135.- العاملي، أعيان الشيعة، ج 4، ص 475.
(34) الكليني، المصدر السابق، 102، 103، 166.
(35) المصدر نفسه، 102، 103، 166.
(36) معز الدين القزويني، أنساب القبائل العربية، ص 20-26.
(37) الكشي، الرجال، 149، 289.

(38) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 59.- ابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة، 1948، ج1، ص 291.- العاملي، أعيان الشيعة، ج4، 542.

(39) (2) E.I مادة Diafaral – Sadik .- دائرة المعارف الشيعية العامـة، بيـروت، 1993.

(40) اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 418-419.- سبط ابن الجوزي، تـذكرة الخـواص، 192.- فريد الدين العطار، تاريخ الأولياء، ص 24.

(41) المصدر نفسه.

(42) الكشي، 184، 149، 289، الكليني، الكافي، 148.

(43) الطبري، القسم الثالث، 154، الكشي الرجال، 195.

(44) الكليني، الكافي، 148.- الشيخ المفيد، الإرشاد، 202.- المجلسي، بحار الأنـوار، ج 11.- العاملي، أعيان، الشيعة، ج 4، ص 543-545.- الأشعري، مقـالات الإسلاميين، 16- 17.

(45) راجع آراء الباحثين المحدثين: (2) E.I (مادة جعفر الصادق) Hodgson, How did the early Shi.ca..., J A. O. S., 1955, Donadlson, the Shi.cite Religion, London, 1933.

(46) الاربلي، كشف الغمة، ج 2، ص 269.- قارن الأصفهاني، مقاتل آل البيت، 107 فما بعد.

(47) مؤمن بن حسن الشاذلي، نور الأبصار، القاهرة، ص 175.

(48) الطبري، تاريخ، القسم الثالث، 123، (الطبعة الأوروبية).

(49) راجع التفاصيل في: فاروق عمر، العباسيون الأوائل، ج1، ص 218 فما بعد.

(50) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، بيروت، 1964، ص 43.

(51) المظفري، الشيعة والإمامة، ص 168.- أحمد محمود (الإمامة)، فـي موسـوعة الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت.

(52) راجع: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 27.- الكشي، رجال، 281.- ابن بابوية، أخبار الرضا، 60 فما بعد.- الأصفهاني، مقاتل، 332 فما بعد. دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، تحرري حسن ألامـين، بيـروت، 1992.-(2) E.I مادة (موسى الكاظم).

(53) الأصفهاني، مقاتل ، 336.- ابن بابوية، أخبار الرضا، 67.- الشهرستاني، الملـل والنحل، ج 2، ص7.- العاملي، أعيان الشيعة، 4، ق 2، ص 76.

(54) العاملي، أعيان الشيعة، 4، ق2، ص 66. قارن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 27.

(55) راجع: الأصفهاني، مقاتل، 332، 333.- ابن بابوية.- أخبار الرضا، 46، 47 فما بعد.- الشيخ المفيد، الإرشاد، 313، 317، 320.- الجهشياري، الوزراء، 193، 211.

(56) حول علي الرضا راجع/ الطبري، تاريخ، القسم الثاني، 1029 فما بعد.- اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 550.- الأصفهاني، مقاتل، 561- 562.- ابن خلكان، وفيات الأعيان، رقم 434.- النوبختي، فرق الشيعة، 73 فما بعد.- ابن بابوية ، عيون أخبار الرضا، ج1، ص 187.- البلعمي، ترجماي تاريخي طبري، ج 4، ص 508 فما بعد. كذلك E.I (2) مادة (علي الرضا). جبريللي، سياسة المأمون تجاه العلويين، ليبزك، 1929، (باللغة الايطالية).

(57) ابن الطقطقي – الفخري، ص 74.

(58) D. Sourdel, la Politique – Religieuse du calife al Ma'mum R.E.I 1965. F. Gabreli, al Mamun E. Gli Alidi, Leipziq, 1929.

(59) B. Lewis, Abbasids, E,I. (2).

(60) Sourdel, Op . cit., pp. 28f.

(61) F.Omar, Harun al- Rashid, E.I. (2).

(62) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 311.

(63) انظر: Sourdel, Le Vizirat abbaside, Vol. I, p. 166 هناك روايات ضعيفة تشير إلى دور يحيى البرمكي في قتل موسى الكاظم، مقاتل الطالبيين، ص 322 فما بعد.. ابن الطقطقي، ص 145 فما بعد.

(64) انظر: Sourdel, Op. cit, p. 166.

(65) أن الشاعر مروان بن أبي حفصة يرى أن دور البرامكة كان دور الوسيط أجل إحلال الوئام محل الشقاق حيث يقول في الفضل البرمكي بعد أن حقق الصلح بين الرشيد ويحيى الحسني:

ظفرت فلا شلت يد برمكية ... رتقت بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه ... فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

(66) المسعودي، مروج الذهب، الطبعة الأوروبية، ج 6، ص 368 فما بعد. ينقل ابـن طيفور عن المأمون أنه قال: "إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات" تاريخ بغـداد، ص 28.

Sourdel, la Politique Religieuse… pp. 29-30.

(67) الشهرستاني، الملل والنحل، ج1، ص 116.- البير نصري نادر، فلسفة المعتزلة، بيروت 1956، ص 322 فما بعد.

(68) Sourdel, la Politique Religios… pp. 30f.

(69) F.Omar, The Abbasid Caliphate. Baghdad 1969, pp. 21 ff. عـن فرضية نيبرك انظر: (Mu'tazila)(1) E.I الـدكتور فـاروق عمـر، موقـف المعتزلة السياسي... Op. cit.

(70) انظر الأشعري مقالات الإسلاميين، الطبعة الأوروبية، ص 79.- الملطي، التنبيـه والرد... ص 27.- Sourdel, Le Vizirat…p. 169.

(71) وكيع، أخبار القضاة، ج 3، ص 257 فما بعد.- أبو يوسف، الخراج، ص 72.

(72) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد ، ص 248.

(73) الكندي، ولاة مصر، ص 422.

(74) انظر: الجاحظ، رسالة في نفي التشبيه، مجلة المشرق، 1953.

(75) عن آراء الجاحظ حول الإمامة والخلافة انظر:

lat, L'Imamat dans la doctrine de gahiz S.I., 1961.

(76) انظر: Sourdel, La Politique Religieuse, pp. 33ff.

(77) عن وجهتي النظر المختلفتين انظر: D.Sourdel, Op.cit., p. 34

F,Gabrile, al- Ma'mun E Gil Alidi, Leipziq, 1929

(78) راجع: Gabrieli, Op. Vit., p.29.

(79) اليعقوبي، تاريخ، ج 3، ص 178.

(80) الطبري، ج 3، ص 1006.

(81) المصدر نفسه.

(82) المصدر نفسه.

(83) انظر: المصدر نفسه، اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص 545.- الفخـري، ص 163.- الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص369.

(84) Gabrieli, Op. cit., pp. 46ff, p. 52.

(85) الطبري، ج 3، ص 100.- اليعقوبي، المصدر السابق، ج2 ص 545 فما بعد، (الطبعة الأوروبية).

(86) البلعمي، ترجماي تاريخي طبري، ج 4، ص 507- 509.- الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 312.- الفخري، الطبعة الأوروبية، ص 299.

(87) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 194.

(88) Gabrieli, Op. cit., 31.- الدوري، العصر العباسي الأول، ص 208.

(89) تاريخ الحكماء/ 221- 222.

(90) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 313.- ج3، ص 1006 فما بعد. العيون والحدائق، ص 353.

(91) انظر: مقاتل الطالبيين، ص 194- 195.- ابن الطقطقي، الفخري، ص 299.

(92) الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص 194 فما بعد.

(93) ابن الطقطقي، الفخري، ص 299.- القلقشندي، صبح الأعشى، ج 1، ص 362- 366.

(94) الطبري، المصدر السابق، ج 3، ص 1009 فما بعد.

(95) البلعمي، المصدر السابق، ج 4، 509.

(96) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص 545.

(97) الشهرستاني: الملل والنحل، ج 1، ص 273.

(98) Donaldson, the Shiite Religion, p. 45.

(99) Hodgson, How did the Early Shia become Sectarian? P. 10.

راجع كذلك: Watt, the Rafidites: A Preliminary Study.

(100) الشهرستاني: الملل والنحل، ج 2، ص 27.

(101) الكليني: الكافي، ج 1، ص 307.

(102) النوبختي: فرق الشيعة، ص 67.- الشهرستاني: الملل والنحل، ج 1، ص 278.

(103) الصدوق: علل الشرائع، ج1، ص 235- 236.

(104) المفيد: الإرشاد، ص 304.

(105) سعد القمي: المقالات، ص 96- 97.

(106) نبيلة عبد المنعم داود: نشأة الشيعة الأمامية، ص 279.

(107) عن الناصبة، انظر: الكشي، الرجال، ص 149-289.

(108) راجع: النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 2، ص 284 – 285.

(109) عن الغيبة والرجعة، قارن نبيلة داود: حيث تقول: توفي الحسن العسكري سنة 260هـ، ولم ير له خلف ولم يعرف له ولد ظاهر".– المرجع السابق، ص 289، 287، 304 فما بعد.– الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، ص 242 فما بعد.– الفياض: تاريخ الأمامية، ص 73 فما بعد، بغداد 1970.

(110) النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 2، ص 279.

(111) اليعقوبي: تاريخ، ج 3، ص 117.

(112) الشهرستاني: الملل والنحل، ج 1، ص 178.– النجاشي، الرجال، ص 81، 82، 296.– الكشي، المصدر السابق، 242، 194، 192، 188.

(113) النوبختي: فرق الشيعة، ص 59–60.

(114) المصدر السابق، ص 58.– كما وأن جعفراً كتب محضراً بموت إسماعيل وأشهد عليه أهل المدينة (الشهرستاني: الملل والنحل، ج 1، ص 231).

(115) النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 2، ص 377.– حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص 39.

(116) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، 132–144.

B. Lewis, The Origins of the Ismailim, pp. 45 ff.
Ivanov, The Rise of the Fatimids, pp., 172ff.

(117) راجع: (الإمامة) في موسوعة الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت.

(118) عبد العزيز الدوري، دراسات في العصر العباسية المتأخرة، ص 131.

De Sacy, Expose de la Religion des Druzes, 2 vols, Parise 1838.
Gasanova, La Doctrine Secrete des fatimides D.Egypte, Caire 1910.
B. Lewis The Orgines of Ismailism, Gambridge 1940, 41
Ivanov, The rise of the Fatimids, Calcutta, 1942.

مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص 11 فما بعد، طبعة دمشق.

(119) الغزالي: فضائح الباطنية، ص 53.

(120) de Sacy,p. 170.

(121) ابن الجوزي: المنتظم، ج5، ص 113.– paris.

(122) عن القرامطة انظر: محمد كردعلي: خطط الشام، ج 1، ص 209– 230.
فيصل السامر: الدولة الحمدانية، ج 1، ص 91– 98.

حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج 3، ص 196-197.

بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص 159- 217.

احمد أمين: ظهر الإسلام، ج 4، ص 132- 134.

عارف تامر: القرامطة، ص 100- 116.

محمد عليان: قرامطة العراق، ص 76 وما بعدها.

محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام، ص 109 وما بعدها.

(123) يقول المسعودي: أن القرامطة سلبوا الحجر الأسود 317هـ، وأعيد سنة 339هـ.

(التنبيه والأشراف، ص 346).

(124) Barthold, Mussulman Culture, Calcutta, 1934, p. 72 ff.

B. Lewis, The Islamic Giuids Islamic Guilds, E.H.R. 1937, pp 100ff. 22,

عبد العزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة، ص 179.

عارف تامر: القرامطة، ص 148 فما بعد.- لقد وجد للدعوة القرمطية أنصار في قلب العاصمة بغداد كذلك؛ إلا أن عددهم كان قليلاً. انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 127.- بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، ص 206.

(125) الحشيشية بسبب ما أشيع عن تعاطيهم منقوع الحشيش المخدر بأمر زعيمهم شيخ الجبل- أما النزارية فنسبة إلى نزار بن الخليفة المستنصر – أما السبعية فنسبة إلى إسماعيل الذي يعتبر الإمام السابع عندهم، أو نسبة إلى العدد سبعة الذي له صفة مقدسة لديهم فالنظام الكوني والحوادث مرتبة على هذا العدد – أما الباطنية فلقولهم لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل، ابن ميسر، تاريخ مصر، 37.

راجع كتاب طه شرف، دولة النزارية القاهرة، 1950، ص 212، سرور، الدولة الفاطمية، 1966، 117.

هودسون، نظام الحشيشية، هولندا 1955، ص 48 فما بعد (بالانكليزية). لويس، الحشيشية (مترجم)، 1967.

الفصل الرابع

بنو هاشم في أواخر العصور الإسلامية الوسطى

247هـ/861م – 1335هـ/1916م

- العباسيون الأواخر في العراق 247هـ/861م – 656هـ/ 1258م.
- العلويون الزيدية في طبرستان والديلم 250هـ/ 864م – 520هـ/ 1126م.
- الزيدية والرسّيون في اليمن 280هـ/ 893م – 700هـ/ 1300م.
- بنو الاخيضر في اليمامة 252هـ/ 866م – 390هـ/1000م.
- الأشراف في الحجاز 358هـ/ 986م – 1335هـ/ 1916م.
- الادارسة في المغرب الأقصى 172هـ/789م – 375هـ/ 985م.
- الفاطميون في المغرب ومصر 297هـ/ 909م – 567هـ/1171م.
- السعديون والفيلاليون في المغرب الأقصى 916هـ/ 1510م – 1206هـ/1792م.

دونكموهـــا يـــا بنـــي هاشـــم فجـــدوا مـــن عهـــدها الدارســـا

قدســـــاها قبلكـــــــم ساســــــة لـــم يتركـــوا رطبـــاً ولايابـــساً

الشاعر السيد الحميري

العباسيون الأواخر في العراق

247هـ/861م – 656هـ/1258م

فترة الفوضى العسكرية 247هـ/816م – 334هـ/ 946م:

اتفق المنتصر مع القادة الأتراك على قتل ابية المتوكل، ثم أجبر أخويه المعتز والمويد على التنازل عن الخلافة بناء على رغبة القادة الأتراك كـذلك[1]. ولكـن المنتصر نفسه لم يستطع أن يحتفظ بالخلافة أكثر من ستة أشهر، فقد جرّده القـادة من كل شيء فأخذ يعلن سخطه وتبرمه ويهددهم بالقتل، يقول المسعوي:إن طبيبـة الطيفوري سمه بناءا على طلب القادة الأتراك الذين عزموا على التخلص منه قبل أن يتخلص منهم[2]. وقد برز في أعقاب اغتيال الخليفة ثلاثة قادة عسكرين أتـراك هم: بغا الكبير وبغا الصغير وأوتامش ومدني واحد هو أحمد بن الخصيب الذي كان وزير المنتصر، وكان متعاوناً مع القادة العسكرين ومنفذاً لرغباتهم حيث دبر أمـر الاجتماع بعد مقتل المنتصر.

ولكن القادة الثلاثة لم يكونوا متفقين على شخص الخليفة الجديد[3]: فقد أجتمعوا أول الأمر على أن لا يولوا أحدً من أولاد المتوكل لئلا ينتقم منهم، وقرروا ان يولوا أحد من أبناء المعتصم. ثم حدث الشقاق والتردد بعد أن ذكر اسم أحمد بن المعتصم الذي كان يرى انه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وان الاتراك حرموه منه. ولكن بغا الكبير أصر على هذا الاختيار قائلاً: " نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه، وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضاً وقتلنا أنفسنا". وهكـذا بويـع المـستعين بـالله بالخلافة سنة 248هـ/ 862م الذي عين أو تامشاً وزيراً حيث تقلد منصب الوزارة قائد عسكري بعد أن كان بيد المدنيين.

لقد كان القائد بغا الكبير محقاً حين أراد أن يتولى خليفة قوي، حفاظـاً علـى مصلحة الأتراك وتجنباً لتفكك وحدتهم، ولكن المستعين كان ضعيف الشخصية واقعاً تحت تأثير امه، قدم أوتامش وشاهك الخادم على سائرالناس[4]. وقد أدى ذلك إلـى

انشاق وتصدع في جبهة القادة الأتراك حيث أصبح وصيف وبغا ضد أوتامش، وانتهت المشادة بقتل أوتامش، بموافقة المستعين كما ونهبت داره.

ولكن المستعين لم يسترجع سلطته بل حل قائد تركي جديد هو باغر محل أوتامش. على أن باغر كان ذا سجل سابق في التآمر ضد الخلافة؛ حيث كان من رؤوس المؤامرة ضد المتوكل. ولكن كتلة وصيف وبغا كانت الأقوى هذه المرة أيضاً، وبذلك تخلصت من باغر بقتله.

وقد استغل أهل بغداد هذه الأوضاع وهاجوا مطالبين باحترام الخليفة وعقدوا القادة الاجتماعات نادوا فيها بالنفير. ولكن القادة الأتراك أخمدوا تحركهم وفضوا اجتماعهم. والواقع فقد رغب أهل بغداد من وراء هذه الانتفاضة أن تعود مدينتهم داراً للخلافة بعد أن نقلها المعتصم إلى سامراء. على أن الخليفة المستعين بعد أن يئس من إعادة سلطته هرب إلى بغداد سنة 251هـ/ 865م، ومعه أنصار من الأتراك وعلى رأسهم بغا. وقد حاول قادة الأتراك إعادته إلى سامراء لأن وجوده في العاصمة ضروري لكي يكسب حكمهم الشرعية؛ إلا ان رفض وعندئذ بايعوا ابن عمه المعتز بالله. وقد وصارت بغداد وتوابعها إإلى جانب المستعين وسامراء مع المعتز، وبقيت الحرب دائرة بين الطرفين، ولكن المستعين لم يصمد للأزمة؛ بسبب تخلي أمير العراق محمد بن عبد الله بن طاهر عنه على أثر نزاع نشب بين ابن طاهر وبين بغا، وكذلك للحصار الشديد الذي ضربه جند سامراء على بغداد حيث منعوا الميرة عنها. فاضطر أن يخلع نفسه سنة 252هـ/866م ويرحل إلى واسط حيث قتل بعدئذ بتدبير من قادة سامراء وأحمد بن طولون الذي وعدوه بولاية واسط[5]. ولا بد هنا أن نقيم وقفة المستعين والجهود التي بذلها في سبيل الوقوف ضد القادة الاتراك، فقد حصن أسوار بغداد وحفر الخنادق حولها، وفتحت السدود باتجاه سامراء لمنع وصول الجند إلى بغداد؛ كما أصدر أوامره بحصار سامراء اقتصادياً، ونظم المدافعين من أهل بغداد وبعض الخراسانية والعيارين. ولكن

الخلاف بين بغا وابن طاهر وإحساس ابن طاهر بقوة كتلة المعتز دفعة إلى إجبار الخليفة على قبول شروط الصلح وإقناعة بالتنازل طائعاً أو مكرهاً.

اصبح المعتز خليفة وكان قد سبق وتنازل عن ولاية العهد في عهد أخيه المنتصر وبتحريض الأتراك، إلا أن هؤلاء القادة عدلوا عن رأيهم الآن ورأوا فيه الشخص المناسب لهم في الظروف الحالية فجاءوا به إلى السلطة، إلا أن الثمن كان باهضاً حيث سيطر بايكباك (زعيم الأتراك)، على الأمور مستنداً على خبرة الحسن بن مخلد بن الجراح وكانت الكتلة المسيطرة من الجند التركي هي كتلة وصيف وبغا اللذين تجاوزا كل حد في علاقتهما بالخليفة حتى إن المعتز كان يتمنى التخلص من بغا.

وتتلخص محاولات المعتز في التخلص من القادة العسكريين الأتراك بدعمه لفرق المغاربة والفرغانيين؛ حيث كانت الحساسيات مستعرة بينهم حول السلطة والامتيازات. كما وأن المعتز نجح في التخلص من بغا الذي اغتيل واحرقت جثته وصودرت أمواله بأمر من الخليفة(6).

ولكن محاولات المعتز باءت بالفشل حين اصطدمت بالأزمة المالية، فالخليفة كان بحاجة إلى المال لكسب الجند والأتباع، بينما كانت الخزينة خاوية وعلى وشك الافلاس. وكان الانهيار المالي نتيجة طبيعية لسوء الادارة وانشغال القادة العسكريين بتثبيت مراكزهم السياسية واستمرار الفرق العسكرية في التنازع والخلاف. فقلت المحاصيل وتدهورت الزراعة والتجارة فقلت واردات الدولة. وقد ثار الجند مطالبين بأرزاقهم لأربعة أشهر فأرسل القائد وصيف لتهدئتهم فنشبت مشادة انتهت انتهت بقتله ولكن مشكلة الأرزاق استعصت فوجدت بين الاتراك والفرق الأخرى من المغاربة والفرعانية الذين اصبحوا كتلة ضد الخليفة، وعندئذ استنجد الخليفة بأمه (أم المعتز) ولكنها ام تنجده رغم كثرة ما عندها من مال.

وكانت نهاية المعتز مؤلمة تدل على طغيان الجند وقادتهم وسوء أدبهم وسلوكهم حيث سحل من رجله وضرب بالدبابيس فتمزقت ثيابه وأوقف في الشمس

ثم تنازل عن الخلافة بعد ان ضربوه ولطموه وقد مات في السجن[10] كما استطاع الاتراك قتل الوزير أحمد بن اسرائيل وقتل قائدي فرقة المغاربة: محمد بن راشد ونصر بن سعيد.

لم يقبل المهتدي بالله أن يستلم منصب الخلافة إلا بعد أن يتنازل عنها المعتز علناً[8]. وكانت هذه بداية طيبة من الخليفة الجديد تدل على احترام هيبة الخلافة وشرعية السلطة، كما وان المهتدي أراد ان تكون بيعته موافقة للتقليد السائد دون ان يكون للقادة الاتراك فضل في تنصيبه، وهذا يعكس بطبيعة الحال خطط الخليفة لجعل الخلافة قوة فعالة غير واقعة تحت نفوذ الطغمة العسكرية.

فلقد أدرك المهتدي بأن ضعف مؤسسة الخلافة يكمن في وجود حفنة من القادة العسكريين الطموحين الذين يمثلون كتلاً عسكرية متنازعة، وان السبيل لانقاذ الخلافة هو التخلص منهم والحد من نفوذهم السياسي.

وقد برزت في الآونة الأخيرة ظاهرة جديدة في الجيش حيث حقد الجند وضباطة الصغار على القادة الكبار، حين أدرك هؤلاء أن القادة ذوي المراتب انما يستغلونهم للحصول على امتيازات وأموال ومناصب لهم دون ان يصيب منها الجندي العادي أو الضابط الصغير شيئاً. وقد ثار الجند في سامراء ورفعوا شكواهم للخليفة، وثار الجند في بغداد متذمرين من واليها الذي امتنع عن دفع اعطياتهم. وهكذا اعطى الجند فرصة طيبة للخليفة لكي يضرب ضربته ويتخلص من القادة ويستعيد مكانته، خاصة وأن هؤلاء الجند تعهدوا بحماية الخليفة وقتل كل من يتعرض على اجراءاته[9].

لم يستغل المهتدي الجند ولم ينجح في استقطابهم تحت زعامته، بل رأى من الاصوب ضرب القادة الاتراك بعضهم ببعض واتباع سياسة التحريض والإغراء فاتصل بالقائد بايكباك وأغراه بالامتيازات ان هو قتل موسى بن بغا ومفلحاً، ولكن بايكباك ادرك نوايا الخليفة وأخبر جماعته بالأمر، وعندئذ تحول النزاع إلى معارضة علنية ابرز سماتها الطعن بالخليفة واجراءاته وسياسته، وقد استطاع

الخليفة قتل بايكباك وتخلص من خطره كما تقرب من الفقهاء والعلماء ليضفي على خلافته ضبغة دينية قوية، وليكونوا له سنداً في محنته تجاه القادة العسكريين فلا ينكر أن لهولاء تأثيراً كبيراًعلى العامة، ومن المحتمل أن يثيروا العامة ويحضوهم لنصرة الخليفة. واهتم المهتدي بتقوية فرقة (الأبناء) وجمع حوله فرق المغاربة والفراغنة وبعض الجند الأتراك المتذمرين[10].

كما قابل المهتدي شغب الاتراك بكل جرأة حيث استدعى موسى بن بغا وأصحابه وعنفه وأنذره قائلاً: "والله لئن سقط من شعري شعرة ليهلكن بدلها منكم أو ليذهبن بها أكثركم اما دين؟ اما حياء؟ أما تستيحون من هذا الاقدام على الخلفاء والجرأة على الله عز وجل وانتم لا تبصرون"[11].

ولكن الأتراك استمروا في جشعهم ومؤامراتهم مما اضطر الخليفة إلى اعلان النفير العام مبيحاً دماء الأتراك وأموالهم رافعاً شعار:" يا معشر الناس انصروا خليفتكم" ولكن الناس خافت الجند فتخاذلت عن القتال كما انسحب الجند الأتراك من جانبه وانضموا إلى اصحابهم مما ادى إلى اندحار المهتدي حيث اعلنوا خلعة قبل موته ومبايعة أحمد بن المتوكل الذي لقب بالمعتمد على الله سنة 256هـ/879م.

تعد إجراءات المهتدي من أكثر الاجراءات السياسية والعسكرية جدية في سبيل استعادة هيبة مؤسسة الخلافة ومركزها، فقد كان ادارياً حازماً ابتعد عن مجالس الغناء والشراب والجواري، كما وأبعد السباع وكلاب الصيد عن البلاط[12] مما يدل على محاولته الإصلاح والانشغال بأمور الحكم المتدهورة.

على أن صمود المهتدي بوجه الجيش كان له نتائجه حيث بدأت أول حركة منظمة تدعو إلى اعادة سلطان الخليفة العباسي، ومؤازرة هذه الحركة كما رأينا بين صفوف الجند التركي نفسه، وبتحريض الخليفة الذي يقف، ولأول مرة منذ عهد المتوكل بقوة أمام الطغمة العسكرية.

كما استطاع الأمير العباسي ابو احمد (الموفق) فيما بعد ان يسيطر على قيادة الجيش فعادت القيادة مرة أخرى للعباسيين، وعاد الأتراك- موالي، ومصطنعين للخلافة كما كانوا في عهد المأمون المعتصم.

ثم ان مركز الخلافة انتقل ثانية إلى بغداد وتعاقب على الحكم خلفاء يحكمون ويديرون مؤسسات الدولة ويموتون موتاً طبيعياً بعيداً عن الاضطهاد والتأمر، حيث اعقبت فترة التسع سنوات الحرجة فترة انتعشت فيها الخلافة حوالي أربعين سنة حكم فيها ثلاثة خلفاء فقد كان من أبرز رجالها الموفق أخو المعتمد ثم المعتضد.

ولكن الضعف ما لبث ان عاد إلى الخلافة بعد سنة 295هـ/ 908م وعاد زمام الأمور للقيادة العسكرية. وفد حاول الراضي أن ينقذ مؤسسة الخلافة ويتخلص من الأزمة المالية والإدارية فابتدع منصب أمير الأمراء واختار له محمداً بن رائق. ولكن النظام الجديد لم ينجح بل زاد القادة العسكريين قوة للاستئثار بالنفوذ حتى سقطت بغداد في أيدي البويهيين سنة 334هـ/ 946م.

فترة النفوذ البويهي 334هـ/ 946-447هـ/ 1055م:

البويهيون سلالة ديلمية نشأت أصلاً في اقليم الديلم جنوبي بحر قزوين، وقد ظهر ال بوية علي وحسين وأحمد في البداية كجنود مقاتلين في جيوش أمراء الديلم وطبرستان حتى استطاع الحسن بن بوية أن يسيطر على الري. أما أحمد بن بوية الابن الاصغر فإن الظروف السياسية جعلته يحقق نجاحاً أكبر من أخويه، حيث استغل ظروف الفوضى السياسية والادارية في بغداد فاثبت نفوذه في الاحواز ومن هناك زحف نحو بغداد واحتلها، وقد اعترف الخليفة العباسي المستكفي بالأمر الواقع ومنح أحمد بن بوية لقب (معز الدولة)[13].

استمرت سيطرة البويهيين على مقدرات الخلافة العباسية أكثر من قرن من الزمان، كانت العلاقة خلالها بين الخليفة العباسي والأمير البويهي في معظم الأحيان على أسوأ ما تكون. ولعل أشهر أمير بويهي هو عضد الدولة

(367- 372) الذي حقق نوعاً من الاستقرار النسبي والانتعاش الاقتصادي والعمراني في العراق.

وقد واجه البويهيون صعوبات كثيرة في ادارتهم للعراق حيث كانت منطقة البطيحة (جنوبي العراق) في ثورة دائمة بقيادة عمران بن شاهين ضد الوجود البويهي. كما كانت قبائل السواد العربية شرقي دجلة وغربي الفرات لا تعترف في أحيان كثيرة بسلطة البويهيين وواجه البويهيون مشاكل أخرى في الاحواز والجزيرة الفراتية وعمان وكانت علاقتهم بين مد وجزر مع قرامطة البحرين وبلاد الشام.

فترة السيطرة السلجوقية 447هـ/ 1055- 590/ 1193م:

ولم يختلف الأمر كثيراً في العراق حين حل السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على شؤون الخلافة العباسية بدعوة من الخليفة العباسية القائم. على ان عصر السلاجقة العظام طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه شهد استقراراً للمؤسسات السياسية والادارية واحياءاً للجهاد ضد البيزنطيين وانعاشاً لحركة انشاء المدارس للرد على الزندقة والباطنية. وقد لعب الوزير نظام الملك دوراً مهماً في هذا الشأن.

أما العلاقة بين السلطان السلجوقي والخليفة العباسي فلم تكن لتختلف عن عصر التسلط البويهي إلا في بعض المظاهر الشكلية والمراسم الرمزية، أما عدا ذلك فقد بقي الخلفاء مسلوبي السلطة قليلي النفوذ.

لقد حاول بعض خلفاء هذه الفترة مثل المسترشد بالله والمقتفي لأمر الله أن يعيدوا للخلافة سلطتها فاصطدموا بالسلاطين السلاجقة وعملوا على اصلاح الوضع الاقتصادي إلا ان محاولاتهم لم يكتب لها النجاح.

وقد استطاع الخليفة الناصر لدين الله العباسي انهاء السيطرة السلجوقية سنة 590هـ/ 1193م ونجح في توسيع نفوذ الخلافة العباسية، وجمع حوله العديد من أمراء الأطراف عن طريق التنظيم الذي ابتدعه (الفتوة). ولكن الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا ضعفاء ومعزولين تسيطر عليهم حفنة من الحاشية في دار الخلافة.

ولذلك كانوا دون مستوى الأحداث التي من حولهم حيث الهجوم الصليبي (الفرنجي) على فلسطين وبلاد الشام عموماً والهجوم المغولي على المشرق الإسلامي. بل ان بغداد نفسها سقطت بيد هولاكو المغولي سنة 656هـ/ 1258م[14].

مؤسسة الخلافة العباسية ورقة رابحة بيد امراء الأطراف:

لما غدت الخلافة العباسية ضعيفة بعد العصر العباسي الأول، فكر العديد من أمراء الأطراف استغلال هذه المؤسسة الموقرة في نظر الناس بمختلف الأساليب لدعم طموحاتهم السياسية. وقد فشل البعض بينما نجح الآخر في محاولاتهم هذه.

وقد أدرك الخلفاء العباسيين الوضع الجديد الذي صارت إليه مؤسسة الخلافة فما داموا غير قادرين على السيطرة على السلاطين والامراء في الاطراف القريبة والبعيدة، فإن أضعف الايمان أن يستغلوا نفوذهم المعنوي باعتبارهم من بني هاشم ال البيت ونفوذهم الديني كخلفاء وذلك بإضفاء الشرعية على هؤلاء الامراء والسلاطين من خلال الاعتراف بهم كحكام شرعيين في مناطق نفوذهم مقابل إعلان هؤلاء الأمراء والسلاطين الولاء والطاعة للخليفة العباسي، ودفع ضريبة سنوية لبيت المال في بغداد. والواقع ان العملية كانت مصلحة متبادلة بين الطرفين فباعتراف الخليفة العباسي بهم حكاماً شرعيين ضمن هؤلاء الامراء ولاء الرعية واحترام الفقهاء لهم، مقابل ضمان الخليفة لمورد مالي ثابت لبيت المال وكذلك استخدام هولاء الامراء للدفاع عن الدولة في حالات معينة والجهاد باسم الخليفة في (دار الحرب).

والواقع ان هذه الظاهرة لم تنته بسقوط الخلافة العباسية سنة 656هـ/1258م على يد هولاكو المغولي فقد أدرك سلطان المماليك في مصر وبلاد الشام الظاهر بيبرس 658هـ/1260م أنه بحاجة إلى دعم "شرعي" لسلطان الذي لم يكن يستند على قاعدة شعبية ولا شرعية في حكم البلاد. فراودته فكرة نقل الخلافة العباسية في مصر، وهو ان نجح في ذلك فسيحقق المكتسبات التالية:

(1) الدعم الشرعي لسلطته من قبل خليفة عباسي معترف به.

(2) سيكون له الحق في الاشراف على الحرمين الشريفين في الحجاز بتفويض من الخليفة.

(3) المكانة المتميزة بين امراء وملوك وسلاطين دار السلام حيث سيكون صاحب السيادة العليا عليهم.

وقد أشرنا قبل قليل أن إيجاد علاقة بين الخلافة العباسية وامراء الاطراف كانت عملية رابحة لكلا الطرفين، إلا أن فكرة إحياء الخلافة العباسية وجعل مصر مقراً لها ومن ثم استغلالها لإضفاء الشرعية على حكام الأطراف، لم تكن فكرة جديدة نادى بها السلطان الظاهر بيبرس لأول مرة، فقد دعى أمير مصر أحمد بن طولون الخليفة العباسي المعتمد على الله سنة 269هـ/882م أثناء خلافه مع أخيه الموفق طلحة بالمجيء إلى مصر والمقام فيها، ولكن مشروع ابن طولون فشل ولم يتحقق نتيجة قوة الموفق وحذره ويقظته. وحاول أمير مصر محمد بن طفج الاخشيد دعوة الخليفة العباسي المتقي سنة 222هـ/944م حين تعرض هذا الأخير إلى ضغوط سياسية من القادة الأتراك ومن الحمدانيين بالموصل ولكن هذا المشروع لم ينجح كذلك[15].

وقبل دعوة الظاهر بيبرس بسنوات قليلة حاول كل من السلطان المملوكي قطز والملك الأيوبي الناصر يوسف صاحب دمشق دعوة أمير عباسي من الذين فروا بعد غزو المغول بغداد من أجل أحياء الخلافة في مصر حسب خطة السلطان قطزأو في بلاد الشام حسب خطة الملك الايوبي إلا ان شيئاً من ذلك لم يكتب له النجاح.

أما السلطان المملوكي الظاهر بيبرس[16]. فقد ساعدته الظروف على تنفيذ الفكرة تنفيذاً عملياً خاصه وأنه كان بحاجة إلى إسناد شرعي، وصادف أن وصل الأمير العباسي أحمد بن الظاهر بن الناصر إلى دمشق هرباً من المغول. وقد أرسل هذا الأخير إلى القاهرة تنفيذاً لأوامر السلطان بيبرس واستقبل هنالك استقبالاً حافلاً سنة 659هـ/1261م.

لقد أمر السلطان بيبرس بعقد اجتماع عام ضم قاضي القضاة والقضاة والفقهاء والعلماء والأمراء وسائر المسؤولين في الدولة حيث حضر الشهود الـذين شـهدوا بصحة نسب الأمير واتصاله بالعباس بن عبد المطلب (عم الرسـول ﷺ) فبايعـه الظاهر بيبرس وبقية الحضور خليفة للمسلمين ولقب بالمستنصر بالله. وبهـذا تـم إحياء الخلافة العباسية بعد أكثر من ثلاث سنوات من سقوطها. وفي المقابل جـرى احتفال اخر في السنة نفسها قام الخليفة العباسي بتقليد السلطان بيبرس حكم الـبلاد التي تحت نفوذه[17] حيث أضفى عليه "الشرعية" التي كان بجاجة إليها.

ولكن وجود الخليفة المستنصر إلى جانب السلطان بيبرس في القـاهرة أوجـد شعوراً بالقلق لدى الأخير، خاصة وان الناس من عامة وفقهاء بدأوا يلتفون حولـه مما زاد من شعبيته كما وأن بعض رجال الحاشية المداهنين للسلطان والمتزلفين له أبدوا له خوفهم من الخليفة العربي الهاشمي بالمقارنة مع بيبرس المملوك التركـي، مما يشكل خطراً على مكانته وسلطته مما دفع السلطان إلى اقتراح خطـة لابعـاده وذلك بتجهيز جيش صغير يهدف إلى تحرير بغداد من المغـول. وفـي روايـات تارخية ان بيبرس كان يود ارسال جيش كبير معه، ولكن بعض أصحابه اقترحـوا عليهم بألا يفعل لأن الخليفة سينقض عليه بعد أن تثبت الأمور له في العراق حتـى جابهه المغول وقتلوه فاستشهد سنة 660هـ/1262م.

أدرك الظاهر بيبرس الفراغ الذي حصل باستشهاد المستنصر فطلـب أميـراً عباسياً اخر هو أبو العباس أحمد الذي كان في بلاد الشام واستقبله بحفـاوة بالغـة وبويع بالخلافة سنة661هـ/ 1263م ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين. ثم قلد الخليفة جميع الأمور للسلطان بيبرس ليحكم:

"البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق.. وفوض اليه سائر الأمور"[18].

وبدلاً من محاولة إرساله إلى العراق لتحرير بغداد من المغول حجزه بالقلعـة في القاهرة "عند حريمه وخدمه وغلمانه"[19].

لقد استمرت الخلافة العباسية إلى جانب السلطة المملوكيه بالشكل الذي اشرنا إليه طيلة الفترة المملوكية ولم يكن للخليفة سوى الأمور المعنوية والدينية وان يذكر اسمه في الخطب في الجوامع عدا جامع السلطان بالقلعة. وكان واجب الخليفة الرئيسي تقليد السلطان الجديد السلطنة والقيام بالمراسيم الخاصة بالتهنئة في الأعياد والمناسبات، وإذا شك السلطان بتحركات الخليفة فلا يتردد من سجنه أو عزله وتولية غيره من أبناء البيت الهاشمي الذين تكاثروا بمرور الوقت. وقد وصف المؤرخ المقريزي حالة الخليفة العباسي بالقاهرة كالتالي:

"صار ملوك مصر من الأتراك يقيمون رجلاً يسمونه الخليفة ويلقبونه بلقب الخلفاء وليس له أمر ولا له نهي ولا نفوذ بل يتردد إلى ابواب الامراء وأعيان الكتاب والقضاه لتهنئتهم بالاعياد والشهود"[20].

وقد أدرك الخلفاء في مصر طبيعة مركزهم وضعف سلطتهم، ولذلك كانوا يتجنبون الدخول في اللعبة السياسية والصراع بين امراء المماليك في مصر قدر المستطاع. رغم ان بعضهم كان يحشر إليها حشراً بالنظر لأن مكانته المعنوية والدينية تجعل الأطراف المتنازعة تتنافس على كسبه اليها. ولعل أبرز نموذج لذلك ما حدث سنة 815هـ/1412م في خلافة المستعين بالله العباسي بمصر حيث استقبل بأمر الخلافة وأفرد بالدعاء على النابر وضرب اسمه على المنابر والدراهم. ومعنى ذلك أنه حكم مصر حكماً فعلياً على أن ما حدث لم يكن أمراً عادياً، بل حالة استثنائية حتمتها الظروف السياسية على عهد السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق. فقد بويع المستعين بالله بالخلافة من قبل السلطان الناصر فرج منذ سنة 808هـ/1405م إلا أن كثرة الاضطرابات الداخلية التي قام بها أمراء بلاد الشام التابعين لمصر وخاصة الأمير نوروز نائب طرابلس والأمير شيخ نائب حلب أدت إلى وقوع حرب بين سلطان مصر وهذين الأميرين انتهت بهزيمة سلطان مصر فرج[21].

لم يصل المنتصرون إلى حل حول من منهما سيكون الأمير الكبير فكان اختيار الخليفة المستعين ليكون السلطان إضافة إلى الخليفة هو الحل الذي فرض نفسه لأنه الحل المقبول من الطرفين لما يتمتع به الخليفة العباسي دوماً من مكانة دينية تجعله موضع التقدير. وحينما رفض الخليفة أن يلعب هذه اللعبة أجبروه على ذلك كما أجبروه على إصدار منشورات يخلع فيه السلطان القديم الناصر فرج الذي ضعف موقفه كثيراً بعد تخلي الخليفة عنه وبدأ جنده بالهرب من معسكره حيث لم يعد السلطان الشرعي، مما اضطره إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الامير شيخ الذي نفذ حكم الاعدام فيه بعد إصدار فتوى من الخليفة والقضاة بذلك. واقتسم الاميران الكبيران حكم البلاد نوروز يحكم بلاد الشام وشيخ يحكم مصر. وقد فرح أهل مصر بتولي الخليفة السلطنة فهو "الامام وابن عم سيد المرسلين". ولكن الأمر لم يدم طولاً حيث استخدم الأمير شيخ مختلف الضغوط لإجبار الخليفة على تقليده الأمور بصورة فعلية واضطر الخليفة لأصدار منشورات بذلك حيث عاد دون نفوذ يذكر وعادت السلطنة إلى الامير شيخ سنة 815هـ/ 1412م الذي خلع المستعين بعد ان استقرت الأوضاع وعين مكانه أخاه داود ولقبه بالمعتضد. ويرى السيوطي" أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الأسلام فيها وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الإيمان والكتاب[25].

وقد استمرت العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلاطين المماليك على هذا النمط من التذبب المشوب بالحذر والترقب حتى سقوط سلطة المماليك على يد العثمانيين سنة 923هـ/ 1517م. لقد ألقى السلطان العثماني سليم الأول القبض على اخر خليفة عباسي هو المتوكل على الله في القاهرة. ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة العباسي لم يتنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول ذلك لأن هذا الأخير لا يمكن ان يكون خليفة المسلمين لعدم توفر شروط الخلافة فيه وأولها النسب العربي، كما قرر

ذلك كتّاب السياسة الشرعية والفقهاء منذ القرون الإسلامية الأولى. ولعل السبب في ذلك يعود إلى استخدام السلطان عبد الحميد الثاني لقب الخليفة، لاعتبارات سياسية حيث تبنى هذا الأخير مشروع "الجامعة الإسلامية"، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وليس لهذا اللقب أي ارتباط تاريخي بالخلافة العربية الإسلامية.

العلويون الزيدية في طبرستان والديلم

250-520هـ/ 864-1126م

تبدأ حركة العلويين الزيدية في شمالي ايران (طبرستان والديلم)[23] بوصول يحيى بن عبد الله بن الحسن الحسني الذي استطاع الافلات من القتل في موقعة فخ بالمدينة المنورة سنة 169هـ/ 785م حيث قتل صاحب فخ الحسين بن علي الحسني. أما يحيى فقد فر إلى بلاد الديلم بينما فر أخوه إدريس إلى بلاد المغرب.

كان يحيى بن عبد الله حسن المذهب مقدماً لدى مالك بن أنس في المدينة وقد روى الحديث. وفي بلاد الديلم كثر أنصار يحيى الحسني وكان على العباسيين ان يحتاطوا للأمر قبل استفحاله، فأرسل الخليفة هارون الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وولاه على الجبال والري وجرجان وطبرستان والاماكن القريبة منها.

واستخدم الفضل البرمكي الوسائل السلمية فكتب إلى يحيى الحسني يحذره ويرغبه بالأمان، كما كتب إلى صاحب الديلم يحذره من مساندة يحيى أو منحه اللجوء إلى بلده. وتجاه هذه الضغوط استجاب يحيى لعرض الأمان الذي تقدم به الفضل البرمكي وبعث الخليفة الرشيد بالأمان وكذلك الهدايا.

وفي مطلع سنة 176هـ جاء يحيى الحسني والفضل البرمكي إلى بغداد واستقبله الخليفة وأكرمه، ولكنه بعد مدة تحول في موقفه عنه وأمر بسجنه ثم دعى الفقيه وهب بن وهب الذي رأى أن الأمان الذي كان قد أعطى له أمان باطل منتقض. وقد مات يحيى الحسني في السجن واختلفت الروايات في سبب موته سنة 176هـ/ 792م[24].

إلا ان الدعوة لآل البيت استمرت في طبرستان وبلاد الديلم وجرجان، وظهـر بها دعاة من الزيدية غالباً وكان همهم الاستمرار في التعريف بالاسـلام وتعـاليم القرآن الكريم ونشر اللغة العربية. وقد قاموا بجهد مثمر لم تتمكن الدولة الإسلامية منذ أيام العباسيين الاولى حين أعيد فتح هذه المناطق على عهد المنصور العباسـي والهادي القيام به وذلك لطبيعتها الجبلية وصعوبة مسالكها.

سلسلة أئمة أهل البيت الزيدية

بحسب الترتيب الزمني(*)

مسلسل	اسم الإمام	دعوته	وفاته	مكان الوفاة	
1	الإمام علي بن أبي طالب	35	40	الكوفة	
2	الإمام الحسن بن علي	40	52	المدينة	بويع له في 22 رمضان وخلافته خمسة أشهر وأيام وقيل سنة
3	الإمام الحسين بن علي	60	61	كربلاء	28 رجب
4	الإمام الحسن بن الحسن السبط	74-86هـ	93-96هـ	المدينة	دعوته أيام عبد الله بن مروان وتوارى في الحجاز بعد انهزام أعوانه
5	الإمام زيد بن علي بن الحسين	122	122	الكوفة	بويع له في 23 رجب وقتل في 25 محرم
6	الإمام يحيى بن زيد	بعد والده	126	جوزجان	من أعمال خراسان (حالياً شرق إيران)
7	الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى (النفس الزكية)	145	145	المدينة	دعوته 28 جمادي الآخرة وقتل في رمضان
8	الإمام إبراهيم بن عبد الله بن الحسن	145	145	باخمري	دعوته يوم عبد الفطر وقتل في غرة ذي الحجة

(*) عن كتاب عباس محمد زيد، تراجم أهل البيت الزيدية، ص 61- 62.

9	الإمام عيسى بن زيد	156	166	الكوفة	ظل بعد دعوته مطارداً واختفى بالكوفة
10	الإمام عبد الله بن محمد بن عبد الله الكامل	150	151	كابل	ذهب إلى السند للقيام بالدعوة وقتله العباسيين هناك
11	الإمام الحسن بن إبراهيم بن عبد الله	في عهد المنصور العباسي	167	البصرة	سجن بعد دعوته إلى أن توفي المنصور العباسي
12	الإمام الحسين بن علي الفخي بن الحسن المثنى بن الحسن السبط	169	169	مكة	قام ودعا في 19 ذي القعدة وقتل في 8 ذي الحجة
13	الإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن	أيام هارون	176	بغداد	قام أيام هارون الرشيد وتنقل في مختلف البلدان بعد مطاردته
14	الإمام إدريس بن عبد الله	--------	175	المغرب	مشهده بطليطلة
15	الإمام إدريس بن إدريس	188	213	فاس	مؤسس دولة الادارسة بالمغرب
16	الإمام محمد بن ابراهيم بن اسماعيل	199	199	الكوفة	قام في 10 جمادي الأولى واستشهد في رجب
17	الإمام محمد بن محمد بن زيد	199	202	مرو	قام بعد وفاة الامام محمد بن إبراهيم ثم تصالح مع المأمونِ العباسي وقتل سماً
18	الإمام موسى بن عبد الله الكامل	ايام هارون الرشيد	--------	----	بعد القيام بدعوته حبس حتى مات في عهد هارون
19	الإمام محمد بن جعفر الصادق	200	201	جرجان	

وفي الوقت نفسه كان دعاة من ال البيت يلتجئون إلى طبرستان وبلاد الديلم لنشر مذهبهم ونشر الاسلام بعيداً عن نفوذ العباسيين.

ففي سنة 250هـ/ 864م ظهر الإمام الداعي إلى الله الحسن بن زيد وهو من أحفاد زيد بن الحسن السبط أيام الخليفة المتوكل على الله العباسي وسيطر على جزء من طبرستان حيث عدَّ مؤسس الدولة العلوية الطبرستانية وامتدت إمامته عشرين سنة، ثم مد نفوذه إلى طبرستان كلها والري وبعض بلاد الديلم ودخل مدينة آمل. وقد أنفق الكثير من الأموال على مشاهد الآئمة في العراق وكلن يرسل النفقات إلى الضعفاء من آل البيت. ونشر دعاته في الآفاق.

وقد خلفه في الامامة آخوه الداعي محمد بن زيد الحسني سنة 270هـ/ 883م ونشر مبادئ العدل والتوحيد. وفي عهده استطاع السامانيون السيطرة على طبرستان سنة 287هـ وإنهاء الحكم العلوي فيها حتى تمكن الإمام الأعظم الحسن بن علي الملقب (الناصر الاطروش) من اعادة نفوذ العلويين إلى الديلم وطبرستان. ويعد الإمام الناصر للحق الحسن بن علي (الاطروش) من أشهر أئمة العلويين في طبرستان، وهو من أحفاد عمر الأشرف بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب.

كان الناصر الاطروش من صحابة الامام الداعي محمد بن زيد، ثم اختفى بعد مقتل هذا الأخير في بلاد الديلم وجيلان يدعو الناس سراً إلى الاسلام والمذهب الزيدي وكثر أنصاره في تلك الاصقاع البعيدة والوعرة التي كان غالبية أهلها لا يزالون على دياناتهم المجوسية السابقة للإسلام. كما توسع الناصر الاطروش في مد سيطرته على كل طبرستان ففتح آمل سنة 301هـ/ 913م بمساندة أعوانه، كما كان يحث الناس على نصرة إمام زيدي اخر ظهر باليمن في هذه الفترة وهو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين.

والمعروف عن الإمام الناصر الاطروش[25] إضافة إلى جهوده في الدعوة وتأسيس الإمارة وتوسيع رقعتها الجغرافية، فقد اشتغل بالعلوم النقلية الاسلامية من علوم القرآن والحديث واللغة وغيرها. كما ترك العديد من الكتب في الفقه وأصول

الدين بحيث عدّ مؤسساً لفرع من الفروع الفقهية في المذهب الزيدي سُمّي (الناصرية) نسبة إليه. ومن كتبه:

كتاب المغنى.

كتاب الباهر.

كتاب التفسير.

كتاب الامامة (الواضحة بالدلائل الراجحة).

كتاب الامالي (فضائل العترة النبوية).

كتاب الابانة في الفقه.

وقد توفي بآمل سنة 304هـ/ 916م. وجاء بعده الإمام الحسن بن قاسم وهو من أحفاد الحسن السبط الذي قويت شوكته خاصة وأن البويهيين كانوا قد سيطروا على مقدرات الخلافة العباسية بدءاً من سنة 334هـ ويعدهم بعض المؤرخون من المناصرين للمذهب الزيدي العلوي. وقد اختلف الامام الحسن مع ابناء الناصر الاطروش وتغلب عليهم كما خاض معارك مع قوات العباسيين وقتل في إحداها سنة 316هـ/ 928م.

وقد استمر الأئمة الدعاة الزيدية يحكمون اقاليم بحر قزوين شمالي ايران فترة طويلة من الزمن وكان نفوذهم بين مد وجزر خاصة وأن امراء الجبل وحكام طبرستان والديلم لم يكونوا على الدوام معهم بل ان ولاءهم كان يتذبذب بين العباسيين والامارات الاقليمية في خراسان والأئمة الزيدية حسب الظروف السياسية والحاجة المادية والضغط العسكري.

ففي عام 353هـ/ 964م اقام الامام المهدي محمد بن الحسن بن القاسم دعوته في الديلم بعد أن رحل عن بغداد حيث كان نقيباً للطالبيين هناك واستقام له الأمر في (هوسم)، وفي عهده استحفل الخلاف بين أتباعه وأنصار الاطروش (الامام السابق) حيث ادعى لكل منهم أن فتاوى إمامه هي الأصح وقد حسم الامام المهدي الخلاف

وأفتى أن كل مجتهد مصيب. وقد بقيت هذه القاعدة المعمول بها في مسائل الفروع، وتوفي سنة 360هـ/ 970م.

لقد بقي هؤلاء الأئمة الدعاة في مناطق طبرستان والديلم وما حولها مدة طويلة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وكان بعضهم على علاقة جيدة بفقهاء المعتزلة مثل قاضي القضاة عبد الجبار الهمداني شيخ المعتزلة، مما يدل على قوة الصلة في تلك الفترة بين المذهبين الشيعي الزيدي خاصة والمعتزلي. وقد شرح بعضهم مثل الامام أحمد بن الحسين الحسني مذهب المعتزلة. ولهذا الآخير كتاب موسوم (شرح الأصول الخمسة) لعبد الجبار المعتزلي. أما الإمام الحسين بن اسماعيل الحسيني (ت424هـ/ 1032م) فكان أعلم الناس بفقه الحنفية والشافعية والمالكية إضافة إلى الفقه الزيدي وكتابه الإحاطة في علم الكلام خير دليل إلى ذلك. وكان هؤلاء الأئمة أشداء على الباطنية (الحشيشية). أما الإمام أبي طالب يحيى بن أحمد بن الحسين من أحفاد الإمام الحسن السبط والذي ظهر في طبرستان والديلم في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي فقد دانت له أقاليم شمالي ايران واليمن وخطب باسمه في هذه البلدان التي توحدت تحت إمام واحد من آل البيت. كما اعترف به الاشراف في مكة، وتوفي الإمام يحيى سنة 520هـ/1126م.

الزيدية والرسّيون في اليمن

280 -700هـ/ 893- 1300م

بنو الرسّي (نسبة الى جبل في الحجاز قرب المدينة المنورة) من أئمة آل البيت الزيدية الذين ظهروا بصعدة وصنعاء في بلاد اليمن[27].

يعود تاريخهم الى محمد بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب الذي دعا الى نفسه حتى توفي فخلفة أخوه القاسم بن إبراهيم الذي واصل الدعوة وبث الدعاة في أجزاء عديدة من دار الإسلام، وحين نضجت

دعوته قرر الثورة باليمن على عهد المعتصم بالله الخليفة العباسيى سنة 220هـ وبعد فشل حركته هرب الى الهند.

وبعد مدة عاد إبنه الحسين بن القاسم الرسّي إلى اليمن وبث الدعوة وكسب الاتباع على المذهب الزيدي. وخلفه يحيى ابن الحسين الذي دعا الى نفسه وتلقب بالهادي الى الحق بعد مبايعته بالإمامة سنة 288هـ/900م، وسيطر على صنعاء وصعدة. ثم ضرب السكة باسمه ثم توفي سنة 298هـ. ويذكر أن له من المصنفات العقيدية والفكرية خمسة وسبعين كتاباً. وقد خطب له بمكة أيام وجود بني الاخيضر لمدة سبعة أعوام.

وجاء بعده الإمام المرتضى محمد بن الهادي الى الحق (298هـ- 310هـ) وقد تنازل عن الحكم بسبب اختلافه مع بعض القبائل اليمنية التي لم تلتزم – من وجهة نظرة- باحكام الشرع. وكان له من المصنفات 28 مصنفاً. وخلفه أخوه الإمام الناصر لدين الله أحمد بن الهادي (310- 325) واشتهر هو الآخر بمصنفاته في مجال العقيدة والفكر الزيدي حيث كتب تسعة مصنفات في هذا المجال.

وقد استمر حكمهم في اليمن حتى حوالي سنة 700هـ/ 1300م بين القوة والضعف.. ومن أشهر أئمتهم في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الامام المنصور بالله القاسم بن علي بن عبد الله العباني، وفد جاء الى اليمن بدعوة من قبائلها وكان ذو قدرات وقيادية وقابليات فكرية جيدة رغم تجاوزة سن الثمانين وكان بسبب رئاسته وسؤدده يدعي من قبل أشراف الحجاز لحل النزاعات بينهم. كما انه أكرم وفادة الاشراف الهاربين.

جدول بالأئمة الزيدية والرسّيون في اليمن(*)

280- 700/ 893-1300م

(1) العهد الأول

أبو محمد القاسم الرسي ترجمان الدين بن إبراهيم طباطباً (توفي 246هـ).

الحسين بن القاسم	هجرية	
	246	860م
الهادي الى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم توفي (298هـ)	280	
المرتضى أبو القاسم محمد بن يحيى (اعتزل الحكم سنة 301 وتوفي سنة 310هـ)	298	
الناصر أحمد بن يحيى (توفي سنة 325)	301	
المنتجب الحسين بن أحمد (توفي سنة 324هـ)	-----	
المختار أبو محمد القاسم بن أحمد	324	
المنصور يوسف الداعي ابن يحيى	-----	
القاسم المنصور بن علي الألياني (توفي سنة 393هـ)	-----	
المهدي الحسين بن القاسم المنصور	393	
جعفر بن القاسم المنصور	-----	
أبو الهاشم الحسن بن عبد الرحمن	426	
الناصر أبو الفتح الديلمي ابن الحسين بن محمد	430	
استولى الصليحيون على صنعاء	454	
عمران بن الفضل (حاكم صليحي)	480	
سبأ بن أحمد (جاكم صليحي)	-----	
حاتم بن الغشيم الهمداني	492	
عبد الله بن حاتم	502	
معن بن حاتم	504	
حميد الدولة حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل	532	
المتوكل أحمد بن سليمان بن محمد (توفي سنة 566) (عاد الرسيون	532	

(*) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج4، ص6، Bosworth, the Islamic Kpp.71-72-2.

للحكم مؤقتاً)		
علي الوحيد ابن حاتم (هزمه توران شاه الأول الأيوبي سنة 569)	556	1160م

العهد الثاني (2)

المنصور عبد الله بن حمزة (ولد سنة 561هـ وتوفي في محرم سنة 614)	593	1196م
الناصر عز الدين محمد بن عبد الله (بصعدة حتى سنة 623هـ) المحرم	416	
الهادي نجم الدين يحيى بن حمزة	614	
المهدي أحمد بن الحسين بن أحمد بن القاسم (توفي سنة 656)	623	
المتوكل شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة	656	
المنتصر داود	680	1281م

ومن أئمتهم المشهورين المهدي لدين الله الحسين بن القاسم (393-404هـ) الذي بويع بالإمامة وهو ما يزال صغيراً ولكنه أثبت جدارة في الحكم ومجابهة المعارضين من شيوخ القبائل أو المنافسين له من الأشراف. وقد تولى الأمر بعده أخوه جعفر بن القاسم حيث كان عليه ان يحارب الصليحيين.

ويعد الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي (يعود في نسبه الى زيد بن الحسن) من أبرز أئمتهم وبدأ دعوته في الديلم ثم امتدت الى اليمن وبايعه أهلها إلا أنه قتل في معركة مع الصليحيين.

أما الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (594- 614هـ) فقد خضعت له اليمن رغم قوة الأيوبيين ووصلت دعوته الى الحجاز وعاصر الشريف قتادة جد أشراف مكة والمدينة.

كما وصلت دعوة الامام المهدي لدين الله (646- 656هـ) الى الحجاز ودخل الحرمين وبلغت دعوته بلاد الديلم، وخطب له بمكة أيام الشريف الحسن بن علي بن

قتادة. إلا أن الإماما الناصر يحيى بن محمد (656- 696هـ) الذي خلفه انكسر إمام بني رسول وسملت عيناه ولم يعد مؤهلاً للإمامة وتفرغ للتدريس حتى وفاته.

بنو الأخيضر في اليمامة

(252-390هـ/ 866-1000م)

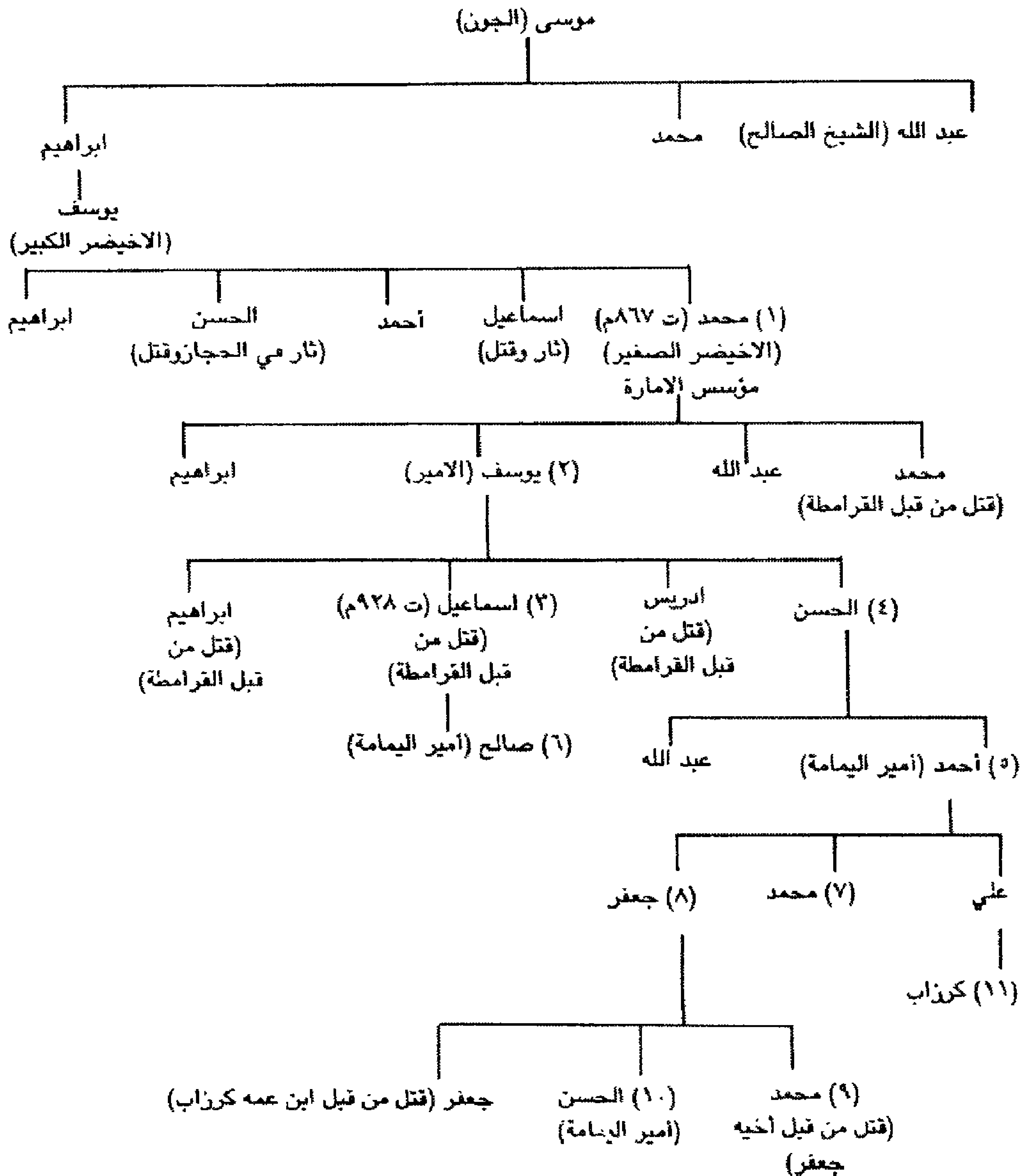
بنو الأخيضر هم الاشراف الحسنيون الذين حكموا اليمامة[28] وامتد نفوذهم الى مكة حيث حكموها مدة غير قليلة استمرت حتى سنة 350هـ قبل أن ينتقلوا الى اليمامة. ينتهي بنو الأخيضر الى آل الحسن من خلال جدهم يوسف بن ابراهيم الملقب (الاخيضر). وهي صفة نُعت بها بسبب سواد في بشرته، وهو من أولاد ابراهيم بن موسى الجون من أحفاد عبد الله الكامل (المحض) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.

كانت اليمامة إحدى الأقاليم الإسلامية في العصر الراشدي ويديرها أمير، ولكنها كانت غالباً ما تضم الى البحرين ويحكمها أمير واحد. أما في العصر الأموي فقد ضمت إدارياً إلى المدينة المنورة ثم تولى أمير البصرة صلاحية إدارتها. أما في مطلع العصر العباسي فقد ضمت اليمامة الى أمير مكة. ولكن الاضطرابات التي سببتها حركات الخوارج في غربي العراق وأقاليم الخليج جعل الخلافة العباسية تضم اليمامة الى البحرين ثانية وتجعلها تحت سلطة والي البصرة الذي كان عليه أن يحافظ على قوافل التجارة المهمة المارة في تلك الأقاليم.

ظهرت اليمامة كاقليم له خصائصة وشخصيته السياسية مع بروز الأسرة العلوية الجديدة بني الاخضير، فقد استطاع محمد بن يوسف الاخيضر الذي اعتنق المذهب الزيدي أن يهرب من الحجاز لضغط السلطة العباسية عليه ويلتجأ الى اليمامة معلناً امارته حوالي سنة 252هـ ومتخذاً بلدة (الخضرمة) مقراً له وقد عدّ مؤسس الامارة وكان يدعى (الاخيضر الصغير) بينما كان والده يوسف بن ابراهيم

بن موسى (الجون) يلقب (الاخيضر الكبير)، وقد نسبت الامارة الى هـذا الأخيـر وليس الى ابنه محمد رغم كونه المؤسس وكان اسماعيل بن يوسف بن إبراهيم قـد تمكن من السيطرة على مكة سنة 864م/ 250هـ مستغلاً الصراع بين المـستعين والمعتز. وقد عاث اسماعيل فساداً في مكة ثم سار الى المدينة إلا أنه لـم يـستطع الدخول إليها لقوة دفاعاتها، مما جعله يعود الى مكة حيث مات بعد قليـل بمـرض الجدري. وقد خلف إسماعيل في زعامة بني الاخيضر

بنو الاخيضر الحسنيون في اليمامة*



* عن الجدول المرفق في البحث الموسوم. History of the Banu al-Ukhaydhir, by A. Askar, p. 16

أخوه محمد الذي أشرنا إليه سابقاً والذي والذي يعـد المؤسـس لامـاراتهم. والواقع أن محمد الاخيضر قاد أسرته وأنصاره من الحجاز الى اليمامة حال علمـه بنبأ تحرك الجيش العباسي من العراق لاستعادة الحجاز والقضاء على تمرده، حيث أعلن إمارته. ولعل اختيار محمد بن يوسف لليمامة يعود الى مساندة بعض القبائـل له وأن له علاقات مصاهرة مع بعضها. كما وأن اليمامة في وضع جغرافـي فـي منطقة العروض ليس من السهل على الجيش النظامي الوصول اليه وقد عرف أهلها منذ زمن بعيد بمعارضتهم لأيّ نفوذ للحكومة المركزية سواء كان مصدره المدينـة المنورة أم بغداد.

أما عاصمة الأسرة الجديدة (الخضرمة) فهي بلدة زراعية قديمة. وليس لـدينا معلومات كثيرة عنها، سوى ما أشار إليه الرحالة ناصري خسرو حين زيارته لها. فقد وصف حصنها ومسجدها الجميل كما ذكر سوقها وأصناف الحرف الموجـودة فيه.

ولعل أهم ما يميز العلاقات السياسية والعسكرية لبني الاخيضر في اليمامة هي حروبهم المستعرة مع القرامطة. فبني الاخيضر على المذهب الزيـدي والقرامطـة حركة منشقة عن الاسماعيلية ولكن صراعهم على النفوذ السياسي في شرقي شـبه الجزيرة العربية أو بمعنى أدق محاولة القرامطة إدخال اقليم اليمامة ضمن الاقـاليم التابعة لهم كان وراء الحروب المتتابعة بين الطرفين وقد سقط العديد من أمراء بني الاخيضر في هذه المعارك وخاصة سنة 316هـ/ 928م التي انتصر فيها القرامطة دون أن يحققوا هدفهم في الاستيلاء على اليمامة.

أما علاقة بني الأخيضر بالامامة الزيدية في اليمن فليس هناك فـي رواياتنـا التاريخية ما يدل على وجود أية علاقة. لقد أرسلت الامامة الزيدية في اليمن داعية الى اليمامة لنشر المذهب الزيدي في النصف الثاني من القرن التاسـع المـيلادي/ الثالث الهجري دون ان يحقق أي نجاح يذكر في نشر المذهب. والغريب أن أمـراء اليمامة كانوا على المذهب الزيدي إلا أنهم – وهذا عكس ما يدين به الزيدية– لم يكونوا

متحمسين لنشر المذهب بين أهل اليمامة ولا مندفعين للتحرك والثورة ضد الخلافة العباسية. ومن هنا فلا نجد أية نشاطات فكرية أو مراكز علمية في اليمامة في هذه الفترة التاريخية من حكم بني الاخيضر والتي دامت حسب بعض التقديرات حوالي القرنين من الزمان.

أما موقف أهل اليمامة وخاصة بني حنيفة من حكم بني الاخيضر، فيبدو أنهم ساندوه في البداية ولكن المعارضة والتذمر بدا واضحاً فيما بعد. ولعل ذلك يعود الى عوامل عديدة تشير إليها بعض الروايات التاريخية منها:

1. سياسة بني الأخيضر الزراعية التي أكدت على المقاسمة وأخذ نسبة من المحصول من المزارعين تدفع للامارة الأمر الذي لم يرضى به أهل اليمامة.
2. ساد الجفاف المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة العربية مما زاد من حاجة الناس ومعاناتهم الاقتصادية.
3. الحرب المستمرة مع القرامطة أدى إلى نوع من التذمر والسخط خاصة وأن الحرب لا تحصد النفوس فقط بل تدمر اقتصاديات الاقليم.
4. تدفق البدو الى اليمامة من المنطقة المحيطة بها وتمتعهم بالنفوذ والتأثير بسبب تحالفاتهم مع أمراء بني الاخيضر. وقد كان هذا التحالف خطأً سياسياً ادى في النهاية الى اضمحلال الامارة وسقوطها مع نهايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

لقد أدت هذه العوامل الى هجرات متتابعة لبني حنيفة (أهل اليمامة) الى خارج الاقليم وخاصة الى البصرة بحثاً عن العمل أو عن مصادر أخرى للعيش. وفي مقابل ذلك استخدم بنو الاخيضر العبيد للعمل في الحقول أو بعض المناجم وكذلك للخدمة في الجيش. كما وأنهم – وكما أشرنا– اضطروا الى التحالف مع بدو الأطراف. لقد استعرت النزاعات الاسرية بين أمراء بني الاخيضر من أجل

الوصول الى السلطة وحيكت المؤامرات فيما بينهم مما أدى في النهاية الى ضعفهم وسيادة القبائل البدوية التي وضعت نهاية لامارة بني الاخضير في نهايـة القـرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أو بعده بقليل.

الأشراف في الحجاز

من 358هـ/968م – 1344هـ/1925م

حين امتد نفوذ الفاطميين إلى مصر بعد توسعهم من المغرب اتصلوا بالاشراف في مكة والمدينة وشجعوهم على الانفصال عن العباسيين فبادر جعفر بن محمد آل الحسين بالسيطرة على مكة سنة358هـ وطاهر بن مسلم آل الحسين بتقلـد أمـر المدينة سنة 360هـ، معلنين ولائهم الاسمي للفاطميين في مصر[29].

وصار يطلق على أمراء مكة والمدينة لقب "الاشراف". والواقـع أن الجـذور التاريخية للأشراف وما يسمى فيما بعد حكم "الشرافة" في الحجـاز ومنـاطق مـن المغرب الأقصى تعود إلى المكانة المتميزة لقريش في الحجاز باعتبارهم آل البيـت (الحرم المكي المقدس لدى العرب في الجاهلية والإسلام) ثم تطورت إلى آل بيـت الرسول محمد ﷺ بعد الإسلام بصفة خاصة. وقد لقبت هذه السلالات العريقة على مر القرون بأسماء مختلفة منها: الاشراف، العتر الشريفة، الهواشم. وترتب علـى هذه الأسر الهاشمية المتعاقبة التزامات دينية روحية وكـذلك مـسؤوليات سياسـية ودنيوية – كما أشرنا من قبل- الى واجبات سدنه البيت في الجاهلية، ثم سدنة بيت الله الحرام" في الإسلام.

لقد حكم الحجاز ابتداءاً من حوالي منتصف القرن الرابع الهجـري/ العاشـر الميلادي بيوتات مثلت نظام الشرافة نشير إليها بالتتابع كما يلي:

بنو موسى وبنو سليمان 358- 453هـ/ 968- 1061م.

بنو هاشم 455- 597هـ/ 1063- 1200م.

بنو قتادة 597- 1328هـ/ 1200- 1910م.

والأسرة الأخيرة (القتاديون) تعود في نسبها الى عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله ﷺ. وقد حكمت هذه الاسرة منذ 597هـ حتى سنة 1328هـ/ 1910م. وينتمي اليها الشريف الحسين بن علي الذي أعلت الثورة العربية الكبرى سنة 1335هـ/ 1916م وكان قبل ذلك قد أعلن عن تأسيس المملكة الهاشمية الحجازية سنة 1910م/ 1328هـ منهياً نظام الشرافة ومبتدئاً نظاماً جديداً هو نظام المملكة الذي استمرت في الحجاز حتى سنة 1344هـ/ 1925م.

التنافس بين العباسيين والفاطميين في السيطرة على الحجاز:

كانت خطة الفاطميين هي محاولة السيطرة على ما يمكن السيطرة عليه من المشرق الاسلامي وانتزاعه من النفوذ العباسي، وخاصة إقليم الحجاز ذي الأهمية الروحية الكبيرة لكونه موطن الحرمين الشريفين مكة والمدينة ومنبع الإسلام الأول ومؤل الحجيج كل عام.

لقد نجح الفاطميون بدءاً في حل مشكلتين تعرضت لهما الحجاز في تلك الفترة المبكرة من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. فقد كان القرامطة (وهي فرقة اسماعيلية منشقة عن الاسماعيلية التقليدية) قد نهبوا الحجر الاسود من الكعبة سنة 317هـ/ 929م وباءت بالفشل محاولة العباسيين في إعادته، أما الفاطميون فقد نجح المنصور الفاطمي في مفاوضاته مع القرامطة وأعيد الحجر الأسود الى مكانه في الحرم المكي.

أما الظاهرة الثانية التي نجح فيها الفاطميون فكانت إعادة الوئام بين الأسرتين الشريفتين العلويتين اللتين تحكمان الحجاز. كما منحت الخلافة الفاطمية الهبات والمساعدات التموينية لسكان الحجاز(30).

إن هذه الاموال والمساعدات التموينية للحجاز الفقير بصورة عامة في اقتصادياته، لعبت دوراً هاماً في القرار الذي كان أشراف مكة والمدينة يتخذونه

فيمن يذكر اسمه على منابر الحرمين الشريفين، هل سيكون للخلافة العباسية أم الخلافة الفاطمية؟ وقد يصل الأمر أحياناً بإرسال حملة عسكرية لاعادة الخطبة كما حدث في عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله[31].

وفي سنة 400هـ/ 1009م ثار شريف مكة أبو الفتوح الحسن بن جعفر وذلك بتحريض من الوزير الفاطمي أبي القاسم حسين المغربي. وقد ساندت قبائل بني سليم وبني هلال وبني عامر وبني عوف الشرافة في مكة، كما نجح أبو الفتوح الحسن بتوسيع نفوذه الى فلسطين، وذلك بمساعدة بني الجراح بالرملة. ولكن الخلافة الفاطمية تحركت بسرعة فعزلت أبا الفتوح ونجحت في استمالة القبائل التي أيدته مما دعاه الى التوسط لدى الحاكم بأمر الله الفاطمي وطلب العفو حيث نال ما أراد وظل موالياً للفاطمين طيلة حكمة حتى سنة 430هـ/1038م.

وبهذا فشلت ثورة الحسينيين بزعامة أبو الفتوح في تأسيس كيان سياسي بالحجاز ولعل سبب الفشل يعود الى عوامل مختلفة أهمها فقرأقليم الحجاز اقتصادياً وفرض الفاطميين الحصار الإقتصادي عليه، وعدم اسناد الخلافة العباسية لثورته حيث كان بالإمكان إعطائها سنداً شرعياً معنوياً يزيد تأيد أهل الحجاز، واما العامل الآخر فكان انسحاب بني الجراح حلفاء أبي الفتوح من مساعدة الثورة مقابل الاموال والقطائع التي استلموها من الدولة الفاطمية[32].

لقد سنحت الفرصة لفرع أخر من الاشراف وهم بني هاشم لتقلد منصب الشرافة في الحجاز سنة 455هـ/1063م حين توفي أخر بنى سليمان دون وريث. وقد سيطر الشريف محمد بن جعفر من الهواشم على الحكم في مكة ودعا للخلافة العباسية. ولكن حاكم اليمن وبدعوة من الفاطميين أعاد الامور إلى نصابها الحجاز عن طريق الجيش واعترف بالشريف الهاشمي الجديد شرط إعادة الخطبة إلى الفاطميين[33].

لقد كانت سياسة الاشراف الجدد في مكة تختلف عن بني سليمان (الأشراف السابقون) حي انتهز هؤلاء ضعف الخلافة الفاطمية وعدم استمرارية

هباتها للحجاز فبدأوا بالاتصال بالخلافة العباسية التي ما لبثت أن أرسلت اليهم الاعطيات والهبات مقابل الدعوة باسمهم في الحرمين الشريفين وخاصة مكة. ولكن ذلك لا يعني استمرار ولاء الاشراف إلى بغداد، بل العلاقة تذبذبت في ولاءها مرة للعباسيين وأخرى للفاطميين تبعاً لنوع العطاء وكميته. وقد نجح بعضهم في الحفاظ على علاقة طيبة مع الخلافتين[34].

ويبدو من بعض الروايات التاريخية أن شريف مكة كان مسؤولاً عن أمن طريق الحج وحراسته من سطو الاعراب عليه ونهبهم لقافلة الحج. ورغم ما حدث للعلاقات بين أشراف مكة والفاطميين من فتور في أوقات معينة، إلا أن الطرفين كانا يحاولان الحفاظ على علاقات طيبة بينهما لأسباب مصلحية واضحة من جهة ولكون العائلتين تنتميان إلى النسب العلوي والتزام الفاطميين بإسناد الاشراف عسكرياً واقتصاديا.

الأيوبيون والشرافة في الحجاز:[35]

استطاع صلاح الدين الايوبي سنة537هـ/1171م القضاء على الخلافة الفاطمية مصر وبدأ يتحرك باتجاه بلاد الشام حيث بسط نفوذه هناك بعد سنتين. من أخذ يتطلع إلى اقليم الحجاز لكي يحقق هدفين رئيسين: الأول إعادته إلى نفوذه وبالتالي نفوذ الخلافة العباسية التي يدين بالطاعة لها. وثانيها السيطرة على تجارة البحر الاحمر وما تدره من أرباح تجارية كبيرة.

أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه في حملة إلى الحجاز ثم اليمن سنة 569هـ/1173م فدخل لمكة دون قتال، وأعلن شريف مكة دخوله في طاعة الايوبيين سياسياً وأن تكون الخطبة باسم العباسيين، وقد أقرّ الايوبيون العائلتين الشريفتين من آل الحسن في مكة والمدينة المنورة شرط التوقف عن تحصيل ضريبة (المكوس) التي كان يأخذها الاشراف من الحجاج والتجار وخاصة خلال فترة الحج. وكانت سلطة الشرافة قد لجئت إلى فرض ضريبة المكوس على

البضائع والتجارات والقادمين للحج بسبب انقطاع الاعطيات المادية والنقدية من الخلافة سواء العباسية أو الفاطمية.

أن استفحال الصراع بين الاشراف من الاسر الحاكمة في مكة والمدينة المنورة قد شجع الأيوبيين على التدخل في الشؤون الداخلية للشرافة الحجازية وكذلك شجعهم على تعيين نائب لهم في مكة تسنده كتيبة من الجند وإدارة خاصة به.

ولا بد أن يذكر للأيوبيين حمايتهم للاماكن المقدسة في مكة والمدينة من الهجوم الذي خطط له الصليبيون (الافرنج) الذين استوطنوا بلاد الشام وسيطروا على مرافئ البحر الأحمر الشمالية. ففي سنة 577هـ/ 1181م قاد الأمير ارناط صاحب امارة الكرك حملة عسكرية غرضها احتلال الحجاز وبسط النفوذ الصليبي على البحر الأحمر وتجارته المزدهرة وخاصة في موسم الحج. ولكن الأيوبيين افشلوا خططه بهجومهم على حصن الكرك والاستيلاء عليه ونهب أمواله مما دعى الأمير ارناط إلى العودة مسرعاً إلى امارته في الكرك. كما وان جنوده لم يتحملوا الحر الشديد في الصيف وشعروا بحاجتهم إلى المياه العذبة للشرب.

وقد أعاد الامير الفرنجي ارناط الكرة سنة 578هـ/1182م ووصل في محاولته هذه إلى ينبع وغدا رجاله على بعد مرحلة واحدة من المدينة المنورة حيث كان هدفهم الاعتداء على مقدسات المسلمين هناك. وقد أمر صلاح الدين أخاه الملك العادل وكان نائبه على مصر للتفرغ لهذه المهمة وإرسال الاسطول لمواجهة الافرنج الصليبيين، وقد تمت الحملة وحققت نجاحاً واضحاً حيث دمرت الاسطول الفرجني وأسرت أكثر من ثلاثمائة جندي الذين قتلوا بأمر صلاح الدين في الاسكندرية عام 578هـ/1182م ليكونوا عبرة لغيرهم من المعتدين الذين يحاولون الاعتداء على الأماكن المقدسة. لقد حقق صلاح الدين السيادة الاسلامية على البحر الاحمر ونجح في حماية الاماكن المقدسة في الحجاز.

وخلاصة القول أن الأحوال السياسية في الحجاز بين القرنين الرابع والسادس الهجريين/ العاشر والثاني عشر الميلاديين اتسمت بعدم الاستقرار، ولم تثبت هذه الأسر من الأشراف فاعلية في حكم الحجاز بسبب شحة الموارد الاقتصادية، ولذلك عمدت إلى استخدام وسيلة الدعوة والخطبة إما باسم العباسيين أو العلويين أيهما كان أقدر على دفع الهبات المالية والمعونات المادية. كما استخدموا وسيلة فرض ضريبة المكوس على التجار والحجاج في موسم الحج وذلك للاستفادة منها في إدارة البلاد. واتسمت الفترة بالاعتداءات من الأعراب على قوافل الحجيج كذلك رغم حرص الشرافة على تأمين هذه القوافل لأهميتها الكبيرة في إنعاش اقتصاد الحجاز.

وكان النزاع بين الأسر العلوية من الأشراف وخاصة في مكة على منصب الشرافة واضحاً مما أدى إلى توالي أسر عديدة على السلطة في مكة أشرنا إليها سابقاً. أما المدينة المنورة فقد حكم فيها أسرة واحدة من آل الحسين بن علي وهي أسرة بني مهنا طوال هذه الفترة. وشهدت الفترة كذلك احتكاكات ومشادات بين الأسرتين في مكة والمدينة، رغم أنها لم تكن عصية على الحل خاصة إذا تدخلت قوى من خارج المنطقة لحلها قبل أن تتعقد وتشترك فيها القبائل المجاورة للمدينتين المقدستين.

لقد بقيت الحجاز على حالتها تحت حكم الشرافة العلوية خلال الحقبة التالية حيث تنافس على النفوذ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وبني رسول في اليمن. وكان أشراف الحجاز يعلنون الولاء للفريق القوي أو المنتصر في الحرب من هذين الفريقين.

وحين سيطر المماليك بمصر 1250م/ 648هـ نجحوا في السيطرة على الحجاز. ولكن سقوط الخلافة العباسية سنة 656هـ/ 1258م جعل سلاطين المماليك وخاصة الظاهر بيبرس يتطلعون إلى ما هو أهم من الشرافة في الحجاز وهو الخليفة العباسي في بغداد حيث خطط السلطان بيبرس لجلب أحد الأمراء العباسيين الهاربين من العراق وإعلان الخلافة العباسية في مصر لتكون سنداً

شرعياً لسلطنته. ولا يدخل ضمن نطاق بحثنا هنا تطور الشرافة في الحقبة العثمانية أي بعد سنة 1336هـ/ 1517م إلا أننا نشير بأن الشرافة في الحجاز ظلت تتمتع بتأثير واضح اجتماعياً ودينياً وأقل من ذلك سياسياً، ولا شك فإن السلطان العثماني كان عليه أن يحافظ على علاقات طيبة مع الأشراف لأسباب مصلحية – سياسية – دينية، ولذلك كان الشريف ينصب بفرمان سلطاني وترسل إليه الخلع والصرة والهدايا من الاستانة مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية على الحجاز.

فكانت والحالة هذه أشبه بنيابه عثمانية. وقد ثبت نفوذ الشرافة بجهود الشريف بركات بن محمد، وبقي الحجاز تحت السيادة العثمانية حتى إعلان الثورة العربية الكبرى بزعامة الحسين بن علي شريف مكة 1335هـ/ 1916م.

الحياة العلمية في عصر الشرافة بالحجاز:

منذ أن ظهر الإسلام في الحجاز لعب هذا الإقليم دوراً واضحاً في الحياة العلمية عبر القرون وخاصة من خلال الحلقات العلمية في المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة.

وقد ساعدت الأوقاف والهبات والصدقات التي كانت تمنح لإعمار المساجد وإيواء المجاورين وإطعامهم من قبل الأغنياء والتجار وأهل العلم على نشاط حركة العلم. هذا بالإضافة إلى ما تجلبه مواسم الحج من نشاط تجاري وازدهار اقتصادي ووفود عددية من العلماء القادمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وهذا بدوره يشجع النشاطات العلمية والمناظرات بين علماء الأمصار.

لقد أشار ابن جبير الرحالة المشهور إلى الحلقات العلمية وما يدور فيها من دراسة ومناظرة وخاصة في العلوم الدينية (العلوم النقلية) مثل تفسير وحديث وفقه وقراءات ولغة عربية وتاريخ وغيرها لعب فيها العلماء المجاورون دوراً بارزاً.

أما العلوم العقلية من فلسفة ومنطق وعلوم صرفة فلم يكن لها حيز في حلقات العلم في الحجاز في هذه الفترة.

وقد برزت في هذه الفترة عوائل توارثت العلم من الأجداد إلى الاباء إلى الأبناء، كما توارث الخطبة والإمامة بيوتات بعينها في مكة والمدينة. ومن المظاهر البارزة في هذه الحقبة هي ظهور المدارس النظامية في مكة والمدينة. وبصفة خاصة، مثل مدرسة الارسوقي (571هـ) ومدرسة الزنجبيلي (سنة 579هـ) وكانت المدرسة الأولى تدرس المذهب الشافعي أما الثانية فكانت على المذهب الحنفي.

وتعطينا المصادر معلومات جيدة عن رموز الحركة العلمية في الحجاز سواء كانوا من السكان الأصليين أو من المجاورين، فالفقيه عبد الملك بن عبد الله النيسابوري جاور بمكة سنة 478هـ وقضى وقتاً بالمدينة المنورة كذلك، ولقب بإمام الحرمين. واشتهر كذلك محب الدين الطبري المكي الملقب شيخ الحرم المكي وله عدة كتب منها: القرى لقصائد أم القرى وكتاب غاية الناسك في أحكام المناسك، والجامع لتفسير القرآن. أما الزمخشري فقد جاور هو الآخر بمكة وصنف كتابه (الكشاف) وضمنه آراءه الاعتزالية. وقام بتدريسه في الحرم المكي.

والذي يلاحظ عن العلماء المجاورين أن الكثير منهم كانوا من العلماء المصريين ويعود السبب في ذلك إلى ارتباط الحجاز سياسياً واقتصادياً بمصر في أغلب عهود هذه الفترة. ويأتي بعد المصريين العلماء الشاميين والعراقيين والمغاربة واليمانيين وهاجر علماء المشرق إلى الحجاز بعد سقوط بغداد في يد المغول.وبرز من النساء العالمات الكثير ومن أشهرهن زينب بنت القاضي الحافظ التي أخذت علوم الحديث عن والدها وتتلمذ على يدها الرضي الطبرية وهو ابن عمها. وبرزت السيدة الطبرة بنت القاضي أبي جعفر في علم القراءات، وتتلمذت على يد والدها وكانت تجيز أبناءها في القراءات. وكان في الحرمين أصناف العلماء من شتى المذاهب وكان منهم المتصوفة والنساك والعباد وكان الواحد منهم يلقب (جار الله) مثلما يلقب الحجيج (ضيوف الله). وتذكر تواريخ الحرمين العديد من الصوفية الذين نظموا القصائد في مدح النبي محمد ﷺ.

وفي هذه الحقبة ازدهرت كتابة التاريخ في الحجاز ويعد كتاب السمهوري (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) من أشهر المصادر عن المدينة المنورة. وكتب قبله الازرقي كتابه (أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار)، ثم ألف الفاسي كتابه (شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام) ومختصره (إتحاف الكرام) ثم ألف كتابه الثالث (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين). وحين جاور الديار بكري في مكة ألف كتابه (الخميس في أحوال أنفس نفيس، مهتماً بصفة خاصة بسيرة الرسول ﷺ ثم تاريخ الكعبة. وقد عاصره النهر والي أستاذ علوم الحديث بمكة وألف كتابه (الأعلام بأعلام بيت الله الحرام). وهذه الكتب في تاريخ الحرمين الشريفين وغيرها كلها منشورة ومحققة.

الادارسة في المغرب الأقصى

172- 375هـ/ 789 - 985م

أسرة علوية تنتسب إلى الحسن بن علي أنشأت كياناً سياسياً في المغرب الأقصى (مراكش) سنة 172هـ/ 789م ودامت أكثر من قرنين من الزمان. ولا يزال في المغرب من ينتسب إلى هذه الأسرة من الأشراف[37].

يعد إدريس بن عبد الله بن الحسن أو كما يسمى (إدريس الأكبر) المؤسس لإمارة الادارسة، وكان إدريس من الذين نجوا من القتل بعد معركة فخ في الحجاز سنة 169هـ/ 785م وهرب إلى مصر فالمغرب بمساعدة مولاه (راشد) وبمؤازرة من صاحب البريد العباسي المدعو واضح حيث استقر في مدينة وليلي.

استقر إدريس أول الأمر مع قبيلة أوربة البربرية كما وجد صدى لدعوته باعتباره من آل البيت بين قبائل بربرية أخرى مثل زناتة ومكناسة وغيرها. وحينما استفحل أمره ووصل إلى علم الخليفة هارون الرشيد نبأ مبايعته في 4 رمضان 172هـ من قبل العديد من القبائل البربرية ونجاحه في توسيع نفوذه إقليمياً من مدينة تلمسان حتى المحيط الأطلسي، بدأ الرشيد يخطط للتخلص منه فاختار مولى

المهدي سليمان بن جرير الملقب بالشماخ، وكان الشماخ معروفاً بدهائه ومكره كما كان على معرفة بالجدل وعلم الكلام ويتمتع بالشجاعة، للقيام بتنفيذ عملية اغتيال إدريس بن عبد الله. ونجح الشماخ في مهمته الصعبة ونال جزاءاً له منصب بريد مصر وأخبارها.

لم يترك الإمام إدريس الأول ولداً ذكراً، ولكن جاريته كانت حاملاً حيث وضعت بعد فترة قصيرة ولداً ذكراً تعهده راشد مولى إدريس بالرعاية والعناية حتى بلغ مبلغ الرجال. ونصبه إماماً على الإمارة باسم إدريس الثاني في ربيع الأول سنة 188هـ/ 804م. وقد بايعته قبائل البربر وخاصة أوربة وصنهاجة وزناتة وغمارة. وقد تابع إدريس الثاني الجهاد وتوسيع رقعة الإمارة فاستولى على مدينة نفيس ومدينة أغمات ثم عاد إلى عاصمته فاس، حيث بلغت الإمارة أقصى اتساعها قبيل وفاته سنة 213هـ/ 828م.

يعد إدريس الثاني 177- 213هـ المؤسس الحقيقي للإمارة فقد وسع نفوذها الإقليمي وبنى مدينة فاس عاصمة لها وسك النقود باسمه وحارب أعداءها من الخوارج الصفرية والرستمية الاباضية وكذلك إمارة الاغالبة أعوان الخلافة العباسية، ولكن الإمارة بلغت ذروة ازدهارها في عهد الإمام يحيى بن محمد وهو الإمام الخامس الذي استلم الحكم سنة 234هـ/ 849م.

وقد حدث انقسام وتنازع على السلطة بين الأمراء الادارسة خاصة وأن الإمام إدريس الثاني كان قد أنجب اثني عشر ولداً ذكراً، وقد أدى التنافس بينهم إلى ضعف الإمارة حيث سقطت على يد الفاطميين في المغرب بعد أن حكمت رقعة كبيرة امتدت من السوس إلى وهران.

ولعل الدور المهم الذي يشار إليه بالنسبة للأدارسة، هو دورهم في نشر الإسلام والعربية في أصقاع المغرب الأقصى التي يسكنها البربر. ويبدو أن البربر بعد محاولتهم التعبير عن معارضتهم لبعض سياسات الولاة الأمويين والعباسيين عن طريق الثورة المسلحة حيناً أو الانتماء إلى صفوف الاباضية أو الخوارج

الصفرية حيناً أخر قرروا مساندة آل البيت العلويين في شخص الأسرة الادريسية، ومن خلال ذلك انتشر الإسلام والعربية في فترة حكم الادارسة في المغرب ولم يبق في عهدهم مكان لديانة أخرى في المغرب.

أما التعريب فقد كان لا بد للبربر من تعلم اللغة العربية لغة القرآن الحديث النبوي لفهم الإسلام على حقيقته.وقد بدأت عملية التعريب في أيام الفتوحات الإسلامية الأولى، وحين جاء الادارسة تابعوا الطريق بحماس وجهد كبيرين، وكان من مصلحة البربر تعلم العربية لكي يساهموا في بناء الدولة الجديدة وإدارتها. وكان بناء مدينة فاس وإنشاء جامع القرويين فيها حيث نزله العلماء والفقهاء، وأهل الزهد والتصوف. كما اجتمع في فاس وبلاطها الأدباء والشعراء. وبهذا صدق إدريس الثاني حين أراد أن يجعل من فاس "دار علم وفقه... ".

وقد انتشر المذهب المالكي في المغرب والأندلس منذ نهاية القرن الثاني الهجري، رغم أن الادارسة علويين وربما تابعوا المذهب الزيدي في أحكامهم ولكنهم تركوا للناس والقضاة حرية اختيار مذهبهم والحكم بمقتضاه.

الادارسة(*)

في مراكش (المغرب الأقصى)

172- 375هـ/ 788- 985م

	هجرية	ميلادية
إدريس	172	788
إدريس الثاني	177	793
محمد بن إدريس	213	828
علي بن محمد	221	836
يحيى الأول بن محمد	234	849
يحيى الثاني بن محمد		
علي الثاني بن عمر بن إدريس الثاني		
يحيى الثالث بن القاسم بن إدريس الثاني		
يحيى الرابع بن إدريس بن عمر	292	904
الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس	310	922

أما العاصمة (فاس) فقد بناها إدريس الثاني عام 191هـ/ 807م بعد أن ضاقت مدينة وليلى بأتباعه والوافدين عليه، وأنزل فيها القبائل كل قبيلة بناحية فنزل العرب العتيبة بعدوة القرويين ونزل الأزد على حدهم من ناحية باب الحديد. وفي عدوة الأندلسيين نزل أهل الأندلس وكذلك قبائل صنهاجة ولواته كل قبيلة في المكان المخصص لها. وكان مقر الإمام بعدوة القرويين مع حاشيته ومواليه وخصص لأصحاب الحرف والصناعات والتجار أماكن خاصة لهم.

ومن أهم انجازات الأدراسة (مسجد القرويين) الذي يعد أقدم جامعة في العالم الإسلامي، حيث تم إنشاؤه في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. كان أول بناء له سنة 245هـ/ 859م وتوسع سنة 345هـ/ 956م. وتأتي أهمية المسجد

(*) Lane – Poole: Muhamman Dynasties. P .35 -حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص 181، Bosworth, The Islamic dynasties, p. 20.

كمؤسسة تعليمية من علمائه وفقهائه المتميزين وما ارتبط به من طلبة حيث اهتمت الدولة بإيجاد المأوى والمعاش لهم.

ورغم فقدان فاس لمركزها كعاصمة سياسية في القرون التالية فقد بقي مسجد القرويين محافظاً على مكانته التعليمية والفكرية الكبيرة بسبب المؤسسات العلمية العديدة التي كانت موجودة فيه. وقد حاولت الأسر الحاكمة في القرون التالية إعادة تنظيم الدراسة في مسجد القرويين. وفي كتاب ابن زيدان الموسوم (الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلوية بفاس الزاهرة، الرباط، 1937) شرحاً عن نظم التعليم بالمسجد حيث كان قاضي القضاة يشرف على التعليم في مدينة فاس كلها. وكان التدريس في المسجد حر وبدون أجر. ولا تتحدد الدراسة بوقت أو سنة دراسية معينة. كما لم يكن هناك تسجيل رسمي للطلبة. ولما كانت مدة الدراسة غير محدودة فقد جرى العرف بأن المستويات تكون على خمس سنوات على أقل تقدير. وبعد انتهاء مدة الدراسة وحين يقتنع الشيخ العالم بان تلميذه بلغ مرحلة وصل فيها إلى ما يكفي من العلم يمنحه "الإجازة" دون اللجوء إلى امتحانات رسمية. وكان الأستاذ حراً في نشاطه وكان عليه على الأقل أن يعطي درساً واحداً في اليوم. أما العلوم التي تدرس في تلك الفترة: فكانت التصوف، علم الكلام والعلوم النقلية اللغة، والصرف، والجغرافية والتنجيم. وفي القرن الثامن الهجري حوالي 750هـ أسست لمسجد القرويين مكتبة كبيرة من قبل المرينيين وسعها السعدوين وكان فيها أربعة آلاف مخطوطة وعدد كبير من المصادر المطبوعة.

جامع القرويين، المسجد والجامعة[38] بمدينة فاس:

"عندما يتحدث التاريخ عن حضارة مدينة ما من المدن، فإنه يقصد عدداً من الكيانات وطائفة من المقومات جعلت من تلك المدينة حاضرة، وفيما يخص فاس بالذات، فهي على الرغم من أنها العاصمة الأولى للدولة الإسلامية في هذه الديار، فيها شيء آخر كان وراء هذه العاصمة، هو قلبها وهو عصبها وروحها وبصرها، هو كل شيء لها، ولم يكن هذا الشيء غير "القرويين" التي ظلت القلب النابض

والعقل المفكر لتلك الحاضرة، ويذكر أن القاضي أبا عبد الله بن أبي الصبر لما عاتبه السلطان أبو يعقوب على تسرعه في إصلاح فندق الشماعين دون رجوع سابق إليه، إجابة بكلمة قصيرة، ولكنها تحمل في، طياتها كل الدلائل على ما للقرويين من أثر منذ ذلك التاريخ. لقد اقتنع العاهل المغربي، وهو يستمع إلى قاضي القضاة يقول: "كرهت الخراب بقرب القرويين الذي هو عين فاس وعندما نتصور معها كل عناصر الحياة، كل عناصر الجمال، فإن ما عرفت به فاس من تقدم اقتصادي وازدهار صناعي ورقي اجتماعي كل ذلك، مرتبط بالعلم والثقافة، ولم يكن هناك من مركز يمثل ذلك العلم وتلك الثقافة إلا القرويين الجامعة التي يرجع إليها الفضل الأول في إعلاء شأن البيوت وتدرجها في مدارج الكمال، لهذا كانت فاس مدينة للقرويين في كل ما نالته من حظوة عبر التاريخ.

يخيل إلي أنه عندما يسأل المرء عن الوقت الذي بدأت فيه دراسة العلم بالقرويين، فكأنما يسأل عن الوقت الذي بدأت الصلاة فيها؟ لأن تلك من هذه، لا فرق بينهما إطلاقاً في نظر الإسلام. وكما يعرف ذلك من لهم صلة بدراسة تاريخ المسجد، أن العادة التي جرى عليها الإسلام منذ أيامه الأولى أن يتخذ من المسجد الذي تقام فيه الصلوات مركزاً للتعليم والتثقيف، كما يتخذه مجلساً لمناقشة الشؤون السياسية، ومحاكم لتثبيت الحقوق، ففي البخاري عن أبي واقد الليثي، قال: "بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذا أقبل ثلاثة نفر، فاقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فوقعنا على رسول الله ﷺ فرأى أحدهما فرجة في الحلقة فجلس، وجلس الآخر خلفهم..."، ولهذا نعتقد أن العلماء الذين وضعوا قبلة القرويين كانوا أول من حلق فيها لبث العلم والمعرفة، وكيف نتصور الحال في جامع لا يبعد عن بيت الإمام يحيى الأول (249هـ) الذي استبحر عمران مدينة فاس على عهده ورحل إليه الناس من الشرق والقيروان والأندلس؟ لا بد أن يكون في أوائل الذين عقدوا مجالس علمية حافلة بالقرويين الحافظ الثقة الشاعر أبو عبد الرحمن بكر بن حماد التاهرتي (296هـ) الذي ورد على فاس باستدعاء خاص من الأمير أحمد بن القاسم بن

إدريس الذي كان على سابق معرفة به، تجمعهما رابطة العلم والأدب، وقد عرف بمجالسه سواء في بلده، أو بالقيروان، أو بغداد فكيف لا يجلس للعلم بجامع عرف عنه ما عرفنا؟ هذا الجامع الذي لا يبعد أيضاً عن بيت الإمام يحيى الرابع (307هـ) الفقيه العارف العالم الذي قصده العلماء والشعراء من كل جهات العالم الإسلامي والذي جاء في ترجمته أنه كان يتوفر على عدد من الوراقين لا شغل لهم إلا نسخ الكتب؟ وبماذا كان يشتغل أولئك العلماء والأدباء، ولمن كان الوراقون يشتغلون؟ وهل كان العلماء يزالون دروسهم في الأزقة والدروب، أم في الفنادق والمتاجر. نحن لا نرى غير هذا البيت جدير باحتضان تلك النخبة المختارة من قبل العرب وديار الإسلام. نحن على اليقين كل اليقين أن البكري لو لم يتخط الحديث عن فترة الإمام يحيى، أو بالأحرى لم تضع الكراسة التي تخص هذه المرحلة، لكنا وقفنا على الشيء الكثير مما يتعلق بنشأة القرويين. والأمر كذلك لو توفرنا على تاريخ الوراق (555هـ) والبرنسي وإضرابهما. ومع ذلك فإن كل القرائن تدل على أن القرويين عرفت حلقات علمية منذ أيامها الأولى، وكيف يتأتى ذلك في قرطبة والقيروان، ولا يتأتى في فاس مع أنها أي فاس ظلت على صلة في كل الحالات، سواء في حالة ميلها إلى هؤلاء أو إلى أولئك، ظلت على صلة بقرطبة والقيروان؟ وقد وصف الجزنائي الدراسة أواسط القرن الرابع الهجري بمسجد الأندلس، توأم جامع القرويين، فقال: "وكان جملة من الفقهاء يدرسون العلم في مواضع من هذا الجامع، وكانوا أهل الشورى ممن يقتدى بهم، ويقصدهم الناس من أقطار البلاد، فمن مدرس، ومن طالب مما شاء من فنون العلم، في مجالس شتى يقصدهم الناس للفتوى وطلب العلم، كالفقيه جبر الله بن القاسم الخ..." ونحن مؤمنون بأن ايثار مسجد الأندلس بهذا الوصف يرجع إلى سبب واحد، هو ما جرت به العادة عند فضلاء المؤلفين من التماس البركة عند ختام تواليفهم بذكر طائفة من رجال الصلاح كما قال الجزنائي نفسه: "وقصدنا البركة في سرد تواريخهم، ونشر الرحمة عند ذكرهم".

"هذا وأن أقدم رواية وقفنا عليها مما تنص نصاً على الجلوس للتدريس بالقرويين في غربها وشرقها، وفي جنوبها وشمالها قيام المرابطين بعمليات البناء فيها، كما تذكر أن أبا الحسن علي القيسي كان يعطي بها دروسه سنة (554هـ) بل أن بعض الروايات تذكر هذا التاريخ المبكر طوائف من علماء الأندلس أخذوا يشدون الرحال إلى مدينة فاس ليتخصصوا في بعض العلوم كالحال في الشيخ عبد الحق بن خليل السكوني البلي (580هـ) الذي ورد على أبي عمر السلالقي ليأخذ عنه علم الكلام، وعلى أبي بكر الخذب ليأخذ عنه كتاب سيبويه، كما يذكر التاريخ أن ابن أبي عبيدة الأنصاري القرطبي، (ت 582هـ) درس فيها وأخذ عنه جماعة بها علوم الحديث، ويتحدث التاريخ عن أبي نموي الفاسي (ت 614هـ) الذي تصدر للأقراء شرقي القرويين بعد أن كان يدرس في مسجد زقاق الرواح وكل أصحاب تلك المجالس أساتذة وطلاباً لم يكونوا يستصعبون الذهاب إلى جامع ما بفاس مهما كان، عندما يسمعون بظهور أستاذ جديد كالحال في الجماعة من الأئمة الأعلام الذين قصدوا مسجد الطالعة لحضور درس ابن تومرت... تلك الجماعة التي كان على رأسها القاضي أبو محمد عبد الحق ابن معيشة.

رأينا أن المسجد كان مركزاً أيضاً للتعليم منذ فجر الإسلام، وبهذا نستطيع أن نقول أن مسجد "المدينة" كان أول معاهد التعليم في المشرق، تبعه جامع البصرة والكوفة والفسطاط ثم كانت أول قبلة اختطت بالشمال الإفريقي في القيروان، وتبعت تلك وهذه مساجد انتشرت هناك وهنا كجامع الزيتونة بتونس سنة 116هـ، وجامع القرويين 245هـ بالمغرب، والجامع الأزهر بمصر سنة (359هـ)، بيد أن هذه المساجد لم تظل باستمرار مهيأة للتعليم، فإن منها ما انتهت فيه الدراسة منذ وقت مبكر، ومنها ما انقطعت منه ردحاً من الزمان.

لكن جامع القرويين بفاس يتميز أولاً بأنه شيد في مدينة وضع حجرها الأساس لا برسم أن تكون معبراً أو متجراً أو مصنعاً ولكن لتكون أولاً وبالذات "دار فقه

وعلم"، وثانياً استمرت الدراسة فيها بصفة مطردة منذ الفترات الأولى، ولم تتفكك حلقاتها العلمية حتى في الفترات التي تمت فيها أعمال الترميم والبناء.

وحتى عندما اتخذ المرابطون مراكش عاصمتهم عام (462هـ)، ظلت القرويين مركز إشعاع علمي وظل قضاة "مقر الخلافة" من أمثال عيسى بن عمران (ت 578هـ) يبعثون أبنائهم للتزويد من معينها، وكان يتم مثل هذا في الأصقاع الجنوبية ومدن الساحل الشمالي.

ولقد كان للقيروان الفضل الأول في تكوين جامعة فاس، وكانت هذه لتلك بمثابة الفرع من الشجرة، لكن القيروان لم تلبث أن تعثرت عثرتها الكبرى في القرن الخامس الهجري، بتغلب عرب بني هلال، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان من شان ذلك أن تبرز جامعة القرويين، فتألق نجمها،وقوي ساعدها في الوقت الذي ضعف فيه شأن القيروان التي كانت بالأمس من عمد القرويين في التلقي والأخذ. ولم يكن حظ الزيتونة بأحسن حظاً من الجامع الأول، فبعد السنين الزاهرة التي عرفها الجامع والتي جمعت تكراراً ومراراً بين علماء فاس وعلماء تونس في مجالي استمتع بها الملوك والأمراء، بعد ذلك لم ترحمها الأيام، فإن الاسبان لم يلبثوا أن قطعوا مسيرتها أواسط القرن العاشر الهجري، وكان للتدخل العثماني أيضاً أثره في "تتريك" التعليم بالجامع الأعظم... والأزهر الشريف الذي بدأ حياته العملية سنة (365هـ

على يد عالم مغربي هو قاضي القضاة أبو الحسن علي بن النعمان القروي، الذي نهض بعبء الرسالة الإسلامية بعد سقوط بغداد، لم يلبث أن ركد بعد ظهور دار الحكمة سنة (395هـ)، ولم ينج من التقلبات والتدخلات. أما بغداد التي تحدث ابن جبير سنة (580هـ) عن مدارسها الثلاثين التي كان من أشهرها النظامية، والتي تحدث ابن سعيد عن دور كتبها بما فيها مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلي (561هـ- 1165م)، فإن ابن بطوطة لما زار بغداد عام (727هـ- 1326م) لم

يجد أثراً لكل تلك المدارس، الأمر الذي تفسره زفرة. أرسلها ابن بطوطة على ذلك العهد في هذه الكلمة القصيرة: "سبحان مبيد الأشياء ومغّيريها".

وإذا عرفنا إلى جانب هذا أن جامعة بولونية بايطالية أسست سنة (1158م) وجامعة السوروبون عام (1200م)، قدرنا بعض الأساتذة والمستشرقين ممن كتبوا في شأن فاس، فقد كتب الأستاذ ديلفان منذ زهاء قرن يقول: "لقد كانت مدينة فاس بحق دار العلم بالمغرب، وتعد جامعة القرويين فيها أول مدرسة في الدنيا"، وكتب المستشرق الروسي بندلي جوزي منذ ثلاثة أرباع القرن يقول: "إن أقدم كلية في العالم ليست في أوروبا كما كان يظن، بل في إفريقيا في مدينة فاس عاصمة المغرب...".

الفاطميون في المغرب ومصر

297-567هـ/ 909-1711م

الفاطميون هم السلالة التي حكمت شمالي إفريقيا ثم مصر من 297هـ/ 909م إلى 567هـ/ 1171م. وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي وآخرهم العاضد وبلغ عددهم أربع عشرة خليفة. وقد دامت مدة حكمها مئتان وخمسين سنة[39].

وتعود تسمية السلالة الحاكمة إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ولكن جذور الحركة الدينية – السياسية التي أوصلت الفاطميين إلى السلطة لا بد أن توجد في الحركة الإسماعيلية التي تعود في جذورها إلى مجموعة من أتباع الشيعة الذين انفصلوا عن جعفر الصادق والتفوا حول ابنه الأكبر إسماعيل بن جعفر وتبنوا آراء متطرفة تبرأ منها الصادق نفسه ومن هنا جاءت تسمية "الإسماعيلية".

يرى الفاطميون أن نسبهم يعود إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولكنهم في بداية دعوتهم (دور الستر) لم يعلنوا ذلك كما أنهم لم يعلنوا أسماء أئمتهم بدءاً بمحمد بن إسماعيل وانتهاءاً بعبيد الله المهدي. ومن هنا فقد ظهرت العديد من الروايات المتناقضة حول أصلهم والتي تشكك في ارتباطهم بفاطمة الزهراء وعلي بن أبي

طالب. ولعل أقوى تلك التي تؤكد أنهم من نسل عبد الله بن ميمون القداح الذي كان من إتباع الإمام جعفر الصادق ثم انشق عنه. وهنا تبرز الفرضية التي تبناها برنارد لويس والتي أكدت أن الأئمة في الحركة الإسماعيلية نوعان: الأئمة المستقرون والأئمة المستودعون. وقد كان عبد الله بن ميمون القداح آخر الأئمة المستودعين بينما كان الإمام القائم أول الأئمة المستقرين.

أما وجهة النظر العباسية الرسمية بالنسبة للفاطميين فقد ظهرت في المنشور الأول الذي صدر ببغداد ووقعه الفقهاء ورؤساء العلويين سنة 402هـ/ 1011م ثم حرر منشور آخر صدر ببغداد سنة 444هـ/ 1052 حيث أنكر نسبهم العلوي[40].

استطاع عبيد الله المهدي أن يؤسس الدول الفاطمية أو كما يسميها أنصارها (الدولة العلوية) في إفريقيا، أما أعداؤها فيطلقون عليها (الدولة العبيدية) نسبة إلى أول أئمتهم. لقد عاش عبيد الله في سلميه مقر الدعوة الإسماعيلية في سوريا وكان على اتصال دائم بالدعاة ورؤسائهم في إفريقيا (أبو عبد الله الشيعي) واليمن (منصور اليمن ابن حوشب)، وكان إمامه خيارين: إما أن يذهب إلى اليمن أو أفريقيا فاختار الأخيرة حيث كان أبو عبد الله الشيعي قد أعد له المسرح السياسي فأعلن نفسه في ربيع الثاني 297هـ أميراً للمؤمنين متخذاً لقب المهدي.

وعاش الخلفاء الفاطميون الأربع الأوائل في إفريقيا حتى سنة 362هـ/ 973م حيث انتقل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر بعد أن فتحها قائده جوهر وأسس فيها مدينة القاهرة سنة 969م/ 359هـ. ونحن هنا لسنا معنيين بالتاريخ السياسي للدولة الفاطمية في مرحلتها المغربية الأولى أو مرحلتها المصرية الثانية. إلا أننا نشير إلى أن خطط الفاطميين ومشاريعهم التوسعية كانت من المظاهر البارزة في تقرير سياستهم تجاه الكيانات السياسية في إفريقيا أو البحر المتوسط وبصفة خاصة تجاه الدولة البيزنطية والخلافة العباسية في المشرق.

لقد كانت علاقاتهم بالعباسيين في المشرق تتمس بالمنافسة وعدم الاعتراف والتوتر، فبعد وصولهم مصر كان الفاطميون يطمحون في الوصول إلى العراق

والاستقرار في بغداد المركز الحضاري للعالم الإسلامي آنذاك. وتظهر هذه الآمال في المصادر الفاطمية حيث يغري ابن هانئ الأندلسي الخليفة المعز لدين الله بضم بغداد إلى نفوذه. وكان هذا الخليفة نفسه في معرض كلامه مع سفير بيزنطي يعلن أن مقابلته القادمة للسفير ستكون في بغداد.

أما الخليفة الفاطمي العزيز فكان يخطط بدقة من أجل الوصول إلى بغداد، ولكن من خلال الدبلوماسية والمفاوضات السرية محاولاً أن يكسب اعتراف الأمير عضد الدولة البويهي. وقد تبودلت السفارات والوفود سنة 369هـ/ 979م دون أن تحقق نتيجة مثمرة. فالأمراء البويهيون، كالعباسيين، كانوا يشكون في نسب الفاطميين، ومن جهة أخرى فإن الأمراء البويهيين الذين سلبوا الخليفة العباسي سلطته الفعلية أذكى من أن يعترفوا بخليفة فاطمي أو علوي يسلبهم سلطتهم!! وربما يتخلص منهم في أقرب فرصة مواتية.

جدول الخلفاء الفاطميين

297- 567هـ/ 909- 1171م

إسماعيل

محمد

1 المهدي أبو محمد عبيد 297هـ/ 909م

2 القائم أبو القاسم محمد 322هـ/ 934م

3 المنصور أبو طاهر إسماعيل 334هـ/ 952م

4 المعز أبو تميم معد 341هـ/ 952م

5 العزيز أبو منصور نزار 365هـ/ 975م

6 الحاكم أبو علي المنصور 386هـ/ 966م

7 الظاهر أبو الحسن علي 411هـ/ 1030م

8 المستنصر أبو تميم معد 427هـ/ 1035م

9 المستعلي 487/ 1094م

10 الآمر 495هـ/ 1101م

محمد

11 الحافظ 524هـ/ 1139م

12 الظافر 544هـ/ 1149م

13 الفائز 549هـ/ 1154م

14 العاضد أبو محمد

555-567هـ/ 2160- 1176م

ولم تكن محاولات الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله موفقة مع الغزنويين سنة 403هـ/1012م، كما وأن الخلعة التي أرسلها الخليفة الظاهر سنة 425هـ/1034م للغزنويين فشلت في كسب ودهم ضد العباسيين فقد أرسل الغزنويون الخلعة إلى الخليفة العباسي الذي أحرقها علناً أمام الملأ.

ولجأ الفاطميون إلى أسلوب الدعوة السرية للعقيدة الإسماعيلية والدعاية للخلفاء الفاطميين في العراق، وخاصة في عهدي الظاهر والمستنصر الفاطميين، مستغليين الفوضى السياسية في العراق. وقد حاول المستنصر تقوية علاقاته مع عدد من حكام وسلاطين المشرق الإسلامي ووصلت نشاطات الإسماعيلية إلى أقاليم بعيدة مثل السند. ولأول مرة بدأت الجهود الفاطمية تحقق بعض النجاحات، ففي العراق تمكن البساسيري في جعل بعض المناطق تعترف بالسيادة الفاطمية. فقد اعترفت الموصل سنة 448هـ/1057م ثم بغداد سنة 451هـ/1059م بالفاطميين واستمر هذا الاعتراف في بغداد لمدة سنة كاملة. وقد لعبت جهود الداعية الاسماعيلي المؤيد في الدين دوراً في انتشار المذهب الاسماعيلي في هذه البقاع الجديدة، ولم تتوقف إلا بعد أن ظهر السلاجقة على المسرح السياسي- العسكري في المشرق الذين قضوا على البساسيري وضموا العديد من المناطق التي كانت تحت النفوذ الفاطمي إلى سيطرتهم وخاصة مكة سنة 473هـ/1088م والموصل وحلب، أما في اليمن حيث وجد الفاطميون أنصاراً متحمسين وخاصة من قبل الصليحيين في صنعاء (429-534هـ/1139م) وقد استمرت الصلات ودية وقوية خلال هذه الحقبة.

أما سياسة الفاطميين تجاه الفرنج (الصليبيين) فتتسم بالمراوغة وعدم الجدية فالمعروف أن معظم بلاد الشام الجنوبية ومنها فلسطين كانت في يد الفاطميين حين بدأت الحملة الصليبية الأولى التي نجحت في أخذها من الفاطميين سنة493هـ/1099م. وقد استمر الصراع حول الشام بين الفاطميين والصليبيين والسلاجقة والقبائل العربية هناك. ولا بد من القول بأن ردود الفعل الإسلامية من

جانب العباسيين والفاطميين لم تكن بالمستوى المطلوب منهما فلم ينهضا بدور فعال في الدفاع عن الأرض بل وقفوا ينظرون إلى الغزاة وهم يثبتون أقدامهم في الـشام وفي القدس بالذات حين أسسوا ما يسمى بمملكة بيت المقدس.

لقد فشلت الخلافة العباسية في أن تقوم بواجبها تجاه أخطر هجمة أجنبية فـي العصر الوسيط وانشغلت بالفتن تجاه أمراء المـشرق مـن سـامانيين وسـلاجقة وغزنويين وخوارزميين وغيرهم. وكان من الممكن توجيه هذه الطاقة الحربية تجاه العدو. ولكن الخلافة العباسية الضعيفة التي تهاونت تجاه الخطر الصليبي سـرعان ما وقفت وجهاً لوجه أمام الخطر المغولي الذي أسقطها سنة 656هـ/1258م.

أما الدولة الفاطمية ..فهي تتحمـل الـوزر نفـسه الـذي تحملتـه الخلافـة العباسية..وذلك لأنها كانت الطرف الآخر في سبب الضعف الذي لحـق بالجبهـة الإسلامية لاستمرار النزاع السياسي والمشادة المذهبية بـين الخلافتـين. أن هـذا الخلاف كان لا بد أن ينعكس على بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي بـين مـصر والعراق. وهكذا جاء الفرنج الصليبيون إلى بلاد الشام وهي غارقة في نزاع حـاد بين السلاجقة الموالين للعباسيين وبين الفاطميين الإسماعيلية.

يشير سعيد عاشور بأن المكاسب التي حققها الغزاة الصليبيين لم يكن مردهـا قوة خارقة أو شجاعة نادرة أبداها الغزاة بقدر ما كـان مردهـا ضـعف القـوى الإسلامية في المنطقة ووقوعها مع بعضها البعض في منازعات وخلافات مكنـت الأعداء من النفاذ إلى صميم بلادهم والاستقرار بالشام نحو قرنين من الزمان"

أضف إلى ذلك حالة الضعف والوهن والتدهور الذي أصاب الخلافة الفاطميـة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بحيث أدى ليس إلى عجزها عن مقاومة الصليبيين الغزاة فقط، بل إلى عدم مقدرتها على الاحتفاظ بمناطق نفوذهـا في بلاد الشام أيضاً. وتشير رواياتنا التاريخية إلى ما يسمى "بالشدة المستنـصرية العظمى" حيث انخفض ماء النيل فاشتد الغلاء والوباء، وأضربت البلاد فـي نفـس

الوقت الذي أعلن قاضي صور وقاضي طرابلس انفصالهما عن الفاطميين، وسيطر اتسز على الرملة والقدس ثم فلسطين بأكملها. وغدت بلاد الشام ساحة للنزاع بين السلاجقة والفاطميين، ودون شك فإن هذا الانقسام اثر على الجبهة الإسلامية تجاه الغزاة.

لقد لعبت عدة عوامل دورها في الحد من نشاط مصر الفاطمية تجاه الصليبيين. بالإضافة إلى سوء الأوضاع الاقتصادية والسياسية واستفحال النزاع السلجوقي الفاطمي الأمر الذي بعثر الجهود الفاطمية باتجاهين بدلاً من اتجاه واحد، يضيف عاشور عاملاً أخر لعدم تحمس الخلفاء الفاطميين لفكرة حرب الصليبيين وهو أن أولئك الخلفاء رأوا في الصليبيين درعاً يحميهم من خطر السلاجقة. وأخيراً وليس أخراً المنافسة بين قادة الجيش الفاطمي والحزازات الشخصية بينهم حالت دون وجود خطة واضحة لديهم لمجابهة الصليبيين. ولذلك كانت " الأعمال الحربية التي قامت بها الدولة الفاطمية ضد الصليبيين تتصف بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف.

لقد وصلت الحالة بمصر الفاطمية إلى الدرك الذي عرضت فيه على الصليبيين عقد تحالف بينهما لاقتسام بلاد الشام والقضاء على النفوذ السلجوقي، حيث أرسل الأفضل سفارة إلى الصليبيين سنة 1098م عرضت بأن يكون القسم الشمالي للشام بيد الصليبيين ويحتفظ الفاطميين بفلسطين. ولذلك يتهم ابن الأثير مصر الفاطمية بأنها هي التي استدعت الصليبيين إلى بلاد الشام "فأرسلوا (أي الفاطميين) إلى الإفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى بلاد الشام ليملكوا ويكونوا بينهم وبين المسلمين (السلاجقة)"!!

ويتملك مؤرخ آخر العجب لموقف الفاطميين المنهار من الغزو الصليبي وعدم مشاركتهم للقوى الإسلامية في الجهاد فيقول:

"...وما أدرى ما السبب في عدم إخراج (الأفضل) للعساكر المصرية مع قدرته على المال والرجال"

إن إرسال مصر الفاطمية لسفارتها إلى الصليبيين كان معناه الاعتراف بهم رسمياً كقوة جديدة على مسرح الأحداث وإنشاء علاقات سلمية معهم. ولعل هدف الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الدين الجمالي هو كسب الصليبيين من اجل التفرغ لضرب السلاجقة بالتعاون مع الصليبيين. إلا أن خطته ما لبثت أن انقلبت عليه وأخذ يحصد ثمار ما جناه من التحالف مع الغزاة الأجانب ضد المسلمين، فأدرك بعد فوات الأوان أن أطماع الفرنج الصليبيين غير محدودة وسوف لا تتوقف كما اعتقد عند إنطاكية وشمالي بلاد الشام بل تقدمت لتحتل القدس وكل فلسطين والموانئ الساحلية ثم لتضرب ضربتها في جبهة مصر الضعيفة المفككة المعزولة عن القوى الإسلامية.

لقد أدرك الفرنج الصليبيون بعد احتلالهم القدس وفلسطين أن عليهم يؤمنوا ظهرهم إذا أرادوا الاستقرار والثبات في فلسطين، ومعنى ذلك الهجوم على مصر، ولذلك فقد اضطرت مصر الفاطمية اضطراراً إلى دخول الحرب ضد الصليبيين حينما تكشفت نواياهم التوسعية وحينها تعرضت مصر نفسها للخطر الصليبي!!

ولم يكن قادة الجيش المصري الفاطمي متحمسين للقتال كما لم يكن الأفضل قديراً في الحرب كقدرته في السياسة ولذلك فإن الصدام الأول بين الفاطميين والصليبيين قرب عسقلان كان نصراً للصليبيين سنة1099م/493هـ، وكان من نتائجه " القضاء على هيبة الفاطميين في بلاد الشام فقبعوا في مصر يشاهدون مدن فلسطين وهي تتساقط واحدة بعد أخرى في قبضة الغزاة" بل أن الأفضل لم يعمل أكثر من إرسال ثلاثمئة جندي لنجدة ارسوف (شمالي يافا) مما جعل أهلها يدركون عدم جدوى الصمود فأعلنوا تبعيتهم للصليبيين وكذلك فعلت عسقلان وقيسارية وعكا.

ورغم أن مصر الفاطمية أرسلت حملات عسكرية ثلاثة جديدة ومتتابعة أعادت اعتبار عسقلان كمركز لانطلاق الحملات الفاطمية لتحرير فلسطين، ولكـن هـذه الحملات لم تؤد إلى نتائج ايجابية ملموسة فلم يكن يعوز الفاطميين الرجال والسلاح بل كانت تعوزهم الرغبة في القتال وروح التعاون والنظام وأحكام الخطط الحربية. ولقد أدرك كل من الطرفين الفاطمي والصليبي أهمية المدن الساحلية الفلسطينية والشامية في تقرير مصير النزاع، وان سيطرة الفاطميين عليها تعني قطع الطريق البحري الذي يربط الصليبيين بأوروبا من جهة كما انها تعد نقطة ارتكاز لهجوم أوسع لتحرير فلسطين والقدس. واستطاع الصليبيون احتلال عكا سنة 498هـ/1104م رغم حصانتها وكان سقوطها ممهداً لسيادة الصليبيين على شاطئ فلسطين لأنها كانت أهم قواعد الأسطول الفاطمي ويؤرخ ابن تغري بردى مدى عجز الخليفة الفاطمي عن قتال الصليبين فيقول:

"كان يتباهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد.. وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه.. ولم ينهض لقتال الفرنج البتة، وان كان أرسل مع الأسطول عسكراً فهو كلا شيء".

لقد أثبتت الأحداث أن الفاطميين كانوا اضعف من القيام بعمل عسكري لحماية فلسطين أو استردادها، إلا أن الملاحظ أنه كلما زاد الضغط الصليبي على مصر الفاطمية نبهها إلى حقيقة العدو الصليبي ودفعها إلى التقارب مع سلاجقة الشام.

وكانت المحاولة الأولى للقيام بجهد مشترك بين مصر والشام سنة 499هـ/1105م وقد باءت بالفشل ثم جاءت المحاولة الثانية سنة 512هـ/1118م حيث وافق الأفضل الفاطمي أن يضع قواته في عسقلان تحت قيادة طغتكين صاحب دمشق. ولم ينته التعاون إلى مجابهة ضد الصليبيين. ويبدو أن مصر الفاطمية كانت تتخذ من التعاون مع الشام شعاراً تلوح به كلما داهمها الخطر الصليبي، أما الحقيقة

الكامنة في نفوس حكام مصر فكانت الفتور عن القتال ومهادنة الصلبيين وعدم الاحتكاك بهم أو محاولة طردهم من فلسطين. وهنا تتعزز الفرضية القائلة بان الفاطميين رأوا في الصليبيين ضماناً وحاجزاً لهم من سلاجقة الشام!! ولهذا تخلص الخليفة الفاطمي من وزيره الأفضل لكونه مندفعاً نوعاً ما في مجابهة الصليبيين.

لقد أدرك الصليبيون حقيقة الموقف الفاطمي المراوغ المتخاذل فأطلقوا العنان لعملياتهم العسكرية التي استهدفت احتلال البقية الباقية من مدن فلسطين وعلى رأسها عسقلان وهي القاعدة الحربية الرئيسية للفاطميين في الساحل الفلسطيني 548هـ/1153م وباحتلال عسقلان أتم الصليبيون بسط سيطرتهم على ساحل الشام وفلسطين كله، حتى غزة جنوباً.

على أن الدولة الفاطمية دخلت في دور السقوط واستلم نور الدين محمود قيادة الجبهة في بلاد الشام، وغدا السباق بين نور الدين محمود والصليبيين في مملكة بيت المقدس حول الاستيلاء على مصر، وقد حاصر ملك بيت المقدس الصليبي القاهرة فاستنجد العاضد الفاطمي بنور الدين محمود ونجح نور الدين محمود بالسيطرة على مصر وأعلن عن طريق صلاح الدين الأيوبي سقوط الدولة الفاطمية والدعاء للخليفة العباسي بالقاهرة سنة 567هـ/1171م ولعل ذلك يُعد اهم عمل قام به نور الدين محمود في حياته.

وقد مات نور الدين محمود بدمشق سنة 570هـ/1174م مما مهد السبيل إلى ظهور صلاح الدين الأيوبي وقيام الدولة الأيوبية، وقد دخل الصراع الإسلامي – الصليبي دوراً جديداً ومنعطفاً خطيراً في العصر الأيوبي الجديد.

فشلت الخلافة الفاطمية بمصر في إدراك مدى خطورة الوجود الفرنجي الصليبي في فلسطين وبلاد الشام عامة، وفشلت كذلك في إدراك أهمية انتماء مصر العربي– الإسلامي. ذلك الانتماء الحيوي والمصيري لا من ناحية الروابط الدينية والتاريخية والعرقية والتراثية واللغوية فحسب، بل كذلك من ناحية امن مصر

وسيادتها. أي من ناحية مصلحتها الذاتية. لقد كان على مصر الفاطمية النظر القصيرة أن تدرك أولاً وقبل كل شيء بأن أمنها وسلامتها ترتكز على جبال طرطوس وهي الحدود الشمالية بين دار الإسلام والدولة البيزنطية، وان هذه الحقيقة التاريخية والموضوعية تحتم على مصر أن تتحالف وتتعاون مع الكيان السياسي الإسلامي في بلاد الشام وفلسطين خاصة ضد العدو الغازي، إلا أن سياسة مصر الفاطمية لم تدرك ذلك وفضلت محاولة التحالف مع الغزاة الصليبيين، فكانت النتيجة أن جنت ثمار سياستها هذه فأصبحت هدفاً للصليبيين فكان لا بد أن تسقط على يد نور الدين وصلاح الدين لإنقاذها أولاً ولإنقاذ ديار الإسلام عموماً ثانياً من خطر الفرنج.

لقد أظهر الفاطميون في سياساتهم الدينية، مثلما في سياساتهم الخارجية تجاه الكيانات المعاصرة لهم، أنهم سياسة مراوغون عدّلوا عقيدتهم وغيّروها لتتناسب الواقع وتتفق مع الظروف التي واجهوها ولم يكن لديهم، في الواقع خيار آخر إذا أرادوا لدولتهم ومذهبهم الاسماعيلي أن يدوما. ومن هذا نجد أن القواعد الشرعية التي قننها الفقيه الفاطمي النعمان بن حيون في كتابه (دعائم الإسلام) لم تختلف في جوهرها عن المذهب السني في نقاط عديدة. وان القاضي النعمان نفسه أرجأ في مقالاته كل التنبؤات والآمال التي دعت لها الإسماعيلية إلى حقبة متأخرة من الزمان.

إلا أن هذه السياسة الفاطمية لا تعني التوقف فن نشر المذهب الاسماعيلي، بل على العكس فقد كان من الضروري بذل الجهود الحثيثة لنشره بين سكان مصر وسوريا الذين بقوا متمسكين بمذهبهم السني. وقد بذل الفقهاء والدعاة الفاطميون جهوداً كبيرة لنشر المذهب. كما أسست (دار الحكمة) لهذا الغرض بالذات وقد ظلت سياسة الدولة الفاطمية تجاه أهل السنة مذبذبة وغير واضحة تتخللها فترات من الشدة أو المرونة، ولكنها كانت بصورة عامة معتدلة متسامحة. أما بالنسبة لأهل الذمة من مسيحيين ويهود فقد عامل الفاطميون هذه الفئة معاملة حسنة وكانت لهم مكانة

مقربة من السلطة ويشير أبو صالح ألأرمني في كتابه عن الكنائس والأديرة في مصر إلى الدرجة العالية من التسامح والمرونة في سياسة الفاطميين تجاه الذميين.

وبلغت النشاطات الاقتصادية درجة من الفاعلية في العصر الفاطمي زراعياً وصناعياً وتجارياً ويعود ذلك إلى السياسة التي اتبعها الفاطميون في التبادل التجاري شرقاً وغرباً، ويبدو ذلك واضحاً من التعليقات التي سطّرها ناصري خسرو الرحالة الفارسي في (سفرنامة) وكذلك من إشارات المقريزي في خططه.

كما شهدت الفترة الفاطمية نشاطاً ثقافياً ملموساً حيث ظهر (ابن هاني) الشاعر المتحمس للمذهب الاسماعيلي، والفقيه الاسماعيلي(النعمان بن حيون) وكذلك الفقيه (جعفر بن منصور اليمن). وشجع الخلفاء الفاطميون في مصر الثقافة المنوعة ورحبوا بالشعراء مثل (عمار اليمني) رغم كونه غير اسماعيلي. وشجعوا الموضوعات ذات العلاقة بالعلوم النقلية مثل تفسير القرآن واللغة والفلسفة وعلم الكلام، كما شجعوا العلوم العقلية ورعوا نشاطات (ابن الهيثم البصري)، الذي دعى إلى مصر من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله، والفلكي ابن يونس الصفدي (مؤلف الزيج الحاكمي) والطبيب ابن سعيد التميمي والطبيب علي بن رضوان المصري. وظهر فيها عدد من المؤرخين من أشهرهم ابن زولاق، المصبّحي، القضاعي، والشابشتي في هذه الحقبة.

ولعب الجامع الأزهر دوراً مهماً في تاريخ القاهرة الفاطمية باعتباره مركزاً دينياً وعلمياً على حد سواء منذ تأسيسه سنة 360هـ/970م بعد سنة واحدة من بناء مدينة القاهرة، ولكن ذلك لم يستمر خلال العهد الأيوبي حتى جاء السلطان المملوكي الظاهر بيبرس وأمر بإحياء دور الازهر حيث انتعشت فيه الدراسات الدينية كمسجد وكمؤسسة أكاديمية وقد استفاد الأزهر من الدمار الذي حل بالمدارس في أقاليم المشرق الإسلامي وكذلك المغرب الإسلامي بسبب الفوضى التي سببتها الغزوات والاقتتال من أجل السلطة.

"الدعوةالجديدة" أو الحشيشية[41]

(483-654هـ -1090-1255م).

"الدعوة الجديدة" هي حركة متطرفة منشقة عن الحركة الإسماعيلية التقليديـــة كذلك عًرفت لدى معاصريها ولدى المؤرخين بأســماء عديــدة لعــل لأشـــهرها: الحشيشية أو النزارية أو السبعية أو الباطنية. كما عرفت لدى مؤرخي أوروبا باسم Assassins "السفاكين" لأنها تبنت مبدأ الاغتيال السياسي والإرهاب وسيلة لتحقيق أهدافها. كما عُرف زعماؤها لدى الأوروبيين باسم "شيخ الجبل".

وتمثل "الدعوة الجديدة" الحشيشية جهود العقائد السابقة للإسلام للتغلغــل إلـــى العقيدة الإسلامية وتخريبها ومن ثم إحلال عقائد قديمة محلهـــا. وطبيعـــي أن هـــذا الهدف يتضمن إزالة النظام السياسي الذي يرتكز على الإسلام أولاً وهـــو الخلافـــة العباسية.

والمعروف تاريخياً أن الحركة الإسماعيلية التقليدية، رغم انقسامها إلى فـــرق عديدة، استطاعات أن تحقيق مكاسب سياسية علـــى حـــساب الخلافـــة العباســـية. فالقرامطة سيطروا على البحرين وأجزاء من غربي العراق وبـــلاد الـــشام، كمـــا استطاع الإسماعيلية أن يؤسسسوا الدولة الفاطمية في المغرب ثم امتدت إلى مـــصر وأجزاء من بلاد الشام خلال القرن الرابع الهجري/ التاسع الميلادي.

إن الذي نود الإشارة إليه هو الانشقاق الذي يمت بصلة إلى الموضوع "الدعوة الحشيشية الجديدة" وهو الانشقاق الذي وقع بعد وفاة الخليفة الفـــاطمي المستنـــصر بمصر سنة 487هـــ/1094م فلقد قاست الحركة الإسماعيلية التقليدية في مصر منذ وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله من سيطرة قادة الجيش على الإدارة المدنية وتحكمهـــم في سياسة الدولة فمنذ سنة 467هـــ/ 1074م أصبح القائد ألأرمني أمير الجيـــوش بدر الجمالي الحاكم الحقيقي للدولة الفاطمية ولم يعد للخليفة الفاطمي أي أثـــر فـــي

السياسة. كما لم تعد الدولة تهتم كثيراً بأمور الدعوة الإسماعيلية ونشرها في أنحاء جديدة من العالم الإسلامي.

وحين توفى الخليفة المستنصر الفاطمي كان أمام الأفضل بن بدر الجمالي الذي خلف والده في قيادة الجيش خيارين لا ثالث لهما فأما أن يختار للخلافة نزار الابن الأكبر للمستنصر وكان ناضجاً كما عرف عن والده أنه رشحه لولاية العهد وحظي كذلك بتأيد الدعاة الإسماعيلية. أو أن يعين المستعلي وهو الابن الأصغر للمستنصر ولم يكن له أي فئة تؤيده أو دعاة ينادون بزعامته، ولكنه كان يمت بصلة المصاهرة إلى الأفضل بن بدر الجمالي. وقد آثر هذا الأخير أن يختار المستعلي للخلافة ضارباً عرض الحائط رغبة الخليفة السابق والدعاة الإسماعيلية. ولا شك فإن المستعلي الضعيف سيكون خليفة بالاسم فقط Fiqure Head أما الحاكم الفعلي فهو الأفضل الجمالي.

لقد شق الأفضل بن بدر الجمالي، باختياره المستعلي، الحركة الإسماعلية إلى قسمين: النزارية وهم الذين يعترفون بنزار بن المستنصر إماماً للدعوة، والمستعلية الذين عدّوا المستعلي هو الإمام الشرعي بعد أبيه المستنصر. وفي روايات تاريخية أن نزار أكره على التخلي عن الإمامة ثم أودع السجن مع ابنه حيث لقيا حتفهما. ولعل الأفضل بن بدر الجمالي هذا كان مدفوعاً عن قصد ووفق خطة مرسومة أراد بها أن يبعد الخلافة الفاطمية بمصر عن الدعوات والنشاطات الإسماعلية المتطرفة في بلاد فارس. وقد كان له ما أراد حيث انشقت الفرقة الإسماعيلية الشرقية في بلاد فارس بقيادة الحسن بن الصباح عن الخلافة الفاطمية ولم تعد تعترف بإمامة المستعلي أو بمذهبه الإسماعيلي بل دانت بالولاء إلى نزار وأبنائه من بعده. وفي رواية تاريخية أن المهتدي وهو أحد أبناء نزار نقل إلى بلاد فارس، ونشأ هناك تحت رعاية الحسن بن الصباح. وبهذا بدأ التاريخ الحقيقي للحشيشية.

وقد قطعت الحركة الإسماعيلية النزارية (الحشيشية) كل علاقاتها بالخلافة الفاطمية بمصر بل اعتبرتها – مثل الخلافة العباسية – خلافة غير مشروعة ومعادية من الواجب إسقاطها. وقد مرت الحشيشية تحت زعامة الداعية الحسن بن الصباح بفترة نشطة على الصعيدين الفكري والسياسي في بلاد فارس، وليس هنا مجال التفصيل حولها.

الشرافة في المغرب الأقصى

الأشراف السعديون في المغرب

السعديون (بنو سعد) سلالة من الأشراف حكمت المغرب الأقصى (مراكش) 916هـ/ 1510 م ثم خلفت سنة 1544م/ 951هـ السلالة الوطاسية في فاس[41].

مع بدايات القرن الخامس عشر الميلادي/ الثامن الهجري أثارت هجمات البرتغاليين والأسبان على شمالي إفريقيا الحماسة الدينية لدى العرب والبربر المسلمين الذين انخرطوا تحت قيادة الأشراف والأمراء المحليين للجهاد ضد الغزاة.

لقد بدأ الأشراف السعديون[42] حكمهم في إقليم السوس جنوبي المغرب الأقصى. وكان أول حاكم من السعديين محمد المهدي (القائم بأمر الله) وقد نال الكثير من الشهرة في مقاومته للغزاة ووسع نفوذه على حساب الوطاسيين مستحوذاً على بعض مناطقهم معلناً نفسه حاكماً سنة 915هـ/ 1509م.

وقد خلفه في الحكم ولداه أحمد الأعرج ومحمد المهدي حيث نشبت الخلافات والمنافسة على السلطة بينهما مما فسح المجال للقوى الغازية بتعزيز نفوذها على الساحل. وليس يهمنا في هذا المجال متابعة حكم السعديين الذي يقع في مطالع التاريخ الحديث إلا أننا نشير بأنهم انشغلوا في الصراع مع الإسبان والبرتغاليين والأتراك وكان بعضهم ألعوبة بيد هؤلاء الأجانب حتى انتهت هذه السلالة الحاكمة سنة 1654م/ 1065هـ أو بعد ذلك بقليل في روايات أخرى 1070هـ/ 1659م.

دور السعديين في الحياة الثقافية:

ظهرت الدولة السعدية بزعامة مؤسسها أبي عبد الله محمد القاسم بأمر الله في بلاد السوس كرد فعل على استفحال النفوذ البرتغالي على الشاطئ الغربي للمغرب. وحين ظهرت دعوته بايعته القبائل الوافدة متبركة بنسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب ﷺ رغم اختلاف المؤرخين حول صحة نسبتهم إلى آل البيت.

ومن أجل تاريخ الحركة الثقافية في عصر السعديين لا بد أن نعتمد على مصادر تاريخية وفقهية ومصادر التراجم والرحلات ومنها مناهل الصفا للقشتالي ورحلة العياشي ومرآة المحاسن للفاسي.

كان النشاط الثقافي ممتزجاً بالصوفية حيث حفز انتشار الزوايا وسيطرتها على التوجه الفكري في البلاد إلى تربية جيل يؤمن بالجهاد ويتسلح بالعقيدة الاسلامية.

والواقع أن الزاوية (جمع زوايا) لعبت دوراً هاماً في حياة المجتمع المغربي عامة.

وللزاوية هي امتداد لنظام الرابطة (جمع ربط). وكان لكل طريقة صوفية أو طائفة زوايا خاصة بها. وليست الزاوية مكاناً للعبادة والزهد فقط بل مكاناً للدراسة والتعلم تلقى فيها الدروس الشرعية على أيدي كبار العلماء بالإضافة إلى غرس روح الجهاد والاهتمام بالتدريب العسكري. وكانت الزوايا توزع حسب الاعتبارات القبلية والاقتصادية في أماكن التجمع السكاني وفيها أماكن خاصة بالفقراء والمساكين الذين لا مأوى لهم ويتبعها أراضي مزروعة وأراضي للرعي. ويكون في الزاوية مسجداً ومدرسة وبيوتاً للضيوف ومساكن للخدم ومخازن لحفظ المؤن واصطبل وما إلى ذلك من الخدمات الضرورية لكل تجمع بشري.

وقد تأثرت الزوايا في المغرب بتقاليد وأعراف الزوايا في المشرق، وخاصة في مصر حيث اخذوا من الطريقة الرفاعية الشرقية الكثير من المراسيم الخاصة

بالتعرض للنيران والسموم وحمل البيارق والطبول وغيرها. وقد ساعد على كثـرة الزوايا تنوع النزعات السياسية واختلاف الطرق الصوفية. كما وان الزوايا لعبـت دوراً واضحاً في الأعداد للجهاد ضد الغارات الأوروبية الاستعمارية ومن هنا كانت هذه الزوايا في أماكن نائية مقصودة بعيدة عن المدن والعواصم لمجابهـة غـارات القراصنة والأجانب.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أثرت الزوايا في تركيز الثقافة الإسـلامية واستمرار تقويتها. وتعد زاوية الدلائيين في تادلة من أهم الزوايا في البلاد المغربية ومؤسسها ابو بكر محمـد بـن الوجـادي مـن قبيلـة صـنهاجة فـي أواسـط القرن 16 الميلادي. وقد تطورت عدة زوايا علمية إلى حركات سياسـية وذكـرت المصادر عدداً من الزوايا من هذا النمط.

الأشراف في المغرب الأقصى (مراكش)(*)

1- السعديون

محمد المهدي القائم بأمر الله	911هـ/ 1510م
أحمد الأعرج	923هـ/ 1517م
محمد الشيخ المهدي بن محمد المهدي	923هـ/ 1517م
عبد الله الغالب	964هـ/ 1557م
محمد المتوكل المسلوخ	981هـ/ 1574م
عبد الله بن محمد	983هـ/ 1576م
أحمد المنصور	986هـ/ 1578م
حتى 1069هـ/ 1659م	

(*) Bosworth, the Islamic dynasties, p. 38.

2- العلويون (الفيلاليون)

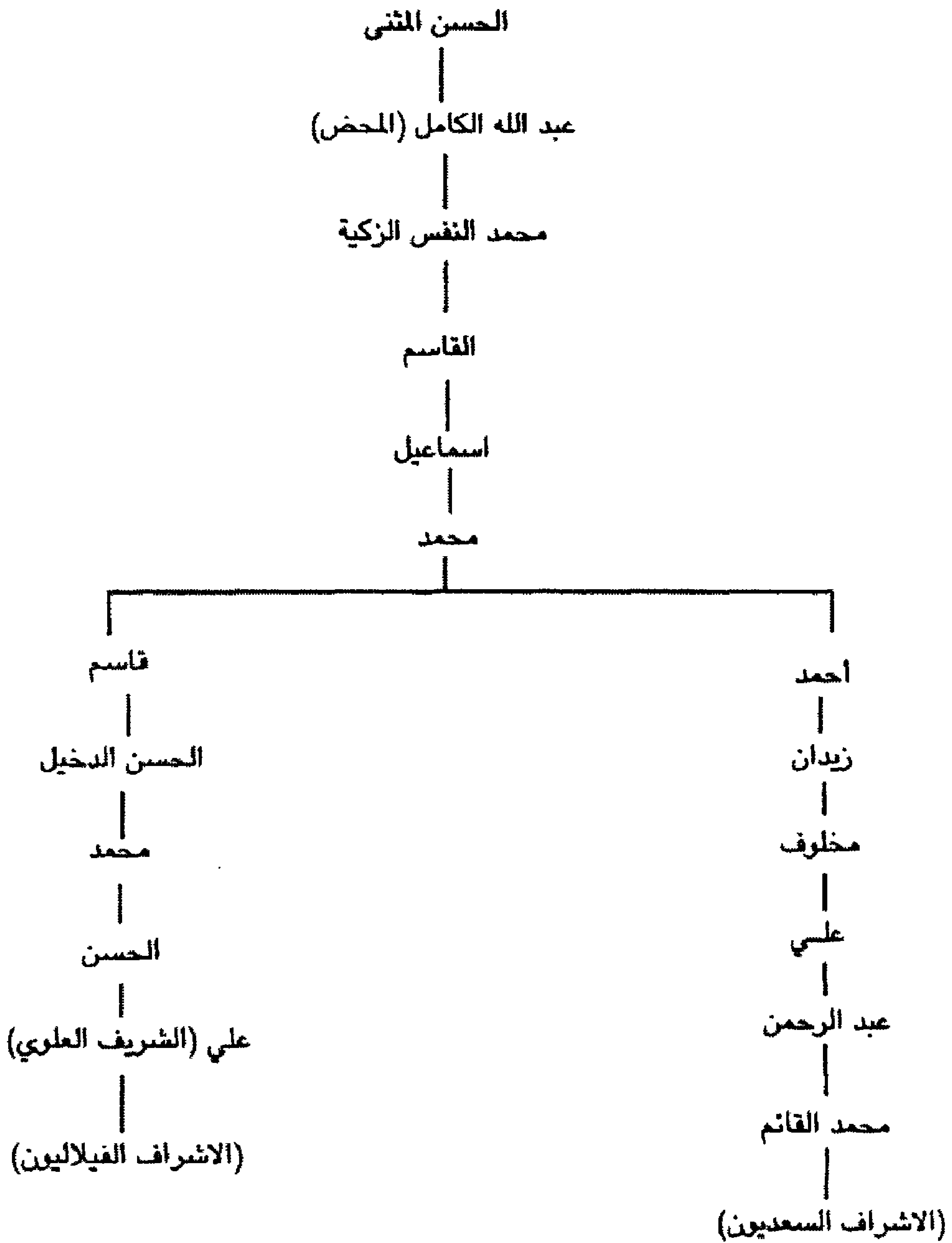
محمد الأول الشريف	1041هـ/ 1631م
محمد الثاني بن محمد	1045هـ/ 1635م
الرشيد	1075هـ/ 1664م (أعلن نفسه سلطاناً 1079هـ 1669م)
إسماعيل السمين	1082هـ/ 1672م
أحمد الذهبي	1139هـ/ 1727م
عبد الله	1141هـ/ 1729م
حتى سنة 1206هـ/ 1792م	

وكان دور هذه الزوايا السياسي والديني في التاريخ المغربي وبالأخص الناصرية والدلائية والشرقاوية. وفي هذه الحقبة ظهر عامل آخر أثر على الثقافة المغاربية ألا وهي هجرة أهل الأندلس إلى المغرب وأماكن عديدة أخرى مثل تونس وبلاد الشام. ويشير المؤرخون المحليون إلى من استقر وتوفي في فاس ومراكش والرباط وتطوان ووهران والجزائر. بل وصل بعضهم إلى السودان الغربي والجزائر الخالدات (جزر كناري) والمقاطعات الجنوبية من فرنسا وسويسرا حيث نشروا مدنيتهم هناك، وكان لهم الدور الواضح في الأدب والعلم والزراعة والصناعة. ومن معالم هذا العهد خزانة الكتب الكبيرة التي أسسها المنصور وسميت باسمه (الخزانة المنصورية) جمع كتبها من مختلف الأقطار.

وقد هاجر أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى هجرتين كبيرتين: الأولى في عهد الادارسة الذين أسسوا مدينة فاس فرحل إليها الكثير من الأندلسيين ممن لم يستسيغوا الحكم في الأندلس في تلك الحقبة. أما الهجرة الثانية فكانت لأسباب سياسية ودينية واجتماعية بعد حركة الاسترداد المسيحية (الريكو نكوستا) فكانوا من العناصر العلمية والحرفية النشطة التي دخلت المغرب حيث الفقهاء والصناع والحرفيين والتجار والمزراعيين.

وقد تطورت العمارة والفن المغربي في عهد السعديين وترك حكامهم تـأثيراً في الملبس والأطعمة والحفلات والمهرجانات التي نقلوها عن العثمانيين، كما اعتنوا بالموسيقى الأندلسية خصوصاً بعد ورود الأندلسيين إلى المغـرب كمـا نـشطت الدبلوماسية في العهد السعدي مع الدول الأوروبية المتنافـسة كالبرتغـال وهولنـدا وانكلترا واسبانيا وأخيرا الدولة العثمانية التي سيطرت على الجزائر وبدأت تهـدد المغرب الأقصى وهذا ما جعل السعديون يبحثون عن حلفاء أوروبيين للدفاع عـن كيانهم ضد الخطر العثماني الجديد.

جذور نسب السعديين والعلويين (الفيلاليين)(*)



عن (1) .E.I، جزء 7، ص 387.

الأشراف العلويون (الفيلاليون) في المغرب

1071هـ/ 1669م حتى الوقت الحاضر

لا بد من الإشارة إلى أن المغرب الأقصى (مـراكش) كانت قبل مجيء الأشراف العلويين إلى السلطة تغلي بسبب تفاعل الأزمات السياسية والاجتماعية والدينية. وقد نمت العديد من الحركات الصوفية والدينية وتنظيمات الأشراف في بقاع عديدة من المغرب الأقصى، خاصة وأن خطر الهجمات المسيحية الاسبانية والبرتغالية قد زاد من قوة الشعور بالتجمع الإسلامي من أجل المقاومة[43].

لقد جاءت هذه السلالة من الأشراف الحسنيين من شبه جزيرة العرب في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري واستقرت في تافيلات. لم يكن لهذه السلالة دور سياسي واضح في البداية ولكن عدم الاستقرار والتهديد الداخلي من قبل بعض الأمراء الإقطاعيين وكذلك الخطر الخارجي كل ذلك دعى سكان تافيلات مولاي الشريف لتولي الحكم وأعقبه ابناه مولاي محمد ومولاي الرشيد. وقد استطاع هذا الأخير من تثبيت حكم السلالة معلناً نفسه سلطاناً على شمالي المغرب الأقصى وفتح مراكش سنة 1669م/ 1079هـ. وبهذا بدأ الأشراف العلويون (الفيلاليون) حكمهم.

وواضح أن الحقبة الزمنية التي حكم فيها الأشراف في المغرب وهي مطالع العصر الحديث تقع خارج الفترة الزمنية المحددة لدراستنا هذه. ومع ذلك نشير بأن وحدة البلاد وصلاحها تحقق على عهد مولاى الرشيد العلوي ومن بعده أخيه إسماعيل. وقد نشطت التجارة في البحر الأبيض المتوسط نشاطاً ملحوظاً وبذل الحكام العلويون الأوائل جهوداً كبيرة في تشجيع النشاط التجاري وحرر الموانئ التي كانت بيد الأجانب وقد استتب الأمن، بحيث أشار المؤرخون أن الشخص يخرج من بلد إلى أخر فلا يجابه بأية مخاطر أو مزعجات.

وقد ساعد الأمن والاستقرار والازدهار الاقتصادي علـــى انتعـــاش العمـــران وخاصة بمدينة مراكش فشيدت القصور والقلاع. وزاد عدد السكان وكثرت زراعة الحبوب والخضروات والفواكه.

كما شهد عهد محمد بن عبد الله حركة ثقافية وإصلاحية شاملة. وقـــد اســـتمر تأثير الزوايا في أول عصر العلويين، إلا أنه بدأ بالضعف التدريجي وقل اثر علماء التصوف بسبب ظهور الحركة السنوسية والوهابية في المغرب ومساندة الحكم لهما. وقد نتج عن ذلك زيادة ملحوظة في كتب التراجم على كتب التـــاريخ. وقـــد مثـــل الحركة المضادة للتصوف عدد من العلماء الذين ألفوا كتباً في هذا الشأن لعل مـــن أولهم ابن عبد السلام الناصري ومحمد بن عبد الكريم المغيلي. كما ظهر في هـــذا العصر الرحالة العياشي مؤلف الرحلة العياشية المشهورة. وتأســـست أول مطبعـــة حجرية بفاس سنة 1285هـ/ 1867م في عهد محمد بن عبد الله واهتمـــت بنـــشر التراث العربي الإسلامي. ومع نهايات القرن التاسع عشر الميلادي بدأت النهـــضة المغربية الحديثة وكانت أسسها على غرار حركة الإصلاح والنهضة في المـــشرق وهدفها بعث الإسلام وتجديده.

ولعلنا نشير في الختام بأن البنية الشريفية في المغرب الأقصى كونت ســـلطنة مستقلة عن السيادة العثمانية، تماماً مثلما كانت سلطنة مسقط المعاصرة لها. ومـــن هنا وجدوا المجال مفتوح أمامهم لتطوير مؤسساتهم الـــسياسية وغيرهـــا تطـــويراً مستقلاً عن أية سلطة مركزية خارج إقليمهم.

الهوامش

(1) الطبري: تاريخ، (الطبهة الحسينية)، جـ 11، ص 76.

(2) المسعودي: مروج، جـ 4، ص 134.

(3) الطبري: تاريخ، جـ11، ص 82.

(4) المصدر نفسه.

(5) المقريزي: الخطط، جـ1، ص 319- الخطيب، تاريخ بغداد، جـ2، ص 48-85.

(6) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 11، ص 14.

(7) الطبري: تاريخ، جـ11، ص 160 فما بعد.

(8) المسعودي: مروج الذهب، جـ4، ص 178.

(9) الطبري، تاريخ، جـ 11، ص 194.

(10) المسعودي، مروج الذهب، جـ4، ص 120 يقول اليعقوبي عن المهتدي: "وجلس للمظالم ووقع بخطه وقرب الفقهاء وكان يقول: يا بني هاشم دعوني حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز، فأكون عليكم مثله في بني أمية، وتقلل في اللباس والفراش". انظر: اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص 64.

(11) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ 11، ص 21- قارن: الطبري، تاريخ، جـ11، ص 194.

(12) الطبري: تاريخ، جـ11، ص 171.

(13) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، الشارقة، 1983، ص 15.

(14) محمد صالح القزاز: الحياة السياسية في العراق، ص 82 فما بعد.

(15) فاروق عمر: الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، ص 69.

(16) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، القاهرة، 1970، جـ1، ص 448.

(17) القلقشندي: صبح الأعشى، طبعة دار الكتب المصري، جـ10، ص 112 فما بعد. - المقريزي، لسلوك جـ1، ص 452.

(18) المقريزي: الخطط، بولاق، 1370هـ، جـ2 ص 302. - المؤلف نفسه، السلوك، جـ1، ص 447.

(19) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، 1387هـ، جـ2، ص 61.

(20) المقريزي: السلوك، جـ1، ص 477 فما بعد. - ابن خلدون، العبر، جـ3، ص 541.

(21) المقريزي: السلوك، جـ4، ص 325.- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، 1972م جـ3، ص 151.

(22) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ 2، ص 92.

(23) راجع: أخبار الأئمة الزيدية في طبرستان، نصوص تاريخية جمعها ق. ماديلونغ، بيروت، 1987. - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، أحداث سنة 250هـ فصاعداً. - عبد الله الحبشي، مصادر التراث الإسلامي في اليمن، صنعاء، د. ت. أحمد محمود صبحي، الزيدية، القاهرة، عباس محمد زيد، تراجم أهل البيت الزيدية، جامعة آل البيت 1997.

(24) الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص 463 فما بعد. - الطبري، تاريخ، جـ1، ص450، طبعة القاهرة، 1949. - عباس زيد، تراجم أئمة الزيدية، ص 18. - أخبار الأئمة الزيدية... نصوص تاريخية، ص 36 فما بعد.

(25) راجع: (2) E.I. مادة Atrush. - عبد الله الحبشي، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، صنعاء، د. ت.- عصام عبد الرؤوف، الدول الإسلامية المستقلة، القاهرة، 1987.

(26) عباس زيد: تراجم، ص 104 فما بعد.

(27) حول التفاصيل راجع: Bosworth, the Islamic dynasties, pp. 71- 73 E.I.(1), zaidiya- E.I.(1) sanc,a أحمد محمود صبحي، الزيدية، 174 فما بعد. – عباس زيد، تراجم، ص 104-106.

(28) انظر: ناصري خسرو، سفرنامة، مترجم، القاهرة، 1945.- ابن حزم جمهرة أنساب العرب، القاهرة، 1971. a. Askar, history of the banu al-ukhagdhir.., pp. 1-22.

نزار عبد اللطيف، إمارة بنو الاخيضر... مجلة كلية الآداب، جـ2، بغداد، 1977. – عبد الله الشبل. الدولة الخضرية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام، الرياض، 1976. E.I. (2) ukhaydhir, khdir. – عبد الله بن خميس، تاريخ اليمامة، الرياض، 1990. – حمد الجاسر، جمهرة أنساب العصور المتأخرة في نجد، الرياض، 1981.

(29) E.I(2),Sharifs– محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجة، القاهرة، 1976م ص21–الفاسي، شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام، القاهرة، 1956، جـ2، ص190– الجزيري، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، القاهرة، 1384هـ، ص244– لمزيد من التفاصيل راجع، De Gaury, Rulers of Mecca, Lonon, 1951– سيار الجمل، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، عمان 1997(لفصل السادس)– محمد سليمان عبد الغني مالكي، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية، الرياض، 1983، ص30– ريشارد مونتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الرياض المملكة العربية السعودية،1985.

(30) الفاسي، المصدر السابق جـ2، ص189– مالكي، المرجع السابق، ص29.

(31) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، 1971، جـ4، ص100– مالكي المرجع السابق ص22.

(32) سليمان خرابشة، ثورة شريف مكة أبو الفتوح، أبحاث اليرموك، م 10، 1994م

(33) الفاسي المصدر السابق، جـ2، ص196– محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، 28.

(34) راجع مثلاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1967، جـ10، ص251.

(35) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة، 1977، جـ 1، ص237- جميل حرب الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، الرياض، 1985، ص25 فما بعد- حسنين ربيع، البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ندوة تاريخ البحر الأحمر، جامعة عين شمس، 1979م، ص2 فما بعد.

(36) جميل حسين، المرجع السابق، ص87 فما بعد- محمد مالكي، بلاد الحجاز، ص44 فما بعد .

(37) عن إمارة الادارسة بالمغرب الأقصى، راجع:

(38) من المصادر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، جـ1، ص5، فما بعد. الناصري السلاوي، الاستقصاء لأخبار دول الغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954، جـ 1، ص 71 فما بعد. ابن الخطيب الغرناطي، تاريخ المغرب العربي (أعمال الأعلام)، الدار البيضاء، 1964، ص 54 فما بعد. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، د.ت.

(39) المراجع الحديثة: سعدون نصر الله، دولة الادارسة في المغرب، بيروت، 1987. - حسن إبراهيم حسن، تاريخ، جـ 2، 181، 315، جـ 169. E.I. (2) Idriseds
h. terrasse, histoire du maroc, vol. l, pp. 107- 128. -

(40) نقلاً عن عبد الهادي التازي، جامع القرويين، المجلد الأول، دار الكتاب اللبناني. E.t(2) Fas .

(41) عن الفاطميين، راجع: تفاصيل عن المصادر في كتاب محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية، القاهرة، 1931.

(42) ومن المراجع الحديثة: محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، 1976، ص 23 فما بعد، فاروق عمر فوزي، العصور العباسية المتأخرة، الشارقة، 1983، ص 171-176، الموسوعة الفلسطينية، محمد علي عثمان، تاريخ الجامع الأزهر، القاهرة، 1958 E.I.(2) Al-Azhar محمد سالم العوفي، العلاقات السياسية بين العباسيين والفاطميين في العصر السلجوقي، جدة، 1982. عبد العزيز الشناوي، الأزهر جامع وجامعة، القاهرة، 1983.

(43) ابن الجوزي، المنتظم جـ7، ص 255. – قارن المقريزي، اتعاظ، ص 58. وكذلك ابن خلدون، العبر اللذين يؤكدان صحة النسب العلوي للفاطميين.

(44) هودسون، نظام الحشيشية، 1925(بالانجليزية). برناردلويس، الحشيشية، متـرجم، بيروت.

(45) عن الأشراف السعديين، راجع: عبد السلام بن الطيب القادري، الدارلسني في بـدء من بفاس من النسب الحسني.

(46) e.i..(1), sa'dians, vol. VII; shurafa, a. cour, lētablissment des dynasties des cherifs au marioc paris. 1904.

(47) عبد الله كنون، النبوغ المغربـي، بيـروت، 1975، جـ1، ص 243– 276. – الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء، 1986، 290 فمـا بعد.

(48) عن الأشراف العلويين الفيلاليين في المغرب، راجع:

(49) Levi provencal, le historiens des chorfa, paris, 1923-. E.I.(2), alawis.

(50) عبد السلام بن الطيب القادري، مطالع الإشراق في الشرفا الواردين من العراق، د. ت. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في تاريخ فاس، مطبعة سلا، د. ت. محمد بـن الحارث الخشني، طبقات علماء إفريقيا، الجزائر، 1914. عبد الله كنون، المرجـع السابق، جـ1، ص 279– 327. الحسن السائح، المرجع السابق، الدار البيـضاء، 1986، ص 361 فما بعد.

الفصل الخامس

نشاطات بني هاشم في مجالات الحياة العامة في النقابات والمذاهب والطرق الصوفية والأصناف والأنشطة العلمية والاجتماعية

"قال المزني: قيل للشافعي، كيف شهوتك للعلم؟

قال: اسمع بالحرف مما لم اسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثلما تتنعم أذناي.

قيل له: فكيف حرصك عليه؟

قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته من المال.

قيل له: فكيف طلبك له؟

قال:طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره"

النعمة، الروائع، ص 58 فما بعد.

نقابة الأشراف

وهي مؤسسة اجتماعية ظهرت في العصر العباسي تهـتم بـأمور الأشـراف ورعايتهم والمطالبة بحقوقهم وتذكيرهم بواجباتهم، ويمكن عدها منصباً شبه رسمي لأن الخليفة العباسي هو الذي يعين نقيب الأشراف بعد أن يستشير كبار آل البيـت من بني هاشم.

والأشراف في المعنى الاصطلاحي يرمز إلى فئة اجتماعية محددة تعني أولئك الذين ينتسبون إلى آل بيت النبي ﷺ. ويقول السيوطي أن اسم الشريف في المجتمع الإسلامي أطلق: "على كل من كان من أهل البيت سواء كان حسنياً أو حـسينياً أم علوياً من ذرية محمد بن الحنفية وغيره من أولاد علي بن أبي طالب، أم جعفرياً أم عقيلياً أم عباسياً... فما ولي الفاطميون الخلافة بمصر قصروا اسم الشريف علـى ذرية الحسن والحسين.."[1].

أما المعنى اللغوي لمصطلح الشريف فإنه يدل على معان كثيرة قبل الإسـلام وبعده، منها: العلو ورفعة المنزلة، ومن هنا كان الشرف يدل على السيادة والسؤدد كما في رواية ".. وبيت تميم في بني حنظلة"[2]. وفي رواية أخرى عن فخـذ مـن قبيلة معينة ".. وفيهم البيت والشرف". وكان لكل قبيلة أشرافها "بيوتـات العـرب، وللنصارى إشرافها واليهود أشرافها والمجوس أشرافها. ومن هنـا جـاء القـول: "الشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم". وفي هذا المعنى يرد قول سـادة قريش من المشركين للرسول ﷺ: "... وان كنت إنما تطلب الشرف فينا سـودناك علينا"[3].

والغالب أن مفهوم الشرف استند على النسب النقي. فالشريف هـو الـشخص الذي ينتمي إلى "آباء متقدمون في الشرف"[4].

وحين جاء الإسلام وضع أسساً جديدة تستند على الدين بدل النسب والعـصبية وفي الآية القرآنية قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ

لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وسئل رسول الله ﷺ من أكرم الناس؟ قال أتقاكم. فقالوا ليس عن هذا نسألك. قال: فعن معادن العرب تسألون؟ خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"(6).

ويقول واصل بن عطاء: نسبي الإسلام(7). ومن هنا يرى بعض المفكرين المسلمين بأن الشرف لا يستند على صفاء النسب. يقول البيهقي(8):

"قال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنسب إلا ترى أن اخوين لأب وأم يكون احدهما أشرف من الآخر، ولو كان ذلك من قبل النسب لما كان لأحد منهما على الآخر فضل لأن نسبهما واحد، ولكن ذلك من قبل الأفعال، لأن الشرف إنما هو فيه لا في النسب".

وفي المعنى نفسه يقول ابن قتيبة(9):

"فذو الهمة تسمو به نفسه إلى معالي الأمور... ويحوز الشرف لنفسه ولذريته. إن أولى الأمر بالمرء خصاله في نفسه، فإن كان شريفاً في نفسه وآباؤه لئام لم يضره ذلك. وكان الشرف أولى به، وان كان لئيماً في نفسه وآباؤه كرام لم ينفعه ذلك".

وقد ظل المجتمع العربي الإسلامي في تقاليده وأعرافه يفخر بالشرف المستند على النسب، وظل النسابة والأدباء والشعراء يفتخرون بالأنساب. وقد كرم عمر بن الخطاب زوجات الرسول ﷺ وأهل بيته وذلك بتمييزهم في العطاء على غيرهم. واستمر مصطلح "الشرف" في العصر الأموي ليدل على السؤدد والرفعة فهذا زياد بن أبيه يكتب إلى معاوية بن أبي سفيان واصفاً الأحنف بن قيس:

"إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل"(10). ولعل من أبرز كتب التاريخ في القرن الثالث الهجري/ الثامن الميلادي كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري وهو كتاب قيم يتناول التاريخ في إطار النسب. ولكن مصطلح "الشريف" في الإسلام تغير عما كان عليه قبل الإسلام فإذا كان أشراف الجاهلية هم كرام المنبت وأهل البيت (المعبد) والسؤدد والزعامة فإن

"الأشراف" في الإسلام هم أهل بيت رسول الله ﷺ وقد تبلور هذا المعنى خلال العصر العباسي.

لقد أشارت مصادرنا التاريخية المتنوعة إلى الأشراف في العصر العباسي، فقد كانت لهم نقابة خاصة بهم تسمى "نقابة الأشراف" لها نظامها وأحكامها. وكانت تضم في مطالع العصر العباسي العباسيين والطالبيين (العلويين والجعفريين والعقيليين). ومعنى ذلك أن الفرعين العباسي والطالبي كانوا ينتظمون في نقابة واحدة يترأسها نقيب واحد، وبقيت كذلك حتى بدايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حيث أصبح لكل فئة نقيب. فكان هناك نقيب الهاشميين (أي العباسيين) الذين احتكروا اللقب لهم وحدهم. ونقيب الطالبيين، وقد ساعد وجود الأمراء البويهيين في بغداد منذ سنة 334هـ/ 946م على فصل الطالبيين عن العباسيين.

ونقابة الأشراف كما وصفها الماوردي[11] أنها مؤسسة "موضوعة على صيانة ذوي الأنساب الشريفة عن ولاية من لا يكافئهم في النسب، ولا يساويهم في الشرف ليكون عليهم أحبى وأمره فيهم أمضى". ومن الواجبات المنوطة بالنقيب: تولي الأشراف وضبط أنسابهم وتسجيل مواليدهم ووفياتهم في السجل (الجريدة) وتنزيههم عن المكاسب الدنيئة ومنعهم من ارتكاب المآثم والمطالبة بحقوقهم ودعوتهم إلى أداء الحقوق، ومنع النساء من الزواج من غير الأكفاء وما أشبه ذلك من التكفل بأمر اليتامى والنظر في أمر الأيامى (الصبايا)[12].

وتتبع سلطة النقيب طبيعة ولايته، فهي أما عامة وتشمل كل الصلاحيات المعنوية والتنفيذية، أو خاصة فله مجرد الأشراف والرعاية[13]. وكان لكل نقيب نائب وعدد من الموظفين (الكتّاب) وعامل يهتم بنظافة الديوان وخدمة الكادر الإداري فيها.

وكان لا بد أن تتوفر شروط محددة في النقيب لكي يختاره الخليفة لنقابة الأشراف، كان من أهمها إحاطته بأخبار العرب وأنسابهم ومعرفته بالشريعة وأنه من أهل التقوى والاجتهاد والعلم، إضافة إلى انتمائه إلى بني هاشم بطبيعة الحال.

وكان هناك نقابة في كل مدينة كبيرة مثل الري وغزة والموصل والقاهرة ودمشق قد أوجد على نمط "قاضي القضاة" لينسق أعمال النقباء في المدن وخاصة بعد أن انقسمت النقابة إلى النقابتين الهاشميين والطالبيين وكان للمشاهد التي تحوي قبور الهاشميين نقباء.

أما تشريف النقيب أو تعيينه في بغداد فكان يتم وفق مراسيم معينة يحضرها كبار رجالات الدولة حيث يقرأ عهده الوزير يحيط به الأشراف. وكانت المراسيم تجري في دار الوزارة ثم يخرج وعليه الخلعة التي أهداها له الخليفة عائداً إلى منزله[14].

ويمكن أن يسند إلى نقيب الأشراف الطالبيين أو العباسيين في بغداد وظائف أخرى مثل أمير الحج أو صاحب المخزن أو الوزارة أو السفارة حيث ينتدبه الخليفة لاستقبال الرسل والزوار أو يرسلون كسفراء من الديوان الخلافي إلى سلاطين الأطراف. وقد أورد لنا الكازروني في (مقامته في قواعد بغداد) أن الخليفة العباسي كان يشرف على تنظيم موكب الحج من بغداد مدينة السلام عاصمة دار الإسلام، وكان يختار للحجيج كله أميراً هو في العادة من الأشراف الطالبين أو الهاشميين (العباسيين) ويتم اختياره وفق مراسيم وأصول في دار الخلافة بحضور القضاة والأشراف والفقهاء ويخلع عليه الخليفة الخلع السنية ويفوضه بالخطبة وبحماية قوافل الحجيج الذين يجتمعون من مختلف أنحاء المشرق في بغداد. وينصب أمير الحج النقيب في الكعبة لواء الخليفة ويخطب باسمه ويعلق قناديل الفضة والذهب باسمه وكذلك الكسوة والأستار[15].

وعلى غرار الوزارة أصبحت النقابة في العصور العباسية المتأخرة وراثية في أسره معينة لفترة طويلة أو قصيرة مثل ما حدث في عائلة الاقساسي الطالبية وعائلة الزينبي العباسية. ويبدو أن أعداد الأشراف كان كبيراً وكانت تخصص لهم رواتب وجرايات شهرية أو سنوية، وكانت صلاحيات النقيب عامة وخاصة وتتسع

النقابة العامة لتشمل الحكم بين أعضائها المتنازعين ولإقامة الحدود وولاية الأيتام والايامى والحجر على المرضى الخطرين وأهل العاهات والفساد.

ولم تكن العلاقات بين نقابة الأشراف أو بعض أعضائها ودية على الدوام مع الخليفة العباسي، بل أن نقيب الهاشميين وهو عباسي لم يستطع الدفاع عن أفراد نقابته تجاه إجراءات الخلفاء العباسيين ضدهم. فالخلفاء كانوا يمنعون الأمراء العباسيين من الخروج كثيراً من دار الخلافة والاختلاط بالمجتمع وكان الأمراء العباسيون يقيمون في دار الفردوس ودار الشجرة ودار الصخرة بل يصفهم ابن جبير بأنهم معتقلون جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون"[16]. وكان الخليفة يعتقل أعمامه وأبناءهم في دورهم وأحياناً يمنع أولاده من الخروج بكثرة والاختلاط خوفاً من نشاط سياسي ضده أو حذراً من الحركات الدينية – السياسية المعارضة للدولة والتي يمكن أن تكسبهم إلى جانبها.

وكان من أهم مهام نقيب الأشراف تنظيم أعضاء نقابته من أجل البيعة للخليفة الجديد واستمرار الولاء له.

أما (نقيب الطالبيين) في بغداد فكان أشد حذراً في علاقاته مع الخليفة العباسي وقد حدثت مشادة[17] بين الخليفة العباسي القادر بالله ونقيب الطالبيين الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى (والد الشريف الرضي) سنة 394هـ/1003م، فقد تقلد هذا الأخير بأمر من البويهيين نقابة الطالبيين وقاضي القضاة والحج والمظالم فامتنع الخليفة العباسي من تقليده منصب قاضي القضاة. وحدث أن الخليفة القادر نفسه جمع كبار الشيعة والسنة في بغداد وعلى رأسهم الشريف الرضي والشريف المرتضى والشيخ المفيد وأبي حامد الاسفراييني وغيرهم كثير ووقعوا على محضر ضد الفاطميين بمصر يقدح في أنسابهم ويكذّب ادعائهم للنسب الفاطمي وذلك سنة 402هـ/ 1111م. ويعلق ابن الأثير[18] قائلاً بأن الشريف الرضي وقع خوفاً حيث كان نقيباً للطالبيين وأميراً على الحج، لأنه كان يعتقد بصحة نسب الفاطميين حكام مصر آنذاك "فإن الخوف يحمل على أكثر من هذا".

وأعاد الخليفة القادر بالله الكرة سنة 408هـ/ 1017م حينما أصدر[19] محضراً جديداً سمي (بالاعتقاد القادري) لمحاربة التيارات المخالفة للسنة وخاصة الباطنية وذلك بسبب تغلغل الدعاية الإسماعيلية في الأقاليم واتصال الدعاة بأمراء الدويلات الإسلامية واستفحال الفتن المذهبية. وكأنه أراد أن يكرر محاولة المأمون في اتخاذ عقيدة رسمية للدولة وإلزام الناس بها، في الوقت الذي كان الخلفاء العباسيون في مطالع العصر العباسي فوق المذاهب ولا يلزمون الناس أو الفقهاء في الأخذ بمذهب معين. ومهما يكن من أمر فإن نقابة الأشراف بفرعيها العباسي والعلوي (أو الهاشمي والطالبي) لعبت دوراً اجتماعياً وفكرياً مؤثراً وكان لها حضورها في الحياة العامة خلال العصر العباسي. والمعروف تاريخياً أن المغول حين اجتاحوا بغداد سنة 656هـ/ 1258م قتلوا نقيب العباسيين الشريف أبو الحسن علي ونقيب الطالبيين الشريف أبو علي بن المختار مع الخليفة المستعصم وأولاده الأمراء[20].

أما في الحقبة العثمانية فلم تختلف وظيفة نقيب الأشراف أو السادة عما كانت عليه في الحقب السالفة، فقد أبقاها العثمانيون واتخذوها وسيلة للوصل بين الدولة والأشراف الهاشميون الذين يتمتعون بنفوذ ديني وتأثير دنيوي على الناس في البلاد العربية التي أصبحت تحت سلطانهم. كما احتفظ النقباء بصلاحيتهم في إصدار الأحكام على المخالفين من الهاشميين وغيرهم، وتولوا وظائف القضاء والفتوى وشيخ الإسلام إضافة إلى وظائفهم في النقابة.

الطرق الصوفية والأصناف[21]

هناك العديد من الآراء حول اشتقاق اصطلاح الصوفي أو المتصوف، ولكن أكثرها شيوعاً أنها من لبس الصوف دلالة على الزهد والتعبد أو أنها من الصفاء دلالة على التطهر الروحي. وحركة التصوف حركة إسلامية نشأت وترعرعت في البيئة التي ظهر ثم انتشر فيها الإسلام. ولهذا فإن الآراء الاستشراقية التي تشير إلى تأثر حركة التصوف الإسلامية بالديانة المسيحية وما فيها من رهبنة أو بالديانة

المانوية الفارسية وما فيها من زهد وتقشف وانقطاع عن الحياة الدنيا، آراء ضعيفة ليس لها ما يؤيدها.

وقد ظهر هذا الاصطلاح "صوفية" في المجتمع الإسلامي في أواخر القرن الثاني للهجرة الثامن للميلاد ومطالع القرن الثالث الهجري وخاصة بين نفر من المؤمنين الزهاد والمتعبدين في أمصار العراق (الكوفة والبصرة). ولا شك فإن الزهد كان بداية للتصوف ولكن المظهرين يختلف احدهما عن الآخر. فالزهد هو التقشف والانقطاع عن الدنيا عن طريق العبادات والممارسات الدينية المعروفة. فالزاهد هو العابد الذي يهدف إلى تمام العبادة وكمالها على ما وضعه الشارع. أما التصوف فهي حركة تسلك بصاحبيها المتصوف طريق التجربة الروحية باستخدام المجاهدة (أو الرياضة) الروحية وصولاً إلى درجة تتكشف فيها الحقائق العليا. وبمعنى آخر فإنه قد ازداد عمقاً لباطن الشريعة أكثر من ظاهرها.

إن الزهد هو مرحلة أولية لا بد منها من مراحل التصوف. إلا أن الزهد الإسلامي وبالتالي التصوف يختلف عن غيره في الديانات الأخرى التي عرف فيها وجود هاتين الظاهرتين. فالزهد الإسلامي متأثر بالعقيدة الإسلامية حيث كان إعراضاً عن ترف الحياة ولكنه لا ينادى بالكسل وعدم العمل والاعتماد على الصدقات. لذلك ترى الزاهد والمتصوف في الإسلام يعمل لكسب القوت ليعيل نفسه وعائلته ولا يركن إلى الغير في انتظار العطاء أو الرزق. وهذا هو الفرق بين الزاهد عند المسلمين والزاهد في ديانات أخرى.

إن ظروفاً جديدة ظهرت في المجتمع الإسلامي في أواخر عهد الراشدين أدت هذه الظروف إلى اتجاه الناس إلى الزهد ومن ثم التصوف تاركين الحياة العامة فارين من السياسة ومشاكلها. وبمرور الزمن وتعقد الحياة وبروز مظاهر جديدة ظهرت طوائف منها من الزهاد والورعين والوعاظ النساك والقراء وغيره. وكان الزهد في تلك الفترة عاماً يدعو إلى القصد والاعتدال وشمل أصناف وفئات عديدة من المجتمع. وبمعنى آخر كان الزهد وبالتالي التصوف نزعة روحية تتسع لمعظم

المذاهب والفرق من سنية وخارجية وشيعية أمامية أو إسماعيلية ومعتزلية كما كان للتصوف اتجاهاً فلسفياً. على أن للتصوف بعداً سياسياً... فقد كان الملجأ من نزعات القلق والتذمر بسبب الأوضاع السائدة. وقد أكد المستشرقون على البعد السياسي للتصوف وأشاروا إلى إنه تعبير عن معارضة على مستوى السلوك العملي، واعتزالاً يهدف إلى الكشف عن الحقيقة. فقد قال ماسنيون أن التصوف ثورة داخلية (باطنية) تخامر النفس فتثور بصاحبها على المظالم الاجتماعية والسياسية. وقال كولدزيهر أن الميل إلى الزهد كان مرتبطاً أصلاً بالثورة على السلطة. ومن جهة أخرى دعى بعضهم، مندفعين بالحرص على سلامة العقيدة، بالعزلة عن الناس وقطع العلائق. فكان سفيان الثوري (ت 161هـ) يقول:

"عليك بالخمول فإن هذا زمن خمول وعليكم بالعزلة وقلة مخالطة الناس، فقد كان الناس إذا التقوا ينتفع بعضهم ببعض، أما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة تركهم". وأشار داود الطائي والأوزاعي إلى المعنى نفسه.

وفي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أصبحت مراكز التصوف معروفة في المجتمع الإسلامي. وقدم لنا بعض الجغرافيين والمؤرخين والرحالة معلومات لا بأس بها عن الزوايا والربط والخانقاوات التي تجمع فيها المتصوفة ومريدوهم. وكان لهذه المراكز دوراً تاريخياً مهماً وخاصة في بعض الأقاليم الإسلامية مثل المغرب. ومن أهم المواقف للحركة الصوفية في تاريخ الإسلام هو مشاركتهم في الجهاد للدفاع عن الإسلام ودورهم في نشر العلم والتعليم في بقاع عديدة من العالم وخاصة تلك التي كانت جديدة في تقبلها للإسلام. كما كان لها دورها في حل المشاكل الاجتماعية وتحصين المسلم ضد الآفات الأخلاقية والاجتماعية والأخذ بيده للتغلب على مشاكله في الحياة.

وقد وصلت الطرق الصوفية الرئيسية إلى أكثر من عشرة طرق أغلبها معتدلة والقلة متطرفة ويهمنا هنا أن نشير إلى الطرق الصوفية التي ارتبطت بآل البيت وهي: الجيلانية والرفاعية والبدوية.

عبد القادر الجيلاني والطريقة الجيلانية (أو القادرية)

محي الدين عبد القادر بن أبي صالح جنكي دوست ينتمي إلى الفرع الحسني من جهة أبيه حيث يتصل نسبه بموسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله المحض بن الحسن بن علي بن أبي طالب. أما أمه فهي فاطمة بنت عبد الله الحسيني فهو من هذا الباب حسني الأب وحسيني الأم[22].

جاء عبد القادر إلى بغداد للدراسة وكان عمره ثمانية عشر عاماً وظل فيها يعمل وينشط حتى وفاته. وبالإضافة إلى طريقته الصوفية المعروفة باسمه فقد كان عالماً من علماء الكلام عل المذهب الحنبلي وداعية إسلامياً وصوفياً بارزاً. توفي سنة 561هـ/ 1166م ودفن بمدرسته في بغداد بباب الأزج ولم يبق أحد إلا شهد دفنه.

إن أغلب المصادر التي تبحث في سيرته الذاتية والعلمية أسطورية ومبالغ فيها غالباً، ولذلك لا بد من الحذر ومقارنة الروايات قبل قبول الأخبار عن الجيلاني وطريقته.

أخذ عبد القادر الجيلاني التصوف من العالم البغدادي الشهير أبي سعيد المخرمي حيث لبس "خرقة التصوف"، ولكن نشاطاته كانت متشعبة فنشط في الدعوة خلال العقود الأولى من القرن السادس الهجري، كما برع في الإفتاء والتفسير والحديث والفقه. وذاعت شهرته في الأقاليم الإسلامية القريبة والبعيدة وكان أسلوبه في الإقناع قد أدخل العديد من غير المسلمين في الإسلام.

إن الدعم الكبير الذي يتلقاه الجيلاني من المريديين والمعجبين به جعله مستقلاً من الناحية المادية وأعطاه مجالاً للنشاط الفكري دون الحاجة إلى العمل من أجل الكسب والعيش. كما تمكن من توسيع رباطه في بغداد وزاد فيه "المضيف" الذي كان مفتوحاً لتلاميذه وغيرهم من طلاب العلم. ويسمى اليوم (بيت الخير). وقد استمرت مدرسته وطريقته بعد وفاته تدار من قبل ابنه عبد الوهاب وذلك من خلال الأوقاف (الأحباس) التي أوقفت لها.

لقد عاش عبد القادر الجيلاني في عصر انتعش فيه التصوف وبرز مثلاً أعلى للمؤمنين الصالحين وكتب العديد من الكتب في الدعوة والإفتاء والتصوف ولا زال ضريحه مكاناً للرياضة النفسية والتأمل الديني وموئلاً للدراسة. ومن كتبه المعروفة: الغنية، فتوح الغيب، الفتح الرباني والفيض الرحماني.

واستمرت مدرسة الجيلاني تدار من قبل ذريته من أبنائه وأحفاده وكان الانتساب إلى طريقته وفق شروط وضوابط معينة. وعدا هذا وذاك كان الشيخ وأولاده يتدخلون في الوساطة أثناء وقوع الفتن وكان أولاده من بعده يتولون أحياناً النظر في الأوقاف أو كسوة الكعبة.

أحمد الرفاعي والطريقة الرفاعية

أبو العباس أحمد بن أبي الحسن على ينتسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب،توفي سنة 576هـ/ 1182م.

كانت ولادته في قرية من قرى واسط بالعراق، ويعرف بالرفاعي نسبة إلى أحد أجداده وكذلك يعرف بالبطائحي نسبة إلى البطائح أو البطيحة وهي المنطقة المحصورة بين واسط والبصرة في جنوبي العراق.

انتشرت الطريقة الرفاعية في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولا يكاد مكان يخلو من مريديه. ومن أسس طريقته:

1. الالتزام بأحكام الله وتعظيمه وعدم الاعتقاد بوجود وسيط بينه وبين خلقه. فالله غيور ولا يحب أن يدخل أحد بينه وبين عباده. أما وظيفة المشايخ أصحاب الطرق فهم أدلاء إلى الطريق إلى الله.
2. صحة الاعتقاد والعمل بأوامر الله ونواهيه.
3. ذكر الله ذكراً كثيراً ومحبة الرسول ﷺ وكثرة الصلاة عليه.

وكانت علاقته طيبة بالدولة العباسية التي خلعت عليه وعلى أعقابه الألقاب التشريفية.

ولقد كان للطريقتين الجيلانية والرفاعية الأثر الاجتماعي الواضح على مجتمع العصر، ذلك أن ظاهرة التصوف في جانب من جوانبها كانت تمثل ردة فعل على القلق النفسي والتذمر الاقتصادي والتفاوت الطبقي واللهو والمجون والضعف السياسي والإداري. وقد تبدأ هذه الثورة من الداخل أي من النفس فيبدأ الشخص بجهاد نفسه وإصلاح خطاياه أولاً.

أحمد البدوي والطريقة البدوية[24]

أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي يرجع نسبه إلى العلويين من آل الحسين ﷺ. ولد بمدينة فاس بالمغرب سنة 596هـ/ 1199م بعد أن انتقل أجداده من المشرق إلى المغرب في القرن الأول الهجري. وقد ظهرت ميوله إلى الزهد والتصوف في فترة مبكرة من حياته ولازم الشيخ عبد الجليل النيسابوري ولبس لباس الفرقة، وبدأ بدراسة التفسير والفقه.

وصل أحمد البدوي مع عائلته سنة 603هـ/ 1206م إلى مكة وفي طريقهم مروا بمصر حيث عاشوا فيها ثلاث سنوات ثم استقروا في مكة. وبعد مدة ليست قصيرة قرر أحمد البدوي السفر إلى العراق وتم له ذلك سنة 634هـ/ 1236م حيث زار المراكز الصوفية وخاصة الرفاعية منها. كما زار مقام الشيخ عبد القادر الجيلاني في بغداد. ثم عاد البدوي إلى مكة بعد سنة من مكوثه بالعراق ثم غادرها في السنة نفسها إلى مصر، حيث استقر في طنطا حتى وفاته سنة 675هـ/ 1276م.

وفي طنطا بمصر اتسعت شهرته والتف حوله الناس وعرفت طريقته بالبدوية ونمت في عهد الأيوبيين بمصر ووضع لطريقته منهجاً يستند على مراعاة أوامر الله تعالى وتعاليمه والتمسك بسنة النبي ﷺ وأن يترك شهوات الدنيا ومغرياتها وأن يتواضع في علاقاته مع الناس. وقد تأثرت طريقته بالطريقة الرفاعية وخاصة في حلقاتها التدريسية ومنهجها وكانت الحلقات تتم في الهواء الطلق وفوق السطوح وذلك سميت الطريقة باسم آخر هو "السطوحية". وكما هو شأن الطرق الصوفية في الربط والزوايا في المغرب فإن الطريقة البدوية اهتمت كذلك بتدريب مريديها تدريباً

عسكرياً خاصة وان الخطر الصليبي كان يهدد مصر المملوكية في هذه الفترة وقد شارك أتباع الطريقة البدوية في الدفاع عن مصر.

تفرعت الطريقة البدوية بعد وفاة زعيمها إلى العديد من الفرق انتشرت في أنحاء العالم الإسلامي، ولم يترك أحمد البدوي مؤلفات مكتوبة بل له مجموعة من الوصايا والأدعية والصلوات والمواعظ وجهها في حياته إلى تلاميذه.

أما الأصناف فلا بد من الإشارة إلى ظاهرة وهي أنه مثلما ادعت بعض الفرق الاسلامية إن روادها الفكريين وزعماءها هم من رجالات الإسلام الأوائل وصحابة رسول الله ﷺ، فقد ادعت بعض الأصناف والطرق الصوفية ومنظمات الفتيان ارتباطها بزعماء من بني هاشم مثل: الإمام علي بن أبي طالب ﷺ والحسن والحسين وجعفر الصادق وغيرهم.

عد سلمان الفارسي وهو من الصحابة شيخ الأصناف في الإسلام فقد شدّه الإمام علي بن أبي طالب، واسند إليه شد عدداً من الصحابة هم المؤسسون للأصناف الإسلامية. وتعود أهمية سلمان بالنسبة إلى الأصناف إلى حديث الرسول ﷺ فيه: "سلمان من أهل البيت". أما عملية الشد فهي مراسيم انتماء الفرد إلى الصنف حيث يبدأ الشد بعد أن يتأكد النقيب من حصول الفرد على العهد، ويكون الشد حول الوسط أو الرأس أو الكتف. ومن جملة مراسيم الشد شد عقدة الإمام علي ثم شد عقدتين آخرتين للحسن والحسين[25].

وقد شاركت الطرق الصوفية وتنظيم الفتوة الأصناف بالمراسيم المرتبطة بآل البيت. فقد كان للفتوة احترام كبير لذكرى الإمام علي ﷺ وعد المثل الأعلى للفتوة ومن شعاراتهم "لا فتى إلا علي". وقد حاول الفتيان تقصي جذور تنظيمهم بنسبته إلى الأنبياء الواحد بعد الآخر حتى النبي محمد ﷺ وهو (أفتى الفتيان) ثم علي بن أبي طالب. ثم سلمان الفارسي حتى تصل إلي الخليفة العباسي الناصر لدين الله مؤسس (الفتوة الناصرية) في العصر العباسي.

نشاطات علمية ومهنية واجتماعية لبني هاشم

توزعت شخصيات بني هاشم من آل البيت في أقاليم العالم الإسلامي، ومن الطبيعي أن نسبة منهم بقيت في الحجاز وخاصة من العلويين في مكة والمدينة. وكانت فئة منهم في المغرب وفي اليمن وكذلك في مصر في العهد الفاطمي. على أن الغالبية الكبيرة من آل البيت وخاصة العباسيين وبعض العلويين استقرت في العراق في العصر العباسي وخاصة في بغداد وسامراء والكوفة والبصرة والموصل كما انتشرت أسر أخرى في المشرق الإسلامي ومدنه المختلفة لأسباب عديدة خلال القرون الإسلامية وخاصة في الفترة العباسية وما بعدها.

وإذا كان العباسيون في العراق، والزيدية في اليمن، والأشراف في الحجاز، قد تقلدوا السلطة السياسية في المشرق الإسلامي، والادارسة والفاطميون والفيلاليون (العلويون) والسعديون قد تقلدوا السلطة في المغرب الإسلامي وبرزت منهم شخصيات عديدة من ميدان السياسة والإدارة والحرب، فإن نسبة كبيرة أخرى من آل البيت تميزت عبر العهود الإسلامية المتتابعة في ميدان الفكر والعلوم والتصوف وغيرها من أنشطة الحياة العامة منتشرين في مدن عديدة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

لقد استطاع الخلفاء العباسيون والفاطميون والادارسة وكذلك حكام الكيانات السياسية الأخرى التي أقامها بنو هاشم أن يحفظوا وحدة البيت الحاكم بصورة عامة – رغم وجود تنافس قد يصل إلى حد الثورة أو حبك المؤامرات السرية ضد الخليفة الحاكم من قبل أمراء طموحين داخل الأسرة الحاكمة – ولكن الأسرة الحاكمة كانت غالباً ما تتحد أمام الأزمات السياسية التي تهدد حكمها بالزوال.

والواقع أن الخليفة العباسي أو الفاطمي اعتمد في مطالع الدولة على شخصيات من الأسرة الحاكمة في السياسة والإدارة الجيش وبرز منهم أفراد اثبتوا جدارتهم واستقامتهم وإخلاصهم كما يشير إلى ذلك عبد الله بن المقفع في رسالته الموسومة (رسالة في الصحابة) ويقصد بهم صحابة الخليفة وخاصته[26]. وأكد الجاحظ أن

رجال آل البيت من العباسيين كانوا في الصدارة من حيث المسؤولية الإدارية والعسكرية حين قال:

"... ولا لقي تلك الحروب في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم"[27].

وقد أوصى الخليفة أبو جعفر المنصور ابنه المهدي بضرورة الاهتمام بهم قائلاً:

"وأوصيك بأهل البيت أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم... وتوليهم المنابر فإن عزّك عزهم"[28].

ولم يبق للخلفاء والأمراء من الأسرة الحاكمة دور ملحوظ في فترات انهيار الخلافة العباسية أو الفاطمية، بل غدا الأمر والنهي بيد المتسلطين من القادة العسكريين أو أمراء الأطراف أو الوزراء في الدولة الفاطمية، ولعل ذلك كان أحد عوامل بقائهم في السلطة فترة أطول. ولا يعني هذا انعدام ظهور خليفة قوي أو كفؤ، بل إن بعض الخلفاء العباسيين كانوا "من أهل الستر والديانة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات"[29] فقد كان القادر العباسي يقسم الطعام الذي يهيأ لإفطاره بين جامعين وكان يتخفى ويغير زيه ليخرج ويتعرف على أحوال رعيته، بل أنه كان عالماً صنف كتاباً في الأصول على مذهب أصحاب الحديث، كان يقرأ في الحلقات كل جمعة في جامع المهدي بمدينة السلام (بغداد). وكذلك فعل الناصر لدين الله العباسي أما الخليفة الفاطمي العزيز (ت 386هـ/ 996م) فقد ضرب مثلاً ملحوظاً في الفروسية في تعامله مع أعدائه والمتمردين الذين ناهضوا حكمه.

كان الأمراء (الأشراف) من بني هاشم يأخذون راتباً من الدولة (العطاء) لأن الصدقة محرمة عليهم. وكان لهم قضاء مستقل يتولاه نقيبهم الذي يعينه الخليفة. ولم يكن منصب النقيب محدداً في العاصمة وحدها، بل كان في كل المدن المهمة. ويعتبر النقيب من وجوه القوم وكبار رجال أهل البيت. ومن واجبات نقيب العلويين

أو الطالبيين ونقيب الهاشميين (العباسيين) أن يحكم في بعض قضايا النزاع بين الأشراف وسائر الرعية[30].

وإذا كان عدد الأمراء العباسيين في عهد المأمون سنة 209هـ/ 824م قد بلغ ثلاثة وثلاثين ألفاً، بينما كان الطالبيون على رأي الجاحظ حوالي ألفين وثلاثمائة شخص. فإن عدد آل البيت بدأ يتناقص في بغداد لسوء الأحوال السياسية والأوضاع الاقتصادية حيث انتشروا في البلدان طلباً للرزق والمعونة فنقص عدد العباسيين في الحضرة (دار الخلافة) إلى أربعة آلاف شخص. كما وإن عطاؤهم كان قد نقص بالفعل من دينار واحد شهرياً في عهد المعتمد (ت 279هـ/ 892م) إلى ربع دينار في عهد خليفة المعتضد مما دعاهم إلى ترك بغداد غير آسفين على ذلك. ولعل ذلك دلالة على أحوال الخلافة المتردية في عهد سيطرة الترك ثم البويهيين على الدولة حيث حاصروا مؤسسة الخلافة وسلبوها كل سلطاتها وأصبح للخليفة راتب محدد وبعض الضياع التي تدر عليه موارد معينة يديرها كاتبه. أما الأمير البويهي فكان له وزير يدير معه شؤون الدولة[31].

كان الأمراء من أولاد الخلفاء يلقبون بأسماء أجدادهم من الخلفاء السابقين مثل أبي طالب المأموني وأبي محمد الواثقي، وقد حاول بعضهم الوصول إلى الحكم والاستيلاء على السلطة. إلا أن غالبيتهم في هذه الفترة تطلع إلى بعض الأعمال الحكومية ذات الجاه والشرف مثل القضاء أو ديوان البريد أو إمامة المساجد الكبيرة المعروفة مثل جامع المنصور ببغداد وهو أكبر جامع في الدولة آنذاك أو جامع المهدي أو جامع عمرو بن العاص في الفسطاط. وكان أبو محمد الواثقي خطيباً في المسجد الجامع بنصيبين.

أما منصب إمارة الحج فكانت لا تخرج من يد بني هاشم من آل البيت (سواء عباسيين أو علويين) وكانت الصلات والمبرات تصل إلى بني هاشم من الأمراء والوزراء، فكان ابن طولون بمصر يصرف لكل شريف طالبي مائتي دينار سنوياً، أما الوزير علي بن عيسى آل الجراح فقد خصص أربعين ألف درهم

لصلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين. ووصل الخليفة المطيع العباسيين والعلويين بأكثر من ثلاثي ألف درهم[32].

ولم تكن عطاءات بني هاشم ورواتبهم منتظمة بل كانت تتأخر أحياناً مما يؤدي إلى وثوبهم وإثارتهم للقلاقل كما حدث سنة 306هـ/ 918م مع الوزير علي بن عيسى آل الجرح. ولعل قلة جاري بني هاشم من الراتب شهرياً قد دفعهم إلى احتراف مختلف الأعمال والمصالح خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده. وفي رواية عن كافور الإخشيدي حاكم مصر أنه اغتاظ على أحد حاشيته الذي دفع امرأة في الطريق كانت تتسول وأمر بقطع يده، فقامت المرأة تشفع له. فتعجب من موقفها وسأل عن أصلها فإذا بها علوية النسب، فقال كافور: "قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف"[33].

إلا أن الأمور لما تبق على ما كانت عليه من التردي فيما يتعلق بالخليفة، فقد ظهر في العصور العباسية المتأخرة خلفاء أقوياء أمثال الناصر لدين الله العباسي (575هـ/ 1179م- 622هـ/ 1225م) الذي كان بصيراً بالأمور مولعاً بالتعرف على أحوال الرعية حيث يخرج ليلاً في دروب بغداد ليعرف أخبارها. وكذلك كان الظاهر والمستنصر اللذان خلفاه في الحكم. وقد عادت أملاك الخلفاء لهم من أموال واقطاعات واسعة. ويبدو من روايات تاريخية أنه احترق في دار الخلافة ببغداد 601هـ/ 1204م أكثر من ثلاثة ألف ألف دينار مما يدل على ثروة نقدية طائلة بالإضافة إلى الثروة العينية[34].

ومن الجدير بالذكر أن السياسات الجديدة التي اتبعها الخليفة العباسي تجاه الأسرة العباسية والتي بدت واضحة في القرن السادس الهجري وما بعده، كانت تهدف إلى منع الأمراء من بني هاشم من الاختلاط بالمجتمع والمشاركة في نشاطات الحياة العامة، لأن الأمراء العباسيين وكما يروي ابن جبير "معتقلون اعتقالاً جميلاً لا يخرجون ولا يظهرون"[35] وكان مكان سكناهم في قصور بدار

الخلافة مثل دار الشجرة ودار الفردوس ودار الصخرة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً وكان أعمام

الخليفة وأبنائهم من الذين تركز عليهم الرقابة والحجز بصفة خاصة. وكانت البيعة للخليفة الجديد من أهم واجبات الأسرة الحاكمة، ومن هنا تأتي أهمية تجميعهم في قصور خاصة ضمن دار الخلافة. وفي رواية تاريخية تشير إلى أن باب قصر الفردوس أغلق بأمر من الخليفة الجديد المستعصم بالله حين رفض الأمراء البيعة له فلم يدخل عليهم طعام ولا شراب لمدة ثلاثة أيام فلما اشتدت بهم الحال قاموا وبايعوا(36). وتدل هذه الرواية أن أمراء الأسرة الحاكمة ظلوا مقيدين ينتظرون هبات الخلفاء لهم وهي مورد رزقهم الرئيسي. فقد وزع المستنصر بالله ألف دينار على الأشراف المقيمين بدار الشجرة سنة 633هـ/ 1235م، وكذلك فعل المستعصم مع أعمامه وأولادهم سنة 641هـ/ 1243م. وفي المقابل كانت زوجات الخلفاء في هذه الفترة منصرفات إلى أعمال الخير والبر والإحسان واوقفن الوقوف للمدارس والربط وشيدن القناطر والجسور وغيرها(37).

على أن الذي يهمنا في هذا الفصل ليس أرباب السياسة والإدارة والحرب من الشخصيات الهاشمية بل أهل الفكر والقلم والعلم والمهن من غير المتقدمين. ومن أجل الوصول إلى تصور أقرب ما يكون إلى الوضوح اعتمدنا نماذج من كتب التراجم ابتداءاً بمحمد بن سعد (ت 230هـ/ 844م) في طبقاته حيث يذكر من جملة من يذكر أبرز شخصيات إل البيت من الرجال والنساء حتى بداية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وانتهاءاً بابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ/ 1678م) في شذراته التي تتضمن مختارات من رموز آل البيت حتى القرن الحادي عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وقد حاولنا ذكر نشاطاتهم في مجال الحياة العامة وخاصة الحياة العلمية في الفقه والحديث والقضاء والأدب والرواية والتصوف ومن برز منهم في النقابة وإمارة الحج والحسبة والإفتاء والتدريس وإمامة المساجد وغيرها من الأعمال ذات النفع العام للمجتمع مثل المهن والحرف.

فإن ابن سعد كما هو معروف – يركز على الصحابة والتابعين من أهل التقوى والديانة والعلم أكثر من ذكره أهل السياسة والإدارة. وبقدر تعلق الأمر بآل البيت فقد تضمنت طبقاته زوجات الرسول ﷺ وبناته وعدد من العلويين والعباسيين ممن اشتهر بالعلم والحديث حيث يذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- فاطمة بنت علي بن أبي طالب: وهي محدثة روي عنها[38].
- زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس: كانت من أفاضل النساء وحدثت عن أبيها[39].
- علي بن عبد الله بن عباس: توفي بالشام سنة 117هـ كان ثقة الحديث[40].
- محمد بن الحنفية: توفي سنة 81هـ/ كان محدثاً[41].
- أبو جعفر محمد (الباقر) بن علي بن الحسين: توفي 118هـ كان ثقة كثير العلم والحديث[42].
- أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية: صاحب علم ورواية وكان ثقة قليل الحديث[43].
- معاوية وإسماعيل ابنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: وهما محدثان[44].
- حسين بن زيد بن علي بن حسين: ولحسين أحاديث[45].
- ويتضمن كتاب البستي (ت 354هـ/ 965م) الموسوم (مشاهير علماء الأمصار) في أجزائه التسعة أكثر من ثمانين شخصية من علماء بني هاشم ومحدثيهم ورواتهم.
- أما كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت 453هـ/ 1061م) من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فقد حوى في أجزائه الأربعة عشر حوالي 140 عباسياً وأكثر من 30 علوياً (حسينياً وحسنياً وجعفرياً). وإذا تركنا جانباً الرموز من آل البيت من السابقين الأولين نلاحظ أن الخطيب البغدادي يركز على المحدثين والفقهاء والقضاة وغيرهم مما

نشطوا في مجالات الحياة المدنية إلا أنه لا يهمل الخلفـاء والشخـصيات السياسية المهمة. ونشير على سبيل المثال إلى الشخصيات التالية:

- محمد بن اسحق الهاشمي الخطيب:

كان يلي الصلاة يوم الجمعة في المسجد الجامع بـدار الخلافـة وصـلاة الأعياد، توفي سنة 312هـ[46].

- محمد بن احمد أبو علي الهاشمي القاضي:

كان يدرس ويفتي في جامع المدينة. وله تصانيف على المذهب الحنبلـي. توفي سنة 428هـ[47].

- محمد بن احمد بن المطلب بن عبد الله بن الواثق أبو أحمد الهاشمي:

حدث عن كثير من المحدثين وسمع منه في جامع المدينة[48].

- محمد بن إبراهيم (الإمام):

كان يلي إمارة الحج والسير بالمناسك إلى مكـة وإقامتهـا فـي خلافـة المنصور. توفي ببغداد سنة 185هـ[49].

- محمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي:

حدث بنيسابور بعد سنة 260هـ[50].

- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الحسيني العلوي:

سكن بغداد وحدث بها[51].

180هـ[61].

- محمد بن إبراهيم الإمام الهاشمي كان يلي إمارة الحج والسير الناس إلى مكـة وإقامة المناسك في خلافة المنصور عدة سنين توفي سنة 185[62].

- علي بن موسى بن جعفر، سمع أباه وعمومته وغيرهم. كان يفتـي فـي مسجد رسول الله توفي بطوس 203هـ[63].

- سليمان بن داوود العباسي الهاشمي روى عنه أحمـد بـن حنبـل تـوفي سنة 220هـ[64].

ويبدو من عشرات الأسماء الأخرى التي أوردها ابن الجوزي عن آل البيت أن غالبيتهم في رواية الحديث ومنهم من تولى القضاة والحسبة وإمارة البلدان وإمـــارة الحج والموسم والإفتاء والفقه، واشتهر بعضهم بالأدب والنحو والعلـوم اللـــسانية. ويشير ابن الجوزي إلى عدد من الشخصيات التـــي تولـــت نقابـــة الهاشـــميين أو الطالبيين، ويوصف بعضهم بالعلم والخطابة والتأليف.

وذكر ياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م) في معجم الأدبــاء عـــدداً مـــن رجالات آل البيت ممن كانت لهم معرفة بالنحو واللغة والأدب والشعر نشير إلـــى بعضهم:

- إبراهيم بن محمد... بن زيد بن علي بن الحسين بن علي صاحب كتـــاب "شرح اللمع" من أهل الكوفة له معرفة حسنة بالنحو واللغة والأدب وحظاً من الشعر (ت 466هـ)[65].
- إسماعيل بن الحسين بن محمد... بن جعفر الصادق المـــروزي العلـــوي النسابة. كان أديباً فقيهاً وله من التصانيف مثل كتاب بستان الشرف وكتاب غنية الطالب في أنساب آل أبي طالب[66].
- محمد بن احمد بن... الحسن بن الحسن بن علي، شـــاعر معلـــق وعـــالم محقق شائع الشعر نبيه الذكر[67].
- محمد بن محمد بن يحيى أبو العلاء العلوي. الفقيـــه الـــشافعي النحـــوي (ت 540هـ)[68].
- عبد الله بن أحمد... بن المأمون الهاشمي. لـــه أشـــعار حـــسنة فـــصيحة (ت 620هـ)[69].
- محمد بن احمد بن عبد الله بن عبد الصمد الهاشمي. قال جحظة: لم أر قط أحفظ منه ولا أجود شعراً (ت سنة 250هـ)[70].
- أما بن خلكان الذي عاش في القرن السابع الهجـــري (ت 681هـــــ/ 1282م) فقد حفظ لنا في كتابه "وفيات الأعيان وأنباء أبنا الزمان" بعض مـــشاهير

آل هاشم من عباسيين وعلويين وخاصة الخلفاء والأمراء والنقباء وبعض النساء من ذرية بني هاشم مثل سكينة بنت الحسين ونفيسة بنت أبي محمد الحسن بن زيد بن الحسن التي كانت من النساء الصالحات التقيات. وذكر محمد بن الحنفية مشيراً إلى إنه كثير العلم والورع. كما ذكر بعض نقباء آل البيت في بغداد وفي مصر.

- وتأتي مؤلفات شمس الدين الذهبي (748هـ/ 1347م) في مقدمة المصادر المعتمدة عن شخصيات آل البيت في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي وخاصة كتاب "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" وكتاب "أعلام النبلاء"، حيث ذكر في تاريخ الإسلام أكثر من مائة وخمسة وثلاثين عباسياً وأكثر من خمسة وستين طالبياً من علويين وجعفريين وعقيليين. كما أشار إلى عدد من شخصيات آل البيت في أعلام النبلاء منهم النقباء والمحدثين. ونشير هنا إلى ما ذكره عن احمد بن الظاهر بأمر الله الهاشمي العباسي البغدادي، أخي الخليفة المستنصر بالله. "وكان معتقلاً ببغداد (في عهد المستعصم) فلما استولى هولاكو على بغداد نجا وانضم إلى عرب العراق. فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر وفد عليه سنة 659هـ/ 1260م. فركب السلطان للقادة والقضاة والدولة وشق قصبة القاهرة ثم اثبت نسبه على القضاة وبويع... وهذا هو الخليفة الثامن والثلاثون من بني العباس"[71].

- وفي كتاب "فوات الوفيات" لمحمد بن شاكر الكتبي (ت 764هـ/ 1362م) من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي مجموعة من أعلام بني هاشم الذين برزوا في الحديث والفقه والرواية والأدب. بلغ عددهم حوالي الخمسين شخصاً.

- وفي طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ت 771هـ/ 1369م) والذي يتكون في طبعته القاهرية من عشرة أجزاء وينهج فيه على الطبقات ذكر

لمشاهير بني هاشم. وتزداد في الطبقات ألقاب الأقاليم والمدن بصورة ملحوظة فبالإضافة إلى ألقاب القرشي والهاشمي نلاحظ مثلاً البغدادي والبصري والانجي والاسترابادي. كما يلاحظ الإشارة إلى لقب (الشريف) في بعض الأقاليم الإسلامية. ويظهر أن منصب (نقيب الأشراف) بالديار المصرية كان منصباً واحداً يشمل كل بني هاشم[72].

- ويتضمن كتاب البداية والنهاية لابن كثير (ت 774هـ/ 1372) الكثير من تراجم بني هاشم حسب العهود الإسلامية المتتابعة بدءاً بفترة الرسول ﷺ ويتطرق في الجزء الخامس إلى زوجات الرسول ﷺوأولاده وتتابع الأجزاء التالية ذكر العديد من العلويين والعباسيين والجعفريين على توالي القرون. ويتكرر لقب "الشريف" عند ذكر عدد من الأشخاص، كذلك ذكر لقب "السيد الشريف" ونقيب الأشراف[73].
- أما ابن حجر العسقلاني (ت سنة 852هـ/ 1448م) فيضم كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة" أكثر من ثلاثين من ذرية بني هاشم من الرجال والنساء ممن كان لهم صحبة لرسول الله ﷺ. ويذكر زوجات الرسول ﷺ وابنته فاطمة وبنات العلويين والعباسيين كما يذكر شهيدين من شهداء آل البيت هما عون بن جعفر بن أبي طالب استشهد في خلافة عمر بن الخطاب وقثم بن العباس[74].
- ويبقى كتاب ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ/ 1678م) الموسوم "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" من أوسع كتب التراجم في القرن الحادي عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وقد ضم الكتاب بين دفتيه تراجم العديد من رجال ونساء بني هاشم عبر القرون الإسلامية المتتابعة. ويلاحظ في تراجمه ذكر الاسم مع النسب والإقليم أو المدينة والمذهب للشخصية المترجم لها في الكثير من الأحيان مثل:

1. إبراهيم بن احمد الحسيني العراقي الشافعي. من ولد موسى الكاظم. أجاز له ابن يعيش وابن راح وتفرد مع التقوى بالعلم والورع. توفي بالثغر سنة 728هـ وعمره ستين سنة(75).
2. إبراهيم بن أحمد الجعفري الدمشقي الحنفي. برع في الفقه وناب في الحكم ودرس. وتوفي سنة 774هـ(76).
3. محمد بن عبد القادر الجعفري النابلسي الحنبلي. قاضي القضاة العلامة(77).
4. عبد الله برهان الدين بن محمد الشريف الحسيني الشافعي الفرغاني. قاضي تبريز، كان جامعاً لعلوم شتى من الأصولية والمعقولات وهو عالم كبير. توفي سنة 743هـ(78).

- أما شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ/ 1496م) فيحتوي كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع بأجزائه الاثني عشر أكثر من 189 شخصية من بن هاشم بينهم أكثر من 16 امرأة.

وقد تفاوتت شخصيات آل البيت في مراتبهم خلال هذا القرن (التاسع الهجري)، فقد بلغ بعضهم مناصب رفيعة مثل الوزارة وإمارة مكة والمدينة وينبع ونقابة الأشراف، وكان منهم الفقيه واللغوي والأديب والخطاط والنحوي. وكان كثير منهم على مذهب الشافعي أو المالكي. وتكسب قسم منهم بالشهادة والقراءة والتعليم والوعظ وإمامة المساجد. كما ظهر من آل البيت مجموعة من النساء البارزات في مجتمع ذلك القرن حيث ذكرهن السخاوي في تراجمه. وسكن معظم آل الحسن في مكة، أما آل الحسين فقد كان سكناهم في المدينة المنورة وبعضهم في دمشق ومدن أخرى.

وتأسيساً على ما سبق من النماذج المنتقاة من مصادر القرون الإسلامية المتتابعة يمكننا أن نستنتج جملة من المظاهر التي اتصفت بها نشاطات آل البيت في مجالات الفكر والثقافة والعلوم النقلية والتصوف وكذلك في الحياة العامة ومرافقها

العديدة وفي الرتب والمناصب التي تقلدوها عبر هذه المسيرة في تاريخ المجتمع الإسلامي ككل وفي تاريخهم بوجه خاص.

ورغم أن هذه النماذج من المصادر التي اخترناها لا تعطينا فكرة واضحة تماماً، ولكنها تمكننا من التوصل إلى دلالات معينة عن مسيرة بني هاشم ونشاطاتهم حيث نلاحظ اهتمام كتب السير والطبقات بهم والتأكيد على الإشارة إلى مساهماتهم عبر القرون. كما يلاحظ انصراف غالبيتهم إلى حقول العلم والفكر والعقيدة بدل السياسة والإدارة والحسبة ونقابة الأشراف. كما وكان منهم الموسرين ولكن غالبيتهم كانوا من متوسطي الحال ومن الفقراء. ومن هنا جاء تكسبهم في العمل بوظائف التي أشرنا إليها سابقاً وكذلك بالتدريس في المدارس (الجامعات) والربط، والعمل كأئمة وخطباء والتكسب بالرواية والتأليف والكتابة وكذلك التكسب بالشعر والأدب، خاصة وأن عطاءهم (رواتبهم) المقررة من الدولة لم تكن مرتفعة في أغلب الأوقات وكانت تقطع أحياناً.

وسنقدم فيما يلي قوائم أسماء مختارة من ذرية بني هاشم من غير المتقدمين في الأعم الأغلب برزت في مجالات الحديث والرواية. العلم والفقه، الإمامة والخطابة في المساجد. القضاء، النقابة، التدريس، الأدب والشعر، الكتابة والتصنيف. وهذه القوائم لا تعطي فكرة دقيقة تماماً وكاملة وذلك لاعتمادها على مصادر منتقاة ولكنها تقدم فكرة صحيحة عن نشاطات بني هاشم والمجالات التي عملوا فيها خلال الفترة موضوعة البحث.

أمثلة المحدثات والمحدثون(79)

- فاطمة بنت الرسول محمد ﷺ.
- الإمام علي بن أبي طالب(80).
- الحسن بن علي(81).
- عبد الله بن العباس(82).
- عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم الإمام الهاشمي(83).

- عبد الوهاب بن العباس بن عبد الوهاب الهاشمي[84].
- الحسين بن علي بن أبي طالب[85].
- عبد الصمد بن موسى بن محمد الهاشمي[86].
- عبد الباقي بن محمد بن محمد أبو منصور الهاشمي (ت 448هـ)[87].
- عبد الودود بن عبد المتكبر بن هارون الهاشمي[88].(ت 172هـ).
- عيسى بن هارون بن برية الهاشمي[89].
- عيسى بن موسى بن أحمد الهاشمي[90]. (توفي 262هـ).
- عمر بن الفرج أبو عون الهاشمي البغدادي[91].
- موسى بن عبد الله بن موسى... الحسن بن أبي طالب[92].
- علي بن الحسين (زين العابدين)[93].
- زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب[94].
- أبو جعفر محمد بن علي بن حسين، توفي سنة 118 (الباقر): كان ثقة كثير العلم والحديث[95].
- علي بن عبد الله بن عباس[96]: كان ثقة قليل الحديث: البداية والنهاية، ج 9/ 320.- صفة الصفوة ج 2/ 76.
- الحسن بن محمد بن الحنفية: كان عالماً فقيهاً عارفاً بالاختلاف والفقه، ت 95هـ[97]. البداية والنهاية، ج 9/ 140.
- عبد الله بن عبيد الله بن عباس: كان ثقة وله أحاديث[98]: ابن سعد ج 5/ 314.
- العباس بن عبيد الله بن العباس[99]: ابن سعد ج5/ 315.
- جعفر بن تمام بن عباس بن عبد المطلب[100]: ابن سعد ج 5/ 316.
- عبد الله بن معبد بن عباس[101]: ابن سعد، ج 5/ 316.
- عبد الله بن محمد بن الحنفية (أبو هاشم): كان صاحب علم ورواية وكان ثقة قليل الحديث[102]: ابن سعد ج 5/ 327.
- عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[103]: ابن حجر، ج 2/ 289.

- معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[104]: ابن سعد ج 329/5.
- إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب[105]: ابن سعد ج 5/ 329.
- حسين بن زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب[106]: ابـن سـعد ج 434/5.
- فاطمة بنت علي بن أبي طالب: روي عنها وهي محدثة[107]: ابـن سـعد ج 8/ 465.
- عمر بن أحمد بن عمر الهاشمي[108].
- علي بم عبد الله بن إبراهيم الهاشمي (ت 415هـ)[109] الخطيب ج 12 / 8.
- علي بن محمد بن هارون الهاشمي (ت 355هـ)[110] الخطيب ج 12/ 82.
- علي بن محمد بن صالح الهاشمي (ت 420هـ)[111]: الخطيب ج 2/ 99.
- العباس بن عبد السميع بن هارون (331هـ)[112]: الخطيب ج 12/ 158.
- العباس بن أحمد بن الفضل الهاشمي الاهوازي (ت 405)[113]: الخطيـب ج 12/ 161.
- مهدي بن محمد بن العباس الهاشمي الطبري: قدم بغداد وحدث بهـا[114]: الخطيب، ج 13، ص 185.
- هارون بن العباس الهاشمي الإمام: (ت 275هـ)[115]: الخطيب ج 14/ 27.
- هارون بن عيسى أبو جعفر الهاشمي المنصوري[116]: الخطيب، ج 28/14.
- هارون بن عيسى بن المطلب الهاشمي (ت 373)[117]: الخطيب ج 14/ 34.
- هاشم بن القاسم بن هاشم الهاشمي (ت 319هـ)[118]: الخطيب ج 14/ 68.
- هبة الله بن عبد الوهاب.. الهاشمي[119]: الخطيب ج 14/ 69.
- أبو يعقوب بن سليمان بن أبي جعفر المنصور[120]: الخطيب ج 14/ 409.
- زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس: كانـت مـن أفاضـل النساء وحدثت عن أبيها[121]: الخطيب ج 14/ 434.

- زينب بنت سليمان بن أبي جعفر المنصور: حدثت عن أبيها وروى عنها أخوها يعقوب[122] الخطيب ج 14/ 435.
- يونس بن يحيى الهاشمي الازجي القصار المجاور (ت 680هـ)[123] (سير أعلام النبلاء، ج 12/22).
- العباس بن هارون بن سليمان بن أبي جعفر المنصور الهاشمي[124]: الخطيب ج 12/ 157.
- محمد بن احمد بن عبد الله بن الواثق الهاشمي: حدث عن كثير من المحدثين وسمع عنه في جامع المدينة[125]: الخطيب ج 1/ 62.
- محمد بن احمد أبو الفضل الهاشمي: ورد بغداد وحدث بها[126]: الخطيب ج 1/ 375.
- أبو الحسن علي بن احمد بن محمد بن عمر العلوي البغدادي الشافعي المحدث (ت 575هـ): الإمام الحافظ القدوة العابد أحد الأئمة الزهاد العباد كان عالماً حافظاً عارفاً. حدث عن أبن ناصر والسجزي[127]: السيوطي 481.
- سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس: حدث عن أبيه وغيره. وولي الموسم[128] (فوات الوفيات ج 2/ 70).
- المسند السيد الأمير أبو محمد الحسن بن الأمير السيد علي بن المرتضى العلوي الحسني البغدادي ت 630هـ[129]: سير أعلام النبلاء ج 22/ 344.
- ابن أبي الفخار الشريف المعمر أبو التمام على الهاشمي العباسي البغدادي[130]. كان خطيباً محدثاً (ت 641هـ).- سير أعلام النبلاء ج 23/ 90.

أمثلة من العلماء والفقهاء والأدباء والمتكلميين والمتصوفة والأئمة والخطباء والمؤلفين من غير المتقدمين:

- عبد الواحد بن محمد المهتدي بالله أبو أحمد الهاشمي ت 318هـ كان راهب بني هاشم صلاحاً وورعاً[131]. الخطيب ج 11/ 6.
- الفضل بن عبد الملك أبو عبد الله الهاشمي. كان إمام جامع الرصافة وصاحب الصلاة بمكة والمدينة[132]. الخطيب ج 12/ 275.
- عمر بن الفضل بن عبد الملك الهاشمي ت 307هـ كان يتولى الصلاة في جامع الرصافة[133]، الخطيب ج 11/ 222.
- علي بن الحسين بن موسى (المرتضى) كان شاعراً ومتكلماً له تصانيف على مذاهب الشيعة[134]، الخطيب ج 11/ 402.
- أبو الحسن العلوي البغدادي كان صوفياً[135]، الخطيب ج 14/ 428.
- العباس بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب. كان عالماً شاعراً فصيحاً[136]، الخطيب ج 12/ 126.
- مطلب بن إبراهيم بن عبد العزيز أبو هاشم الهاشمي ت 322هـ كان خطيباً في جامع المهدي[137]، الخطيب ج 13/ 271.
- أبو القاسم أحمد بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم طباطبا بن حسن بن حسن. كان شاعراً في الزهد والغزل ت 345هـ[138] (وفيات الأعيان ج 129/1).
- محمد الطاهر أبو الحسن (الشريف الرضي) المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر. اشعر قريش 406هـ ببغداد[139]، الخطيب ج 414/4.
- محمد بن محمد بن زيد بن علي العلوي الحسيني البغدادي. أفضل علوي في عصره وله معرفة تامة بالحديث وبرع بالخطبة ورزق حسن التصنيف وأملى في بغداد. استشهد سنة 480هـ[140]، السيوطي 445.
- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن عمر.. بن الحسن العلوي البغدادي الشافعي المحدث، ت 575 هكان عالماً حافظاً عارفاً[141]، السيوطي 481.

- الحافظ شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي الشريف الحسيني ت 765هـ. خرج لنفسه معجماً وجمع رجال السند وألف عدة مؤلفات في الحديث والتاريخ والرجال وله تعليقات وشروح[142]، السيوطي 533.
- أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الجرجاني الإمام الحافظ الثبت شيخ الإسلام كبير الشافعية بناحيته، ت 371هـ. كان واحد عصره وشيخ المحدثين والفقهاء. كان ذا جلالة ومروءة وسخاء(143)، السيوطي 382.
- أبو الحسن على الهادي بن محمد بن علي الرضا: كان عابداً زاهداً، البداية والنهاية ج 15/11.
- الشريف أبو جعفر الحنبلي عبد الخالق بن عيسى... بن معبد بن العباس الهاشمي، كان أحد الفقهاء والعلماء العباد والزهاد(145)، البداية والنهاية ج 19/12.
- يحيى بن إسماعيل الحسيني، أن فقيهاً على مذهب الزيدية وعنده معرفة بالأصول والحديث (ت 479هـ)[146] البداية والنهاية ج 132/12.
- الحسن بن شرف شاه أبو محمد العلوي الحسيني الاستراباذي. مدرس الشافعية بالموصل (ت 715هـ)[147] طبقات الشافعية، ج 407/9.
- علي بن احمد بن جعفر بن علي... بن جعفر بن أبي طالب (ت 701هـ) كان محدثاً عالماً[148] طبقات الشافعية، ج 131/10.
- عبد الله بن محمد بن جعفر بن المهدي ويعرف (بابن المعتز): قتل سنة 296هـ. الأديب صاحب الشعر البديع والنثر الفائق. نصبوه خليفة بعد أن عزلوا المقتدر ووافق شرط ألا يقتل بسببه مسلم ولقب بالمرتضى بالله أو المنصف بالله أو الغالب بالله وبقي يوم وليلة. ثم أن أصحاب المقتدر تحزبوا مع أعوان ابن المعتز وشتتوهم وأعادوا المقتدر إلى الحكم. فسلم المقتدر عبد الله بن المعتز إلى القائد مؤنس الخادم الذي قتله،[149] فوات الوفيات ج 2/ 239.

- علية بنت المهدي العباسي: كانت من أعقل النساء ذات صيانة وأدب بارع، لها ديوان شعر[150]، فوات الوفيات 35/ 123.
- محمد بن صالح بن عبد الله الحسني: حبسه المتوكل مع جماعة من آل أبي طالب ثلاث سنين، وكان رواية أديباً شاعراً[151]، فوات الوفيات، ج 3/ 392.
- عائشة بنت جعفر الصادق الحسيني العلوي[152]، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، المجلد الأول، 91.
- إبراهيم بن الفضل الهاشمي اللغوي، أقام بنيسابور سنة 375هـ[153]، ياقوت، ج 92/1.
- عبد الله بن أحمد بن علي بن هبة الله بن المأمون الهاشمي، له أشعار حسنة فصيحة، توفي سنة 620هـ(154)، ياقوت ج 149/4.
- محمد بن احمد بن عبد الله بن عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي. قال جحظة "لم أر قط أحفظ منه ولا أجود شعراً". توفي سنة 250هـ(155) ياقوت ج 2297/5.
- أبو علي الحسن بن جعفر بن عبد الصمد بن المتوكل على الله العباسي الهاشمي المقرئ الأديب الحنبلي (ت 554هـ)[156] شذرات الذهب ج 4، ص 171.
- إبراهيم بن محمد... بن زيد بن علي زين العابدين... والد أبي البركات عمر النحوي صاحب كتاب (شرح اللمع) من أهل الكوفة له معرفة حسنة بالنحو واللغة والأدب وحظ من الشعر، وتوفي سنة 466هـ بالكوفة[157] ياقوت، ج 125/1.
- إسماعيل بن الحسين بن محمد... بن جعفر الصادق المروزي العلوي، النسابة الحسيني، كان أديباً فقيهاً وله من التصانيف مثل كتاب (بستان الشرف) وكتاب (غنية الطالب نسب آل أبي طالب) ولد سنة 572هـ(158). ياقوت ج 652/2.

- الحسين بن علي بن داعي بن زيد العلوي النيسابوري، أبو عبد الله الحسني النسابة فاضل معروف. توفي سنة 513هـ(159). ياقوت ج 3، ص 1106.
- علي بن أحمد العفيفي العلوي. ذكره أبو جعفر الطوسي في مصنفي الأمامية. وله كتاب النسب وكتاب المدينة[160]. ياقوت، ج 1644/4.
- أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي(161) مؤسس المذهب المعروف باسمه. وكان من قريش من بني هاشم ولذلك يعد من ذريَّة آل البيت.

ولد سنة 150هـ/ 767م، في غزة هاشم وتربى على يد أمه في بيئة فقيرة في مكة. وقضى الشافعي سنوات عديدة بين البدو وبذلك حصل على ثروة لغوية عميقة في اللغة العربية الفصحى والشعر العربي القديم. أما في مكة فقد درس الحديث والفقه على يد مسلم الزنجي وشعبان بن عيينة وكان حافظاً للموطأ. وفي حوالي السنة العشرين من عمره ذهب إلى المدينة المنورة ودرس على يد أنس بن مالك حتى وفاة هذا الأخير سنة 179هـ/ 796م. الشافعي إلى اليمن وهناك اتصل بالعلويين ثم شارك في حركة يحيى بن عبد الله الحسني واعتقل وأرسل إلى ثم ذهب إلى العراق وقابله الرشيد في الرقة وعفى عنه.

وفي العراق كون علاقات ودية مع محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ) وعمل مدرساً في بغداد سنة 195هـ ومن هناك عرج إلى مصر سنة 198هـ/ 814م وبقي فيها حتى وفاته سنة 204هـ/ 820م.

ويعد الشافعي مؤسس (علم أصول الفقه) لأنه من أوائل من تكلم في أصول هذا العلم وأول من استنبطه. وقد حاول وضع قواعد معينة للقياس ورفض الاستحسان رفضاً باتاً. وكان للشافعي مرحلتين تميزنا بالفاعلية: الأولى في العراق والثانية في مصر. ووضع العديد من الرسائل والكتب مثل (الرسالة) وكتاب الأم. وقد أثر الشافعي تأثيراً واضحاً على جيله والأجيال التي تلته. ونلاحظ أن عدداً من العلماء المشهورين كانوا من الشافعية نذكر منهم النسائي (ت 303هـ) الأشعري (ت 324هـ) الماوردي (ت 450هـ) الغزالي (ت 505هـ).

لقد طور الشافعي مدرسة الحديث وذلك من خلال إدخاله أصولاً عقلية إلى مفاهيم هذه المدرسة وكذلك من خلال دفاعه عن أصول هذه المدرسة ولإقامة الحجة ضد مخالفيها ولذلك قال علماء مدرسة الرأي:

"إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي".

وقد ألف الشافعي الكتب في مناقشة أصحاب مدرسة الرأي والرد عليهم مثل كتاب (اختلاف العراقيين) وكتاب (الرد على محمد بن الحسن الشيباني) وغيرهما.

لقد حصل الشافعي بسبب نشاطاته المتميزة في العلوم النقلية على ألقاب ذات دلالة مثل (ناصر الحديث) و(محيي السنة). وعدّه أحمد بن حنبل الرجل الذي يقيضه الله تعالى للأمة على رأس كل قرن من الزمان يعلمهم السنن. ولعل من الأدوار البارزة التي قام بها الإمام الشافعي هو محاولة تضييق الفجوة بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي وكانت له كما أشرنا علاقات جيدة مدرسة رؤوس الرأي مثل محمد بن الحسن الشيباني. وكان شديد التحذير من مغبة التعصب والتزمت في الرأي.

- **الشريف الإدريسي (ت سنة 560هـ/ 1164م)[162]:**

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي. ولد في سبتة سنة 493هـ/ 1100م وينتمي إلى بيت الأشراف العلويين الأدارسة المعروف بالمغرب العربي الأقصى. والذين حكموا جزءاً من المغرب ابتداءاً من القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد ولمدة حوالي قرنين من الزمان، ومن هنا جاءت تسميته (بالشريف) ولقبه الإدريسي.

كما حكمت أسرته ما لقا في الأندلس ولكنهم لم يتمكنوا من الإبقاء على سلطتهم فهاجروا إلى سبتة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

تلقى الشريف الإدريسي تعليمه الأولي في قرطبة ثم سافر إلى أوربا وشمالي إفريقيا، ويبدو أنه بدء رحلاته في عمر مبكر لا يتجاوز السادسة عشرة سنة. فقد

زار آسيا الصغرى والساحل الجنوبي لفرنسا وانكلترا ثم تجول في الأندلس (اسبانيا) ومراكش (المغرب الأقصىَ).

وفي حوالي سنة 533هـ/ 1138م تلقى الإدريسي دعوة من الملك النورماندي روجر الثاني للمجيء إلى (صقلية) والاستقرار هناك قائلاً له: "انك تنتهي إلى بيت الخلافة. فإذا عشت بين المسلمين فإن حكامهم سيتآمرون على قتلك. أما إذا بقيت معي فستكون آمناً". وقد تقبل الإدريسي هذه الدعوة وبقي في بلاطه حتى آخر سنوات حياته، حيث عاد إلى سبتة بعد وفاة روجر في سنة 549هـ/ 1154م، وقد توفي في سنة 560هـ/ 1166م.

ويبدو أن دعوة روجر للشريف الإدريسي لم تكن فقط لحمايته من أعدائه في (دار الإسلام) بقدر ما كانت لتحقيق مآرب وطموحات سياسية كان يخطط لها النورماندي لتوسيع دولته في شمالي إفريقيا. فالأخبار التي أوردها الإدريسي في كتابه تذكر أن روجر كان له أسطولاً بحرياً قوياً في البحر الأبيض المتوسط وأنه نجح في احتلال جزيرة جربة (في تونس) سنة 529هـ/ 1134م وطرابلس الغرب سنة 540هـ وصفاقس 543هـ وبونة والمهدية. وكان الملك النورماندي يرغب في استغلال الشريف الإدريسي واسطة لمد نفوذه في الأقاليم الإسلامية وللتفاهم مع أهل البلاد من المسلمين. هذا بالإضافة إلى أن صقلية وأهلها كانوا يمتلكون ثروة ثقافية عربية- إسلامية غنية التقت وامتزجت بالثقافة الأوروبية. وفي هذا الجو المشحون بالمعرفة بدأت قدرات الشريف الإدريسي تتفتح حتى برز عالماً جغرافياً ومختصاً متميزاً بالخرائط.

كان روجر الثاني مولعاً بعمل خارطة للعالم وطلب من الإدريسي انجاز هذا العمل، وبدأ الإدريسي بعمل خارطة دائرية للعالم من الفضة، مستعيناً بخبرته ومشاهداته وبالمصادر الإسلامية الموجودة لديه وكذلك بكتاب الجغرافيا لبطليموس. وقد ثمن روجر عمله وأعطاه مكافئته بالفضة. ومما يؤسف له أن تكون الخارطة قد ضاعت ولكن نسخة مصغرة لها حفظت ضمن نسخة لمخطوط في مكتبة بودليان

في أكسفورد هو "نزهة المشتاق". ثم طلب روجر من الشريف الإدريسي بعد انجازه خارطة العالم أن يكتب له كتاباً عن جغرافية العالم، وتلبيــة لهــذا الطلــب كتــب الإدريسي كتابه الموسوم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق".

يعد "نزهة المشتاق" مصدراً زاخراً بالمعلومات عن جغرافية العالم الوصــفية والبشرية والثقافية والسياسية. ولم يقدم جغرافي مسلم قبل الإدريسي وبعده معلومات ثرة كتلك التي قدمها الإدريسي.

ولعل أوثق المعلومات وأدقها عند الإدريسي تلك التي تخص أوروبا وحــوض البحر المتوسط وشمالي إفريقيا وغربي وأواسط آسيا. كما وأن البحرية النورماندية زودته بمعلومات دقيقة عن مساحات ومقاييس الخلجــان الموجــودة فــي البحــر المتوسط.

ويمكن القول بأن مساهمات الشريف الإدريسي في ميدان الجغرافية والخرائط، تمثل نموذجاً فريداً للتعاون العربي – النورماندي نتج عنــه تطــور ملحــوظ فــي المعرفة الجغرافية. وقد ترجم كتابه "نزهة المشتاق" باختصار إلى اللاتينيــة ســنة 1028هـ/ 1619م ونشرت نسخة مختصرة من الأصل العربي قبــل ذلــك ســنة 1001هـ/ 1592م. كما ترجم كاملاً بجزئين إلى الفرنسية في منتصف القــرن 19 الميلادي. وألّف الإدريسي كتاباً آخر لوليم الأول ابن روجر الثاني بعنوان "روضة الأنس ونزهة النفس" وهو كتاب في الجغرافية لم يبق منه إلا قطع صغيرة. وكــان الإدريسي قد ألف قبل ذلك في علم الأحياء كتاباً سماه "الجامع لأشتات النبــات". إن هذه الانجازات جعلت الأوروبيين يطلقون عليه لقب (سترابون العرب).

الهوامش

(1) السيوطي، جلال الدين، إحياء الميت في فضائل آل البيت، بيروت 1987، ص 5 فما بعد.- بشر فارس، لفظة الشرف في (مباحث عربية) مصر، 1939.- محمد عبده يماني، علموا أولادكم محبة آل البيت، جدة، 1992، 26-32 دائرة المعارف الإسلامية، مادة (شرف).

(2) انظر ابن سلام، طبقات الشعراء، مصر، السعادة، ص 19.- ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 317. راجع كذلك بشر فارس، تاريخ لفظة الشرف، في مباحث عربية، مصر 1939، ص 97.

(3) الواحدي، أسباب النزول، مصر، 1315هـ، ص 221.

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج 9، ص 369.

(5) القرآن الكريم، سورة 49، آية 13.

(6) البخاري، صحيح، ج2، 145.- كذلك بشر فارس، المرجع السابق، ص 98.

(7) الابشيهي، المستطرف، مصر، 1348هـ، ج 2، ص 16.

(8) البيهقي، المحاسن والمساوئ، طبعة جيسن، 1900، ص 106.- كذلك بشر فارس، المرجع السابق، ص 102.

(9) راجع: ابن قتيبة، كتاب العرب، ص 281.

(10) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج 1، ص 239.- انظر كذلك الابشيهي، المستطرف، ج 1، ص 183 "قيل للأحنف بن قيس: بم سدت قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً...".

(11) الماوردي، الاحتكام السلطانية، بغداد، 1898، ص 153.

(12) المصدر نفسه.- ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م الخامس ج1، البصرة، 1970، 145 فما بعد.

(13) المارودي، المصدر السابق، ص 154 فما بعد. راجع كذلك محمد حسين محاسن، صفحات من تاريخ آل البيت، 112- 118. أحمد حسين يعقوب، الهاشميون في الشريعة والتاريخ، ص 360 فما بعد.

(14) ابن الدبيثي، ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد (مخطوطة مكتبة الدراسات العليا، كلية الآداب، جامعة بغداد) ج 2، ورقة 27.

(15) الكازروني، مقامة في قواعد بغداد، مجلة المورد، بغداد م 8، ص 84.- شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العهد العثماني، بيروت، 1986، ج 2، ص 123.

(16) ابن جبير، الرحلة، بيروت، 1981، ص 181.

(17) ابن الجوزي، المنتظم، ج 7، ص 226 فما بعد.

(18) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 8، ص 24 فما بعد.

(19) ابن الجوزي، المنتظم، ج 8، ص 38 فما بعد.- عبد المجيد بدوي، التاريخ السياسي والفكري، القاهرة، 1988، ص 61، فما بعد.

(20) الغساني، المصدر السابق، ص 637 فما بعد.

(21) راجع: محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الإسلام، مصر، 1995م.

(22) عن عبد القادر الجيلاني وطريقته، راجع:

من المصادر: علي بن يوسف الشطنوتي: بهجة الأسرار ومدرك في مناقب القطب الرباني.. الجيلاني، مصر، د.ت. الشعراني، الطبقات الكبرى، مصر 1954.- عبد القادر الجيلاني، فتوح الغيب، مصر، 1960.

إبراهيم الدروبي، المختصر في تاريخ شيخ الإسلام.. الكيلاني، باريس، د.ت.

(23) عن احمد الرفاعي وطريقته، راجع:

من المصادر: عبد الله بن سعد اليافعي، نشر المحاسن في فضائل المشايخ الصوفية، القاهرة، 1961.- يوسف بن إسماعيل النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ليبيا، 1991.- احمد الرفاعي، الحكم الرفاعية، بغداد 1990.- محمد مهدي الشويخي، بوارق الحقائق، ليبيا، د.ت.

من المراجع: يونس السامرائي، السيد أحمد الرفاعي، بغداد، د.ت.- نيكلسون، في التصوف الإسلامي، (مترجم) القاهرة، 1959. Rifa'yya[1]. E.I

آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج 1، ص 333، 348.

(24) راجع: أبو السعادات الشجري (القرن السادس الهجري)، الامالي، الانتصار، الحماسة (مخطوطات). التفتازاني، مدخل إلى التصوف، ص 241- 243.- نجم الدين الكيلاني، أئمة التصوف والدين، ص 35- 42.- عن أحمد البدوي راجع ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب 602- 605. أحمد حجاب، العظة والاعتبار، القاهرة، د.ت. عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر، 1995. عبد العليم محمود، السيد أحمد البدوي، القاهرة 1969.

(25) صباح الشيخلي، الأصناف، ص 61- 62، 121.

(26) ابن المقفع، رسالة في الصحابة، القاهرة، 1964.

(27) المصدر نفسه، ص2.

(28) الطبري، تاريخ، القسم الثالث، ص 444 (الطبعة الأوروبية).

(29) أبو شجاع الروذراوري، ذيل تجارب الأمم، ج 3، ص 207 فما بعد. كذلك ابن الأثير، الكامل ، ج9، ص 415.

(30) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص 153.- صباح الشيخلي، الأصناف، ص 67 فما بعد.

(31) فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة، الشارقة، 1983، 31 فما بعد.

(32) متز، المرجع السابق، ج 1، ص 264 فما بعد.

(33) المرجع السابق.

(34) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، حيدر آباد، 1951، ج 8، ص 523.- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، ص 223.

(35) ابن جبير، الرحلة، ص 181.

(36) ابن العبري، مختصر الدول، بيروت، د.ت. ص 254.

(37) ابن الساعي، نساء الخلفاء، د.ت. ص 111 فما بعد.- مصطفى جواد، سيدات البلاط العباسي، بيروت، د.ت. ص 172 فما بعد.

(38) ابن سعد، الطبقات، ج 8 ص 465.- ابن حجر، الإصابة، ج 8، 157.- الذهبي، أعلام النبلاء، ج 2، ص 118، 125.

(39) ابن سعد، الطبقات، ج 14، 434.

(40) ابن سعد، الطبقات، ج5، 312.

(41) المصدر السابق، ج5، 91.

(42) المصدر السابق، ج5، 320.

(43) المصدر السابق، ج5، 327.

(44) المصدر السابق، 329.

(45) المصدر السابق، ج5، 343.

(46) الخطيب البغدادي، ج1، 248.

(47) الخطيب البغدادي، ج 1، 354.

(48) الخطيب البغدادي، 362.

(49) الخطيب البغدادي، ج 1، 384.

(50) الخطيب البغدادي، ج 2، 37.

(51) الخطيب البغدادي ج2، 37.

(52) الخطيب البغدادي، ج2، 113.

(53) الخطيب البغدادي، ج 2، 126.

(54) الخطيب البغدادي، ج 2، 134.

(55) الخطيب البغدادي، ج 7، 162.

(56) الخطيب البغدادي، ج 7، 323.

(57) الخطيب البغدادي، 219.

(58) الخطيب البغدادي، ج 8، 268.

(59) الخطيب البغدادي، ج 8، 268.

(60) الخطيب البغدادي، ج 8، 294.

(61) نفسه، ج 9، 49.

(62) نفسه البغدادي، ج9، 109.

(63) نفسه، ج 10، 120.

(64) نفسه، ج 11، 59.

(65) ياقوت الحموي، ج1، 125.

(66) ياقوت الحموي، ج 2، 652.

(67) ياقوت الحموي، ج 5، 3210.

(68) ياقوت الحموي ج6، 2643.

(69) ياقوت الحموي، ج1، 92.

(70) ياقوت الحموي، ج 5، 2297.

(71) الذهبي، أعلام النبلاء، ج 23، 168.

(72) السبكي، طبقات الشافعية، ج 10، 137.

(73) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14، 49، ج 12، 119.

(74) ابن حجر، الاصابة، ج3، 44، 227.

(75) شذرات الذهب، ج 6، 80.

(76) شذرات الذهب، ج7، 230.

(77) شذرات الذهب، ج6، 328.

(78) شذرات الذهب، ج6، 139.
(79) ابن سعد، طبقات، ج8، 15 كذلك ابن حجر الإصابة، ج 8، 157.
(80) ابن ســعد، ج2، 337.- ج3، ص 19- 32، الخطيــب البغــدادي، ج1، 133،.-
ابن حجر ج 2، 437.- ياقوت الحموي، ج 4 1809.
(81) الخطيب البغدادي، ج 1، 139.- ابن كثير، ج 6، 219.
(82) ابن سعد، ج2، 365.- الخطيب البغدادي، ج1، 173.
(83) الخطيب البغدادي، ج 11، 25.
(84) المصدر السابق، ج 11، 29.
(85) المصدر السابق، ج 1، 142.- ابن كثير، ج 6، 229.
(86) المصدر السابق، ج 11،41.
(87) المصدر السابق، ج 11، 90.
(88) المصدر السابق، ج 11، 140.
(89) المصدر السابق، ج 11، 175.
(90) المصدر السابق، ج 11، 138.
(91) المصدر السابق، ج 11، 203.
(92) المصدر السابق، ج 11، 135.
(93) ابن سعد، ج 5، 211.
(94) ابن سعد، ج5، 318.
(95) ابن سعد، ج 5، 320.
(96) ابن سعد، ج 5، 312.
(97) ابن كثير، ج 9، 140.
(98) ابن سعد، ج 5، 314.
(99) ابن سعد، ج 5، 315.
(100) ابن سعد، ج5، 316.
(101) ابن سعد، ج 5، 316.
(102) ابن سعد، ج 5، 327.
(103) ابن حجر، ج 2، 289.
(104) ابن سعد، ج 5، 329.

(105) ابن سعد، ج5، 329.

(106) ابن سعد، ج 5، 434.

(107) ابن سعد، ج 8، 465.

(108) الخطيب البغدادي، ج 11، 276.

(109) المصدر السابق، ج 12، 8.

(110) المصدر السابق، ج 12، 82.

(111) المصدر السابق، ج 12، 99.

(112) المصدر السابق، ج 12، 158.

(113) المصدر السابق، ج 12، 161.

(114) المصدر السابق، ج 13، 185.

(115) المصدر السابق، ج 14، 27.

(116) المصدر السابق، ج 14، 28.

(117) المصدر السابق، ج 14، 34.

(118) المصدر السابق، ج 14، 68.

(119) المصدر السابق، ج 14، 69.

(120) المصدر السابق، ج 14، 409.

(121) المصدر السابق، ج 14، 434.

(122) المصدر السابق، ج 14، 435.

(123) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 22، 12.

(124) الخطيب البغدادي، ج 12، 127.

(125) المصدر السابق، ج 1، 62.

(126) المصدر السابق، ج 1، 375.

(127) السيوطي، تاريخ، 481.

(128) فوات الوفيات، ج 2، 70.

(129) الذهبي، سير، ج 22، 344.

(130) المصدر السابق، ج 23، 90.

(131) الخطيب البغدادي، ج 11، 6.

(132) المصدر السابق، ج 12، 275.

(133) المصدر السابق، ج 11، 222.

(134) المصدر السابق، ج 11، 402.

(135) المصدر السابق، ج 14، 428.

(136) المصدر السابق، ج 12، 126.

(137) المصدر السابق، ج 13، 271.

(138) ابن خلكان، ج 1، 129.

(139) الخطيب البغدادي، ج 4، 414.

(140) السيوطي، 445.

(141) المصدر السابق، 481.

(142) المصدر السابق، 533.

(143) المصدر السابق، 382.

(144) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 11، 15.

(145) المصدر السابق، ج 12، 119.

(146) المصدر السابق، ج 12، 132.

(147) السبكي، طبقات الشافعية، ج 9، ص 407.

(148) المصدر السابق، ج 10، 131.

(149) فوات الوفيات، ج 2، 239.

(150) المصدر السابق، ج 35، 123.

(151) المصدر السابق، ج 3، 392.

(152) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية م1، 91.

(153) ياقوت الحموي، ج 1، 92.

(154) ياقوت الحموي، ج 4، 1490.

(155) ياقوت الحموي، ج 5، 2297.

(156) شذرات الذهب، ج 4، 171.

(157) ياقوت الحموي، ج 1، 125.

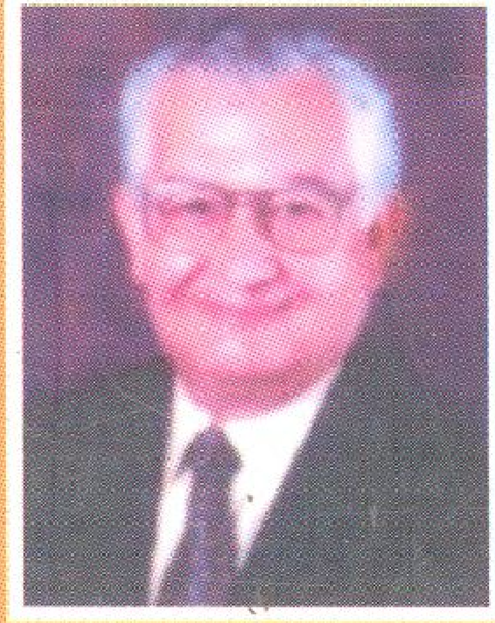
(158) ياقوت الحموي، ج 2، 652.

(159) ياقوت الحموي، ج 3، 1106.

(160) ياقوت الحموي، ج 4، 1644.

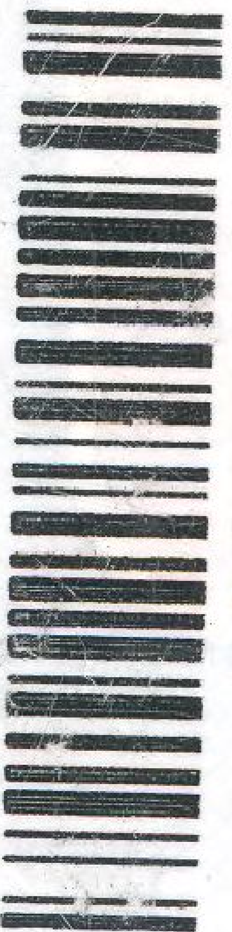
(161) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج 9، 67.- الخطيب البغـدادي، ج 2، 59.- البخـاري، التاريخ، ج 1، 42، الذهبي، سير، ج 10، 12.- محمد أبـو زهـرة، الـشافعي، القاهرة، 1953م.

(162) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج 31، 319 فما بعد.- سيد مقبول أحمد، تاريخ الجغرافية العربية الإسلامية، المفرق، 1995م. (بالانكليزية).



أ. د. فاروق عمر فوزي

- ولد في الموصل بالعراق.
- حصل على بكالوريوس شرف بالتاريخ من جامعة بغداد.
- نال شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن. بانكلترا (المملكة المتحدة).
- قام بالتدريس في جامعة بغداد وجامعة الرياض وجامعة الإمارات العربية المتحدة وجامعة لانكاستر (بريطانيا) وكلية الآداب (مصراته. ليبيا) وجامعة آل البيت (المفرق. الأردن) وجامعة السلطان قابوس (سلطنة عمان).
- كتب في الانسكلوبيديا الإسلامية والانسكلوبيديا البريطانية والموسوعة الفلسطينية والكتاب المرجعي (تاريخ الأمة العربية) بإشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/ تونس. وموسوعة التاريخ الثقافي والعلمي للبشرية. اليونسكو. باريس. وموسوعة مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية. جامعة الرياض. وموسوعة حضارة ال... وزارة الثقافة. العراق. بغداد. وأصدر له مركز زايد للتراث والتاريخ الموسوعة ال... (العين -دولة الإمارات العربية المتحدة).
- ألف في التاريخ الإسلامي عامة والتاريخ العباسي وتاريخ عُمان بوجه...
- يعمل حالياً أستاذا للتاريخ الإسلامي ومشرفاً على طلبة الدراسات العليا ورئيساً... التاريخ. جامعة السلطان قابوس. مسقط. سلطنة عُمان.



Dar Majdalawi Pub.& Dis

Telefax : 5349497 - 5349499

P.O.Box : 1758 Code 11941

Amman - Jordan



دار مجدلاوي للنشر والتوزيع

تليفاكس : ٥٣٤٩٤٩٧ - ٥٣٤٩٤٩٩

ص.ب : ١٧٥٨ الرمز ١١٩٤١

عمان - الاردن

www.majdalawibooks.com

E-mail:customer@majdalawibooks.com

ISBN 978-9957-02-339-3 (ردمك)